سيّد أمير علي
مؤلف "روح الإسلام"

مختصر تاريخ العرب

نقله إلى العربيّة
عفيف البعلبكي

دار العلم للملايين



سيّد أمير علي
مؤلف «روح الإسلام»

مختصر تاريخ العرب

نقله إلى العربية
عفيف البعلبكي

دار العلم للملايين
ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت

دار العلم للملايين

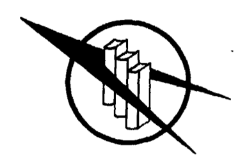
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

١٩٦١

إعادة طبع ٥

تموز/يوليو ١٩٩٠

الفصل الأول

بلاد العرب — جغرافيتها وحالتها الطبيعية — العرب القدماء .

بلاد العرب :

بلاد العرب شبه جزيرة واسعة في الجنوب الغربي من قارة آسية ، تحدها من الشمال صحراء سورية ، ومن الشرق الخليج الفارسي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب البحر الأحمر . وهذه الرقعة الواسعة من الأرض ، التي تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسة في أوج عظمتها، تنقسم إلى عدة أجزاء او أمصار ، يختلف أحدها عن الآخر من حيث تربته ومناخه ومظهر سكانه .

ويقع في شماليها القسم المؤلف من التلال ، والذي كان يقطنه في الازمنة القديمة الأدوميون والمديانيون الذين ورد ذكرهم في التوراة . ثم يلي ذلك الحجاز ، ومن مدنه « المدينة » او « يثرب » ، كما كانت تسمى في الازمنة القديمة ، و « مكة » ، مسقط رأس النبي العربي ، وميناء جدة ، حيث ينزل الحجاج المسلمون من البواخر الى البر . والحجاز يمتد من الشمال الى الجنوب بين البحر الأحمر وسلسلة الجبال

الممتدة من مضيق السويس الى المحيط الهندي . أما الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة فتسمى بلاد اليمن ، ويطلق اسم « تهامة » على سهول الحجاز واليمن ، وهو يطلق أحياناً على القسم الجنوبي من الحجاز . وتقع حضرموت شرقي اليمن ، على ساحل المحيط الهندي ، بينما تقع عُمان بعيداً الى الشرق من حضرموت على الخليج المسمّى باسمها ، أي خليج عُمان . وأما الاراضي المرتفعة التي تمتد من جبال الحجاز شرقاً الى صحراء الأحساء والبحرين على الخليج الفارسي فتدعى بلاد نجد ، وهي هضبة فسيحة ذات صحارى ومضائق جبلية انتشرت فيها مزارع خضراء تسمى بالواحات وتشكل عدداً كبيراً جداً من الملاجىء الأمينة في الصحراء .

وهذه الرقعة الفسيحة من الارض خالية من الأنهار الصالحة للملاحة ، ولكنّ النهيرات المنتشرة هنا وهناك هي التي تعطي التربة خصبها . أما الامطار فقليلة ، والبلاد بوجه عام قاحلة ومجدبة ، إلا حيث توجد المياه بكمية وافية ؛ غير أنه حيثما وجدت المياه اشتد خصب الارض ، فأراضي بلاد اليمن المرتفعة ، وتسمى ايضاً جبالَ اليمن ، تعلو حتى يكاد ارتفاعها يبلغ ارتفاع جبل « مون بلان » ، وتنشطرُ إلى كثيرٍ من الأودية الفسيحة الخصبة حيث يزرع البن والنيلة والنخيل والخضر واشجار الفاكهة من كل صنف ولون . وأما المناخ فمعتدل ، ولو أن وقوع الصقيع في الشتاء ليس شيئاً غير مألوف اطلاقاً ؛ وتسقط الامطار في فصلي الربيع والخريف .

أما الحجاز فبلادٌ كثيرة الوعورة ، وبخاصة بالقرب من مكة التي تقع على بعد خمسين ميلاً من شواطىء البحر الأحمر ، ونحو من ثلاثين ميلاً من روابي « جبل القرى » الصوانية . هنا يجد المرء الصخور الجرداء التي تعكس اشعة الشمس الملتهبة ، والأودية المجدبة إلا من قليل من الكلأ لا يكاد يقوم بأود الانعام التي ترعى فيها . غير أنه

الى الشرق من هذه البلاد الجرداء رقعةٌ مزدهرة مكسوّة بالخضر والأشجار الظليلة ، ينبت فيها التفاح والتين والرمان والخوخ والعنب بكثرة ، وتعرف بالطائف .

العرب القدماء

استوطن بلادَ العرب في مختلف الأزمنة أجناس مختلفة . ويقال إن اقدم من استوطن تلك البلاد كانوا من الاصل نفسه الذي ينتمي اليه الكلدانيون القدماء ، وكانوا قد بلغوا شأناً عظيماً في الحضارة لا تزال آثاره ظاهرة في جنوبي الجزيرة ، والمفروض أنهم بسطوا سلطانهم حتى على مصر وما بين النهرين ، كما يظهر أنهم شيدوا قصوراً ومعابد ضخمة ، واليهم يعزى بناء « سد مأرب » الذي لا يزال قائماً حتى يومنا هذا بالقرب من عدن .

القحطانيون

وانما قضى على هؤلاء القوم القدماء قبيلةٌ من الجنس الساميّ نزحت من بلاد ما إلى الشرق من الفرات واستوطنت اليمن وبعض انحاء حضرموت . ويقال ان تلك القبيلة كانت من سلالة قحطان ، أو « جوتان » ، الذي أُطلق اسم أحد أولاده « يعرب » على تلك البلاد وسكانها . اما ملوك هذه الاسرة فيعرفون بـ « السبئيين » ، نسبة إلى حفيد يعرب ، عبد شمس ، الملقب بـ « سبأ » . ولقد كان ملوك قحطان غزاةً فانحين اشتهروا ببناء المدن ، واستمرت دولتهم في اليمن وأجزاء اخرى من الجزيرة العربية حتى القرن السابع الميلادي .

الاسماعيليون

ويعرفُ آخر اولئك المستوطنين بـ « الاسماعيليين » نسبةً إلى

اسماعيل ، ولد ابراهيم الذي كان يقطن بالقرب من مكة ، وانتشرت ذريته في الحجاز ؛ فبنوا مجد الجزيرة العربيـة وعظمتها . والمقول أن اسماعيل هو الذي بنى الكعبة ، المعبد الذي يقدسه العربُ منـذ أقدم العصور ، والذي يعتبر اليوم أقدسَ بقعةٍ في العالم الاسلامي كله ، وفيه الحجر الأسود المشهور .

البدو

وكان سكان جزيرة العرب وما يزالون يقسمون دائماً إلى قسمين : سكان المدن ، وهم الحضر ؛ وسكان الصحراء ، وهم البدو . وهؤلاء يعيشون في بيوت من الشعر ، ويتنقلون مع اسرهم وانعامهم في البوادي والهضاب طلباً للمرعى .

والذي يبدو أنّ شمالي جزيرة العرب وأواسطها لم تخضع لأي حـكم أجنبي في أي وقت من الاوقات ، غير أن اليمن وحدها خضعت لسلطة الأحباش فترة قصيرة من الزمن انتهت بطردهم على يدي أحـد رؤساء القبائل العربية « سيف بن ذي يزن » ، بمساعدة ملك الفرس ، فولى هذا عليها حاكماً فارسياً لقبُه « المرزبان » ، واستمر حكم فارس مدة قرن او اكثر .

ديانتهم

ولقد بقي كل من المسيحيين واليهود ، الذين استوطنت اعداد كبيرة منهم بلاد العرب ، على دينهم ، ولكن العرب انفسهم كانوا في معظمهم يعبدون الاوثان والنجوم . وكان لكل مدينة ، كما كان لكل قبيلة ، آلهتها ، والاهاتّها ، ومعابدها ، وطقوس عبادتّها الخاصة بهـا . ففي مكة وحدهـا ، التي كانت تعتـبر مركز الحياة الوطنيـة في بـلاد العرب ، شأن روما وبينارس ، كان ينتصب حول الكعبة ٣٦٠ صنماً

تمثل جميع الآلهة والالهات التي كان العرب يعبدونها ، كما ان تقديم القرابين البشرية لهذه الاصنام لم يكن أمراً نادر الوقوع .

وكان الناس الذين استوطنوا هذه البلاد الفسيحة الارجاء ، وبصورة خاصة اولئك الذين كانوا يهيمون في الصحراء الواقعة الى الغرب من الفرات ، يعرفون عند اليونان والرومان باسم « سراسين » ، وهذا هو الاسم الذي اطلقه عليهم الغربيون عندما خرج هؤلاء من اوطانهم لفتح العالم .

والمعتقد ان كلمة « سراسين » مشتقة اما من كلمة « صحارى » ، او من كلمة « نازحين » ، او من كلمة « شرقيين » .

الفصل الثاني

التاريخ القديم – قصي – عبد المطلب – هجوم الاحباش
مولد محمد – رسالته – الهجرة

التاريخ القديم

ان المعلومات التي نملكها عن التاريخ القديم لبلاد العرب مستقاة في معظمها من القرآن الذي يتضمن الكثير من الأدب الشعبي لهذه البلاد ، ومن الروايات الشفوية التي كان مـن عادة العرب في جميع الأزمنة والعصور تناقلها من السلف إلى الخلف . ولقد اهتم المؤرخون العرب في القرن الثامن الميلادي وما تلاه بجمع تلك الروايات بدقة وجد ، فضلاً عن أن الكتابات والنقوش التي اكتشفت في جنوبي اليمن ، والرموز التي تم حلها منها ، تثبت إلى حد كبير تلك المعلومات التي استقيناها عن الماضي من القرآن والروايات .

قريش

وانما نُعنى نحن هنا بدراسة تاريخ عرب الحجاز واليمن ، وبتتبع تطوراتهم ، ذلك انهم حققوا لأنفسهم شهرة واسعة في العصور الوسطى.

ولقد كانت أهم قبائل الحجاز قبيلة قريش التي تحدرت من « فهر » الملقب بـ « قريش » ، ومعناها باللغة العربية القديمة : تاجر . وقـــد عاش فهر في القرن الثالث الميـــلادي ، وكان من سلالة « معد » بن « عدنان » من نسل اسماعيل . ولقـــد كانت قريش تعتز دائماً بنسبها وتفتخر بمنزلتها السامية بين القبائـــل الاخرى ، وتُعتبر اشرف العرب جميعاً .

وفي القرن الخامس تمكن قصيّ ، من ذرية « فهر » ، من بسط سلطته على مكة ، واصبح ، تدريجيـــاً ، سيّد الحجاز كله . وكانت مكة ، حتى زمن حكمه ، قرية تتألف في معظمها من اكواخ وبيوت من الشعر منتثرة هنا وهناك ، فأعاد قصيّ بناء الكعبـــة وأنشأ لنفسه قصراً اطلق على أكبر قاعاته اسم « دار الندوة » ، وفيها كان يجلس للقضاء بين الناس . كذلك جعل الناسَ يبنون مساكنهـــم من الحجارة حول الكعبة ، وسنّ القوانين والأنظمة لحـــكم الناس حكماً صالحاً ، ولجمع الضرائب وتعيين الرفادة والسقاية للحجاج الذين كانوا يفدون إلى مكة من اجزاء كثيرة من جزيرة العرب لممارسة شعائرهـــم الدينية في الكعبة .

عبد الدار

ومات قصيّ سنة ٤٨٠ م . فخلفه ابنه عبد الدار . وعندمـــا مات عبد الدار نشب خلاف بين أحفاده وأبناء اخيه عبـــد مناف حول من يتولى حكم مكة من بعده ، ولكنّ الخلاف حُسِم بالاتفاق على اقتسام السلطة ، فتولى عبد شمس ، أحد أولاد عبـــد مناف ، سقايـــة مكة وجمع الضرائب ، بينما تولى أحفاد عبـــد الدار سدانة الكعبة والندوة والعُقاب .

هاشم وعبد المطلب

وتنازل عبد شمس عن السلطة لأخيه هاشم ، وكان تاجراً عظيماً في مكة ، ذا مقام مرموق وشهرة باكرام الضيف ، ولكن هاشماً ما فتىء أن توفي عام ٥١٠ م فخلفه اخوه « مطلب » الملقب بـ « الكريم » ، وتوفي هذا أيضاً في أواخر عام ٥٢٠ م . فخلفه ابن أخيه عبد المطلب ابن هاشم .

اميّة

وكان احفاد عبد الدار في الوقت نفسه يزدادون ثروة وغنى ، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا يحسدون بني هاشم على منزلتهم الرفيعة ، وحاولوا انتزاع السلطة والاستئثار بحكم مكة كلها من دونهم ، فوقف بجانبهم امية بن عبد شمس ، وكان رجلاً طموح النفس ، غير ان عبد المطلب ، بالنظر الى سمو منزلته ورفيع مكانته ، تمكّن بالرغم من هذا كله من الاستمرار في حكم مكة زهاء تسع وخمسين سنة ، وكان يساعده في حكمه الشيوخ الذين كانوا على رأس الأسر الرئيسية العشر .

عام الفيل

وفي عهد عبد المطلب أغار على الحجاز جيش جرار من الأحباش بقيادة « أبرهة » . واذ كان « ابرهة » عند زحفه على مكة يمتطي فيلاً لم يسبق للعرب أن رأوا مثله قط من قبل ، فقد عُرف العام الذي وقع فيه هذا الغزو (٥٧٠ م) في الروايات العربية بعام الفيل . غير أنّ القوة المغيرة لم تلبث ان هلكت بسبب انتشار مرض وبائي بين أفرادها من ناحية ، وبسبب هبوب عاصفة هوجاء من المطر والبرد اكتسحت الوادي الذي كان الاحباش يعسكرون فيه .

وكان لعبد المطلب ابناء وبنات عديدون ، واشتهر من ابنائه في تاريخ العرب اربعة هم : عبد مناف الملقب بأبـي طالب ، والعباس جد الخلفاء العباسيين ، وحمزة ، وعبد الله . وكان لعبد المطلب ايضاً ابن اسمه أبو لهب ذكر في القرآن لاضطهاده الاسلام والمسلمين . اما عبد الله ، اصغر ابناء عبد المطلب ، فهو أبو النبي العربي ، تزوج من آمنة احدى بنـات يثرب ، ولكنه توفي وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره ولم يكن قد مضى على زواجه وقت طويل . وبعد بضعة ايام من وفاته وضعت آمنة [1] ولداً اسماه جده « محمداً » ، ولكن محمداً ما لبث أن فقد أمه وهو في السادسة من عمره فكفله جده عبد المطلب الذي توفاه الله اليه عام ٥٧٩ م . فكفل محمداً عمه ابو طالب الذي خلف عبد المطلب في حكم مكة . وقضى محمد ايام طفولته في بيت عمه ابـي طالب ، وكان هذا رقيق القلب شديد العطف على الفقراء والمساكين واليائسين ، محبوباً جداً من حاشيته الصغيرة ، ومع ذلك فان ابا طالب لم يعرف في بداية ايامه الراحة من عناء العمل ، ذلك أنه لم يكن غنياً شأن أسلافه ، فكان على افراد اسرته الصغار ان يتناوبوا رعاية الغنم .

وكان محمد يميل منذ صباه الباكر إلى التأمل والتفكّر ، وقد سافر مرتين مع عمه ابـي طالب الى سورية حيث رأى رأيَ العين مـا كان عليه اهلها من بؤس وانحطاط خلقي وخصام وشحناء . وعنـدما بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوج محمد من خديجـة التي اشتهرت في تاريخ العرب بنبل خصالها ؛ فرزقا عدة اطفال توفي الذكور منهم في سن الطفولة ، في حين أطال الله اعمار الاناث ليشهدن الاحداث الجسام التي تمت في حياة ابيهن . ولقد تزوجت صغراهن فاطمة ، الملقبـة بـ « الزهراء » والتي يدعوها المسلمون « سيدتنا » ، من علي بن ابـي

١ – ٢٩ آب سنة ٥٧٠ م .

طالب .

عاش محمد عيشة هادئة جداً طوال الخمس عشرة سنة التالية ، ولم يظهر ابانها في الحياة العامة إلا مرة أو مرتين . وقد أحيا محمد «العصبة» التي كانت قد تألفت قبل ذلك بسنوات عديدة لحماية الأرامل والايتام ومساعدة الغرباء ، كما أنه تمكن بسرعة خاطره من حسم نزاع كان يهدد بعواقب خطيرة [1] . غير أنه بالرغم من أن هاتين الحادثتين هما كل ما نعرف عن حياته العامة ، فاننا نعلم أن وداعته والطهارة الصارمة التي تميزت بها حياته ، وأمانته التي لا يرقى اليها الشك ، وشعوره المرهف بالواجب ، قد اكسبته ، طيلة هذه المدة ، لقب « الأمين » من مواطنيه . وكان من أميز صفاته وأخصها حبه للاطفال الذين كانوا يتحلقون به كلما خرج من بيته ، والمقول أنه لم يكن يمر بهم اطلاقاً من دون أن يبتسم لهم ابتسامته الوديعة . وكان محمد ينفق شهراً من كل عام في عزلة يقضيها في التأمل والتريّض الروحي في غار حراء بالقرب من مكة . وذات ليلة ، بينما كان في الغار ، خاطبه ربه وأمره بأن ينهض وينذر قومه ، ومنذ ذلك الحين وقف محمد حياته على رفعهم من خطتهم وحملهم على الاقلاع عن شرورهم وآثامهم ، وتعليمهم واجباتهم ازاء اخوانهم في الانسانية .

رسالته

وكانت زوجته خديجة أول من آمن برسالته واطرح عبادة الاوثان ، ثم تلاها علي وعدد من مشاهير الرجال : ابو بكر وحمزة وعثمان . ولما

---

١ - عندما تنازع اشراف مكة على أيهم يرد الحجر الأسود الى مكانه من الكعبة حكم الرسول بينهم وأرضاهم جميعاً بأن فرش رداءه على الارض فوضع الحجر فيه وطلب اليهم ان يمسك كل منهم بطرفه وهكذا نالوا جميعاً شرف رفعه .

بدأ محمد دعوته سخرت منه قريش ، ولكنها عندما ايقنت من أنه كان جاداً فيها انقلبت عداوتها الى اضطهاد وتعذيب ، فأخذت تسيء معاملته وتسوم اتباعه صنوف العـذاب ، وفتكت ببعضهم حتى اضطر الكثيرون منهم الى الالتجاء الى الحبشة ، في حين بقي الآخرون يتحملون الاذى والاضطهاد الى جانب محمد . ولما مات أبو طالب وخديجة بعد ذلك بوقت قصير ضاعفت قريش من أذاها حتى يئس محمد من النجاح بين المكيين واختار ميداناً آخر لتبليغ رسالته،فاتجه الى الطائف ، ولكن اهلها حصبوه وردوه عن مدينتهم فعاد ادراجه الى مكة حزيناً اشد الحزن ، وعاش فيها فترة من الزمن ، منعزلاً عن قومه ، لا يبشر الا بين حين وآخر ، قاصراً معظم جهوده على الغُرباء الذين كانوا يفدون الى مكة في موسم الحج ، آملاً ان يكون بينهم من يستمع الى اقواله ويقلع عن شروره وعاداته غير الانسانية .

وهكذا آمن بمحمد نفر من اهل يثرب جاءوا الى مكـة ، فقبلوا رسالته وبايعوه على ان لا يعبدوا الاوثان ، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا اولادهم [1] ولا يفتروا على الناس . وعندما عاد هؤلاء اليثربيون الى مدينتهم اذاعوا خبر ظهور نبي بين العرب لهدايتهم سواء السبيل ، وهكذا جاء عدد منهم في العام التالي يكررون بيعتهم الاولى ، وفي عام ٦٢٢ م . ارسل اهل يثرب وفداً يدعوه للعيش في مدينتهم ، ولمـا كانت يثرب مدينة منافسة لمكة فقد اثار نبأ هذه الدعوة وخبر البيعـة غضب قريش على النبي واتباعه ، فنجح عدد غير قليل منهم في الفرار الى يثرب حيث استقبلوا بعطف كبـير . وما ان علمت قريش بذلك حتى دبرت مؤامرة لاغتيال الرسول ، وكان قد بقي في مكة مع ابي بكر وعليّ . وعنـدما وقف على ما كانت قريش تبيت له ، وأحس بالخطر ، التجـأ هو وابو بكر الى غار بالقرب من مكة ، بعد ان

---

١ – كان الوأد ، وهو دفن البنات ، شائعاً بين العرب في الجاهلية .

خلّف علياً وراءه فيها . ولما علمت قريش بفرارهما شرعت في تعذيب عليّ وخرجت في طلبهما ، ولكنها لم تستطع العثور على الغار الذي كان قد لجأ اليه النبي مع صاحبه وأقاما فيه يومين اثنين . وفي مساء اليوم الثالث غادرا الغار ثم حصلا على راحلتين ركباهما مسرعيْن الى يثرب فوصلاها يوم الجمعة ، الثاني من شهر تموز سنة ٦٢٢ م . ، ولم يلبث ان لحق بهما عليّ .

ان عملية الخروج هذه تدعى « الهجرة » وبها أرّخ المسلمون سنتهم ودعوها السنة الهجرية .

الفصل الثالث

١ – ١٠ هـ ؛ ٦٢٢ – ٦٣٢ م

محمد في المدينة – الفتن في المدينة – الصحيفة

المدينة

استقبل اهل يثرب الرسول واصحابه المكيين ، الذين هجروا وطنهم من اجل دينهم ، استقبالاً حماسياً رائعاً ، وابدلوا اسم مدينتهم «يثرب» فدعوها « مدينة النبي » ، أو « المدينة » اختصاراً ، فأخذت تعرف به منذ ذلك الحين . كذلك بُني مسجد من الآجر والتراب ، وسُقف بسعف النخيل . ولقد ساعد محمدٌ نفسُه في بناءِ هذا المسجد المتواضع حيث شرع يبشر فيه بدينه البسيط ، ولم يكتف بتعليم النـاس عظمة الخالق ووحدانيته فحسب ، بل انصرف ايضاً الى وضع الاسس والمبادىء الاخلاقية القوية ، والتبشير بالمحبة الاخوية ، والعطف على الاطفـال ، والبر بالارامل والايتام والرفق بالحيوان .

صحيفة النبي

في ذلك الحين كان يقطن يثرب قبيلتـان استحكم الخصام والخلاف

بينها منذ عهد طويل ، فألغى الرسول كل تمييز قبَلِيّ وجمع سكان المدينة تحت اسم واحد هو «الانصار» ، كما اطلق على المكيين الذين هاجروا معه من مكة اسم « المهاجرين » .

ولم يكن للعرب في الآونة التي نتحدث عنها هنا أي قانون أو نظام في ايما مدينة من مدنهم ، بل كانت الخصومات والمنازعات قائمة بين مختلف طوائفها على قدم وساق ، كما كانت الفتن تعصف بها والفوضى تتأكلها ، وهكذا جعل محمد همه الأول إحلال النظام في المدينة ، وتنظيم الادارة على اساس قويم صالح ، فوضع الصحيفة التي قضى بها على الخصومات الدموية جميعاً وعلى الفوضى والفتن ، وساوى اليهود الذين كانوا يقطنون المدينة وضواحيها بالمسلمين في الحقوق ، على أن يكونوا هم من ناحيتهم ملزمين بمساعدة المسلمين على الدفاع عن المدينة .

وهكذا فان محمداً اصبح الآن لا رسولاً معلماً فحسب ، بل الرئيس الاعلى للمدينة التي دعاه اهلها واتباعه للعيش بينهم فيها ، ووكلوا اليه سلامة مدينتهم ، فكان واجبه ان يكون متيقظاً ابداً للقضاء على الخصومات وقطع دابر الخيانة .

وقعة بدر

وقد اشتد غضب المكيين على اهل المدينة لإيوائهم الرسول واتباعه الذين كانوا يعتبرونهم من الثوار ، وهكذا لم يكن مفرٌ من نشوب النزاع بينهم وبين اهل المدينة ، فنشب اول قتال بين الفريقين في وادي بدر ، على بضعة أميال من المدينة ، فهزم المكيّون تاركين وراءهم عدداً كبيراً من الأسرى بين ايدي المسلمين فأحسن هؤلاء معاملتهم .

السنة الثالثة الهجرية — ٢٦ نيسان ٦٢٤ م

وكان من شأن السنة الثانية للهجرة ان تنقضي بهدوء في المدينة لولا

الغارات التي كان المكيون يشنونها على المدينة بين حين وآخر . وفي السنة الثالثة وصل ابو سفيان بن حرب بن امية ، اعظم منافس لبني هاشم ، الى اطرف المدينة على رأس جيش كبير من المكيين وحلفائهم ، وكان المسلمون الذين خرجوا لصد هجومهم قليلي العدد ، فنشبت معركة عند سفح جبل يدعى «جبل احد» هُزم فيها اهل المدينة ، غير ان خسائر المكيين كانت مع ذلك كثيرة جداً بحيث لم يتمكنوا من مهاجمة المدينة فعادوا الى مكة . وأخذ اليهودُ الذين كانوا يقيمون في المدينة وفي القرى المحصنة من حولها يثيرون المتاعب ، وأصبحوا مصدراً لخطر دائم على الدولة الفتية ، وكانَ اولئك القاطنون في المدينة نفسها جواسيس للمكيين ، وكثيراً ما نجمت عن دسائسهم ومكائدهم الفتنُ واراقة الدماء ، ولذلك أمر النبي باجلاءِ قبيلتين من تلك القبائل اليهودية التي كانت تقطن ضواحي المدينة ، وهما بنو قينقاع وبنو نضير .

وفي السنة الخامسة للهجرة غزا المكيون المدينة مرة ثانية بجيش كبير قوامه عشرة آلاف رجل ، ولم يتمكن المسلمون لصد هذا الزحف الهائل من ان يجمعوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل ، ولذلك حفروا بأمر من النبي ، خندقاً حول القسم المكشوف من المدينة ، واعتمدوا في الدفاع عن الاقسام الاخرى على بني قريظة ، وهي قبيلة يهودية كانت تملك عدة حصون قوية بجوار المدينة من جهة الجنوب ، وموالية للمسلمين بموجب معاهدة بينها وبينهم .

خيانة اليهود

غير ان هؤلاء اليهود ما لبثوا ان نقضوا عهدهم وانضموا الى اهل مكة في هجومهم على المدينة . واستمر الحصار زمناً طويلاً ، ولكن يقظة النبي احبطت كل جهود المكيين لدخول المدينة ، وأخيراً تضافرت العوامل الطبيعية مع المحاصَرين ضد القوة المحاصِرة ، اذ هطلت

الأمطار وهبت العواصف فقُتِلت خيولُهم وقلت مؤونتهم وتشتت جيش المكيين كما تجمع من قبل .

بنو قريظة

عند ذلك اعتبر المسلمون بقاءَ تلك القبيلة الغـــادرة قريباً جداً من المدينة أمراً غير مأمون ، ذلك ان غدرها يمكن في اي لحظة ان يكون سبباً في تدمير المدينة . وهكذا أُمِروا بالجلاء عن اماكنهم ، وعنـــدما رفضوا الاذعان للأمر حوصروا واجبروا في النهاية على التسليم دون قيد او شرط ، اللهم الا شرطاً واحداً : ان يترك امر عقابهم لحكم سعد ابن معاذ ، وكان جندياً بطلاً تركت فيه المعركة جروحاً مات على اثرها في اليوم التالي فعلاً ؛ واذ اسخطته خيانـــة اليهود فقد اصدر حكمه القاضي بقتل رجالهم المحاربين وسبي نسائهم واطفالهم ، فنفذ فيهم حكمه .

لقد كان هذا الحكم صارماً بالنسبة الى تفكيرنا اليوم ، ولكنه كان شيئاً عادياً بالنسبة الى قوانين الحروب التي كانت سائدة في ذلك الحين .

وبعد فشل المكيين اخذ الدين الجديد ينتشر انتشاراً سريعا في شبـــه الجزيرة ، وشرعت القبائل تطّرح شِركها الواحدة تاو الاخرى وتدخل في دين الاسلام .

وثيقة النبي للنصارى

وفي السنة السادسة للهجرة اعطى النبي رهبان دير « سانت كاترين » ، بالقرب من جبل سيناء ، والنصارى بوجه عام ، وثيقة تعتبر آية من آيات التسامح . في هذه الوثيقة أمن النبي للنصارى امتيازات مهمّة ، وحرّم على المسلمين تحت طائلة العقاب الشديد مخالفةَ ما نصت عليه تلك الوثيقة التي تعهد فيها النبي نفسه ، وألزم اتبـــاعه ، بالذبّ عن

النصارى ، وحمايتهم من كل انواع الاذى ، والدفاع عن كنائسهم واسقفياتهم ، وألا تُفرض عليهم ضرائب غير عادلة ، وألا يُخرج اسقف من اسقفيته ، ولا يُكره احد منهم على ترك دينه ، وألا يُجلى راهب عن رهبانيته ، وألا يُمنع حاجٌ من اداء فريضة حجه ، وألا تُهدم كنائسهم من اجل بناء مساجد او بيوت للمسلمين . ونصت هذه الوثيقة ايضاً على ان النساء المسيحيات المتزوجات من رجال مسلمين يحق لهن البقاء على دينهن فلا يتعرضن لأيما اكراه او ازعاج من اي نوع بسبب من ذلك ، وأنّ على المسلمين ان يساعدوا النصارى في اصلاح كنائسهم وأديرتهم او في اي امر آخر يتصل بدينهم ، اذا كانوا بحاجة الى هذه المساعدة .

البعثات الى الخارج

كذلك ارسل محمدٌ رسلاً الى ملك الفرس وامبراطور الروم يدعونهما الى الاسلام فأحسن امبراطور الروم استقبالهم وأكرم وفادتهم ، واما ملك الفرس فقد طردهم من حضرته بغلظة وفظاظة ؛ كما ارسل النبي رسولاً آخر الى احد امراء النصارى الخاضعين لامبراطورية الروم بالقرب من دمشق فقتله الامير شر قتلة .

وقعة خيبر

وفي السنة السابعة للهجرة ثار يهود خيبر ، ولكنّ النبي سريعاً ما اخمد ثورتهم ، ثمّ أمّنهم على اراضيهم وممتلكاتهم وسمح لهم بممارسة دينهم بحرية ، لقاء جزية يدفعونها للمسلمين .

وبموجب عهد عقده النبي مع اهل مكة سُمح للمسلمين بزيارة الكعبة ، وبموجبه ايضاً اخلى المكيون مدينتهم لئلا يحتكوا بمحمد واتباعه ، وبعد ثلاثة ايام عاد المسلمون الى المدينة وعاد المكيون الى مساكنهم

في مكة

غير انه لم تمض فترة وجيزة حتى أغار المكيون وبعض حلفائهم غدراً على قبيلة متحالفة مع المسلمين ، وفتكوا بعدد كبير منهم ، فالتجأت هذه القبيلة الى النبي الذي استجاب الى ندائها في الحال وسيّر اليها جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل . ولم يلق الجيش سوى مقاومة ضئيلة من بيتين اثنين ، ولولا ذلك لدخل مكة دون مقاومة . وهكذا دخل محمدٌ المدينة التي طالما آذته وعذبته ، وها هي الآن في قبضة يده وتحت رحمته ، غير انه نسي في ساعة انتصاره وظفره كل اذى ناله ، وصفح عن كل اساءة لقيها واعطى الأمانَ لأهل مكة جميعاً ، باستثناء اربعة حوكموا وحكم عليهم بالموت لجرائم ارتكبوها عند دخوله مدينةَ الدّ اعدائه . وقد حذا الجنود حذو النبي فدخلوا مكة بسلام فلم يسرقوا بيتاً ولم يهينوا امرأة . ولقد قيل ، وبحق ، « ليس في تاريخ الفتوحات فتحٌ كهذا الفتح المظفر المبين . » ولكنَّ الأصنام حطمت دونما رحمة او شفقة ، ووقف المشركون يشاهدون زوال الاوثان التي كانوا يعبدونها . وعندئذ اشرق عليهم فجر الحق عندما سمعوا ذلك الصوت القديم الذي طالما ضحكوا منه يدوي قائلاً : « لقد جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقاً » فما كان اعجز آلهتهم واتفهها !

سنة الوفادة

تعرف السنة التاسعة للهجرة في تاريخ المسلمين بسنة الوفادة ، بالنظر الى قدوم عدد كبير من الوفود من جميع ارجاء الجزيرة العربية للدخول في دين الاسلام . وكان كبار الصحابة ، وزعماء المدينة ، بطلب من النبي نفسه ، يستقبلون هذه الوفود في منازلهم ، ويحسنون ضيافتهم بالكرم الذي عرف به العرب من قديم الأزمنة . وعند رحيلهم كان النبي يزودهم بنفقات الطريق ، كما كان يتحفهم بالهدايا كل على قَدَرِه .

وكثيراً ما كان النبي يعقد معهم المعاهدات الخطية التي تضمن الامتيازات لقبيلتهم ، وكان دائماً يرسل مع كل وفد معلماً يفقههم في امور دينهم ويطهرهم من رجس وثنيتهم القديمة . وكان النبي دائماً يوصي المعلمين الذين كان يرسلهم الى الامصار المختلفة قائلاً لهم : «يسّروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ؛ وانكم ستقدمون على قوم من اهل الكتاب يسألونكم : ما مفتاح الجنة ؟ فقولوا : هو قول الحق وعمل الخير » . [1]

وعندما توالت الوفود من بلاد العرب على مكة لاعتناق الاسلام شعر محمد بأنه قد اكمل مهمته ، وبأنه قد قارب منيته ، فعزم على اداء حجة الوداع الى مكة ، وهكذا غادر النبي المدينة في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة (٢٣ شباط سنة ٦٣٢ م) وصحبه عدد غفير من المسلمين . وعند وصوله الى مكة في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة (٧ آذار) وقبل اكمال جميع مناسك الحج ، اعتلى جبل عرفات وخاطب الجموع المحتشدة بكلمات لا تزال حية في قلوب المسلمين جميعاً .

خطبة الوداع

« ايها الناس ، اسمعوا قولي ، فاني لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابداً .

« ايها الناس ، ان دماءكم واموالكم عليكم حرام الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا . وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن اعمالكم وقد بلّغت . فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ؛ وان كل ربا موضوع [2] ، ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ؛ قضى الله ان لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب

---

١ — « شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . »

٢ — موضوع : مهدر

موضوع كله ، وان كل دم في الجاهلية موضوع ، وأن اوّل دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

« اما بعد ايها الناس فان الشيطان قد يئس من ان يُعبد بأرضكم هذه ابداً ، ولكنه ان يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من اعمالكم فاحذروه على دينكم .

ايها الناس : انمـــا النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرّم الله ، ويحرمـــوا ما احلّ الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلـــق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها اربعة حُرُمٌ ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان .

« اما بعد ايها الناس فان لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن ألاّ يوطِئن فُرُشكم احداً تكرهونـــه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مُبَيِّنَة ، فان فعلن فـــان الله قد أذن لكم ان تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح . فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عنـــدكم عوانٍ [1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم انما اخذتموهن بأمـــانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

« فاعقلوا ايها الناس قولي فاني قد بلّغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا ابداً امراً بيّنا : كتاب الله وسنة رسوله .

« ايها النـــاس اسمعوا قولي واعقلوه . تَعلَمُنَّ ان كل مسلم اخ للمسلم ، وأن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمُنّ انفسكم .

« اللهم هل بلغت » .

وبعد ان عاد محمد الى المدينـــة انصرف الى تنظيم أمور الأمصـــار

١ = عوان : اسرى او كالاسرى ، الواحدة عانية .

والقبائل ، فأرسل عماله إلى الامصار ومختلف القبائل يعلمون الناس فرائض الاسلام ، ويقيمون العدل ، ويجمعون الزكاة .

وقد امتازت ايام النبي الأخيرة بهدوء باله وصفاء ذهنه ، مما مكنه ، بالرغم من ضعفه وفقدان قوته ، من أن يصلي بالناس الى ما قبل ثلاثة ايام من وفاته . وفي ذات ليلة ذهب في منتصفها الى المقابر التي كان يرقد فيها اصحابه القدماء فبكاهم واستغفر لهم ، ثم وقع اختياره على بيت عائشة [1] ، لقربه من المسجد ، كي يمضي فيه فترة مرضه ، وظل يؤم المسلمين في الصلاة ما وجد في جسمه القوة التي تعينه على ذلك . وفي المرة الأخيرة التي ظهر فيها في المسجد شوهد معتمداً على ابني عمه « علي بن ابي طالب » و « الفضل بن العباس » ، فلما فرغ من صلاته وحمد الله وأثنى عليه خاطب الناس قائلاً :

« ايها الناس من كنت جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقر مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقر منه ، ومن اخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخش الشحناء فهي ليست من شأني. »
ثم دعا للحاضرين والشهداء ودعا المسلمين جميعاً إلى التمسك بفرائض الدين والعيش بسلام وتقوى وانهى كلامه بقوله تعالى : « تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلُها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وبعد ذلك عاد محمد الى بيت عائشة وانهارت قوتة بسرعة . وعند ظهر يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١١ للهجرة (٨ حزيران سنة ٦٣٢ م) ، بينما كان يبتهل الى الله همساً ، ارتفعت روحه الطاهرة الى الرفيق الأعلى .

---

١ — بعد وفاة خديجة اتخذ النبي ، حسب العادات العربية والتقاليد القبلية القديمة ، عدة زوجات وكانت غايته من ذلك توحيد القبائل المتنازعة من جهة ، واعالة النساء من جهة اخرى. وكانت عائشة بنت صديق محمد القديم ابي بكر الصديق الذي كان تواقاً الى ان يقوي صداقتهما بتزويج ابنته ممن كان يعتبره معلمه .

وفي ابان السنوات العشر التي تولى فيها شؤون المسلمين طرأ تبدل عظيم في اخلاق الشعب العربي ، ذلك ان ايفاده الوفود الى مختلف القبائل والمدن ، مزودين بالسلطات للفصل في المنازعات الداخلية والقبلية، قد قضى على نظام الثأر الشخصي القديم ، وكان مشجعاً على نموّ التجارة والصناعة . كذلك طرأ تبدل عظيم في طريقة المعيشة وطراز الملبس ، وبصورة خاصة ملابس النساء ، ونبذ النـاس حرية الجاهلية الأولى ، وأصبح للأخلاق مقاييس دقيقة ، واجتنب الناس الخمر والميسر . وقبل ذلك لم تكن في البيوت اجنحة خاصة بالنساء فأصبحت العادة أن تكون لهن اجنحة خاصة بهن .

الفصلُ الرّابع

الجمهورية
١١ – ٢٣ ؛ ٦٣٢ – ٦٤٤ م

ابو بكر – تمرد الاعراب – الحرب مع الفرس والرومان – وفاة ابي بكر – عمر – الفتوح في كلدة وما بين النهرين – فارس – هزيمة الرومان – الفتوح في سورية وفلسطين ومصر – وفاة عمر .

ابو بكر

كان لشخصية النبي العربي تأثير قوي على اتباعه ، يستدلُّ على ذلك بأن أحداً منهم لم يصدق بادىء الامر انه مات . انهم لم يستطيعوا ان يدركوا بسهولة ويسر أن الرجل الذي كان قد بدّل خلال عدد قليل من السنين وجه الجزيرة العربية كلها كان يخضعُ للقوانين نفسها التي يخضع لها سائر البشر . ولقد هدّأ ابو بكر من اضطراب القوم بعد أن تأكد من انه مات فعلاً ، وانه لم يكن في غيبوبة كما كان بعضهم قد ادّعى ، فخاطب قومه قائلاً : « ايها الناس ، من كان

يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . اذكروا قوله تعالى في كتابه الكريم : وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسل ، أفان ماتَ أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم ، ومَنْ ينقلِبْ على عقبيه فلن يَضُرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.» في هذه اللحظة بالذات أجهش الناس بالبكاء على سيدهم العظيم الذي فقدوه .

وعندئذ نشأت مسألة خلافة النبي في حكم المسلمين . لقد سبق لمحمد أن أشار مراراً إلى أن علياً هو الذي سيخلفه من بعده ، ولكنه لم يكن قد وضع قاعدة معينةً للخلافة ، مما أفسح المجال للمطامح الشخصية ، واضَرَّ بالاسلام ، واصبح من بعدُ السبب في كثير من الحروب العائلية والانقسامات الدينية . ولو أن علياً بويع بخلافة المسلمين اذن لحال ذلك دون نشوء تلك الادعاءات المصنّعة التي أدت إلى اراقة دماء كثيرة في العالم الإسلامي .

مبايعة أبي بكر

إن رئاسةَ القبيلة ليست وراثية عند العرب ، بل هي انتخابية يراعى فيها مبدأ التصويت العام ، ولكلٍ من أفراد القبيلة حق الادلاء بصوته في انتخاب رئيسها ، ويجري الانتخاب على أساس الأسبقيــة في السن والمقام بين الأفراد الذكور من قبيلة الرئيس المتوفى . ولقد اتبعت هذه العادة القبيلة القديمة في اختيار خليفة للنبي ، ذلك انَّ حــرج الموقف آنذاك لم يسمح بأي ابطاء ، ولذا انتخب أبو بكر — وكان يحتل منزلة رفيعة عند العرب بالنظر إلى سنه والمكانة التي كانت له في مكــة — خليفة للمسلمين على جناح السرعة . وكان أبو بكر معروفــاً بحكمته وسداد رأيه واعتداله ، فبايعه عليّ وغيره من كبار آل البيت بغيرتهم المعتادة على الدين ، ورغبة منهم في جمع كلمة المسلمين .

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر وقف في الناس خطيباً فقال : « أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان احسنت فأعينوني، وإن صدفت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . ان شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، واطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » .

تمرد الاعراب

ولم يكد خبر وفاة النبي ينتشر خارج المدينة حتى ثارت نفوس الاعراب الجامحة ، في حين هلعت قلوب المؤمنين المخلصين خوفاً وفرقاً، كما أن بعض القبائل التي كانت قد اعتنقت الاسلام حديثاً ارتدت فوراً إلى عبادة الأصنام ، وشرع عدد من المتنبئين الكذابين الذين كانوا قد ظهروا في حياة النبي في أقاليم نائية ، في اضطهاد المسلمين وتعذيبهم ، ولم يمض وقت قصير حتى أصبح الدين الجديد مقتصراً على المدينة وحدها ، ومرة أخرى اضطرت « يثرب » إلى أن تقف وحيدة في وجه القبائل العربية المرتدة .

حملة اسامة

كان تمرد الاعراب يعود إلى القواعد الاخلاقية الصارمة التي فرضها الإسلام أولاً ، وإلى عزوفهم عن اداء الزكاة ونفورهم منه . ومع أن المسلمين كانوا محاطين بالمرتدين من كل جانب فانهم لم يفقدوا رباطة جأشهم ، وقادهم ايمانهم وحميتهم مرة أخرى إلى النصر . وكان هم الخليفة الاول ، بعد دفن الرسول ، تنظيم الادارة وقتال المرتدين . وكان النبي ، قبل وفاته بوقت قصير ، قد أصدر أمره بارسال حملة

على سورية للاقتصاص من الأمير الذي قتل رسوله اليه ، فتجمع الجيش في ظاهر المدينة ، وتوقفت الحملة عن المسير عندما جاءها نبأ مرض النبي. ولكنّ ارتداد قبائل الشمال بعد كارثة « مؤته » التي قُتل فيها زيد الأمين جعل الحملة أكثر ضرورة من قبل . فتنفيذاً لرغبة الرسول من ناحية ، ولاعادة النظام إلى نصابه في التخوم الشمالية من ناحية أخرى ، سيّر أبو بكر الحملة بالرغم من شدة حاجته إلى الجند وقتئذ . وبينما كان المسلمون على أهبة المسير خاطب أبو بكر أسامة بن زيد ، قائد الحملة ، قائلاً : « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، فسيروا على بركة الله . »

حروب الردة

وبينما كان اسامة في الشمال هاجم بعض المتمردين المدينة ولكنهم ردوا على اعقابهم خاسرين . وتحقق اسامة بالنصر على السوريين وعاد مسرعاً لنجدة الخليفة الذي أصبح في مكنته الآن ارسال الجيوش لاخضاع القبائل المتمردة ، فعهد بالعمل الرئيسي إلى خالد بن الوليد المعروف ببطشه وتمرسه في فنون القتال ، فاستسلم بعض القبائل دون قتال بينما تمرد بعضها الآخر . فاشتبك معها في معارك كبرى مني فيها الفريقان بخسائر جسيمة . وفي معركة اليمامة ألحق خالد بن الوليد شر هزيمة بقبيلة « بني حنيفة » ، وقتل رئيسها « مسيلمة » الكذاب . وبعد هذه المعركة أخذت القبائل المرتدة تستسلم تدريجياً وتعود إلى حظيرة الاسلام .

الحرب مع الفرس

لقد أدت حروب الردة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة إلى اصطدام

المسلمين بالقبائل الرحل التي كانت خاضعة لسلطان الحيرة ، وكـانت مملكة شبه عربية تدين بالطاعة والولاء لدولة فارس . وإن نظرة واحدة إلى الخريطة كفيلة بأن تبين لنا كيف نشأ ذلك النزاع الذي اتسع من بعدُ وتطور إلى نضال في سبيل انشاء امبراطورية اسلامية . فمن « هـَجـَر » في الزاوية الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب على تخوم « كلدة » التي كانت وقتئـذ في ايدي للفرس ، وإلى غربي القسم الأدنى من الفرات ، يقع ذلك الصقع المجدب الذي يشكل امتداداً للنفوذ العربي ، بعيداً جداً إلى البحر الميت ومرتفعات حوران وتدمر القديمة إلى الشمال . في هذا الصقع كانت تهيم وقتئذ ، ولا تزال حتى الآن ، القبائل الرحل التي لم تتبدل منها سوى اسمائها وبقيت محافظة على عاداتها وتقاليدها . كانت هذه القبائل في معظمها تدين بالدين المسيحي ، وكانت القبائـل التي تعيش في الشام ، كالغساسنة ، خاضعة للدولة البيزنطية ، في حين أن القبائل التي تعيش في الجهة الشرقية ، كبني تغلب ، تدين بالولاء لدولة الفرس . غير أن هذه القبائل كانت تربطها جميعاً روابط الدم والصداقة مع القبائل العربية المجاورة لها ، فضلاً عن أن دلتا الفرات نفسها كان يسكنها عرب مقيمون اطرحوا حياة البـداوة وانصرفوا إلى زراعة الارض .

اسبابها

وكان من الطبيعي أن يكون للنزاع بين المسلمين والمرتدين عـلى الشواطىء الغربية للخليج الفارسي اثره في القبائل المجاورة الخاضعة لسلطان الفرس ، وكانت الحملات من الشمال تتبعها حملات انتقامية .

ولقد كانت المنطقة التي يرويها النهران العظيمان ، دجلة والفرات ، منذ أقدم العصور هدفاً للملوك والفاتحين الطـامعين بانشاء امبراطوريات واسعة الاطراف ، ففي أحد جوانبها ينبع دجلة من جبال ارمينية ، وفي

جانب آخر ينبع الفرات من أعالي طوروس ، ثم ينحدران كلاهما باتجاه الخليج الفارسي إلى أن يلتقيا على بضع مئات من الأميال قبل أن يصلا إلى البحر ، فيفقدان اسميهما وذاتيهما ويعرفان باسم جديـد هو : شط العرب .

أما القسم الأعلى من المنطقة ، والمحصور بين النهرين ، فقد كان يعرف في الأزمنة القديمة باسم « ميزوبوتاميا » ، [1] في حين كان يعرف القسم الأدنى ، وهو عبارة عن بلاد غرينية مستوية ، باسم « بابل » و « كلدة » ، بينما كان العرب يطلقون عليه اسم « العراق العربي » . وقد ازدهرت مدن كثيرة على ضفاف هذين النهرين الشهيرين ، فمدينة « نينوى » القديمة ، قاعدة ملوك الاشوريين العظماء ، كانت تقوم على ضفاف دجلة في مكان لا يبعد كثيراً عن موصل اليوم . كذلك كانت المـدائن ، عاصمة ملوك فارس ، وبغداد ، حاضرة الخلفـاء العباسيين في العصور الوسطى ، وعاصمة العراق اليوم [2] . أما الفرات فقد كانت تقع على ضفافه مدينة « بابل القديمة » ، و « الحيرة » و « الكوفة » التي بناها العرب ، و « قرقيسيا » و « الرقة » ، وإلى الشرق من جبال « زاغروس » ، فيما وراء دجلة ، تقع البلاد التي يطلق عليها العرب « عراق العجم » الذي يتوسط فارس الحديثة .

سقوط الحيرة

وبعد انجاز حروب الردة في شبه جزيرة العرب تولى خالد والمثنى [3] إخضاع الغارات التي كانت تقوم بها القبائل القاطنة في جانب الحـيرة

---

١ – كانت ميزوبوتاميا تضم أحياناً أشور ، وهي البلاد التي كانت تمتد من دجلة الى جبال زاغروس . ٢ – يشتمل العراق الحديث اليوم على كل من ميزوبوتاميا والعراق العربي .

٣ – المثنى بن حارثـة ، من قبيلة بكر ، وكـان قائداً محنكاً رقيق القلب ، بخلاف خالد ابن الوليد .

بعد معارك شديدة ، واشتبك حاكم كلدة الفارسي بمعركة مع المسلمين على الحدود هزم فيها بعد ان مني بخسائر كبيرة ، وبعد مقاومة قصيرة الأمد سقطت الحيرة في ايدي المسلمين .

وحذا حذو الحيرة دهاقنةُ كلدة فأمّنهم الخليفة على أراضيهم شرط اداء جزية معينــة . اما الفلاحون فقد تركوا ينعمون آمنــين بحقولهم وأراضيهم .

ولقد فتح غزو الحيرة عيون حكام فارس على فداحة الخطر المحدق ببلادهم ، ذلك أنهم رأوا على حدودهم دولة فتية ناشئة تتأجج بالحماسة الوطنية والحمية الدينية . ولو أنهم عقلوا اذن لأخذوا في تقوية دفاعهم داخلياً ، ونظموا امبراطوريتهم على أسس جديدة ، تلك الامبراطورية التي كانت تعمل فيها الخلافات والفتن ، ولكان باستطاعتهم فوق ذلك أن يتوصلوا الى اتفاق مع المسلمين ، لأنّ فارسَ وقتئذ كانت ما تزال امبراطورية غنية قوية ، وقد كانت تضم كل فارسَ الحديثة ، وبختارية وجميع الولايات الصغرى في اواسط آسية حتى حدود تارتري والهند ، الى جانب العراق وميزوبوتاميا ، ولكن فارسَ جهزت جيشاً عظيماً وسيرته لاجلاء العرب عن كلدة .

وفاة ابي بكر (٢٣ آب ، ٦٣٤ م)

في هذا الوقت على وجه التقريب أجبر الخليفة على أن يُنفذ خالداً الى الشام بنصف الجنود ، وهكذا بقي القائد الآخر ، المثنى بن حارثة ، وحده ، على رأس قوة صغيرة للوقوف في وجه الفرس ، غير أنه ما لبث أن سحب مراكزه الامامية وتوجــه مسرعاً الى المدينة طلباً للمدد فوجدَ الخليفة ابا بكر على فراش الموت .

توفي ابو بكر في اليوم الثاني والعشرين من جمادى الثــانية من سنة ١٣ هـ ، ولم يكن قد قضى في الخلافة الا عامين ونصف عام . ويصفه

المؤرخون بأنه كان « ناصع بياض البشرة ، دقيق تقاطيع الوجه ، نحيف الجسم مع انحناء قليل » . وقبل أن يصبح ابو بكر احدَ صحابة الرسول كان يتمتع بنفوذ عظيم في قريش بوصفه احد زعمائها ، كما أن ثروته الكبيرة كتاجر ، وحكمته كزعيم ، اكسبتاه مكاناً مرموقاً عند اهل مكة . وكان ابو بكر كسيده بسيطاً الى ابعد حدود البساطة في عاداته ، يجمع بين الرقة والحزم ، وقد وقف طاقته كلها على رعاية الدولة الفتية وادارتها والعمل على خير شعبها ورفاهيته ، فكان يخرج خلسة في الليل لاغاثة الملهوفين ومساعدة البائسين والمحرومين ، وبقي مدة من الزمن بعد توليه الخلافةَ يعيش من دخله الخاص ، ولكنه عندما رأى ان رعايته لأموره الخاصة وادارته لتجارته تمنعانه من الالتفات التفاتاً كافياً الى شؤون الدولة رضي بأن يتناول ستة آلاف درهم في السنة من بيت المال ، وعندما حضرته الوفاة كان يحس بهمٍّ عظيم لما تناول من اموال المسلمين فأمر ببيع ارضٍ له ودفع ثمنها الى بيت المال رداً لما كان قد اصاب منه .

تلك هي الاخلاق النبيلة القويمة التي كان يتحلى بها اصحاب الرسول من بعده .

عمر بن الخطاب

وقد استخلف ابو بكر قبل وفاته عمر بن الخطاب فرضي المسلمون بمبايعته خليفة عليهم ، وكانت هذه المبايعة ذات قيمة كبرى للأسلام ، ذلك ان عمر كان ذا نسيج خلقي قوي واحساس مرهف بالعدل ، ويتمتع بطاقة كبرى وشخصية فذة . وكان اول ما فعله ، بعد ان اعاد تنظيم الادارة الداخلية في شبه الجزيرة ، انه اسرع الى ارسال الامدادات الى المثنى بن حارثة بقيادة « ابي عبيد » الذي تولى لدى وصوله قيادة قوات المسلمين واشتبك ، من دون ان يعير اذناً صاغية لنصح المثنى ،

مع الفرس في معركة في موقع لم يستطع فيه مناورتهم ، فهزمت جيوش المسلمين وسقط ابو عبيد قتيلاً ، غير ان الفرس لم يفيدوا مما اوتوه من نصر ولم يتقدموا من موقعهم فحمل عليهم المثنى وهزمهم شر هزيمة في مكان يدعى « البويب » على الفرع الغربي من نهر الفرات فاحتل البلاد ثانية ودخل الحيرة كرة اخرى .

يزدجرد

وفي تلك الاثناء على وجه التقريب اعتلى عرش فارس ملك جديد يدعى يزدجرد ، وكان شاباً نشيطاً وطموحاً لم يوطد نفسه على اجلاء العرب عن الحيرة فحسب ، بل صمم ايضاً على غزو بلادهم ، فبعث الى كلدة بجيش قوامه مئة الف رجل سار جنوباً لاجتياح جيوش المسلمين . واذ كان العرب ، بقيادة المثنى ، عاجزين كل العجز عن لقاء تلك القوة الهائلة ، فقد تركوا كلدة مرة اخرى وانسحبوا الى حدود الصحراء بانتظار وصول الامدادات من المدينة .

وبينما كان المسلمون يترقبون هجوم فارس فقدوا قائدهم العظيم الذي سقط صريع حمى « كلدة » فتولى القيادة العامة من بعده ، « سعد بن ابي وقاص » وكان قد وصل على رأس قوات اضافية بعث بها الخليفة ، وبذلك بلغ عدد قوات المسلمين ثلاثين الفاً .

واقعة القادسية

واشتبك المسلمون مع الفرس في معركة حامية دامت ثلاثة ايام وتميزت بالبسالة والبطولة من الجانبين ، وفي اليوم الثالث انهارت جيوش الفرس فأوقع بهم المسلمون شر هزيمة واصابوهم بخسائر فادحة وقتلوا قائدهم ففروا هاربين نحو الشمال ، وهكذا قررت واقعة القادسية مصير كلدة وميزوبوتاميا معاً ، اذ عاد المسلمون فاحتلوا كلدة دون مقاومة ،

وعاقبوا اهل الحيرة على نكثهم بالمعاهدات التي عقدوهـا مع المثنى بن حارثة بأن فرضوا عليهم جزيةً اكبر .

وبعد أن تقبل سعد خضوع البلدان والقرى المجاورة للحيرة توجه الى بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الفرس تحت إمرة الفرزان والهرمزان ومهران ، فأنزل بهم الهزيمة ومزق شملهم وفرّ مهران الى المدائن عاصمة الفرس ، وهرب الهرمزان الى الاهواز قاعدة حكمه فيما وراء سلسلة جبال ايران ، بينما سار الفرزان نفسه الى « نهاوند » حيث كانت كنوز ملك فارس ، ولكن الاستيلاء على « كلدة » لم يكن ليتم نهائياً طالما كانت تهيمن عليها المدائن التي عسكر فيها مهران على رأس جيش فارسي جرار ، ولذلك اضطر سعد الى الزحف على العاصمة الفارسية التي كانت ، شأن بغداد ، تبعد خمسة عشر ميلاً من اعالي مجرى نهر دجلة ومبنيةً على جانبيه ، فأما الشطر الغربي ، وكان يدعى « سلوقيا » فقد بناه السلوقيون ، من سلالة قائد الاسكندر المقدوني الكبير ، وأما الشطر الشرقي ، وكان يدعى « اكتسيفون » ، فقد بناه ملوك فارس ، وكان الشطران معاً يدعيان « المدائن » .

سقوط المدائن (صفر سنة ١٦ هـ ، آذار سنة ٦٣٧ م)

كانت قصور الملوك والنبلاء غاية في الجمال والترف ، ولذا كان لها اعظم الوقع في نفوس المسلمين البسطاء عندما وقعت انظارهم عليها . وبعد حصار دام ردحاً من الزمن فتحت ابوابها للمسلمين وتلا استسلامها خضوع جميع البلاد الواقعة في غربي دجلة ، واقيمت صلاة الظفر او الفتح من الجيش كله في قصر كسرى انو شروان .

واذ اصبح سعدٌ الحاكم المدنيّ والعسكري للعراق (الذي كان يضم الآن ميزوبوتاميا) فقد اتخذ من المدائن مقراً لحكومته وحلّ في القصر الملكي حيث كانت الدواوين الرسمية ، كما كان يصلي بالناس

صلاة الجمعة في الإيوان الكبير . ومن هذا القصر الملكي اخـــذ سعد يدير شؤون الولاية ، غير انه لم يمض وقت وجيز حتى اضطر المسلمون الى خوض غمار الحرب كرة اخرى ، ذلك ان ملك الفرس ، وكان مقيماً في « حلوان » ، على الجانب الغربي من الجبال ، ارسل جيشاً كبيراً لاستعادة المدائن .

معركة جلولاء

وقد قابل المسلمون الفرس في « جلولاء » ، على بعد خمسين ميلاً تقريباً الى الشمال الشرقي من العاصمة ، فدحروهم وانزلوا بهــم خسائر فادحة . اما حلوان نفسها فقد سقطت في أيدي المسلمين واقاموا فيها حاميه قوية .

وعندما وصلت الغنائم التي استولى عليها المسلمون في جلولاء والمدائن الى المدينة اجهش الخليفة بالبكاء لدى رؤيتها . وعندما سئل عن سبب بكائه اجاب : « كأني اشاهد في هذا المغنم والفيء هلاك العرب . » ولم يكن الخليفة في الحق مخطئاً فيما توقعه ؛ ذلك ان النجاح الذي لم يعرف العرب له قط نظيراً من قبل قد ادى في النتيجــة الى فقدانهم صفات الزهد والجد والتضحية بالنفس ، تلك الصفات التي اسهمت في البداية ايما اسهام في الانتصارات التي احرزوها .

وبعد سقوط المدائن عقد المسلمون معــاهدة صلح مع ملك الفرس نصت على ان تكون سلسلة جبــال فارس الحدود التي تفصل بـين الامبراطوريتين ، واصدر الخليفة اوامره المشددة التي حظر فيهــا على العرب اجتياز تلك الحـــدود مهما كانت الظروف والاحوال . وهكذا استتب الامر للعرب في البلاد الممتدة من الخليـــج الفارسي حتى سلسلة الجبال في الشرق ، كما سقط في ايديهم مرفأ « الابلة » .

والحق ان البرهان الأسطع على مقدرة عمر بن الخطاب كحاكم يجمع

الحكمة وبعد النظر الى العدل ، وعلى كفاءة مجلس الشورى الذي كان يساعده في تصريف شؤون الحكم ، هو تلك الطاقة التي ابداها المسلمون في احياء تلك الولاية وتطوير مواردها . فقد امر الخليفة ، بناءً على مشورة علي ، فمسحت الارض ، واستُحدث نظام جديد لتقدير الضرائب ، وخُففت الاعباء التي كانت تثقل كواهل الفلاحين ، كما امنوا على ملكية أراضيهم . كذلك خفضت الضريبة التي كان ملوك الفرس قد فرضوها على كبار الملاك (الدهاقين) ، وانشئت شبكة كاملة من الاقنية للري ، وصدر امرٌ بتسليف المزارعين كلما دعت الضرورة الى ذلك . والى ذلك فقد مُنع بيع الاراضي منعاً باتاً ، وكانت الغاية من ذلك الابقاء على ملكيتها في ايدي الفلاحين من سكان البلاد الاصليين ، كما ان اراضي التاج ، وغابات الصيد التي كانت ملكاً لملوك فارس ، واملاك الامراء والاغنياء الهاربين ، واوقاف معابد النار التي هجرها الكهان ، قد اصبحت كلها ملكاً للدولة يديرها وكلاء من المدينة .

وكان الجند قد طالبوا بأن توزع عليهم هذه الاراضي وسهول كلدة المعروفة بـ « السواد » كغنائم حرب ، ولكن الخليفة ، بناء على مشورة علي وابن عباس ، رفض هذا الطلب بحزم ، ولكنه وزع ايرادات الاراضي الاميرية ، بعد حسم النفقات العامة منها ، على المستوطنين العرب .

اخلال الفرس بالمعاهدة

غير ان حزم الخليفة واعتدال قواده لم يجديا في منع نشوب قتال جديد مع الفرس ، ذلك ان يزدجرد كان يتحرق غيظاً لضياع عاصمته واثنتين من احسن ولاياته ، وكان قواده وجنوده يستحثونه على شن حرب جديدة على العرب ، في حين ان الهرمزان ، حاكم الاهواز ،

كان يوالي حملاته على مواطن العرب ، وكان كلما مني بالهزيمة طلب الصفح والصلح ، ولكنه كان ينكث بالعهد عند اول سانحة .

في هذا الوقت على وجه التقريب انشئت في العراق مدينتان جديدتان : البصرة على شط العرب ، وكان سكانها في الغالب من عرب الشمال فحلت محل « الأبلة » واصبحت ميناء العراق ، والكوفة على ضفة الفرات الغربية ، على بعد ثلاثة اميال من جنوبي الحيرة ، وقد استوطنها العرب الذين كانوا من اصل يمني ، فحلت محل المدائن التي اطرحها العرب بالنظر الى سوء مناخها . وقد شيدت المدينتان الجديدتان على خطط منظمة ، فأقيمت في كل منها ساحة شيد فيها المسجد الرئيسي والى جانب مقر الحاكم ، وكانت الشوارع فيها مستقيمة وعريضة وفسيحة ، والاسواق عامرة والحدائق العامة وافرة .

وأخيراً نفد صبر العرب على حملات الفرس المتوالية وعلموا ان ملكهم يزدجرد كان يحشد جيشاً عظيماً في الشمال استعداداً لشن هجوم خطير ، ولذلك أرسلوا وفداً الى الخليفة يستأذنه في درء الخطر الذي كان يتهددهم . ولدى وصول الوفد استفسر عمر منه عن سبب هجمات الفرس المتكررة قائلاً : « لعل المسلمين يفضون الى اهل الذمة بأذى بأمور لها مما ينتقضون بكم . » فقالوا : « ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة . » قال : « وكيف هذا ؟ » فقال رئيس الوفد : « يا امير المؤمنين ، اخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في ايدينا ، وان ملك الفرس حي بين اظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج احدهما صاحبه ، وقد رأيت اننا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلاده حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته ، فهنالك ينقطع رجاء فارس . » [1]

---

١ – ابن الاثير .

وقد ايد هذه الاقوال الهرمزان الذي كان قد حُمل اسيراً الى المدينة فاعتنق الاسلام ، وعندئذ اتضح لعمر ان حظره على المسلمين التقدم الى الشرق يجب ان يُرفع وانه لم يبقَ للمسلمين الا ان يدافعوا عن انفسهم ويسحقوا كسرى ويستولوا على بلاده نهائياً .

اما الفرسُ فقد استجابوا نداءَ ملكهم وكلهم املٌ ورجاءٌ ان يسددوا ضربة نهائية يائسة الى اولئك الدخلاء من ابناء الصحراء الذين اخرجوه من عاصمة ملكه وإنتزعوا منه عدداً من اجمل ولاياته ، فكان الجيش الذي حشده يزدجرد لهذه المعركة الاخيرة اعظمَ من ايما جيش سبق له ان حشده ، وأحدثت الانباءُ التي وصلت الى المدينـــة عن استعدادات الفرس قلقـاً عظيماً فلم يكن من الخليفة الا ان اسرع في ارسال الامدادات الى الحدود .

واقعة نهاوند

وقد عهد الخليفةُ بقيادة الجيوش العربية الى النعمان الذي كان وقتئذ مشتبكاً مع الفرس في الجنوب ، واشتبك المسلمون مع الفرس في معركة دارت رحاها في نهاوند على سفح جبل البرز وقررت مصير آسية وسميت « فتح الفتوح » [١] . كان جيش الفرس في هذه المعركة يبلغ ستة اضعاف جند العرب ، ومع ذلك فقد هُزم الفرس ومُني جيشهم بخسائر فادحة ، وفرّ يزدجرد من مكان الى آخر الى ان قتـــل بعد بضع سنين على يد احد رجاله بالذات ، في قرية نائية على تخوم تركستان ، وبموته خضعت فارس لسلطان المسلمين .

فتح فارس

وكما اتخذ الخليفة في الجزيرة « ميزوبوتاميا » من قبل تدابير فورية

---

١ — في هذه المعركة قتل قائد جند المسلمين .

لاقرار الفلاحين وتأمينهم في اراضيهم ، كذلك فعل في فارس ، فقد أنقذهم من عبودية كبار الاقطاعيين وعسفهم ، وأعاد النظر في نظام الضرائب وأقامه علي أساس عادل مستقر ، وأصدر أوامره بترميم الترع الخربة وانشاء ترع جديدة ، ومن ناحية أخرى أقرّ كبار الملاّك (الدهاقين) على اراضيهم وفرضَ عليهم الجزية ، كما أنه منح حرية العبادة لكل فرد ، ونهى المسلمين عن التعرض لدين سكان البلاد ، وأطلق على أولئك الذين تمسكوا بدينهم القديم اسم « اهل الذمة » . وكان الأغراء الوحيد باعتناق الإسلام — ان صح ان يسمى ذلك اغراءً — أنه في حين كان المسلمون ، الذين كانوا عرضةً لأن يُدعوا الى الخدمة في الجيش في أي وقت ، يدفعون للدولة ضريبة العشر ، كان الذميون يدفعون ضريبةً ارفعَ لقاء اعفائهم من الخدمة العسكرية [1] .

وهكذا شرع الناس يدخلون في دين الإسلام من دون اىما نوع من انواع الاكراه التي تلجأ اليها الدول العصرية لتغيير عقائد ابناء البلاد الواقعة تحت سيطرتها ، وكثر التزاوج بين معتنقي الدين الجديد وبين النازحين العرب ، وقُبلت جماعاتٌ كبيرة من الفرس في الأخوة القبلية للعرب فعرُفوا بالموالي ، فضلاً عن أن الكثيرين ممن كانوا يؤدون خدمات جليلة للدولة كانت تسجل اسماؤهم في سجل خاص ويتقاضون علاوات منتظمة . غير أن الكهان ظلوا أمداً طويلاً ، شأنهم في أيام الاسكندر المقدوني ، مصدراً للمتاعب والخطر ، فكثيراً ما كانوا يغرون الناس الذين بقوا على دينهم بالثورة ، وكان الفريقان يرتكبان عند قمع تلك الفتن ضروب العسف والتنكيل ، غير ان السياسة الرشيدة السلمية التي اتبعها الخلفاء العباسيون ، وانتشار الاسلام ، ازالا مع الزمن اسباب التذمر .

---

١ — مثل هذا التمييز شائع في تاريخ معظم الدول الحاكمة ، ويمكن أن يرى حتى في أيامنا هذه .

الحرب مع الرومان واسبابها

لم يكد ابو بكر يبايع بالخلافة حتّى اشتبك المسلمون في نزاع مع الرومان. كانت جميع البلاد الواقعة الى الغرب من الجزيرة (ميزوبوتاميا) وكلدة خاضعة وقتئذ لسلطان الامبراطورية الرومانية الشرقية، وكان سكان فلسطين وسورية، كسكان العراق، من الجنس العربيّ. أما بادية الشام فقد كان البدو يهيمون في ارجائها، وهكذا لم يلبثوا أن اصبحوا ضمن المنطقة الشرعية للدولة الإسلامية. وكانت الحملة التأديبية التي قادها أسامة قد اثارت القبائل السورية، ولذلك كان من الطبيعي أن تنهض تلك القبائل الى الأخذ بالثأر. وفي الوقت نفسه حشد الرومان جيشاً كبيراً في البلقاء، ولذلك لم يكن للخليفة مفرّ، شأن الحكومة البريطانية في الهند عندما تهددها السيخ في عام ١٩٤٨، من صدّ الرومان واخضاع القبائل، فقد كان هذا التدبير ضرورة اقتضتها مصالح امبراطوريته. ولقد لبى المسلمون نداء الخليفة على التطوع في الجيش بحماس كبير، وما ان وصلت الاجناد الى المدينة حتّى اسرع بانفاذها الى الشمال.

ولنلق الآن نظرة قصيرة على مسرح الحرب الجديدة. ان فلسطين، كما يحددها الجغرافيون العرب، هي البلاد الواقعة إلى الجنوب من خط يمتد من جبل الكرمل إلى أقصى شمال بحر الجليل (بحيرة طبريا)، والممتدة من نهر الاردن حتّى البحر الابيض المتوسط. في هذه البـــلاد كان للرومان معاقل قوية، كقيصرية على البحر، واريحا، والقدس، وعسقلان، وغزة، ويافا. وكانت مدينة «زوغار» او بنتابوليس القديمة، وجميع المنطقة الممتدة من اقصى جنوبي البحر الميت الى خليج العرب، تابعة لفلسطين. أما الى الشمال من الخط المذكور آنفاً فقد كانت تقع ولاية الاردن التي كانت تضم حاميتي عكا وصور، كما كانت تقع الى الشمال من فلسطين تلك البلاد الجميلة المهمة التي كان الرومان يدعونها

سورية [1] ، والتي سماها العرب بر الشام ، او الشام فحسب ، ومن مدنها التاريخية دمشق وحمص وحلب وانطاكية وغيرها ، تحرسها جميعاً حاميات رومانية قوية ، والى الشرق من وادي الاردن ، والجنوب من بحيرة طبريا ، تقع جبال حوران .

ولقد أصيب اول جيش ارسله ابو بكر الى الشام بهزيمة منكرة ، غير ان الخليفة لم يقنط بل شرع في اذكاء الحمية في قلوب المسلمين وحثهم على التطوع ، ثم بعث بالجيش الجديد الى مسرح الحرب بعد ان قسمه الى اربعة كراديس وعين على كل كردوس قائداً أمره بالتوجه الى ناحية معينة من البلاد ، فكان ابو عبيدة ، القائد الرقيق الشمائل ، على رأس كردوس حمص ، وقاعدته الجابية ، وبرفقته عدد كبيرٌ من الأنصار والمهاجرين . اما كردوس فلسطين فقــد كان بقيادة عمرو بن العاص الذي اشتهر من بعدُ بفتح مصر . واما كردوس دمشق فقد كان تحت إمرة يزيد بن ابي سفيان الذي كان فيما مضى عدواً للإسلام واصبح الآن يحارب تحت راياته . كان جيش يزيد يتألف في معظمه من المكيين وعرب تهامة ، ويضمُّ عدداً من اشراف مكة سبق لمعظمهم أنْ حاربوا الرسولَ قبل سقوط المدينة في يديه ولكنهم انضموا الآن الى جيش يزيد ابن ابي سفيان املاً باصابة مغنم من مغانم الشام الكثيرة .

وكان بين اهل مكة وعرب تهامة من جهة ، وبين اهل المدينة من جهة اخرى ، عداء شديدٌ ظهرت آثاره فيما بعد .

اما الكردوس الرابع فقد كان تحت إمرة شرحبيل ، وكان يعمل في وادي الاردن . وكان هناك كردوس احتياطي على رأسه معاوية ، ثاني اولاد ابي سفيان .

وبينما كان عمرو بن العاص يزحف على فلسطين السفلى مهدداً غزة والقدس ، كانت الجيوش الثلاثة الأخرى بقيادة ابي عبيدة وشرحبيل

---

١ – كانت سورية الروم تضم قسماً من فلسطين .

ويزيد يؤازر بعضها بعضاً وتهدد بصرى ودمشق وطبرية ، ولكن القوات التي كانت تحت إمرة هؤلاء القواد الثلاثة لم تكن لتزيد عن ٣٥,٠٠٠ جندي ، وكان الظاهر انها لم تكن كفؤاً للمهمة التي القيت على عاتقها بالنسبة الى القوة الكبيرة والموارد الهائلة التي كانت للامبراطورية الرومانية ، ذلك ان تلك الامبراطورية ، وعاصمتها القسطنطينية ، حتى بعد ان سُلخ عنها الكثير من الولايات الأوروبية ، كانت امبراطورية هائلة ضخمة لا حصرَ لمواردها وثرواتها وموادها الحربية ، وكانت تضم آسية الصغرى المحاطة بالبحار الثلاثة والمنتشرة على سواحلها الثغور والموانىء الغنية ، وسورية ، وفينيقية ، وفلسطين ، ومصر التي كانت تعتبر أهراء البلدان المجاورة ، كما كانت تضم القطاع الرحب الممتد من الساحل المصري الى المحيط الهندي .

ولكي يصدّ هرقل العربَ الغزاة جاء بنفسه الى حمص ومن هناك ارسل اربعة جيوش مستقلة لسحق القواد العرب . وعندما سمع الأمراء المسلمون بهذا التدبير الذي لجأ اليه الرومان تبادلوا الآراء بسرعة بواسطة الرسل وقرروا تركيز قواتهم جميعاً في نقطة واحدة ، وهكذا اتصلت الكراديس الاربعة في شهر نيسان (ابريـــل) من سنة ٦٣٤ م في « جولان » بالقرب من نهر اليرموك ، وعندئذ حشد الرومان جيوشهم كلها في مكان واحد .

واليرموك نهر مغمور ينبع من اعالي حوران ويصب في نهر الأردن على بضعة اميال من جنوبي بحيرة طبريا . وعلى بعد ثلاثين ميلاً من نقطة التقائه بنهر الأردن يستدير فيشكل في الجهة الشمالية عروة نصف دائرية تحتضن سهلاً فسيح الأرجاء يصلح معسكراً لجيش جرار . واما ضفاف نهر اليرموك فوعرة ومنحدرة ، وعند عنق العروة اخدود هو بمثابة المدخل الى المنبسَط من الارض المسمّى بالواقوصة المشهورة في تواريخ

المسلمين .

واقعة اليرموك (٣٠ آب ٦٣٤ م)

ولقد اعتبر الروم ، كما بدا لهم ، ذلك الموقع المحصَّن من اطرافه جميعاً ساحة حربية طبيعية ، فحشدوا جيوشهم فيه من دون ان يحسبوا ايما حساب للمسلمين الذين ادركوا بسرعة خطأ عدوهم فعبروا نحو الضفة الشمالية من النهر وعسكروا فوراً بجانب الاخدود ، اي مدخل المنبسط ، واستعدوا لضرب العدو فور خروجه . وبقي الجيشان يتربص احدهما بالآخر مدة شهرين حتى ملّ الخليفة الانتظار وارسل خالداً بن الوليد من كلدة للانضمام الى جيش المسلمين في الشام ، فعبر خالدٌ الصحراء والتحق بالمسلمين قبل ان يتصل علم ذلك بالرومان .

كان جيش هرقل يعدّ ٢٤٠,٠٠٠ مقاتل ، بينما لم يكن جيش المسلمين ليزيد عن اربعين الفاً ، ولكن القنوط كان قد تسرب الى قلوب الرومان بالرغم من كثرة عددهم ، خصوصاً وانهم هزموا في عدة محاولات قاموا بها للخلاص من الفخ الذي وقعوا فيه . واخيراً ، في صبيحة اليوم الأخير من جمادى الآخرة (٣٠ آب سنة ٦٣٤) خرج الجيش الروماني من عسكره للاشتباك بالمسلمين في معركة تاريخية تعرف بواقعة اليرموك مني الرومان فيها بهزيمة منكرة بعد ان اعمل العرب فيهم فتكاً واغرقوا قسماً من جيشهم في النهر ، وبذلك تم للمسلمين النصر واصبحت سورية الجنوبية كلها في ايديهم [١].

وفاة ابي بكر

في هذا الوقت تقريباً توفي ابو بكر – بل الحق إن نبأ وفاته كان قد وصل الى المعسكر قبل نشوب المعركة ، ولكن خالداً كتمه الى ما

١ – يقال ان خسائر الرومان بلغت ١٤٠٠٠٠ رجل ، بينما خسر المسلمون ٣٠٠٠ فقط .

بعد الانتصار فيها . وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، ولم يكن ليرضى عن شدة خالد إطلاقاً ، فعزله من القيادة العامة وعهد بها الى ابي عبيدة المعروف ببعد النظر وسداد الرأي ، فلم يكن من خالد إلا ان انضوى تحت إمرة ابي عبيدة ، واخذت المدن السورية تستسلم الى المسلمين واحدة بعد الأخرى ، ففتحت دمشقُ وحمص وحماه وقنسرين وحلب وغيرها من المدن المهمة الاخرى ابوابها لأبي عبيدة . ومن ثم سار هذا القائد حتى بلغ انطاكية ، منافسة الاستانة وعاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وكان فيها حامية قوية زادت من عددها فلول الهاربين من المدن الاخرى . كان عدد سكان انطاكية كبيراً جداً ، ولكنهم كانوا قد انغمسوا في الملذات والمسرّات بحيث ان معركة صغيرة جرت خارج المدينة وانتصر فيها المسلمون اوهنت من عزائم الانطاكيين فاستسلموا بعد حصار بضعة ايام .

وبينما كان ابو عبيدة يستولي على القسم الأعظم من سورية الشمالية كان عمرو بن العاص يحرز نجاحاً مماثلاً في فلسطين . كان الحاكم الروماني « ارطبون » قد حشد جيشاً عظيماً للدفاع عن الولاية ، وكان قد وضع الحاميات في القدس وغزة والرملة ، بينما عسكر هو نفسه ، مع الجزء الأكبر من قواته ، في اجنادين ، وهي احدى القرى الواقعة الى جنوبي القدس ، بين الرملة وبيت جبرين . اما القواد العرب فانهم بعد ان فصلوا بعضاً من قواتهم لحصار القدس وغزة والرملة وقيصرية زحفوا بجندهم على ارطبون فهزموا جيشه هزيمة لم تقلّ شراً عن هزيمة الرومان في معركة اليرموك ، ولم ينج منه سوى افراد قلائل التجأوا مع قائدهم ارطبون الى القدس .

وكانت ثمرة ذلك النصر ان استسلمت للمسلمين مدن عديدة كيافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكا وبيروت وصيدا واللاذقية وحماه وجبلة دون مقاومة . اما القدس ، وكانت فيها حامية قوية ، فهي

المدينة الوحيدة التي قاومت بعض الوقت ولم يلبث بطريقها ان طلب الصلح ولكنه اشترط ان لا يسلم المدينة إلا للخليفة عمر بالذات . وقد استجاب عمر لهذا الطلب فسافر ومعه خادم واحد ، فما ان وصل الى الجابية حتى لاقاه وفد من أهالي القدس فأعطاهم عهداً بأن يمارسوا دينهم بحرية تامة ، وأمنهم على حرية كنائسهم على ان يدفعوا الجزية . ثم سار عمر مع الوفد الى القدس فاستقبله البطريق صفرينوس على ابوابها ودخل الاثنان المدينة معاً وهما يتحدثان عن عادياتها . وقد امتنع عمر عن الصلاة في كنيسة القيامة التي صدف وجوده فيها عندما حان وقت الصلاة بل أدى صلاته على احدى درجاتها ، وقال للبطريق : « ذلك اني لو صليت في فنائها اذن لربما نقض المسلمون العهد في المستقبل بحجة الاقتداء بي . » ثم استقبل الخليفة وفداً من الرملة وفاز بالشروط نفسها التي منحها الى وفد القدس ، بينما أمن اليهود السامريين على املاكهم واعفاهم من اداء اية ضريبة جزاء مساعدتهم للمسلمين [1].

ولما اعلنت القبائل الارمنية والكردية في ميزوبوتاميا العصيان أرسل اليها الخليفة حملات تأديبية انتهت باخضاع كردستان وارمينية ، غير ان الرومان وقفوا موقف الهجوم مرة أخرى ، فلم يكد يأزف فصل الربيع من عام ٦٣٨ م حتى كان هرقل قد اتفق مع سكان المدن التي لم تكن قد فتحت بعد في الشرق وأنفذ جيشاً جراراً الى سورية ، فاستقبلته المدن التي سبق لها أن استسلمت للمسلمين ، كما انحازت اليه القبائل العربية المسيحية ، وجاءت قوة كبيرة من مصر عن طريق البحر واحتلت شمالي فلسطين كرة أخرى . وهكذا اصبح الخطر يتهدد المسلمين من جميع الجهات ، ولكن الجرأة والسرعة وحسن القيادة ، بالاضافة إلى الحمية والاندفاع والايمان بقضيتهم ، كانت كلها الى جانبهم . ومع ان الروم كانوا يفوقونهم في بعض المواقع عشرين ضعفاً فقد تمكنوا من

---

١ — سحب هذا الامتياز منهم يزيد بن معاوية .

تقويض تلك القوى التي تألبت ضدهم وانزلوا بها خسارة فادحة ، وانهزم ابن هرقل ففر وهو لا يكاد يصدّق بالنجاة مع فلول من جيشه . وهكذا عَنَت البلاد مرة اخرى لسلطان المسلمين ، ولم يبق في ايدي الرومان إلا موقع واحد في شمالي سورية ونعني به ميناء قيصرية ، التي كانت مصر تساعدها من جهة البحر . لقد تحدت قيصرية المسلمين فترة من الزمن ، ولكن فرار قسطنطين بن هرقل قتل الروح المعنوية في المدافعين عنها وسلّم اهلُها على أن يؤمنوا على أنفسهم وبذلك تم فتح البلاد بأسرها و « انحنت سورية أمام صولجان الخلفاء بعد سبعمائة عام من خلع آخر ملوك مكدونيا على يدي بومباي » .

وبعد أن مُني الرومان بهزيمتهم الأخيرة ادركوا انهم قد غلبوا على امرهم نهائياً ولكنهم مع ذلك استمروا في شن الغارات على أراضي المسلمين . ولكي يقيموا حاجزاً لا يمكن اجتيازه بينهم وبين المسلمين فقد حوّلوا إلى صحراءَ قاحلة بقعة فسيحة على تخوم ما تبقى لهم من ممتلكات في آسية . لقد دمروا جميع المدن المزدهرة في تلك البقعة المنكودة الحظ ، وقوضوا الحصون ، ونقلوا السكان الى الشمال ، تاركين الأرض تنعي من بناها ، وهكذا فان ما يعزى الى فعل الجيوش العربية لم يكن في الواقع إلا نتيجة البربرية البيزنطية . ومع هذا فان هذا التدبير الأخرق لم يُجدِ الرومان فتيلاً ، ذلك ان « إياس » ، قائد الجيش العربي في شمال سورية ، قطع جبال طوروس وأخضع ولاية كيليكية ، وعاصمتها طرسوس ، قاعدة ملوك آشور القدماء ، لسلطان المسلمين . ولقد ذهب اياس الى أبعد من هذا اذ انه وصل بالقوات الاسلامية الى سواحل البحر الأسود ، وأصبح اسمه مصدر رعب وهلع للرومان في آسية الصغرى .

في هذا الوقت تقريباً وجه العرب ، بما عرف عنهم من طاقة وحيوية ، اهتمامهم الى انشاء أسطول بحري ، فلم يمض وقت طويل حتى أضحوا سادة البحار ، وانهزم الأسطول الروماني امامهم الى

هلبسون ، فتمكنوا بذلك من الاستيلاء تباعاً على جزر الارخبيل اليوناني واخضاعها .

ولما كثرت الغارات على سورية من جهة مصر واشتط الرومـان في ازعاجهم للمسلمين في البحر أذن الخليفة ، بعد تردد ما ، بانفاذ حملة على ارض الفراعنة ، فسار عمرو بن العاص على رأس ٤٠٠ مقـاتل فقط واجلى البيزنطيين عن البلاد في خلال ثلاثة اسابيع . وفرّ الرومانُ من أقسام أخرى من مصر والتجأوا الى مدينة الاسكندريـة التي كانت محصنة تحصيناً منيعاً ، وبعد حصار دام زمناً ما استسلمت المدينة بشروط حسنة .

وهكذا أصبحت مصر كلها ، حتى حدود الحبشة في الجنوب وليبيا في الغرب ، خـاضعة لسلطان المسلمين . وكما فعل المسلمون في سائر البلدان حالما افتتحوها فانهم اتخذوا في مصر تدابير لتحسين حالة الفلاحين ، فأقروهم على أرضهم واصلحوا اعمال الريّ التي أهملها الرومان أو عفّى عليها الزمان ، ونظفوا القناة القديمة التي تصل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ، وعاملوا المسيحيين المصريين ، وكانوا يدعون بالاقباط ، معاملة ممتازة خاصة لما تبينوا من حسن نواياهم ، وعدّلوا نظام الضرائب فأقاموه على أساس ثابت معتدل ، وخفضوا الرسوم الجمركية فازدهرت تجارة البلاد .

وفي عام ٦٤٥ م استعادّ الرومان مدينة الاسكندرية ، ولكن العرب مـا لبثوا أن فتحوها نهائيـاً بعد سنة واحدة . أما قصة حرق مكتبة الاسكندرية تنفيذاً لاوامر عمر بن الخطاب فلا تقوم على ايما أساس من الصحة ، ذلك أن مثل هذا العمل الهمجي التخريبي كان يناقض تمـام المناقضة روح التساهل والتسامح التي اشتهر بها ذلك الحاكـم العظيم ؛ والواقع أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة انما اتلف ابان الحصـار الذي ضربه يوليوس قيصر على المدينة ، بينما فُقد الباقي في عهد الامبراطور

تيودوسيوس في القرن الرابع للميلاد . فقد أمر هذا الامبراطور ، وكان مسيحياً ورعاً يكره الكتب الوثنية ، باتلاف الكتب القيمة التي كانت قد بقيت من المكتبة فنفذ أمره بحماس شديد بحيث لم يبق منها في القرن السابع ما يمكن ان يتلفه المسلمون [1] . وبعد فتح مصر اشتبك عمرو بن العاص في قتال مع القبائل الضاربة إلى الغرب انتهى باخضاع الساحل كله حتى برقة .

وفي السنة الثامنة عشرة للهجرة اجتاح شمالي الجزيرة والشام قحط شديد ووباءٌ يقال انه هلك بهما نحوٌ من ٢٥ الف نسمة ، وكان من ضحايا هذا الوباء نفر من أفضل رجال المسلمين وأبرزهم كأبي عبيدة ويزيد وشرحبيل . واستدعت صيحات الاستغاثة التي اطلقها المنكوبون والمصابون عمر بن الخطاب مرة أخرى من المدينة ، وبالرغم من أنه كان في ذلك الحين قد ناهز السبعين من عمره فقد أقدم على السفر الى الشام بجرأة وصبر لا يصحبه غير خادم واحد ، شأنه في الرحلة الأولى ، وزار مطران « ايله » وضمن من جديد الامتيازات التي سبق أن منحها للمسيحيين ، وكان وجوده وخُطَبُه سبباً في احياء الأمل في صدور أهل الشام واعلاء روحهم المعنوية .

وعندما عاد عمر إلى المدينة انصرف إلى تنظيم ادارة الامبراطورية الجديدة ووضع الخطط والتصاميم لتطوير مصادرها ، ولكن يداً غادرةً اثيمة قضت على كل مشاريعه وخططه ، اذ اقدم رجل اجنبي [2] كان يحقد عليه فطعنه طعنة أصابته بجرح مميت لم يشف منه أبداً ، وقبيل وفاته عين مجلساً مؤلفاً من ستة رجال لاختيار خليفته .

---

١ – قارن ما يقوله ساليدو في الصفحة ٤٣٩ من المجلد ١ من أن المسلمين استعملوا الكتب لتحمية الحمامات . لم يكن هناك حمامات عامة في ذلك الحين وانما عرفت بعد ذلك بسنين عديدة .

٢ – يقول البعض انه كان مانوياً ، بينما يقول البعض الآخر ، امثال دوزي ، انه كان بناء مسيحياً من اهل الكوفة .

وفاة عمر

كانت وفاة عمر خسارةً كبرى للاسلام والمسلمين ، فقدْ كان صارماً بعدل ، بعيد النظر ، محيطاً بطبيعة شعبه واخلاقه ، مما جعله لائقـاً بصورة خاصة لقيادة العرب المفطورين على عدم الانقياد للقانون . لقد أمسك بدفة الحكم بيد من حديد ، وقمع بشدة ذلك الميـل الفطري الى الفساد عند القبائل الرحل واشباه المتحضرين عندما يحتكون بالترف ومفاسد المدن ، وانشأ « الديوان » ، أو وزارة المـال ، وعهد اليه بادارة الخراج ، كما أنه وضع قواعد ثابتة لحكم الولايات . وكان عمر رجلاً فارع الطول ، قوي البنية ، ابيض البشرة ، بسيطاً في عاداته ، متقشفاً زاهداً ، لا يجدُ أحقرُ رعاياه أية صعوبة في الوصول اليـه ، وكان يجوب الاحياء ليلاً لتفقد شؤون شعبه دون حرس أو حاشية — وهكذا كان اعظم حكام ذلك العصر وأشدهم بأساً وقوة .

الفصل الخامس

الجمهورية (تتمة)

٢٤ ـ ٤٠ هـ ، ٦٤٤ ـ ٦٦١ م

عثمان بن عفان ـ محاباته ـ موت عثمان ـ علي ـ عصيان معاوية ـ معركة صفين ـ الخوارج ـ اغتيال علي ـ نهاية الجمهورية

عثمان بن عفان

كان باستطاعة عمر ان يسمّي بسهولة علياً أو ابنه عبدالله ، المعروف بابن عمر ، خليفة للمسلمين من بعده ، ولكنه اتباعاً لصوت ضميره ، وهي صفةٌ تميز بها طيلة حياته ، عهد بأمر انتخاب خليفته إلى ستة من اشراف المدينة . ولكن عمر ، بعدم اقتدائه بسلفه ، انما اقترف هفوةً مهّدت السبيل إلى مؤامرات الامويين الذين شرعوا الآن في تكوين حزب قوي في المدينة . لقد طالما نافسوا الهاشميين (اسرة الرسول) وحملوا لهم في قلوبهم الكراهية والبغض الشديدين ، ولطالما طاردوا محمداً واشتطوا في أذاه ، ولم يعتنقوا الاسلام بدافع المصلحة الشخصية إلا بعد

فتح مكة ، عندما رأوا في انتشار الاسلام وسيلة لرفع شأنهم واعلاء مكانتهم . أما حقدهم على صحابة النبي البسطاء الزاهدين الذين حكموا المسلمين فقد كان يتأكل صدورهم ، وكانوا ينظرون بعين الحسد الخفي إلى قدامى المسلمين الذين كانوا يؤلفون مجلس شورى الدولة ويتولون المناصب الرئيسية في الحكومة ، وكانت الحياة النقية البسيطة التي يحياها هؤلاء الصحابة مصدراً دائماً لتبكيت ضمائرهم على ترفهم وانانيتهم .

ولقد وجد الامويون بسهولة حلفاء لهم بين رؤساء قبائل البدو الذين كانت تربطهم بهم اواصر القربى ، وتمكنوا بدسائسهم من الابقاء على عليّ بعيداً عن الخلافة . وبعد مناقشات ومداولات طويلة دامت عدة ايام وقع الاختيار على عثمان بن عفان الاموي لمنصب الخلافة ، وكان انتخابه في النتيجة السببَ الذي هد كيان الاسلام والمسلمين . ومع ان عثمان كان رجلاً فاضلاً شريفاً فانه كان مسناً ضعيف الشخصية غير كفؤ لمهام الحكم ، ولذا وقع فوراً ، كما توقعت عائلته ، تحت نفوذها ، وانقاد بكليته إلى امين سره « مروان » ، اكثر الامويين اعوجاجاً . أما علي فقد اقدم على مبايعة عثمان بما عُرف عنه من وطنية وغيرة على الدين حالما انتخب خليفة للمسلمين .

وفي عهد عثمان بدأ ذلك النزاع المرير الذي استمر اكثر من قرن بين الهاشميين والامويين ، ولكن هذا لم يكن البلاء الوحيد الذي ظهر في ايامه ، ذلك ان القبائل العربية المفطورة على النزوع إلى الحرية والسأم بالقانون قد اخضعتها شخصية النبي وابقى حزم أبي بكر وعمر على انضباطها وانصياعها للنظام . اما الآن فقد بدأت هذه القبائل تتبرم بسيطرة قريش وتزرع بذور التمرد في الانحاء القصية ، كما شرع ينمو من جديد ذلك التحاسد العنصري القديم بين المضريين والحميريين الذي كانت قد خبت ناره وعاد الآن يتهدد الاسلام بأوخم العواقب .

ولقد عزل عثمان معظم العمال الذين كان عمر قد استعملهم وعين في

أماكنهم رجالاً من عائلته لا قيمة لهـم ولا يتمتعون بـأي قدر من الكفاءة ، وظل الناس طيلة السنوات الست الأولى من حكمه متمسكين بالهدوء معتصمين بالسكينه بالرغم من العسف الشديد الذي تعرضوا له على ايدي الحكام الجدد .

اما في الولايات النائية فان الأخطار التي كان المسلمون عرضة لها من اعدائهم المشتركين قد جعلت الجيوش تنهمك في درئها ، وادت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى فتح « بلخ » والاستيلاء عـلى « هراة » وكابول وغزنة ، كما ان الانتقاضات في جنوبي فارس قد أدت إلى اخضاع كرمان وسجستان . ولقد حذا عثمان حذو عمر في اقرار أمور الممتلكات الجديدة ، فما أن تم فتح هـذه البلدان حتى اتخذت التدابير الفعالة لتحسين مواردها المادية ، فحفرت الجداول ، وشقت الطرق ، وغرست أشجار الفاكهة ، وانشئت مؤسسة نظاميـة للشرطة لحمايـة التجارة .

وأما غارات البيزنطيين من الشمال فقد أدت إلى توغل المسلمين في البلاد التي تسمى الآن آسية الصغرى ، نحو البحر الأسود ، وفي افريقية تم فتح طرابلس وبرقة ، كما تم الاستيلاء على قبرس في البحر الأبيض المتوسط ، وتحطيم الأسطول الذي بعث به الرومان لاستعادة مصر .

وبينما كان الاسلام ينتشر في الأمصار النائية كان علي يحاول في المدينة توجيه طاقة العنصر العربي الفتية إلى الناحية الفكرية ، فأخذ مـع ابن عمه عبد الله بن العباس [1] في القاء محاضرات اسبوعية في مسجد المدينة في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقه ، بينما شرع غيرهمـا في القاء محاضرات في موضوعات أخرى ، فتألفت بذلك نواة الحركة الفكرية التي ظهرت بمثل تلك القوة الكبيرة في بغداد بعد ذلك .

وفي الوقت نفسه كان ضعف الخليفة وخبث المقربين اليـه سبباً في

---

١ – المعروف بابن عباس . ولد سنة ٦١٩ م وتوفي سنة ٦٨٧ م .

اشاعة التذمر والسخط بين الناس ، وطفقت الشكاوى الصارخة من فداحة الضرائب واستبداد حكامه تتدفق على العاصمة . وتحدث علي مرات عديدة إلى الخليفة في أمر الحكم وكيف انه سمح بأن يقع في أيدي المقربين اليه ، ولكن عثمان ، متأثراً بأمين سره مروان ، لم يستمع إلى نصحه ، وأخيراً وصلت الوفود إلى المدينة تطلب اشاعة العدل فوعدهم الخليفة خيراً وأعادهم إلى امصارهم ، غير انهم عثروا وهم في طريقهم إلى بلادهم على كتاب بخط مروان ، وقيل انه كان يحمل ختم الخليفة ، يتضمن أمراً إلى الحكام المحليين بقتل رؤساء الوفود حال وصولهم فاستشاطوا غضباً وعادوا إلى المدينة طالبين ان يسلّم مروان اليهم ، بعد ان انضم اليهم في هذا الطلب بعض من أفراد بني أمية [1] . ولكن الخليفة السيء الطالع رفض هذا الطلب رفضاً قاطعاً فاستشاطوا غضباً واعتقدوا بأن له ضلعاً في المؤامرة عليهم فحاصروه في بيته . في هذه الساعة الحرجة تخلى الأمويون عن الخليفة الشيخ وفروا إلى الشام حيث كان معاوية عاملاً للخليفة ، بينما دافع علي وأولاده وأفراد اسرته عن عثمان دفاعاً مجيداً بحيث لقي الثائرون صعوبة كبرى في النيل من المدافعين . وأخيراً تسلق اثنان من المحاصرين جدار البيت فدخلاه وقتلا الخليفة الشيخ وهو في الثانية والثمانين ، وقيل في السادسة والثمانين ، من عمره . وكان عثمان معتدل الطول ، ملتحياً ، يفتقر إلى قوة الشخصية ، غير ان الجود كان ميزته الرئيسية ، وكان من عادته ان يغدق الهبات السخية على أقاربه ، كما اهدى كاتبه مروان في مناسبات عديدة أموالاً من بيت المال مما أثار عليه حفيظة المسلمين بطبيعة الحال .

وبعد قتل عثمان بويع علي بن أبي طالب بالخلافة دونما معارضة ، وقد كان في عهد الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه عضواً بارزاً في مجلس الشورى ، مستعداً أبداً لمساعدتهم بنصحه وارشاده ، وإن كثيراً من

---

١ - المسعودي في مروج الذهب .

الأعمال الادارية العظيمة في عهد عمر بن الخطاب قد تمت بناءً عـــلى مشورته ، فالواقع ان عمر كان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً وأنابه عنه في المدينة عندما قام برحلتـــه إلى الشام . ولكن علياً حافظ على استقلال شخصيته طيلة اطوار حياته ووقف نفسه على طلب العلم وتثقيف أولاده وعندما بويع بالخلافة مشى ببساطته المعهودة إلى المسجد فوقف متكئـــاً على قوسه الطويلة وأخذ يتقبل البيعـــة من الناس وهو يعلن في الوقت نفسه استعداده للتنازل عن الخلافة إلى أي شخص أجدر بها منه .

لقـــد جمع زوج فاطمة في شخصه الحق الوراثي والانتخابي في الخلافة . يقول المؤرخ الفرنسي سيديلو : « كان يخيل للمرء أن الجميع سينحنون ، عند مبايعتهم علياً بالخلافة ، أمام هذه العظمة البالغة الطهر والجلال ، ولكن المقدّر كان غير ذلك . » فمنذ البدء احاط الأمويون علياً بعدائهم ، ولكنه ، مدفوعاً بشرف الغاية الذي كان يتميز به دائماً ، ضرب عرض الحائط بالنصائح التي اسديت اليه للمصانعة ومراعاة الظروف، وأصدر أمره فور توليه الخلافة بعزل الحكام الذين عينهم عثمان، وباستعادة الأراضي التي كان عثمان اقطعها لاتباعه من بيت المال ، وبتوزيع الخراج بمقتضى القواعد التي وضعها عمر [1] ، مما اثار حفيظة اولئك الذين أثروا في العهد السابق . أما عمال عثمان فنهم من تنازلوا عن مناصبهم دونما مقاومة ، ومنهم من رفض وثار ، وكان بين هؤلاء معاوية بن ابي سفيان عامل الشام الذي مكنه ثراء الولاية من حشد جيش كبير اغدق عليه الهبات فأصبح يدين له بالولاء ، وهكذا رفع معاوية راية العصيان بعد أن اتخذ للأمر أهبته .

ولكن هذه لم تكن الصعوبة الوحيدة التي كان على عليّ أن يجابهها، ذلك أن رفضه طلب طلحـــة والزبير ، من أشراف قريش ، استعمالهما على الكوفة والبصرة قلب ولاءهما المشكوك فيه إلى كراهية شديدة ، فضلاً

١ – المسعودي .

عن أن عـــائشة بنت أبي بكر ، وزوج الرسول ، التي كانت تكنّ الكراهية لعلي ، صبت الزيت على النار ، وتناسى طلحة والزبير يمين الولاء التي اقسماها وفرا اولاً إلى مكة ومن ثم إلى العراق حيث التحقت بهما عائشة . وقد تمكنوا في العراق من جمع جيش كبير لمهاجمة الخليفة ، ولكن علياً كان يتبعهم عن كثب وحاول اقناعهم مرات عديدة بالرجوع عن الحرب دون جدوى .

وقعة الجمل

ونتيجة لهذا الرفض نشبت بين الفريقين معركة في « الحربية » قتل فيها طلحة والزبير [1] واسرت عائشة وأُعيدت إلى المدينة محاطة بكل امارة من أمارات الاعتبار والاحترام .

وقعة صفين

وبعد أن هدأت الأمور في كلدة والعراق تقـــدم الخليفة إلى الشام فالتقى بالثوار في مكان يدعى صفين ، إلى الغرب من الرقة . ولقـــد سعى عليّ ، بما عرف عنه من انسانية ، إلى ان يحسم الخلاف بصورة سلمية ، ولكن معاوية استبد به الغرور وفرض شروطاً مستحيلة . عند ذلك عرض علي ، حقناً للدماء ، انهاء الخلاف بالمبارزة الشخصية بينه وبين معاوية ، ولكن معاوية رفض التحدي . وبالرغم من كل تحرش فقد أمر الخليفة جنوده « ألاّ يبدأوا القتال ، وألاّ يطلبوا موليـــاً ، وألا يتبعوا مدبراً » . وهزم الثوار في ثلاث معارك متوالية ، وكان معاوية على وشك ان يلوذ بالفرار لولا حيلة لجأ اليها صاحبه عمرو بن العاص فانقذتهم من الهلاك . لقد أوعز عمرو إلى رجاله برفع المصاحف عـــلى أسنة الرماح والرايات ، والدعوة إلى التحكيم ، وفي الحال توقف جنود

---

[1] — يطلق على المكان الذي حدثت فيه هذه الواقعة اسم وادي السباع .

الخليفة عن متابعة القتال ودعوه إلى احالة الخلاف للتحكيم ، ففطن إلى المكيدة ، غير أن إلحــاف الجيش جعله يوافق على الطريقة المقترحة . ولسوء الحظ وقع اختيار الحــكم الذي يمثله على رجــل مسن يسمى أبا موسى الأشعري ، وكان يضمر العداء لعلي ، كما لم يكن كفؤاً بأيــة حال لعمرو بن العاص ، ممثل معاوية . وهكــذا حرم عليّ من ثمرة انتصاراته على يدي جنوده أنفسهم فانسحب مشمئزاً بجيشه إلى الكوفة .

ثورة الخوارج

وفي الكوفة بدّل الرجال الذين كانوا قد رحبوا باحــالة النزاع إلى التحكيم في صفين من رأيهم ، فسخطوا على تلك الفكرة واعتبروهــا ضرباً من الأثم ، ولم يلبثوا أن أعلنوا عصيانهم [1] وانسحبوا إلى نهروان على تخوم الصحراء متخذين موقفاً عدائياً . لقد رفضوا أن يعودوا إلى الجيش كما رفضوا العودة إلى منازلهــم ، وأخيراً أصبح سلوكهم من الخطورة بحيث اضطر الخليفة إلى ان يحمل عليهم فقتل معظمهم وفرت فلولهم إلى البحرين والأحساء حيث شكلوا نواة جماعة متعصبة كــانت تهدد الامبراطورية وتقض مضجعها مرة بعد أخرى بسبب الهجمات الدموية التي كانت تشنها عليها .

وبينما كانت هذه الاحداث تجري في الشرق اثبت أبو موسى واحداً من أمرين : إما أنه كان خائناً ، أو أنه وقع تماماً في الفخ الذي أقاموه له في « دومة الجندل » ، عندما اقترح عمرو بن العاص ، حقناً لدماء المسلمين ، أن يخلع كل منهما صاحبه ، وأن يقدم أبو موسى فيخلع علياً ، وأن يتقدم عمرو من بعد فيخلع معاوية ، وان يشرعا بعد ذلك في انتخاب خليفة جديد . وقد وقع أبو موسى الساذج في الشرك فاعتلى المنبر وقال : « اني اخلع علياً عن الخلافة » ، وتلاه عمرو فاعتــلى

---

١ — ومن هنا سموا بالخوارج .

المنبر واقرّ خلع عليّ وثبت معاوية .

وقد أثار هذا الاعلان غضب اتباع الخليفة وتفرق الجمعان وهما يتوعدان ، ورجع أبو موسى إلى المدينة حيث شرع في السنوات التالية يقبض مخصصات من البلاط الأموي . وبعد ذلك استمرت الحرب ضد معاوية بصورة متقطعة ، فقد كان الخليفة يواجه المصاعب على الحدود الشرقية ولم يكن قادراً على ان يسير قوة كبيرة لمهاجمته ، وهكذا لم يجد معاوية نفسه قادراً على الاحتفاظ بالشام والمناداة بنفسه خليفة فحسب، بل على أن يقوم بفتح مصر وبسط سلطته عليها أيضاً .

اغتيال علي (١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ)

لقد ساعد السم والخنجر على قتل انبل اتباع الخليفة الذي قُتل هو نفسه بيد اثيمة في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١ م ، بينما كان يصلي في مسجد الكوفة ، وهكذا مات ، وهو بعد في عز شبابه ، « اسلم المسلمين طوية » ... كما يصفه الكولونيل « اسبورن ».

كان علي وديعاً ، محباً للخير ، شهماً ، مستعداً ابداً لمد يد المعونة إلى الضعفاء والمحرومين ، وكان قد وقف حياته كلها على قضية الاسلام. ولو انه كان يملك الحزم الذي تميزت به شخصية عمر اذن لتحقق من النجاح بقسط أوفر مما تحقق به عمر في حكم جنسٍ عنيد صعب المراس كالعرب ، ولكن العرب اساءوا فهم رِفقه وشهامته وكرم أخلاقه ، واستغل اعداؤه لمصلحتهم الخاصة انسانيته ومروءته وحبه للحق :

ولقد وصف علي فقيل فيه انه كان ذا بشرة موردّة ، ليس فارع الطول ولكن قوي البنية إلى أبعد الحدود ، يميل إلى السمنة ، طويل اللحية وله عينان ناعمتان ونظرة تنم عن قدر كبير من العطف والحنان . وقد اكسبته شجاعته لقب « أسد الله » ، وعلمُه لقب

« باب العلم » .

وإذ كان علي فارساً وكريماً ومتساهلاً إلى حدود الضعف فقد استبق اوانه كحاكم . وكانت معظم الاعمال العظيمة التي بدأها عمر لخير الناس من ثمرة نصحه ومشورته ، وكان مستعداً أبداً لاغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، ولا تزال القصص عن جلائل اعماله تُقرأ بحماس من اسواق القاهرة حتى اسواق دلهي فتحدثنا كيف أن فارساً انقذ رجلاً غريباً من الاسود في القفار ، وكيف ان المرأة المسكينة عندما وقعت وزوجها الجريح في ايدي اللصوص استغاثت فظهر « أسد الله » وانقذهما . مثل هذه القصص تعيد إلى ذاكرتنا شهامة العرب مجسّمة في شخص بطلهم الاعظم .

وعندما كان علي على فراش الموت أوصى أولاده بالبرّ والتواضع والاعراض عن الدنيا ، واصدر أمره الصريح بالاّ يعذب قاتله ، وان ينفذ فيه الاعدام بضربة واحدة .

ولقد اجمل المسعودي في وصف خلاله فقال : « كان والله علم الهدى ، وكهف التقوى ، ومحمل الحجا ، وبحر الندى ، وطود النهى ، وكهف العلا للورى ، داعياً إلى المحجة العظمى ، متمسكاً بالعروة الوثقى ، خير من آمّن واتّقى ، وأفضل من تقمص وارتدى ، وابرّ من انتعل وسعى ، وافصح من تنفس وقرا ، واكثر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى ، صاحب القبلتين ، فلا يوازيه أحد ، ولا يقارنه بشر » .

وكان لعلي من فاطمة ثلاثة بنين وأربع بنات ، وتوفيت زوجته بعد وفاة ابيها النبي ببضعة أشهر ، ولم يتخذ له زوجة أخرى طيلة حياتها مع أن العادات العربية تسمح له بذلك . وكانت فاطمة سيدة عظيمة بالنسبة إلى العصر الذي عاشت فية ، بارعةً ، مهذبة وذكية ، وكانت اقوالها واغانيها وحكمها تدل على قوة في الشخصية وسمو في

التفكير ، وقد اكسبتها فضائلها لقب « سيدة النُّور » ، وهو اللقب الذي تعرف به بين المسلمين . وكانت فاطمة طويلة القامة ، رشيقة القوام ، حباها الله بقسط وافر من الجمال كان سبباً في أن يطلق عليها اسم « الزهراء » .

وبموت علي انتهت الجمهورية الاسلامية .

يقول الكاتب الفيلسوف « اوسلر » في كتابه « بعض تأثيرات الدين الاسلامي » :

« وهكذا انتهى نظام الحكم الشعبي الذي كان قوامه البساطة المشيخية ، ولم يقدّر له من بعدُ ان يظهر في أية دولة اسلامية ، ولم يبق بعد زوال نظام الحكم الانتخابي سوى الفقه والاحكام المستندة إلى القرآن ، غير ان بعض النزعات الجمهورية التي اكسبت الدول الصغرى قدراً معيناً من العظمة ، والدول الكبرى مزيداً من القوة ، ظلت راسخة في الامة الاسلامية بالرغم من جيوش المغتصبين . »

الفصل السادس

نظرة عامة – الحكومة – السياسة – الادارة – الجيش – الحياة الاجتماعية

نظرة عامة

في ابان السنوات العشر التي عاشها النبي في المدينة شرع العديد من القبائل والافخاذ المتحاربة تتوحد لتؤلف أمة واحدة بتأثير فكرة سامية واحدة . ولسوف يبقى ذلك العمل الذي تم في تلك الفترة القصيرة من الزمن خالداً كواحد من اجل الاعمال التي سطرها التاريخ .

في عهد أبي بكر قامت تلك القبائل التي تم اخضاعها بمحاولة متهورة للعودة إلى سيرتها الاولى ففشلت في محاولتها . وبعد ذلك لا نستطيع أن نرى إلا ما نشبهه بفيضان النيل ، فهناك في بادىء الأمر معالم البؤس والخراب ، إلا أن أمارات الخصب لا تلبث أن تبدو في كل تربة غمرها النهر بمياهه . كذلك كان شأن العرب بعد الاسلام ، ذلك ان عداء الدول المجاورة كان السبب الأكبر في انسياحهم وفي ما كان لهذا الانسياح من تأثير في الشعوب والبلدان .

في غضون الثلاثين عاماً التي عاشتها الجمهورية طرأ تطور عظيم على

العرب . صحيح ان حياتهم الاجتماعية كانت ما تزال على حالها القديمة ، غير أنهم بدأوا ينمون ذوقاً إلى تلك المكملات التي أدت بادىء الأمر إلى تطور تلك الحياة ومن ثمّ إلى انحطاطها ، فازدانت المدن الكبرى بالمباني الجميلة ، واصبحت الحياة مفعمة باسباب الترف ، واستحدث نظام الموالاة المتبع في الجزيرة العربية في البلدان المفتوحة ، فاطلق على الفرس والاتراك والروم الذين اعتنقوا الدين الاسلامي اسم « الموالي » [1] بعد ان انتسبوا إلى الاسر والافخاذ العربية ، فزادوا من منعة هذه الأخيرة واكتسبوا لأنفسهم الاحترام والمكانة في وقت واحد . وبالرغم من أن العرب كلهم كانت تطغى عليهم الفكرة الدينية المركزية فان انصهارهم لم يكتمل أبداً ، ومن هنا نجد ان دولة الاسلام في آخر عهد الجمهورية قد انقسمت إلى قسمين ، تماماً كما كان شأن مكة قبل عهد النبي ، قسم يدين بالولاء إلى آل البيت (بني هاشم) ، والقسم الآخر يدين بالولاء إلى اعدائهم الالداء ؛ بني أمية . ومع ان غدر عمرو بن العاص قد أحدث في الاسلام صدعاً لا سبيل إلى رأبه وأدى فى النتيجة الى خصومات مريرة بين الحميريين والمضريين ، فانه لم تكن قد نشأت بعد تلك الطوائف الدينية . حتى الخوارج أنفسهم لم يختلفوا مع غيرهم في الاساس إلا على مسألة البيعة ، رافضين الاعتراف بأي خليفة بعد عمر بن الخطاب .

الحكومة

كان الخليفة هو الرئيس الأعلى للحكومة ، وكان يساعده في الحكم مجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة الذين كانوا يعقدون اجتماعاتهم

[1] ـ لقد اخطأ المؤرخون الاوربيون ، بصورة عامة ، عندما افترضوا ان جميع الموالي كانوا من الطلقاء ، فالحقيقة انه كان عند العرب نوعان من الموالي : الاول ينتظم الطلقاء والثاني الحلفاء . صحيح ان بعض الموالي كانوا من الطلقاء دون شك ، ولكن اكثريتهم كانوا من الحلفاء .

في المسجد الكبير ويساعدهم في الغالب أشراف المدينـة وشيوخ البدو الموجودون فيها . وكان الخليفة يعهد إلى عـدد من الصحابـة بمهام خاصة ، مثال ذلك ان عمر بن الخطاب ، في عهد أبي بكر ، قد وُلي القضاء وتوزيع الصدقات ، في حين عُهد إلى علي بن أبي طالب، بوصفه عالماً ، بتحرير الرسائل والاشراف على شؤون الأسرى ومعاملتهم وفدائهم ، كما وُليّ آخر عُدّة الجند . وهكذا نرى ان شؤون الادارة بجميع تفاصيلها كانت موضع العناية ، إلا انه لم يكن يتخذ ايما قرار إلا بعد الرجوع إلى مجلس الشورى .

السياسة

في ابان الثلاثين عاماً التي عاشتها الجمهورية استمدت السياسة صفتها من عمر بن الخطاب على وجه خاص ، سواء في حياته أو بعد وفاته . كانت سياسته ترمي إلى توحيد الجزيرة العربية وصهر القبائل العربية في أمة واحدة . وإذ اجبرته الظروف على الاعتدال في غزو البلاد الأجنبية فقد كان همه ان العرب ، في أوطانهم الجديدة ، يجب ان لا يفقـدوا قوميتهم أو يمتزجوا بسكان البلاد الأصليين ، ولو ان الله أمدّ في حياة عمر اذن لتمكن بفضل قوة خلقه من ان يجعـل العرب اكثر تجانساً واتحاداً ، وحال بذلك دون وقوع تلك الحروب الأهلية الهدّامـة التي أدت الى دمار دولة الاسلام [1] .

وفي سياسة عمر نواح عديدة جديرة بالاهتمام الخاص . أولاها إبعاد جميع العناصر المعادية أو الغريبة عن شبه الجزيرة العربية ، بحيث تبقى للعرب وحدهم [2] ، وثانيها تجنب الاغراق في توسيع أطراف الجمهورية.

ولقد أدرك عمر بثاقب بصره وبعد نظره ، وهي الميزة التي كثيراً

---

١ – يعتبر كاتب اوروبي ان هذه الحروب الاهلية والخصومات القبلية هي السبب في خلاص اوروبا .

٢ – كانت هناك سياسة مماثلة متبعة في روسيا القيصرية .

ما افتقر اليها الحكام الذين جاءوا من بعده ، أن استقرار شؤون امبراطوريته وتطورها المادي كانا يتوقفان على رخاء الفلاحين . ولتحقيق تلك الغاية منع بيع الاملاك والاراضي الزراعية في البلدان المفتوحة [1] ، ولكي يحمي سكان البلاد الاصليين من ايما اعتداء من جانب العرب الفاتحين حظر عليهم امتلاك الاراضي من هؤلاء السكان . وهكذا اصبح الفلاحون وأصحاب الاراضي يتمتعون بحماية مزدوجة من نزع ملكياتهم .

ولعل الباعث الذي حمل عمر على سن تلك القوانين كان ايضاً الدافع إلى إبقاء العنصر العربي متميزاً عن الشعوب والجاليات الاخرى التي كان يعيش بينها ، وصاحب الكلمة فيها ، وهو دافعٌ غير نادر إطلاقاً في التاريخ ، سواء منه القديم والحديث ، ولكن السلطة التي أعطاها للعرب ، والامتيازات التي منحهم اياها ، لم تكن مقتصرة عليهم وحدهم ، ذلك ان الفرق في اللون والجنس والقومية لم يكن يعتبر عقبة تحول دون المساواة ، ففي عهد عمر كان اعتناق الاسلام او انتساب غير العربي الى قبيلة عربية سبباً كافياً لرفعه إلى مستوى العربي الاصيل ، وهذه السياسة على الأقل قد بقيت متبعة في عهود من تلاه من الخلفاء ، ولذا نرى أن كثيراً من الأسر الفارسية قد اصبحت موالي لأسرٍ عربية من دون أن تغيّر دينها ، كما نرى ان كثيراً من الأسر المسيحية في الشام ومصر ومن برابرة افريقية انتسبت الى قبائل عربية . والذي لا شك فيه انه كانت هناك امتيازات خاصةٌ بالدين السائد ، كما كانت العادة ولا تزال في البلدان وبين الجاليات الأخرى ، مما ساعد على التعجيل بنبذ الأديان القديمة ، وعن اقتناع في الوقت نفسه .

تميل مبادىء الاسلام وقواعده الى الديمقراطية ، مع مسحة قوية من الاشتراكية ، فالناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم ، سواسية أمام الله ، وليس الحكام إلا نوابه لحماية الناس من الاضطراب والفوضى . ولم تكن

---

[1] ــ استثنيت الحيرة ، حيث كانت حرية البيع موجودة من قبل ، من هذا التدبير .

إيرادات الدولة لمنفعة الخليفة أو اثرائه ، بل لخير الناس جميعاً ، وكانت الزكاة تُجمع من الأغنياء لاغاثة الفقراء ، وبالتالي لم يكن بيت المال في أوائل عهد الجمهورية بحاجة الى حراسة او سجلات حسابية ، فالعشور كانت توزع على الفقراء حال ورودها ، أو تنفق على الجنود المدافعين عن الدولة ، وكذلك كانت توزع غنائم الحرب بالتساوي بين الجميع ، سواء منهم الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والعبد والحر . وبعد ذلك ، عندما وُجد أن هذه التوزيعات أضخم من أن تضبط بصورة عملية ، استبدلت بها علاوات ثابتة ، وأصبح لكل فرد من أفراد الامة مرتب من الدخل العام على أساس مقياس تدرجي . ولكن هذه الفائدة لم تقتصر على المسلمين وحدهم ، بل شملت أيضاً أهل الذمة اذا أبدوا الولاء أو الأمانة في الخدمة العامة . أما الخلفاء فلم تخصص لهم مصروفات سرية او علاوات استثنائية . ولما كان النبي لم يفكر هو او خليفته عمر بتقسيم الأراضي المملوكة ، لأن ذلك كان لا بد من أن يؤدي بالنتيجة الى إفقار الأسر ، فقد اتخذ تدبير للحيلولة دون ذلك باتبـاع نظام الاوقاف ولهذه الغاية نفسها ظلت الاراضي الاميرية في البلدان المفتوحة ملكاً للدولة بدلاً من أن تقسم بين الجنود ، وكانت ايراداتها تقسّم على مستحقيها بعد سداد النفقات .

ولسوء الحظ كان هناك في عهد عثمان انعكاس تام للأوجه الأساسية في سياسة سلفه العظيم ، ذلك انه لم يكتف بعزل العمال الأكفاء الذين ولاّهم عمر على الولايات فحسب ، بل انه عمـد الى تعيينات جديدة لارضاء لمطاليب أقاربه ، واخذ في اقطاع هؤلاء الاراضي الاميرية التي كانت ملكاً للدولة ، وبهذه الطريقة حصل معاوية على جميع الاراضي الاميرية في الشام وفي قسم من ميزوبوتاميا . اما السواد الذي كان عمر قد أبقى عليه للدولة فقد اعطي لقريب آخر من اقربائه . واما بيت المال الذي كان في عهدي ابي بكر وعمر ملكاً للأمة كلها فكثيراً ما

أفرغ من المال الذي كان يوزعه عثمان على أشياعه ومحاسبيه ، في حين ذهبت ثروات الولايات إلى جيوب الامويين بغية ان يثروا ويتمكنوا من الاستعداد للكفاح من اجل الاستحواذ على السلطة . كذلك ألغى عثمان الامتيازات التي كانت قد منحت لغير المسلمين واستحدث قوانين قاسية مختلفة مناقضة تمام المناقضة لقوانين سلفيه ابي بكر وعمر ، كما أباح بيع الاراضي ، وكان اول من أحدث الاقطاعات العسكرية .

ولقد كانت ادارة علي بن ابي طالب منهمكة في الحرب الأهلية الى درجة لم تتمكن معها من إصلاح مساوىء الادارة السابقة ، ولكن علياً عزل معظم العمال الفاسدين وأعاد العمل بسياسة عمر في كل مكان بسط عليه سلطته ، وأسس دائرة رسمية لحفظ سجلات الخلافة و « ديوان الحاجب » وأعاد تنظيم الشرطة ووضع أنظمة خاصة بها ودعا رئيسها « صاحب الشرطة » .

الادارة

بعد أن سقطت مكة وتم اخضاع الجزيرة عيّن النبي العمال على المدن الرئيسية والولايات واطلق على كل منهم اسم « الامير » . ولقد ابقى عمر ، الذي يمكن أن يعتبر المؤسس الحقيقي للادارة السياسية في الاسلام ، على هذا اللقب ، وقسم البلدان المفتوحة الى ولايات متراصّة ، وذلك لكي يمكّن ولاته عليها من تطوير موارد البلدان التي أوكل أمرها اليهم ، وهكذا تألفت من الاهواز والبحرين ولاية واحدة ، ومن سجستان ومكران وكرمان ولاية أخرى ؛ بينما بقيتْ كلّ من طبرستان وخراسان ولاية مستقلة . كذلك ولّى ثلاثة أمراء على جنوبي فارس ، في حين ولّى اميرين على العراق ، أحدهما في الكوفة وثانيهما في البصرة ، وفعل الشيء نفسه في الشام ، فكانت حمصُ مقراً لامير الولايات الشمالية ، ودمشق مقراً لوالي القسم الجنوبي ، واسندت ولاية فلسطين الى

أمير آخر .

أما في افريقية فقد أسست ثلاث أمارات ، أولاها تتألف من مصر العليا ، وثانيها من مصر السفلى ، وثالثتها من الولايات الواقعة فيما وراء صحراء ليبيا .

وأما الجزيرة العربية فقد قسمت الى ولايات خمس ، وكان يطلق على حكام الولايات الصغرى اسم الوالي أو النائب ، وكان الحاكم ، في معظم الولايات ، يصلي بحكم منصبه بالناس ويلقي خطبة الجمعة التي كثيراً ما كانت تعتبرُ بياناً سياسياً .

ولقد عيّن عمرُ لفلسطينَ ودمشق وحمص وقنسرين قضاةً خاصين كي يؤموا الناس في الصلاة ويتولوا القضاء . ولتنظيم تسلُّم الايرادات وانفاقها أنشأ الدائرة المالية واطلق عليها اسم « الديوان » ، وكانت النفقاتُ العسكرية والمدنية لكل ولاية تؤخذ من ايراداتها قبل أي شيء آخر ، ثم تؤخذ بعدَها النفقات العسكرية ، ويوزع ما يتبقى منها على افراد الأمة . وكان لجميع الافراد ، سواء كانوا عرباً أصليين أو من مواليهم ، حقٌ في هذا المال المتبقي ، وكان يوزع عليهم حصصاً معينةً تعييناً واضحاً وصارماً في الوقت نفسه ، ولذلك كان الديوان يمسك سجلاً خاصاً باسماء جميع الأفراد المستحقين ، سواء كانوا من العرب أو غير العرب ، رجالاً او نساءً او أطفالاً .

وفي حين كان الحاكمُ هو الرئيس المدني والعسكري الاعلى في الولاية ، فقد كان يُعهد بالشؤون العسكرية والمدنية الى موظفين يعينون خصيصاً للقيام بتلك المهام ، وفي البلدان المفتوحة كانت الادارة تلحُّ بصورة خاصة على تحسين حالة الفلاحين وتنمية التجارة ، ولهذه الغاية مُسحت مصرُ والشامُ والعراقُ وجنوبي فارس حقلاً حقلاً ، ووضعت الجباية فيها على أساس متناسق موحّد ، حتى ان سجل هذا التخطيط العقاريّ العظيم ليشكل « كاتولوجاً » صحيحاً يصفُ بالتفصيل ، فضلاً

عن ذكر مساحة الاراضي ، نوع تربتها ، وحاصلاتها ، وهوية اصحابها وما الى ذلك .

وكذلك أنشئت شبكة من الترع في بابل ، ووضعت سدود دجلة والفرات تحت اشراف موظفين خاصين بعد ان كانت موضع الاهمال المجرم من قبل الاكاسرة [1] . وخفض عمر الضريبة على الزرع ، ورعى التجارة ، ولتسهيل الاتصال المباشر بين مصر والجزيرة العربية أمر باعادة حفر القناة القديمة التي تصل بين النيل والبحر الاحمر ، فتم حفرها في اقل من سنة واحدة واطلق عليها العرب اسم «قناة امير المؤمنين» ، وعندما اخذت السفن النيلية تصل الى ينبع وجدة حاملة غلال مصر هبطت أسعار الحنطة في أسواق مكة والمدينة حتى كادت تساوي أسعارها في أسواق مصر .

القضاء

كان يتولى القضاء قضاة مدنيون يعينهم الخليفة ، وكان هؤلاء مستقلين عن الامراء . وكان عمر أول خليفة في الاسلام عين المرتبات للقضاة وجعل مناصبهم مستقلة عن مناصب الموظفين التنفيذيين [2] ، واطلق عليهم اسم « الحكام » . يقول فان هامر : « كان القاضي ولا يزال ، يسمى حاكم الشرع . وهكذا فان الادارة الاسلامية ، حتى منذ طفولتها ، تعترف قولاً وفعلاً بضرورة الفصل بين السلطة القضائية والسلطة التنفيذية . » كان القانون يطبق على الجميع دون استثناء ، وكان الخلفاء انفسهم قدوة للناس فكانوا يخضعون لاحكام القضاة الشرعيين .

وفي بادىء الأمر كان الناس عموماً يقومون بمهام الحراسة ، فأحدث عمر العسس والحفر ، غير أن الشرطة لم تؤسس بصورة نظامية إلا في

١ـ هذه العبارة نفسها يمكن ان تنطبق على بعض الحكام الذين جاءوا من بعده .
٢ ـ كان زيد بن ثابت اول قاض تقاضى مرتبا في المدينة .

عهد عليّ الذي شكّل حرساً بلدياً سماه الشرطة وأطلق على رئيسها اسم صاحب الشرطة [1] . وبناءً على مشورة علي اوجد عمر التاريخ الهجري وأسس المدارس والمساجد في كل قسمٍ من اقسام الامبرطورية وخصص لها الاوقاف للانفاق عليها .

وكانت واردات الدولة تؤخذ من مصادر ثلاثة : (١) الاعشار ، أو الزكاة ، التي كان يؤديها اغنياء المسلمين وتخصص للدفاع عن الدولة ودفع مرتبات الموظفين المكلفين بجبايتها ومساعدة المحتاجين من المسلمين ، (٢) ضريبة الارض التي كانت تجبى من أهل الذمة ويطلق عليها اسم الخراج ، و (٣) ضريبة الاعناق او الجزية .

ولقد كانت هاتان الضريبتان موجودتين في عهد الامبراطورية الرومانية ، وتعرفان بالاسمين نفسيهما ، والحقيقة الثابتة هي ان ضريبة الاعناق كانت مطبقة في عهد الساسانيين في الامبراطورية الفارسية ، فاذا كان المسلمون قد احدثوا هاتين الضريبتين في مصر والشام والعراق وفارس فانهم لم يزيدوا على انهم اتبعوا سابقتين كانتا سائدتين من قبل ، ولكن مدناً وولايات وقبائل خاصة استثنيت من هذين العبئين ، وحتى في البلدان التي كان دفع هاتين الضريبتين اجبارياً فيها كان يشترط أن تشكلا اخف عبء ممكن على المكلفين بها ، وكان اليهود والمسيحيون والسامريون والمجوس الذين كان يطلق عليهم اسم « اهل الكتاب » يعاملون معاملة عادلة انسانية .

وكان الجيش يتألف من المجندين البدو والمتطوعين الذين كانوا في معظمهم يؤخذون من المدينة والطائف والمدن الاخرى ، وكانت مرتباتهم تدفع في بادىء الأمر من الاعشار ، ومن ثم من الاعشار والضرائب معاً . وفي بادىء الأمر ايضاً كان الخليفة يعيّن القائد العام فقط ، وكان على هذا ان يختار ضباطه ، وأن يؤم النساس في الصلاة يومياً بوصفه

١ – يقول السيوطي ان الشرطة اسست في عهد عثمان ولكن تحسن مراجعة ابن خلدون وفون هامر .

ممثلاً للخليفة . واذا اتفق ان اتحدت عدة فرق من الجيش فقـــد كان الخليفة يعين بوضوح القائد الذي يجب ان يؤم المصلين ، وكان هذا التعيين دلالة على منصبه كقائد عام للجميع . وقد شرع عمر في أواخر ايام ادارته في تعيين صغار الضباط أيضاً ، كالعرفاء وغيرهم ، وكان جزاء الاخلال بالنظام ، والجبن في ساحة القتال ، التشهير وتمزيق العمامة عن رأس المذنب ، وهو عقابٌ كان يعتبر في تلك الايام عاراً كبيراً على من ينزل به ، ولذا كان كامل المفعول .

وكان الجيش يتـــألف من الفرسان والمشاة . فأما الفرسان فكانوا يُسلّحون بالدروع والسيوف والرماح الطويلة ، بينما كان المشاة يسلحون بالدروع والرماح والسيوف ، أو بالدروع وبالأقواس والنشاب ، وكان رماة السهام يؤلفون العنصر الأهم بين المشاة الذين كانوا ينتظمون عادة في ثلاثة صفوف طويلة ، يتقدمهم الرمّاحون لصد هجمات الفرسان ، ويتبعهم حاملو السهام . أما الفرسان فكانوا يوضعون على الجناحين الأيمن والأيسر ، ثم تبدأ المعركة بالمناهدة والمبارزات الفردية . وكان تفوق الجيوش العربية ذلك التفوق العظيم مردُّه الى سرعتهم القصوى في الانتقال ، والى صبرهم وقدرتهم على الصمود ، وهي صفاتٌ اجتمعت الى حميتهم واندفاعهم فجعلت منهم قوةً لا تقهر . كذلك كانت الجيوش العربية مزوّدة دائماً بالمؤونة الكافية ، وكانوا يمتطون الجمال في زحوفاتهم الطويلة المدى ، وفي بادىء الامر كانت معسكراتهم عبارة عن اكواخ مبنية من سعف النخيل ، غير ان عمر أمر من بعد ببناء محطات أو معسكرات دائمة ، فظهرت المعسكرات في البصرة والكوفة في العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في افريقية ، والمنصورة في السند ، وهلمّ جرا . أما في المدن الاخرى كحمص وغزة والرها واصفهان والاسكندرية فقد اقيمت حامياتٌ قوية لصد الهجمات المفاجئة .

وكان الفرسان يلبسون الدروع المصنوعة من السلاسل ، ويعتمرون

الخوذ الفولاذية التي كانت في الغالب تزين بريش النسور . أما المشاة فكانوا يرتدون قمصاناً ضيقة تلتصق بأجسامهم وتطول الى ما تحت الركب فوق السراويل ، كما كانوا ينتعلون أحذية كتلك التي ما يزال الافغـان والبنجاب يستعملونها . وكانوا يسيرون الى المعركة وهم يرتلون آيات من القرآن الكريم ، شأن مواثقي اسكتلندا أو البروتستانت في حرب الثلاثين سنة . ويكبّرون عند الهجوم ويستعملون الطبول . وكان المجندون من القبائل يحملون معهم نساءهم وأولادهم ، ولذلك شيدت لهم أمـاكن خاصة في المدن والمحطات العسكرية .

وكان الفساد ممنوعاً منعاً باتاً ، كما كان السكر يعاقب عليه بثمانين جلدة ، ولم يكن يطلب من الجنود الذين كانوا يقومون بالخدمة العسكرية في بلاد أجنبية بعيداً عن أسرهم أن يخدموا أكثر من أربعة أشهر دفعة واحدة ، وكان عمر اول من استحدث نظام سجلات الجند ، وأسس الحصون على الحدود وعيّن قواد السير .

الحياة الاجتماعية

في بادىء الأمر لم يكن هناك طراز معيّن لفن البناء ، ولم يكن في مكة سوى أبنية معدودة ذات مظاهر هندسية ، منها الكعبة . وكانت بيوت الاغنياء تشيّد إما من الحجارة او الآجر . امـا في المدينة فقد كانت البيوت في معظمها تبنى من الآجر ، وحتى الجامع الرئيسي كان عبارة عن بناء متواضع من الآجر المجفف في الشمس ، وفوقه طبقة من الجص . وكانت معظم البيوت تتألف من طبقة واحدة ذات فنـاء تتوسطه بئر . غير انه في أواخر عهد الخليفة الثـاني أخذ المعماريون الأجانب يتدفقون على عاصمة الاسلام مما شجع حركة البناء وحمل كبار رجال مكة والمدينة معاً على بناء منازل من الحجارة والمرمر .

ويقال إن القصر الذي بناه عثمان كان قصراً فخماً منيفاً يجلب جماله

الانظار، كما أن الجامع الكبير هُدم وشيّد مكانه بناء جديد من الحجارة والمرمر . ويقول المسعودي ان الصحابة في أيام عثمان ابتنوا لأنفسهم منازل فخمة ، والمنزل الذي بناه الزبير بن العوام في البصرة كان لا يزال قائماً في سنة ٥٣٢ هـ عندما كتب المسعودي ما كتب ، وكان التجار والصيارفة يستعملونه للأغراض التجارية . كذلك بنى الزبير عدة دور بالكوفة والفسطاط والاسكندرية ، وكانت هذه الدور ما تزال قائمة مع حدائقها في حالة جيدة زمن المسعودي . وبعد ان يذكر هذا المؤرخ كل هذه وغيرها من دلائل الفخامة والعظمة يقول آسفاً : « ما أعظم الفرق بين هذا كله وبين بساطة الحياة في أيام عمر المجيدة . »

وبينما انصرف أهل مكة إلى التجارة كان أهل المدينة يعتمدون في معيشتهم على حقولهم وأراضيهم ، مما أدى إلى اشتداد المنافسة القديمة بين المدينتين . كان أهل مكة منهمكين في القمار والخمر وأسباب الترف، في حين كان أهل المدينة ، وبخاصة في ظل الاسلام ، يقتدون بزعمائهم فيعيشون عيشة الزهد والتقوى . وبعد سقوط مكة اضطر أهل تلك المدينة المرحة المستهترة إلى ان يتمشوا على القواعد والقوانين الأخلاقية التي جاء بها الاسلام ، واستمروا في ذلك في عهدي أبي بكر وعمر، حتى إذا ما ولي عثمان الخلافة استأنف كثيرٌ من شبابهم النبلاء حياة المرح والطيش القديمة ، وكانوا في معظمهم من بني أمية ، وأصبح التشبه بالنساء هو الزي المألوف . كذلك انتقل لهو مكة إلى دمشق بشكل أسوأ في عهد الامويين . ومع ذلك فقد فرض أهل المدينة على أنفسهم حياة اكثر جداً ، فكانت قاعات المحاضرات تمتلىء بالطلاب المندفعين ، وكان الرجال والنساء على حد سواء يحضرون خطب الخلفاء . ولم تكن الموسيقى قد حُرّمت بعد ، فكان الناس بعد فراغهم من عمل النهار يزاولون الغناء والضرب على القيثارة والناي . وكانت نساء المدينة يحسنّ الغناء ، ويروي المؤرخون ان الخليفة الزاهد عمر بن الخطاب كثيراً ما كان يقف

اثناء جولاته الليلية يصغي إلى موسيقاهن

وكانت منازل الاثرياء تفرش بالبسط ، ولم تكن الكراسي أو المناضد قد شاعت بعد ، فكانت البسط تفرش باللبد حول الغرفة ، وكان صاحب الدار وضيوفه يجلسون عليها . أما أجنحة النساء فكانت مستقلة شأنها في انكلترا زمن الانكلوساكسون والنورمنديين الأولين ، كما كانت تفرش بالطريقة نفسها ، وكانت صحاف الطعام توضع على قطعة من القماش تفرش فوق صحيفة من الجلد أمام اللبد ، وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعده كما كان يفعل الاقدمون وكما كان الشأن في أوروبة في العصور الوسطى . ولم يكن الناس قد عرفوا بعد السكاكين والأشواك ، فكانوا يأكلون بأصابعهم كما كان يفعل الاوروبيون حتى زمن قريب جداً ، ولكن وضع اكثر من ثلاثة أصابع في الطبق كان يدل على منتهى قلة الذوق والأدب .

وكانت ملابس البدوي ، دون رتبة الشيخ ، تتألف عندئذ ، كما لا تزال تتألف اليوم ، من قميص بسيط طويل يصل إلى حد كعب الرجل ، وحزام من الجلد حول الوسط ، وفوقهما عباءة فضفاضة مصنوعة في الغالب من وبر الجمال ، وعند القتال تُلبس السراويل مع القمصان . أما غطاء الرأس فكان الكوفية والعقال .

وأما فى المدن فكان رجال الطبقة العليا وشيوخ القبائل بوجه عام يرتدون القمصان التي تصل إلى الركبة فوق السراويل ، ثم يرتدون فوقه رداءً فضفاضاً يصل إلى الكعب ، ويضعون حزاماً من حرير حول الوسط ، ثم يتشحون بالجبة ، أو العباءة . أما القباء المأخوذ عن البيزنطيين ، أو عن الفرس كما يقول البعض ، فلم يشع استعماله إلا في أواخر أيام الجمهورية ، وكان على نوعين : الأول ذو اكمام واسعة شأن المعاطف الخارجية الطويلة التي كان يلبسها نبلاء الانكلوساكسون ، والثاني له اكمام ضيقة ذات أزرار ، شأن القباء الذي لا يزال نبلاء

فارس يرتدونه حتى اليوم . أما العمامة فكانت لباس الرأس ، وكان حجمها يختلف باختلاف السن ، والجاه ، ودرجة العلم ، وكانوا كثيراً ما يضعون فوق العمامة الطيلسان ، وهو عبارة عن منديل يتدلى فوق الكتفين ويقي العنق من الشمس ، وأما لباس الرجل فكان إما الصندل أو الحذاء .

واما لباس النساء فكان يتألف من سروال واسع ، وقميص مفتوح عند العنق ، وكن يلبسن فوقه ، وبخاصة في فصل الشتاء البارد، سترة ضيقة ، ولكن لباسهن الرئيسي كان عبارة عن رداء طويل يشبه تلك الأردية التي ترتديها نساء الانكلوساكسون ، فاذا خرجن من بيوتهن لبسن فوقه عباءة طويلة إخفاءً للوجه أو وقاية للثياب من الغبار أو الوحل، وكن يغطين رؤوسهن بمنديل يعصبنه حول جباههن .

وكانت النساء قبل الاسلام يرتدين القميص والسترة مفتوحتين عند الصدر ، غير ان النبي أوصاهن بلبس العباءة إذا ما خرجن من بيوتهن ، ومن ثم نشأت في العهد العباسي عادة لفّ الجسم كله باللحف الذي نشاهده اليوم في مصر وبعض البلاد الاسلامية الأخرى .

كانت النساء عند العرب وما زلن يتمتعن بالحرية التامة . أما نظام الاحتجاب الشائع اليوم في كثير من البلدان الاسلامية فلم يتبع إلا بعد ظهور الاسلام بوقت قليل . فالنساء في عصر الجمهورية كن يتنقلن بحرية ودونما حجاب ، ويحضرن خطب الخلفاء ويستمعن إلى محاضرات عليّ وابن عبّاس وغيرهما ، كما ان النخوة العربية القديمة عند الرجال لم تكن قد أثر فيها بعد احتكاكهم بالبيزنطيين والفرس .

وكان العرب قبل الاسلام ، كاليهود القدماء ، معتادين على اتخاذ زوجات متعددات . وكانت هذه العادة هي النتيجة الطبيعية لهلاك الرجال في الحروب القبلية ، ولولاها لهلك النساء جوعاً . ولقد حرّم النبي العربي تعدد الزواج بصورة غير مباشرة عندما فرض حدوداً لهذه العادة ، ولكنه

جعلها ملائمة لجميع طبقات المجتمع ، وهكذا كانت الحياة البيتيــة في العهد الجمهوري حياةً أبوية . ولقد حرم الاسلام شراء الرقيق وبيعــه تحريماً قاطعاً ، ولم يَسمح إلا بابقاء الاشخاص الذين يقعون أسرى في الحروب الشرعية إلى أن يُفتــدوا ، وكان هؤلاء يعتبرون من أفراد العائلة .

الفصل السابع

الأمويون
٤٠ ـ ٦٤ هـ ؛ ٦٦١ ـ ٦٨٣ م

الحسن ـ تنازله ـ معاوية ـ اغتصاب الخلافة ـ المنازعات القبلية ـ بنو مضر ـ الحميريون او اليمنيون ـ تاثير النزاع القبلي في الاسلام ـ توسع الامبراطورية ـ وفاة معاوية ـ يزيد الاول ـ الحسين ـ موقعة كربلاء ـ ثورة الحجاز ـ انتصار الجيش الشامي في الحرة ـ نهب المدينة ـ وفاة يزيد الاول ـ معاوية الثاني ـ عبدالله بن الزبير ـ مبايعته في الحجاز .

الحسن (٤٠ هـ : ٦٦١ م)

انتخب الحسنُ ، أكبر أبناء علي ، للخلافة من جميع أهل الكوفة وملحقاتها ، ولكن تقلب الناس ذلك التقلب الذي حطم آمال الأب سريعاً ما دفع الابن إلى التنازل . ذلك أن الخليفة الجديد لم يكد يتسلم منصب الخلافة حتى زحف معاوية على العراق ، مما اضطر الحسن إلى الدخول في ميدان القتال قبل ان يتمكن من تعزيز مركزه او تنظيم الادارة التي

اضطربت بوفاة ابيه ، وبعد أن سيّر قوة بقيـادة قيس لوقف جيش الشام سار هو على رأس القوة الرئيسية إلى المدائن . وفي ابان ذلك أشيع كذباً نبأ انهزام قيس وموته ، مما ادّى إلى حصول تمرد بين جنـد الخليفة الشاب ، فدخلوا معسكره وانتهبوا متاعـه ، وفكروا حتّى في القبض عليه وتسليمه إلى عدوه .

تنازله

عند ذلك يئس الحسن مما أصابه وعاد ادراجه إلى الكوفـة مصمماً على التنازل عن الخلافة . ولقد دفعه غدر مؤازريه من العراقيين ، الذين أسرفوا له في الوعود وفي النكث بها ايضاً ، الى أن يعير اذناً صاغيـة لمقترحات معاوية ، واستقرت المفاوضات بينهما على أن تكون الخلافـة لمعاوية ما دام حياً ، فاذا مات انتقلت منه إلى الحسين ، أصغر أبنـاء علي . وبعد ان تنازل الحسن انقلب مع عائلته إلى المدينة ، غير انه لم يستمتع طويلاً بالمرتب الذي أمنته له معاهدته مع معاوية ، ذلك أنـه مات مسموماً بعد بضع سنوات بتحريض من يزيد بن معاوية .

معاوية (٣٠ تموز ٦٦١ م ؛ شوال ٤١ هـ) .

وبتنازل الحسن عن الخلافة اصبح معاوية الحاكم الحقيقي للمسلمين ، وانتقل مركز الحكومة الذي كان علي قد جعله في الكوفة إلى دمشق ، حيث أحاط معاوية نفسه بأبهـة ملوك الفرس والبيزنطيين وجلالهم ، وكثيراً مـا لجأ إلى السم والخنجر للتخلص من عدو لدود أو صديق صعب المراس ، دون ان تشفع به أواصر القربى ولا خدماته للاسلام . ومن بين الذين راحوا ضحية طموحهم أو اختلافهم في السياسة والرأي عبد الرحمن ابن فاتح الشام العظيم : خالد بن الوليـد ، وكان سبب اغتياله شعبيته العظيمة عند أهل الشام والمنزلة التي كانت له عند مفكري

المسلمين . ويوجزُ كاتب انكليزي تُعتبرُ آراؤه في هذه النقطة بالذات على الاقل خالية من الغرض ، يوجز أخلاق معاوية والظروف التي ضمنت له النجاح بقوله : « كان أول الخلفاء الامويين داهية ، مذبذباً ، قاسي القلب لا يحجم عن أية جريمة يكون اقترافها ضرورياً لتأمين مركزه، وكان القتل طريقته المعتادة في التخلص من اعدائه الألداء فهو الذي حرّض على تسميم حفيد الرسول ، وعلى قتل الأشتر النخعي مالك بن الحارث ، أحد قواد عليّ الأبطال ؛ بالطريقة نفسها .

« ولكي يضمن معاوية انتقال الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد لم يتردد في أن ينكث بالعهد الذي قطعه للحسن بن عليّ . ومع ذلك فان هذا العربي البارد الطباع ، البعيد النظر ، قد حكم دولة المسلمين وبقيت الخلافة في عائلته قرابة تسعين سنة . ويمكن العثور على تفسير لهذا الشذوذ في حالتين سبق لي أن أشرت اليهما أكثر من مرة واحدة : الأولى هي ان المسلم التقيّ الورع كان يرى أنه لا يستطيع اداء شعائره الدينية بأكبر قدر من الفعالية ألا إذا نبذ الشؤون الدنيوية ، والثانية هي الروح القبلية عند العرب [1] » .

تأثير خلافة الامويين في الاسلام

إن تولي الامويين الخلافة لم يتضمن تبديل الاسرة الحاكمة فحسب بل عنى ايضاً قلب المبدأ السائد وولادة عوامل جديدة اثرت ، كما سنرى ، اقوى تأثير في مصائر الامبراطورية وتطور الأمة . ولكي نفهم هذه الظروف ونلم بمجرى التاريخ يجب ان نستعرض بايجاز وضع القبائل العربية المختلفة في مواطنها وعلاقتها بعضها ببعض .

فاذا استثنينا من اعتبارنا الحروب التي تعود في اصلها إلى البغضاء الدينية أو إلى الاختلاف في المبادىء الاساسية ، كصراع الديموقراطية

---

١ ــ اوسبرن في : « الاسلام في ظل حكم العرب » .

مع الاوتوقراطية ، وصراع الحرية الشخصية مع الاستبداد الاقطاعي ، لما رأينا في آسية وأوروبة ، بين المسيحيين أو بين المسلمين ، سبباً أقوى وأكثر الحافاً ، في تفريق الشعوب والقوميات وفي اقحامهـا في حروب دموية مهلكة ، من العداء العنصري — ذلك الاحساس الذي يُلقي ظله الفظيع الشاحب على الاجيال ويبقى متأججاً بعد جميع الثورات السياسية والاجتماعية والدينية .

بنو حمير

عند ظهور النبي محمد كان يستوطن بلاد العرب ، كما ذكرنا من قبل ، شعب ينتسب الى ذريتين مختلفتين : الاولى من قحطان والثانية من اسماعيل بن ابراهيم . وكان منشأ الأولى اليمن ، ومنشأ الثانيـة الحجاز . وقد اطلق على القحطانيين فيما بعد اسم الحميريين ، نسبة الى حمير ، أحد أبناء عبد شمس ملكهم القديم [1] ، ولو كان المؤرخون العرب يسمونهم اليمنيين ، نسبة إلى موطنهم الاصلي . اما انا فسأطلق عليهم في الصفحات التالية اسم الحميريين أو اليمنيين ، دونما تفريق .

اما القبيلة التي استوطنت مأرب أو سبأ عاصمة اليمن في عهد ملوك بني حمير ، وحولها ، فقد كانت قبيلة بني ازد ، من أولاد قحطان . والظاهر انه في القرن الثاني الميـلادي شرع بنو ازد في التحرك نحو الشمال ، مما أدى الى إجلاء قبائل أخرى عنه ، والى ان يستقر فرع من الازديين آخر الأمر في « بطن مر » بالقرب من مكة فعرفوا بقضاعة (المنفصلون) وكانوا ما يزالون هناك عند ظهور النبي . ونزل فرعٌ آخر من الازديين في يثرب حيث تطور مع الزمن الى قبيلتين هما الاوس والخزرج وقد أشرنا اليهما سابقاً ، وارتحل آخرون إلى سورية والعراق .

---

١ — انظر « انت » ص ٣ . خلف حمير عبد شمس ، ويقال انه سمي حمير (احمر) لانه كان يلبس دائما رداء احمر .

فأما الذين استقروا في الجانب السوري فقد اطلق عليهم اسم بني غسان (الغساسنة) ، بينما اطلق على الذين استقروا في الجانب العراقي اسم بني كلب . وقد نزلت فصيلة اخرى في همدان ، بينما توجه عدد كبير منهم نحو الشرق ونزلوا بولاية عُمان على شواطىء الخليج الفارسي . هذا هو ، باختصار ، الوضع الذي كان عليه العرب الحميريون عند ظهور محمد .

المضريون

يطلق على قبائل العرب الاسماعيلية احياناً اسم بني معد [1] ، ولكن الاسم الغالب هو بنو مضر ، او المضريون ، نسبة الى مضر بن معد . وسأطلق عليهم في هذه الصفحات الاسم الأخير ، ولو ان هذه التسمية العامة كثيراً ما يستعاض عنها في التواريخ العربية بأسماء القبائل ، كقبيلة قريش وبكر وتغلب وبني تميم . فأما قريش فكانت تسكن مكة وضواحيها ، بينما انتشرت القبائل الاخرى في ارجاء الحجاز (باستثناء المدينة) واواسط بلاد العرب .

العداء بين حمير ومضر

ولقد كان بين حمير ومضر عداء دائم شديد يبلغ حد الكراهية والبغضاء ولا يمكن ان يدرك مداه من ينظر الى الموضوع من وجهة نظر التاريخ الاوروبي ، ذلك ان امر العرب قبل النبي كان يختلف عن امر الاوروبيين . قبل ظهور النبي بوقت طويل استعاض الحميريون عن لسانهم الحميري ، وكان مزيجاً من الاصطلاحات السامية والاخرى المحلية ، اللغة العربية الصافية التي كانت لغة بني مضر واكتسبت قدراً معيناً من السيادة الادبية . وكان العرب في كافة ارجاء الجزيرة العربية

---

١ ــ مضر بن معد بن عدنان حفيد اسماعيل .

يتكلمون لغة واحدة ، مع اختلافات بسيطة في اللهجة ، فضلاً عن ان عاداتهم واخلاقهم وافكارهم واذواقهم متشابهة .

اسبابه

ومع ذلك فان الانقسام بين الفرعين كان حاداً وواضحاً ، ولن نتمكن من العثور على السبب الا اذا تعمقنا في البحث الى درجة اكبر . كان الحميريون قد بلغوا شأواً عظيماً في الحضارة قبل بزوغ فجر الاسلام بقرون عدة ، وكانت لهم اينما حلوا حكومة منظمة ، بدائية من غير شك ، ولكنها مع ذلك كانت منظمة تنظيماً كافياً لأغراض الحياة المدنية العادية . وكانوا الى ذلك يعرفون فن الكتابة ، ويمارسون في معظمهم الزراعة .

اما المضريون فقد كانوا ، باستثناء قريش منذ زمن قصي ، قوماً رحلاً ، وكان كل بطن من بطونهم معزولاً عن الآخر ، متباين المصالح مختلف النزعات ، وكان فوق ذلك ينتخب رئيسه بطريقة التصويت ، ولقد ادى هذا الانقسام بطبيعة الحال الى خضوع المضريين لملوك حمير الذين ظلوا يؤدون لهم ، بالرغم من الحروب المتكررة ، الجزية حتى اواخر القرن الخامس الميلادي . وهذا الصراع الدائم بين الحميريين والمضريين ، في سبيل الغلبة والسيادة من جهة ، وفي سبيل الاستقلال من جهة اخرى ، قد خلق شعوراً من البغضاء المريرة والعداء الشديد الأوار في قلوب الفريقين معاً ، وكان يزيد في تأججها قصائد شعرائها الذين كانوا يشيدون فيها بأيامها ، كاليوم الذي فازت فيه كندة على تميم ، واليوم الذي اكتسحت فيه قيس بني ازد .

ولقد بدأت تعاليم الاسلام عند ظهوره بمحو هذه الكراهية القبلية والقضاء على تأثير تلك القصائد الحماسية ، ولو طال بمحمد الأجل اذن لتمكن بتعاليمه وشخصيته الفذة من صهر تلك القبائل في امة واحدة

متجانسة ، ولكن السنوات العشر — امد الرسالة — كانت اقصر من ان تقضي على سم العداء القبلي الذي ظل يعمل في الدم العربي قروناً عديدة ، ولم يكتمل هذا الانصهار الا في المدينة ، حيث كان تأثيره ملحاً ومستمراً .

ولقد حملت موجة الفتوحات التي جرت في ايام ابي بكر وعمر القبائل العربية الى اجزاء مختلفة من العالم ، فنزلت مضر بالبصرة ، بينما كان معظم الذين حلوا بالكوفة من بني حمير . وفي فلسطين وولاية دمشق كان المضريون هم العنصر السائد ، بينما كان القسم الشمالي من الشام ، شأن شمالي بلاد العرب ، في ايدي الحميريين . اما الولايات الشرقية ، ومصر وافريقية ايضاً ، فقد انتشرت فيها الفئتان بشكل متساوٍ تقريباً ، ولكنهما كانتا ، اينما ارتحلتا ، تحملان معهما شعور البغضاء والخلاف القديم . والذي لا ريب فيه ان عمر بن الخطاب قد تمكن من ان يكبت هذا الشعور بيد من حديد ، فضلاً عن ان العمل الذي كانت الامة منصرفة اليه — حفظ الذات وضرورة التوسع الذاتي — لم يكن ليسمح بأيما شعور غير شعور التنافس الشريف . ولو سُمح لعلي ابن ابي طالب بأن يخلف عمر بسلام اذن لتمكن على الأرجح من توحيد هاتين الفئتين ، ولكن الامويين في ايام عثمان ايقظوا لمصالحهم الخاصة مشاعر الكراهية والبغضاء الكامنة في الصدور الى ان اصبحت لهيباً تأجج بضراوة في اسبانية وصقلية ، وفي صحارى افريقية وسهول خراسان وقفار كابول الى حد سواء . والثابت ان هذا النزاع المؤسف قد كان وخيم العاقبة على مثيريه ، وانه كان له تأثير بعيد المدى على مصير الامة العربية ، ومصائر العناصر الرومية والجرمانية التي سريعاً ما اشتبك معها العرب في القتال . لقد أوقفهم في طريقهم الى الفتح في اللحظة التي جثا فيها الغرب عند أقدامهم وأدى آخر الامر الى ضياع جزء كبير من امبراطوريتهم .

سياسة معاوية

كان معاوية يعتمد على مؤازرة مضر ، ولكنـــه كان مع ذلك من الحذق والدهاء بحيث ابقى على الموازنة بينهم وبين الحميريين ، فلم يسمح لأي من القبيلتين بالتغلب على الاخرى . اما في عهـــود الخلفاء الذين تلوه فكانت القبيلة التي تُكتب لها الغلبة تضطهد القبيلة الاخرى بشدة وعنف ، غير ان الامويين ، الذين كانت تربطهم روابط الدم والمصلحة ، لم يتزحزحوا عن ولائهم لرئيسهم ، وكان جنـــود الشام يشكلون مصدراً من مصادر قوة معاوية واسرته . اما المفكرون والمتدينون فقد اقلعوا الآن عن الاهتمام بالشؤون العامة ووقفوا انفسهم على دراسة الأدب والفقه الاسلامي – الذي وضعت اسسه الاولى في هذه الفترة – او على ممارسة شعائر دينهم باطمئنان وهدوء . كذلك ساعدوا على نشر الدين الجديد ولكنهم لم يسهموا في حكم الامبراطورية . وأما الخوارج الذين ثاروا على علي بن ابي طالب وهُزموا في موقعـــة النهروان فقد التجأوا الى ولاية الأحساء واجزاء اخرى من اواسط بلاد العرب حيث نشروا مبادئهم القاتمة المتطرفة [1] ، واصبحوا ، بسبب من كثرة عددهم وتهوّرهم وتفانيهم في ما كانوا يعتقدونه حقاً ، عدواً لدوداً يُحسب حسابه لحكومة الشام . لقد ثاروا بمعاوية ، وغـــزوا كلدة ، وهددوا العراق ، ولكنهم هزموا في آخر الأمر وأُجبروا على الاعتصام في معاقلهم في الصحراء .

---

١ – كان الخوارج يعترفون بسلطة الخليفتين الاولين فقط ، من دون عثمان وعلي ، ويعتبرون الامويين من المشركين · وكانوا يقولون بحق انتخاب الامام من بين عامـــة الشعب ، بقطع النظر عن قبيلته او أسرته ، وباجراء حكم الله ، كما كانوا يعتبرون كل شخص سواهم مقضيا عليه بالنار ، ويقولون بان جميع الملاهي ، مهما كانت بريئـــة ، محرمة تحت طائلة الموت · ولا شك في انه كان ولا يزال لهؤلاء المتعصبين اضراب في المذاهب الاخرى ·

الفتوح في افريقية

وبعد أن وطّد معاوية سلطانه في دمشق ولى وجهه شطر القارة الافريقية . وينبغي ان نلاحظ هنا ان العرب كانوا يقصدون بكلمة « افريقية » الاجزاء الشمالية من القارة الافريقية ، الواقعة فيما وراء مصر، وكانوا يقسمون هذه الرقعة الكبيرة من الارض الى ثلاثة اقسام : (١) بلاد المغرب الاقصى ، وكانت تمتد من شواطىء المحيط الاطلسي الى تلمسان جنوباً حتّى الصحراء الكبرى ؛ (٢) بلاد المغرب الأدنى ، وكانت تشمل البلاد الواسعة بين وهران ومقاطعة بجاية ، و (٣) افريقية نفسها ، وكانت تمتد من الحدود الشرقية للجزائر الحالية حتّى حدود مصر .

وكان يسكن افريقية الشمالية ، غربيّ صحراء ليبيا وشمالي السودان ، شعبٌ من الاصل السامي ، كما ان كثيراً من القبائل الضاربة في سهول تلك المنطقة ومرتفعاتها كانت تُرجع نسبها الى فرعي العرب الرئيسين [١] حمير ومضر ، وكانوا على جانب كبير من البأس والشجاعة وحب الاستقلال ، شأن العرب . وقد غزا العرب هذه الولاية لأول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم توغلت جيوش العرب فيها حتّى بلغت برقة في ايام عثمان بن عفان .

وبعد هزيمة « غريقوريوس » في المعركة الخالدة التي دارت رحاها غير بعيد من « قرطجنة » القديمة تعهد الروم بدفع جزية سنوية للعرب فانسحب هؤلاء عندئذ من البلاد بعد ان تركوا حاميتين صغيرتين في « زويلة » و « برقة » ، ولكن الحكام الروم دخلوا الى تلك البلاد فاحتلوها ثانية ، غير انهم امعنوا في الجشع وابتزاز اموال الاهلين الى درجة لم يطقها هؤلاء فلم يمض وقت طويل حتّى اقدموا على الاستنجاد بالعرب

١ ــ يقال ان احد الملوك الحميريين توغل في افريقية الشمالية واسس هناك مستعمرات لبني قحطان ولذلك سمي افريقيوس او افريقانوس .

لتحريرهم من نير الروم ، فلبى معاوية نداءهم وارسل اليهم جيشاً بقيادة عقبة بن نافع المشهور فدخل افريقية وأخمد كل مقاومة وأخضع البلاد لسلطة العرب .

بناء القيروان

وفي سنة ٥٠ للهجرة بنى عقبة مدينة القيروان العسكرية الشهيرة في جنوبي تونس لصد غارات البربر والاحتراز من غزوات الروم من البحر ، وهكذا اصبحت الغابة التي كانت حتى ذلك الحين مرتعاً للوحوش الكاسرة والحشرات السامة أرضاً مستوية شيدت فوقها تلك المدينة الجميلة التي لا تزال آثارها باقية حتى يومنا هذا .

وكان الروم وقتئذ باسطين سلطانهم على « المغرب » (مراكش الحالية) وكانوا يقومون ، بمؤازرة البربر ، بغارات متكررة في قلب افريقية ، مما حدا بعقبة عام ٥٥ للهجرة أن عزم على التوغل في الغرب . كانت المدن المفتوحة تستسلم اليه واحدة بعد أخرى ، وكان الروم البيزنطيون يحاولون اعتراض تقدمه نحو الغرب ، ولكنه شق طريقه بالقوة الى أن بلغ المحيط الاطلسي .

وكان من تأثير الزحف المدهش الذي قام به عقبة ، والضربات الساحقة التي انزلها بالروم والبربر ، أن البلاد ظلت تنعم بالهدوء والطمأنينة سنين عديدة . وقد استمر عقبة ، باستثناء فترة قصيرة استدعاه فيها معاوية الى دمشق ، في حكم افريقية وملحقاتها الغربية حتى وفاته سنة ٦٥ للهجرة ، وفي تلك السنة انقضت جيوش البربر المتوحشة من جبال الاطلس ووديانه على الجنود العرب القليلي العدد في القيروان ، غير أنه ما من أمة او عنصر في التاريخ أظهر من الشجاعة والطاقة اكثر مما اظهره العرب في حروبهم مع الاجناس الهمجية المحاربة في افريقية الشمالية ، ذلك انهم ، بجيشهم القليل العدد نسبياً ، قاموا بغزو بلاد واسعة لا

يقطنها ، كالهنـــد مثلاً ، شعب مسالمٌ في اساسه ، بل قبائل شرسةٌ اعتادت فنون الحرب واساليبها .

مقتل عقبة

وهكذا أحاط البربر بالعاصمة ، ولكن عقبة لم يكن من الرجال الذين يلقون بسلاحهم ، ولذلك كسر غمد سيفه للتدليل على عزمه على الانتصار او الموت ، ثم حمل برجاله على اعدائه وقُتل وهو في حومة الوغى مع القسم الاعظم من جنوده ، وعاد من بقي منهم حياً الى مصر . وهكذا سقطت القيروان في ايدي البربر ، وخُيِّل أن حكم العربِ في افريقية والغرب قد انتهى .

الفتوح في الشرق

بينما كان عقبة منهمكاً في توطيد حكم العرب في الغرب كان المهلّب ابن ابي صفرة يحتل بلاد السند ووادي نهر الاندس المنخفض ، وكانت الافغان الشرقية تسقطُ في ايدي العرب . أما الروم الذين انتهزوا فرصة الحروب الاهلية والمنازعات الداخلية للاغارة على الاراضي الاسلامية فقد هزموا في معارك عديدة ، وفرّ الاسطول الروماني امام الاسطول العربيّ وأُخضع كثيرٌ من جزر الارخبيل اليوناني وتم الحاقها بالامبراطورية العربية .

معاوية يستخلف ابنه يزيد

ولقد فكّر معاوية ، بتحريض من « المغيرة بن شعبـــة » ، عامله على البصرة ، في مبايعة ابنه يزيد بولاية العهد ، مما كان يشكل خرقاً مباشراً لاتفاقه مع الحسن ، غير انـــه كان يؤازره في تفكيره « زياد

ابن ابيه »[1] الذي كان وقتئذ عامله في العراق وخراسان ، فرشا بعض العراقيين واكره البعض الآخر على مبايعة يزيد . أما اهل الشام فقد تبعوا معاوية بطبيعة الحال .

وفي سنة ٥١ للهجرة سار معاوية الى المدينة ومكة لكي يأخذ ميثاق اهل الحجاز ، وهنا ايضاً استطاع بتهديده وحيلته ان يتحقق بنجاح جزئي ، ذلك ان رجالاً اربعة كانوا في ذلك الحين طليعة المسلمين ، وهم الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن ابي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، رفضوا مبايعة يزيد رفضاً مطلقاً وبأي شرط ، فكان من جراء رفضهم ان قويت قلوب الحجازيين واشتدت عزائمهم . وكان لعبد الله بن الزبير ، الذي كان معاوية يسميه « ثعلب قريش » مطمع في الخلافة ، أما الآخرون فقد دفعهم الى الرفض بغضهم ليزيد الذي كان مشهوراً بسوء السيرة .

وفاة معاوية (نيسان « ابريل » سنة ٦٨٠ م)

وتوفي معاوية في شهر رجب عام ٦٠ هـ (نيسان ٦٨٠ م) ، ويقال انه كان ابيض البشرة ، طويل القامة ، ضخم الجثة . ويقول المؤرخون « انه كان اول من خطب في الناس وهو جالس ، واول من ادخل الخصيان في خدمته الخاصة » . كان معاوية ذكياً ، حاذقاً ، ماكراً ، بخيلاً وسخياً للغاية عند الضرورة ، يقوم في الظاهر بأداء جميع فروض الدين كاملة ، من دون ان يسمح لأيما قانون انساني او آلهي بالوقوف عقبة في سبيل تنفيذ مشاريعه او تحقيق مطامحه .

---

١ ـ كان زياد ابنا غير شرعي لابي سفيان ، والد معاوية ، ولذلك دعي « ابن ابيه » ، دون ذكر لاي اسم .

حياته اليومية

وما ان وطد اركان ملكه وأزاح من طريقه جميـع اعدائه حتى انصرف بكايته إلى امبراطوريته يصرف امورها ويتدبرها بدهاء وحزم وحكمة . ويقدم المسعودي وصفاً غريباً وطريفاً في الوقت نفسه لحياته اليومية فيقول : « كان اذا صلى الفجر يجلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ويتحدث طويلاً ، ثم يدخـل منزله ؛ وبعدئذ يخرج إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسي ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له يعرضون عليه شكواهم ، حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ؛ ثم يقول ائذنوا للاشراف على قدر منازلهم . ثم يؤتى بالغداء ويتقدم اليه أصحاب الحوائج ، ثم يرفع الغداء ويدخل منزله حتى يُنادى بالظهر فيخرج فيصـلي ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ويدخل اليه وزارؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا اليه ، ويجلس الى العصر ؛ ثم يدخل منزله حتى يُنادى بالعشاء الآخرة فيخرج ويصلي ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب واياهم والعجم وملوكها وسياستها ، ثم يدخـل فينام . » وقد كان عهد معاوية على العموم عهداً حفل بالازدهار والسلام في الداخل وبالنجاح في الخارج .

معاصر معاوية في القسطنطينية

كان قسطنطين الثاني ، الذي اغتال أخاه ثيودوسيوس ، على رأس الامبراطورية الرومانية في أول حكم معاوية ، وعندما خُلع تولى الأمر ابنه قسطنطين الرابع .

يزيد الاول (شعبان ٦١ ﻫ ، نيسان ٦٨٠ م)

وعندما توفي معاوية بويع يزيد بالخلافة حسب وصية والده ، وكان اعتلاؤه عرش الخلافة ضربة قاضية للمبدأ الجمهوري القائل بأن أمير المؤمنين يجب ان ينتخب بالشورى ، وهو مبدأ تعلق به العرب تعلقاً عظيماً وجعلهم يتجاهلون حق آل البيت في تولي زعامة المسلمين الروحية والدنيوية . ومنذ ذلك الحين شرع الخليفة الحاكم يعيّن خليفته ويسعى الى ضمان اعتلائه عرشها بأخذ البيعة له من الجند والخاصة في حياته . ولقد اعلن الامام الحسن البصري المشهور الذي عاش في نهاية ذلك العصر ان رجلين اثنين كانا السبب في اضطراب امور المسلمين — عمرو بن العاص ، عندما اقترح على معاوية رفع المصاحف على الرماح ، والمغيرة ابن شعبة ، عندما أشار على معاوية بأخذ البيعة ليزيد ، فلولا ذلك اذن لاستمر مجلس الشورى في انتخاب الخليفة حتى يوم القيامة ، ذلك بأن خلفاء معاوية حذوا حذوه في البيعة لأبنائهم .

وكان يزيد ظالماً وغدّاراً في وقت واحد ، ولم يكن من طبعه الشفقة او الرحمة ، وكان منغمساً في ملذاته ، معاشراً لرفاق السوء . اما الحسين بن علي فقد ورث عن ابيه فضائله وشهامته ، وكانت الصفة الوحيدة التي يفتقر اليها روح المكيدة والدس التي كان يتميز بها بنو امية . كان قد ابلى بلاء حسناً في حصار القسطنطينية ، وكان يجمع في شخصه ميزة الانحدار من النبي وعلي في وقت واحد .

لقد نصّ الصلح الذي عقد بين معاوية والحسن على الاعتراف بحق الحسين بالخلافة . ولم يعترف الحسين قط بطاغية الشام الذي كان يحتقره لشروره وآثامه وفساده ، ولذلك فانه عندما طلب اليه مسلمو الكوفة ان يعينهم على الخلاص من ربقة الحكم الاموي شعر بأن من واجبه الاستجابة لندائهم . وباستثناء عبد الله بن الزبير ، الذي أراد ان يزيح الحسين من طريقه فشجعه لذلك على تنفيذ خطته ، حاول اصدقاء الحسين جميعاً

اقناعه بعـــدم الركون الى وعود الكوفيـــين الذين وان كانوا يتحلون بالاندفاع وشدة البأس والاقدام ، الا انهم كانوا حُوَّلاً قلّباً ينقصهم الثبات والحزم . « كانوا لا يستقرون على رأي . فبيـنما تراهم يوماً مندفعين أشد الاندفاع في سبيل قضية أو شخص ما ، اذا بهم في اليوم التالي باردين كالثلـج وساكنـين كالموتى . » ولكن التأكيدات التي اعطيت للحسين بأن العراق كله كان على استعداد للهبوب هبة رجـل واحد حالما يبدو على المسرح جعلته يعزم على المسير إلى الكوفة ، فاجتاز الصحراء دون ان يلقى اية مقاومة ، وكان بصحبته عددٌ من أقاربه ، وولداه ، وبعضٌ من اتباعه المخلصين ، وحاشيةٌ من الأطفال والنساء ، غير انه عندما اقترب من حدود العراق لم يرَ أيمـا أثر لجيش الكوفة الذي كان قد وعد باللقاء ، فروّعته الوحدة واستوحش من مظهر البلد العدائي وأحس بالغدر والخيانة ، سلاح الامويين ، فعسكر مع جماعته الصغيرة في مكان يسمى « كربلاء » بالقرب مـن الشاطىء الغربي للفرات ، ولم تلبث ان تحققت شكوكه بالخيانة عندما باغته جيشٌ أموي أرسله عبد الله بن زياد ابن ابيه .

مذبحة كربلاء

وحاصرت هذه القوة الأموية خيام الحسين عدة أيام ، ولما لم يجرؤ جنود عبد الله على الدنو من سيف الحسين حالوا بين جماعته وبين مـاء الفرات ، ثم عُقد مؤتمرٌ مع رئيس القوة اقترح فيـه الحسين ثلاثة شروط مُشرّفة « إما ان يتركه يعود إلى المدينة ، أو ان يسيّره الى حدود الترك يقاتلهم حتى يموت ، أو ان يسيّره إلى يزيد . » ولكن أوامر طاغية أمية كانت صارمة واضحة لا تحتمل التـأويل – أن لا تأخذهم في الحسين أو جماعته اية رحمة ، وانهم يجب أن يُحملوا كمجرمين إلى الخليفة كي ينظر في أمرهم بمقتضى روح العدالة الأموية . ثم عرَضَ

الحسين على جماعة يزيد أن لا يقاتلوا النساء والاطفال ، وأن يقتلوه وحده فيضعوا بذلك حداً لذلك الوضع غير المتكافىء ، ولكنّ قلوبهم كانت قد تحجرت فلم تعرف شفقة ولا رحمة ، وعندئذ أصَرّ على أصحابه بوجوب النجاة بأنفسهم من دونه ، ولكنهم رفضوا بالاجماع أن يتخلوا عن سيّدهم المحبوب أو أن يعيشوا بعده ، وكذلك خشي أحد رؤساء جيش يزيد مغبة قتال حفيد الرسول فترك الجيش في ٣٠ من رجاله .

كان بأس الحسين واتباعه يتجلى في كل معركة من معاركه ، ولكن نبال الأعداء هذه المرة كانت تحصدُ رجاله حصداً من مسافة بعيدة فيسقطون الواحد بعد الآخر . ولما قتلوا جميعاً ولم يبق غير حفيد الرسول تحامل على نفسه جريحاً وجرّ نفسه جراً ناحية النهر ليطفىء ظمأه ، غير أن أعداءه صوبوا اليه سهامهم ونبلهم كي يحولوا بينه وبين الماء فعاد إلى خيمته وأخذ ابنه الرضيع بين يديه فرشقوه بنبل ، ثم فتكوا بجميع أولاده وأولاد أخيه على هذا النحو . ولما ألفى نفسه وحيداً ازاء أعدائه جلس عند باب خيمته فناولته إحدى النساء بعض الماء كي يطفىء ظمأه ، غير أنه ما كاد يرفع الماء إلى شفتيه حتى أصابه نبلٌ في فمه ، فرفع يديه إلى السماء واستمطر الرحمة على الأحياء والأموات ، ثمّ نهض وحمل على الامويين حملة صادقة مستميتة جعلتهم يفرون من أمامه فراراً ، غير ان الوهنَ كا[illegible]د تغلب عليه لكثرة ما نزف من دمه فسقط على الارض ، وعندئذ هجموا على البطل المحتضر فاحتزوا رأسه وداسوا جثته ثم حملوا رأسه إلى قلعة الكوفة حيث جعلَ عبيد الله ينكث فمه بقضيب فقال له أحد الحاضرين من الشيوخ : « ارفع قضيبك فطالَ والله ما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يضع فمه على فمه يلثمه » .

وهكذا قضت نفسٌ من أنبل نفوس ذلك العصر ، وبموت الحسين انقرضَ جميع الذكور من أفراد أسرته ، شيباً وشباناً ، باستثناء طفلٍ

مريض أنقذته زينب أخت الحسين من المذبحـة العامة . كان هو أيضاً يدعى « علياً » ، ولقب من بعدُ زين العابدين ، وكان ابنَ الحسين من زوجة ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس الساسانيين . في شخص عليّ هذا خُلد آل البيت ، فضلاً عن أنه كان يمثل ، من جهة أمه ، الساسانيين المطالبين بعرش ايران . وعندما أُحضِرَ الغلام الصغير أمـام عبد الله فكّر في قتله أيضاً للقضاء على ذرّية محمد ، ولكنّ شيئاً في نظرة زينب أوحى بعزمها عـلى الموت مع ابن أخيها ألقى الرعب في قلب ذلك الطاغية ، فأرسل نساء الحسين مع عليّ الصغير إلى دمشق ، يرافقهم جنود يحملون رؤوس الشهداء على أسنة رماحهم . ولدى وصولهم إلى دمشق جلست حفيدات الرسول ، بأثوابهن الممزقـة ، تحت أسوار قصر يزيد يندبن على النحو الذي لا يستطيعه إلا نساء العرب ، فأفزعت صراخاتهن الحزينة الخليفة يزيداً وخشي انفجار النقمة في عاصمته وأرجعهن توّاً إلى منازلهن .

لقد روّعت مذبحة كربلاء العـالم الاسلامي بأسره ، وولّدت في بلاد فارس شعوراً وطنياً ساعد بني العباس من بعدُ على تحطيم الأمويين.

وكان الشعور في المدينة من القوّة بحيث أن يزيداً أرسل على عجل عاملاً خاصاً لتهدئة الناس ، وبناءً على مشورته أرسل وجهـاء المدينة وفداً منهم إلى الخليفة يتوسطونه في إنصاف آل الحسين ، ولكنّ أفراد الوفد ما لبثوا أن عادوا ساخطين على حياة يزيد المقيتة وعلى المعاملة التي لقوها منه ، وعندئذ هاج أهل المدينة لفشل مسعاهم وأعلنوا خلع يزيد وطردوا عامله من مدينتهم ، وعندما انتهت انباء ذلك إلى يزيد ثارت ثائرته ووجه اليهم ، في الحال جيشاً كبيراً من أهل الشام بقيادة مسلم ابن عقبة .

موقعة الحرّة

والتقى أهل المدينة الأمويين في موضع يعرف بالحرّة ودارت بين

الطرفين معركة يائسة أسفرت عن هزيمة أهل المدينة بالرغم ممـا ابدوه من فنون البطولة ، وقتل فيها زهرة الشباب من المهاجرين والأنصار ، وتعرّض اولئك الذين آزروا النبي في محنتـه إلى أنواع من التنكيل لم يُعرف له مثيل في التاريخ . وقد قال أحد المؤرخين الاوروبيين في هذه المعركة : « كان تأثيرها على الاسلام قاسياً وظالماً ومثيراً . » وهكذا وفى الأمويون دَيْن الرحمة والعطف اللذين عوملوا بهما في ساعة انتصار المسلمين : فقتلوا زهرة الشباب وشردوا خيرة الرجال إلى البلاد النائية ، واجبروا من أبقوهم منهم على قيد الحياة على الاقرار بعبوديتهم ليزيد ، فمن امتنع وُصِمَ بالكيّ على رقبته ، ولم يستثْنَ من هـذا العار سوى عليّ الثاني ، ابن الحسين ، وعليّ حفيد العباس . أما الكليات والمستشفيات والمنشآت العامة التي بنيت في عهود الخلفاء فقـد اقفلت أو هدمت ، وعادت جزيرة العرب إلى ظلمتها السابقة ، إلى أن قيّض الله لها في ما تلا من السنين جعفر الصادق ، أحد أحفاد عـليّ الثاني ، فبعث في المدينة تلك الحركة العلمية التي كانت قد ازدهرت في عهد الخليفة عليّ ، ولكن المدينة بقيت كالواحة في الصحراء ، تحوطها الكآبـة والظلمة ، ولم تسترد المدينة قطُّ مكانتها المزدهرة السابقة ، ويبدو أنهـا في أيام الأمويين قد أصبحت مدينة الماضي المجهول ، ذلك أنه عندما زارهـا ثاني الخلفاء العباسيين احتاج إلى دليل يرشده إلى الأماكنْ التي عاش وعمل فيها ابطالها وبطلاتها الأولون .

حصار مكة الأول

وبعد أن شفى الأمويون غليلهم من أهل المدينة زحفوا عـلى مكة. حيث عبد الله بن الزبير الذي كان قد بويع بالخلافة .. ولدى وصولهم إلى جوار مكة أحاطوا بالمدينة ، وفي ابان المعركة التي نشبت فيما بعد اصيبت الكعبة والأماكن المقدسة الأخرى باضرار كبيرة ، غير أن موت

يزيد جعل الأمويين يرفعون الحصار عن مكة ويعودون مسرعين إلى دمشق .

وقد استخلف يزيد ابنه معاوية ، وكان شاباً وديعـاً بمقت ، كما يقال ، جرائم أسرته ، فما لبث أن اعتزل الحياة العامة بعد حكم دام بضعة أشهر ، ثم توفي بعد ذلك بزمن قصير ، ويقال إنه مات مسموماً . وبوفاة معاوية الثاني انتهى حكم فرع أبي سفيان .

وكان عبد الله بن الزبير فور وفاة يزيد قد بويع بالخلافة في جميع انحاء الحجاز والعراق وخراسان ، ولو انه غادر الآن مكة وزحف على الشام اذن لما كان هناك سوى شك قليل في قضائه على حكم الامويين إلى الأبد ، ولكنه اكتفى بالبقاء في مكة وبذلك أتاح للأمويين فرصة ليلموا شملهم ويستجمعوا قواهم :

الفصل الثامن

بنو امية (الفرع الحكمي)
٦٤ - ٨٦ ؛ ٦٨٣ - ٧٠٥ م

مروان بن الحكم - ارتضاؤه رئيسا لبني امية - موقعة مرج راهط - خيانة مروان - التوابون - وفاة مروان - عبد الملك حاكم الشام - ظهور المختار - القضاء على قتلة الحسين - مقتل المختار - مصعب - غزو عبد الملك للعراق - موت مصعب - جيش عبد الملك يغزو الحجاز - حصار مكة - مقتل عبدالله بن الزبير - عبد الملك زعيم المسلمين - الحجاج الطاغية - التوسع في افريقية - الحروب مع الرومان - الخوارج - وفاة عبد الملك

مروان بن الحكم

عندما توفي معاوية الثاني آلت الخلافة من بعده إلى أخيه خالد ، غير انه لما كان غلاماً حدثاً عند ذاك فقد رفض الأمويون مبايعته وطالبوا بتولية أحد كبارهم بمقتضى العرف القبلي . كان الأمويون في

هذا الظرف في حالة ارتباك وفوضى ، وكان مروان ، كبير اسرتهم ، على استعداد لمبايعة عبدالله بن الزبير . كان أحد أبنـاء عمومة معاوية الاول ، وكان يتمتع بنفوذ عظيم بين بني أمية ، وكان من شأن موالاته ان تؤمن ولاء الاسرة كلها ، ولكن ابن الزبير ، المغالي في الحذر والحيطة ، المقتنع باستيلائه على جزيرة العرب ومصر والعراق وخراسان ، احجم عن الزحف على الشام . وفيما كان عبدالله مسترخياً في مكة ، حاول عبيدالله بن زياد ، الرديء السمعة ، ان يأخذ لنفسه البيعة بالخلافة في البصرة ، قاعدة حكومته ، ولكنه فشل في مسعاه وفرّ الى مروان وحرّضه على الدعوة لنفسه بالخلافة . ولم تكن مهمة مروان لتخلو من المصاعب ، ذلك ان بني أمية في ذلك الحين كانوا حذرين منشقين على أنفسهم ، وكان الحميريون في الشام يحسدون المضريين على تفوقهم . ولكن الشيخوخة لم تكن قد اوهنت بعد من دهـاء مروان وبراعته في اعداد المؤامرات ، فاكتسب تأييد أنصار خالد بن يزيد بأن وعده بولاية العهد ، كما اكتسب ولاء ابن عمه عمرو ، وكان له اتباعٌ من بني امية كثيرون ، بوعد مماثل ، كما انه رشا الحميريين في الشام بأن منح زعماءهم الامتيازات السخية .

موقعة مرج راهط

وهكذا استطاع مروان ان يتسنم السلطة التي كان ينشدها . يقول المسعودي : « كان أول من اعتلى العرش بحد سيفه » . وقد مكنه ولاء هؤلاء الحميريين له من الزحف على الضحاك ، زعيم المضريين ، الذي كان قد أيّد قضية عبدالله بن الزبير ، وتقابل الطرفان في مرج راهط ، على بضعة أميال الى الشمال الشرقي من دمشق . وبالرغم من تفوق الحميريين عدداً فقد كانت المعركة الاولى سجالاً بين الفريقين ، ولكن مروان دبّر مكيدة للضحاك قُتل على اثرها ، ثم حمل على المضريين

وألحق بهم هزيمة منكرة ، وعندئذ دخلت الشام كلها في طاعته ، ولم تلبث مصر ان حذت حذوها .

وبعد ان استتب الامر لمروان نكث بوعده لخالد وأرغم عمراً على التنازل عن ولاية العهد لولديه عبد الملك بن مروان وعبـد العزيز بن مروان .

وجدير بالذكر ان موقعة مرج راهط قد هاجت الاحقاد التي كانت كامنة في صدور الحميريين والمضريين سنين طويلة ، وشرع الحميريون ، بعد رجحان كفتهم ، يعاملون منافسيهم المضريين أسوأ المعاملة ، واستمر الحال على هذا المنوال طيلة عهد عبد الملك بن مروان .

التوابون

وفي تلك الآونـة ظهر فريق كبير من العراقيين الذين ندموا على التهاون في نصرة الحسين وآل بيته في موقعة كربلاء ، وأقسموا على الانتقام من قتلته ؛ وفي ذات ليلة اجتمعوا على قبر الحسين وأقـاموا الصلاة وذرفوا الدموع ، ثم ساروا في صبيحة اليوم التالي لملاقاة أهل الشام . لقد أطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، واستطاعوا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد ان ينتصروا بادىء الأمر في جميع المعارك التي خاضوها ، ولكنهم في النهاية لقوا هزيمتهم على يد جيش جرار بعث به مروان ، وقُتل سليمان وامراء جيشه ، وانهزم من قُدّرت له النجاة من التوابين الى الكوفة حيث ثاروا مرة أخرى بقيادة المختار .

وفاة مروان

وكان موت مروان على يدي ارملة يزيد نهاية مناسبة لحيـاة مليئة بالمكائد والعنف . كان قد تزوج من هـذه السيدة بغية اكتسابّ ود أنصار ابنها خالد ، وفي يوم من الايام بالغ في إهانة الغلام الذي كان

قد حرمه من ولاية العهد ، فثارت الأم وقتلته خنقاً في تلك الليلة نفسها . ولا يعتبر مروان في نظر أهل السنة من جملة الخلفاء ، بل أن مشاهير مؤلفيهم ليعدونه ثائراً على عبدالله بن الزبير « الذي بويع بالخلافة من على منابر جميع انحاء العالم الاسلامي » باستثناء الشام .

عبد الملك بن مروان

وعلى اثر وفاة مروان بايعت أكثرية بني أمية ابنه عبدالملك بالخلافة . كان عبد الملك نموذجاً للطبيعة الاموية ، يجمع الى النشاط الميل الى التآمر والشجاعة ، وهكذا انصرف بمهارة غير اعتيادية الى توطيد مركزه وتدعيم ملكه . وفيما هو منصرف الى ذلك وطد المختار لنفسه في العراق ، ومن هناك أخذ يلاحق قتلة الحسين ويطاردهم ويمعن فيهم تقتيلاً ، فأرسل عبدالملك اليه جيشاً بقيادة عبيدالله بن زياد الملقب بالجزار فهزم جيش عبدالملك وقُتل الجزار وحُمل رأسه الى المختار .

غير ان « التوابين » ، بعد ان بلغوا الغاية التي من أجلها حملوا السلاح ، انقسموا على أنفسهم وتفرقوا شيعاً واحزاباً لم يلبث مصعب ابن الزبير ، اخو عبدالله ونائبه في العراق ، ان أخضعها الواحد بعد الآخر .

المختار

وفي نهاية الأمر قُتل « المختار » ورجاله وغدا مصعب سيّد الميدان المطلق ، كما أصبح سلطان ابن الزبير غير منازع في العراق وما بين النهرين وخراسان أيضاً ، ولكن حكمه لم يكن ثابت الأركان ، ذلك ان اهل العراق لم يراعوا الامانة ، بل دخلوا في مفاوضات سرية مع عبد الملك لمبايعته بالخلافة مقابل بعض المكافآت . وفي الوقت نفسه كانت قوات عبدالله قد أنهكتها الحروب الموصولة مع الخوارج الذين

اندفعوا من الصحراء على كلدة وجنوبي فارس وشرعوا يسومون اهلها المسالمين العذاب والتنكيل .

ويروي المؤرخون العرب حادثة جرت في موسم الحج عام ٨٧١م وتنهض دليلاً على انقسام المسلمين في تلك الحقبة . لقد تجمعوا في تلك المناسبة على جبل عرفات تحت اربع رايات مختلفة : الاولى لعبدالله بن الزبير ، والثانية لعبد الملك بن مروان ، والثالثة لمحمد بن الحنفية والرابعة للخوارج ، غير انه بالرغم من العداء الذي كان يكنه بعضهم لبعض فقد مر ذلك الموسم المقدس دون ان يعتدي اي فريق على آخر .

وقد لجأ عبد الملك بن مروان الى السيف فقضى على خصومه في الشام ، وعندما حاول عمر بن سعيد ان يشق عصا الطاعة استعمل معه عبد الملك الحيلة حتى اذا ما جيء به الى القصر فتك به بيديه فصفا له الجو في الشام ، وعندئذ ولى وجهه نحو ما بين النهرين وكلدة وكان عليها يومئذ مصعب عامل عبدالله بن الزبير . وقد شجعه تقاعس العراقيين وقصورهم على الزحف على الكوفة فهاجمها وقتل في المعركة مصعب وولده يحيى وابراهيم بن الأشتر ، وبذلك دخل العراق مرة أخرى في حكم الأمويين .

وبعد أن سحق عبد الملك جيوش مصعب ارسل جيشاً جراراً الى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف لمقاتلة عبدالله بن الزبير فاستولى على المدينة من دون مقاومة تذكر ، وحاصر مكة للمرة الثانية ورماها بالمنجنيق فأحدث في ارجائها الفوضى والدمار . ولكن عبدالله كان يخرج على جيوش الشام ثم يرتد الى مدينته ، فطال أمد الحصار مما حمل الحجاج على تطويق المدينة تطويقاً كاملاً الى ان عض الجوع أهلها بنابه فشرعوا ينفضون من حول ابن الزبير باعداد كبيرة حتى لم يبق معه سوى نفر قليل من المدافعين . وقبل ان يخرج على جيوش الشام للمرة الاخيرة استشار امه اسماء بنت أبي بكر في أمره ، وهل يتعين

عليه ان يستسلم لنير الأمويين او يموت في ساحة القتال ، فأجابته تلك السيدة العجوز بتلك الروح البطولية العربية : اي بني ! اذا كنت تؤمن بعدالة قضيتك ، فان من واجبك ان تقاتل حتى الرمق الأخير ، أمــا اذا كنت تعتقد انك على خطأ فان عليك ان تستسلم . ثم بددت مخاوفه من أن يمثّل به عدوه بعد موته قائلة :ان الشاةَ لا يضرّها سلخُها بعد ذبحها ، فأقدم الى ما أنت فيه . وعندئذ ودعها وقبّل جبينها وانتضى سيفه وحمل على اعدائه مصمماً على أن ينتصر أو يموت ، فقر الأمويون من أمامه في كل جانب ، ولكن ذلك المحــارب الشجاع لم يلبث أن سقط في النهاية عندما تكاثر عليه اعداؤه وفتكوا به . إن العدوّ الشجاع يحترم عادة موت عــدوه ، ولكن الأمويين لم يكونوا متحلّين بأي قدر من الشهامة ، بل انهم تجاهلوا أوامر النبي القــاضية باحترام الموتى ، وصمّوا آذانهم عن توسلات أمه ان يدفعوا اليها بجثته لدفنهــا ، فصلبها الحجاج بمكة ثم حُملت رأسه مع رأسي اثنين من قواده الى دمشق بعد ان عُرضت في المدينة .

كان في خلق عبد الله صفات كثيرة تدعو الى الاعجــاب ، منها دهاؤه وطموحه وشجاعته وبطولته وعدله . اما نقيصته الوحيدة ، ولعلها هي التي ادت الى سقوطه ، فهي شدة بخله ، فقد ابى ، والحجاج على ابواب مكة ، ان يدفع مرتبات جنده ، او ان يبتاع المواد الحربية لهم ، وأهل السنة يعتبرون ابن الزبير أحد الخلفاء الشرعين في الاسلام ، ذلك ان الحرمين الشريفين كانا في طاعته ، وكان اسمه يذكر من على مآذن مكة والمدينة .

عبد الملك سيد الامبراطورية غير منازع

ولما تم اخضاع مكة اصبح عبد الململك سيّد الامبراطورية الاسلامية غير منازع ، وقد ادرك المهلّب بن ابي صفرة عامل عبدالله بن الزبير

على جنوبي فارس عقم المقاومة فبايع لعبد الملك بالخلافة ؛ في حين ان والي خراسان ، وكان اقل حنكة من المهلب . اجبر رسول عبد الملك الذي كان قد اوفده ليدعوه الى طاعته على ان يبتلع الرسالة ويعود الى دمشق .

الخوارج

وفي ابان الصراع بين عبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان اكتسب الخوارج قوة ومنعة وانتشروا في انحاء جنوبي فارس وكلدة . وعندما استفزتهم الاضطهادات التي كانوا يلقونها على يدي عملاء بني أمية ثاروا واخذوا يقاتلون قتالاً عنيفاً ، حتى أن قبضة من رجالهم هزمت جيوش عبد الملك مراراً وتكراراً ، غير انهم كان ينقصهم التماسك ووحدة الكلمة ، اذ كان بعضهم يرغب في العودة الى عهد عمر ، وان يتولى الخلافة شخص ينتخبه المسلمون ، في حين كان البعض الآخر يرفض كل حكم شخصي وينادي باجراء حكم الله في ظل مجلس من اهل الشورى . وهكذا هزم الخوارج واخضعوا آخر الامر ؛ وفي فارس رأوا في المهلب خصماً عنيداً ، ومنوا على يده بشر هزيمة بعد ان اعمل فيهم السيف ، والتجأ من بقي منهم حياً الى صحارى الاحساء .

الحرب مع الرومان

وقد استغل الرومان ، شأن الخوارج ، الحرب الاهلية والفتن الداخلية وشرعوا يغيرون على الممتلكات الاسلامية ، ولكن عبد الملك اجبرهم الآن على التراجع بعد سلسلة من المعارك المظفرة ، واستولى على قسم كبير من الامبراطورية البيزنطية ، واخضع في الشرق المناطق المجاورة لكابول الحالية ، وكان يحكمها وقتئذ امير هندوسي يدعى راتبيل ، كما استولى على قسم كبير من شمالي افريقية .

فتح بلاد البربر ثانية

ان قصة فتح المسلمين افريقية مليئة بالروعـة ، ففي سنة ٦٩٣ م (٦٩ هـ) ارسل عبد الملك جيشاً للاستيلاء ثانية على بلاد البربر (افريقية) ، وعهد بقيادته الى زهير ، احد قواد عقبة المجربين ، الذي استطاع منذ وفاة قائده ان يصمد في برقة . لقد خـاض في باديء الامر معارك مظفرة قضى فيها على قوات البربر المتحدة مع الرومان واجلى العدو عن المقاطعة كلها إجلاءً تاماً ، ولكنه ارتكب خطأ مميتاً عندما احتفظ معه في مركز قيادته بالقرب من برقة بفصيلة صغيرة من الجيش وارسل الحمـلات لاخضاع الاجزاء النائية ، فما كان من الرومان الا ان هاجموه بجيش كبير ودارت بين الفريقين معركة يائسة قتل فيها زهير وتمزق جنده .

وهكذا خرجت بلاد البربر مرة اخرى من يد المسلمين ، ولكنَّ عزمَ عبد الملك بن مروان ، الذي ادى به الى الغلبة على منافسيه ، لم يخنه في هذه المناسبة ايضاً ، ذلك انه بعث اليهم بجيش ثالث بقيـادة حسّان بن النعمان حطّم كل مقاومة ظهرت في طريقه ، واستولى ثانية على مدينة القيروان ، واجتاح مدينة قرطاجنة ، وهزم البربر والرومان في ساحة الحرب ، ولم يكن من بقايا الرومان الا ان اسرعوا في مغادرة البلاد ، وعاد العرب اسياد البلاد قاطبة من أسوار برقة حتى شواطيء المحيط الاطلسي .

وفي ذلك الحين كانت قبائل البربر وقبائل جبـال الاطلس المتوحشة تدين بالطاعة والولاء الى امرأة يطلق عليها المؤرخون الغرب اسم « الكاهنة » ، وكانوا يعتقدون ان هذه المرأة قد اوتيت قوى خارقة للطبيعة . وقد استجابت لدعوتها جيوش من المتوحشين فاكتسحت بهم جيوش الفـاتحين العرب فشتّت شملهم ومزقت عدة فصائل منهم تمزيقاً واكرهت القوة الرئيسية على الانسحاب ثانية من برقة ، وبقيت الكاهنة طيلة خمس سنوات ملكة افريقية لا ينازعها في سلطانها أحد .

وفي عام ٧٩ هـ ارسل عبدالملك جيشاً آخر لمساعدة حسّان . وكانت كفتــا الجيشين ؛ جيش المسلمين وجيش البربر ، متكافئتين من حيث السلاح ؛ ولو أن المسلمين كانوا يفوقون عــدوّهم في العتاد والتنظيم والانضباط ويمتازون عليه بالشجاعة وعلو الهمة والصبر وبالثقة المطلقة في نفوسهم وفي دينهم ، وهي صفات قل نظيرها في الشعوب القديمة والحديثة منها على حد سواء .

وقد اخترقت جيوش عبد الملك صفوف اعدائهــا كما تخترق السفينة الامواج المتلاطمة ، ولكن الكاهنة ، لكي تمنع تقدم المسلمين ، ولكي تحرمهم مرةً واحدة واخيرة مغريات الثروات في المدن ، عزمت عزمــاً نهائياً على تحويل تلك البلاد الى صحراء قاحلة ، فاصدرت أمرها بتدمير جميع الاراضي الواقعة تحت سلطانها وتحويلها الى قاع صفصف ، فهدمت القصور الشامخة والبيوت العامرة ، واقتلعت الاشجار الباسقة ومحت الجنائن الغناء عن بكرة ابيها حتى غدت تلك البــلاد الزاهرة قفراً يبعث في النفوس الارتياع والوحشة .

ويسمي المؤرخون العرب هذا « أول خراب حل بافريقية » ، متناسين الخراب والدمار اللذين حلا بها على ايدي الرومان . ومهما يكن من أمر فان وحشية الكاهنة لم تُجدها فتيلاً ، ذلك ان أهالي البلاد استقبلوا حسّاناً استقبال المنقذ ، واسرعت المدن المهدومة المخربة إلى تقديم الطاعة والولاء له ، في حين هُزمت الكاهنة شر هزيمة وقتلت في معركة عظيمة جرت بين الطرفين عند سفح جبل الاطلس .

وعندما ايقن البرابرة انهم لا قِبل لهم بالمسلمين وصبرهم على القتال عرضوا الصلح فاستجاب حسّان لطلبهم على ان يمدّوه بخمسة وعشرين الف مقاتل . وعلى أثر ذلك شرع الاسلام ينتشر بسرعة بين قبائل البربر ، ولكن الخوارج ، لسوء الحظ ، بــدأوا في ذلك الحين يتدفقون على افريقية بعد طردهم من فارس وبلاد العرب ، وهكذا لقيت مفاهيمهم

الضيقة ومبادئهم الرجعية وكراهيتهم لحكومة الشام ، ارضاً خصبة بين البرابرة ، واصبح هؤلاء الخوارج ، دعاة الألحاد والتفرقة ، الذين كان عبد الملك وعماله يتصيدونهم ، قادةَ اعدائهم ، وغدت ثورات البربر الدموية الكثيرة منذ ذلك الحين ناشئة ومسببة عن تعاليم هؤلاء الخوارج .

الحجاج بن يوسف

ولّى عبد الملك الحجاجَ ، الذي كان فيما مضى حاكماً على الحجاز ، العراق وسجستان وكرمان وخراسان ، ومن ضمنها كابول وبعض انحاء ما وراء النهر . أما غربي شبه جزيرة العرب فقد كان عليه حاكم آخر يدعى هشام بن اسماعيل ، في حين كان يحكم مصر عبد العزيز أخو عبد الملك . وقد كان الحجاج مسرفاً في الشدة والظلم مما أدى إلى نشوب عدة ثورات جامحة كانت احداها بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وكادت تفلح في تقويض عرش عبد الملك لولا كثرة جنود الخليفة وصبرهم على القتال ، فكان أن هُزم الثوار واجبروا على الفرار إلى اصقاع نائية .

وفي اثناء حكم الحجاج الحجازَ اساء معاملة أهل المدينة كما اساء معاملة من كانوا لا يزالون على قيد الحياة من صحابة النبي ، وفكّر ذات مرة في دك منازل المدينة دكاً الى الارض . وفي ابان حكمه الطويل على العراق قتل قرابة مئة وخمسين الف رجل راح كثيرون منهم ضحايا تهم باطلة ، وكان من بينهم خيرة رجال العرب ، وعندما توفي وُجد في سجونه خمسون الف سجين من الجنسين ، وفي ذلك يقول سيديلو المؤرخ الشهير : « كان تأثير هذه المذابح التي كانت ترتكب بالجملة انها أضعفت العنصر العربي بحرمانه من اقدر زعمائه وأنبلهم » .

وفي عام ٧٠٣ م مات المهلّب ، قاهر الخوارج ، والذي كان نائباً للحجاج على خراسان ، فرثاه الشاعر العربي بقوله :

فما لسرير الملك بعدك بهجة
ولا لجواد بعد جوادك جودُ

وقد خلفه في منصبه ابنه يزيد الذي ابدى الحجاج نحوه ، ولفترة ما ، الرعاية نفسها التي كان يبديها لأبيه المهلب .

وتوفي عبد الملك وهو في سن الثانية والستين عام ٨٦ هـ وكان يحب الشعر ، وبخاصة الشعر المنظوم في مدحه ، ولكن البخل والقسوة كانا من ابرز صفاته ، وقد حذا حذوه عملاؤه ، كما يقول المسعودي ، في القتل وسفك الدماء . ويقال في عبد الملك انه كان في شبابه كثير التقى شديد الورع ، وانه ما ان بلغه خبر وفاة أبيه وارتقائه سدّة الخلافة من بعده حتى اطبق القرآن الذي كان يقرأ فيه قائلاً : « هذا آخر عهدي بك . » ويقال أيضاً إنه أول من ارتكب فعل الغدر في الاسلام، وأول من نهى عن التكلم في حضرة الخليفة ، وانه هو الذي قال : « من قال لي بعد مقامي هذا اتقِ الله ضربت عنقه » ، وكان يشبه شارلمان في كثير من اوجه خلقه ، ذلك انه كان عادلاً اذا لم يكن العدل ليتعارضَ مع مصالح الأسرة الحاكمة ، مقداماً عالي الهمة قويّ الشكيمة طموحاً لا يتردد في تحقيق غايته ومقاصده ، ولكنه كان بكل تأكيد اقلّ قسوة من شارلمان ، إذ لم يكن ليرضى أبداً بأن تقترف تحت سمعه وبصره أعمال قاسيةٌ كمذبحة الفرسانيين أو السكسونيين ، ولو أنه قورن بشارلمان أو بطرس الأكبر امبراطور الروس اذن لأمكن اعتباره رجلاً متميزاً بالرحمة والانسانية ، وآية ذلك انه قبل ان يشتبك في مقاتلة مصعب والثوار تحت راية عبد الرحمن عرض عليهم الصلح مراراً وتكراراً . أما قسوته ، شأن نكثه المتكرر بالعهود ، فتعزى إلى رغبته

الشديدة في تأييد ملكه والمحافظة على حكم الاسرة الأموية ، إلا أنه ما من شيء يعفيه من مسؤولية المظالم التي اقترفها الحجاج ، ولو انه كان يتدخل أحياناً لحماية ضحاياه . وكان عبد الملك أول من انشأ داراً لضرب النقود في الاسلام : وقد أصبح الخلفاء من بعده شديدي الحذر بغية صون قيمة نقودهم والحيلولة دون تزييفها ، فكانوا يعاقبون المزورين دون هوادة . وكانت جميع السجلات ، بما فيها سجلات الخراج ، تكتب حتى عهد عبد الملك إما باللغة اليونانية أو الفارسية ، فأمر بأن تكتب جميعها باللغة العربية .

وقد حاول قبيل وفاته أن يحمل أخاه عبد العزيز على ان يتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد ، غير أن عبد العزيز رفض التنازل باصرار ، ولم يلبث أن وافاه اجله فبويع الوليد بالخلافة في جو هادىء .

مُعاصر عبد الملك في بيزنطة

وكان يعاصر عبد الملك في القسطنطينية الطاغية يوستينيان الثاني ابن بوكاتوس الذي صاح بشعبه عندما طالبه بالعفو عن اعدائه لدى رجوعه من المنفى : « اتتكلمون عن الصفح ؟ فلأهلك في هذه اللحظة بالذات ، بل ليغرقني الله في اليمّ إن أنا ارتضيت ان ابقي على شخص واحد من أعدائي ! » .

الفصل التاسع

بنو امية (الفرع الحكمي) (تتمة)
٨٦ ـ ٩٦ هـ ؛ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م

الوليد الاول ـ الفتوحات في الشرق ـ التوغل في افريقية ـ موسى بن نصير ، حاكم المغرب ـ الحالة في اسبانية ـ استبداد رودريق ـ نزول طارق بن زياد في جبل طارق ـ موقعة سيدونيا ـ موت رودريق ـ فتح الاندلس ـ الزحف على فرنسة ـ استدعاء موسى وطارق ـ صفة الادارة العربية في الاندلس ـ الولايات ـ تاثير الاحقاد القبلية ـ وفاة الوليد الاول ـ خلفه

خلافة الوليد الأول

ما إن بويع الوليد بالخلافة حتى أسرع الحجاج ، وكان ما يزال يحكم الولايات الشرقية ، إلى عزل يزيد بن المهلب وخليفته على خراسان ، وعيّن مكانه « قتيبة » ، أحد زعماء المضريين ، وكان قائداً محنكاً مقداماً وصارماً شديد القسوة ، شأن الكثيرين ممن نقرأ عنهم في

التاريخ الاوروبي .

وكان « الصُغد » ، سكان بلدان آسية الوسطى الى الشمال من نهر اوكسوس ، قد تعهدوا بأن يعيشوا بسلام مع المسلمين ، وان لا يضايقوا المستوطنين منهم ، كما تعهدوا ايضاً بأن يقبلوا الولاة في مدنهم الرئيسية ليشرفوا بأنفسهم على مصالح المسلمين . ولكنهم وجدوا في عزل يزيد فرصة مؤاتية لاستعادة استقلالهم ، وهكذا ثاروا على العرب فجأة ، فطردوا الولاة وأمعنوا في المستوطنين العرب فتكاً وذبحاً . وبعد عشر سنوات من القتال المتواصل ارتكبت في ابانها مظالم كثيرة من الجانبين ، تمكن قتيبة من إخضاع آسية الوسطى بأكملها حتى حدود كاشغر .

الفتوحات في الهند

وفي الوقت نفسه تقريباً كانت القبائل القاطنة بين السند وبلوخستان تناوىء محمداً بن القاسم ، ولذلك زحف بجيشه على الهند ، وكانت نتيجة هذا الزحف إخضاع السند ومُلتان وجزء من البنجاب ، حتى حدود البيس .

مسلمة ، القائد العام في آسية الصغرى

وفي ابان حكم الوليد كله ، كان أخوه مسلمة بن عبد الملك ، الذي يبدو انه كان يعتبر بطل الاسرة الحاكمة ، القائدَ العام لقوات المسلمين في آسية الصغرى ، وكان يؤازره جيش بقيادة العباس ، ابن الوليد نفسه ، وهكذا أدت عملياتهما المشتركة الى فتح عدة أماكن هامة ، وأصبح العرب يملكون الآن جزءاً كبيراً من آسية الصغرى .

عمر بن عبد العزيز ، حاكم الحجاز

في عام ٨٧ هـ عيّن الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز حاكماً على

الحجاز . وكان أول عمل قام به عمر في المدينة تأسيس مجلس شورى من قضاة المدينة وأعيانها ، فلم يكن يقوم بأيما عمل اداري أو تنفيذي إلا بعد استشارة هذا المجلس . ولقد حاول عمر ان يمحو آثار التدمير الذي ارتكبه المسلمون في المدن المقدسة عهدَ يزيد وعبد الملك ، ولهذا جمَّل مدينتي مكة والمدينة وشيّد فيها العديد من المباني العامة ، وحفر المجاري والآبار الجديدة ، وحسّن الطرق التي تربط مدن الحجاز بالعاصمة . كان عمر معتدلاً بحزم ، راغباً في تحقيق الرفاهية لشعبه ، وهكذا عاد حكمه بالفائدة والخير على جميع الطبقات .

ولقد اجتذب عدل عمر وتسامحه عدداً من اللاجئين من العراق ، فراراً من استبداد الطاغية الذي كان يحكم الولايات الشرقية ، مما أدى بالحجاج الى الغضب الشديد ، فشرع يوغر صدر الخليفة على عمر بن عبد العزيز الى ان عزله عن الحجاز سنة ٩٢ هـ وسط الأسى والحزن العامين ، وكان أول عمل قام به خلفه انه طرد اللاجئين العراقيين من المدينة ومكة .

وفي هذا الوقت تقريباً القى الحجاج بيزيد بن المهلب واخوته في السجون ، وأخذ يسومهم صنوف العذاب ، ولكن ضحاياه هؤلاء تمكنوا من الفرار والتجأوا الى سليمان بن عبد الملك ، أخ الوليد وخليفته من بعده .

الفتوحات في افريقية ؛ ٨٩ هـ

يجدر بنا الآن ، بعد ان استعرضنا الحالة في الشرق ، ان نلتفت الى الغرب . كان « حسّان » ما يزال يحكم افريقية بعد مقتل الكاهنة ، وكان يسودها أمن وسلام نسبيان ، ولكنه عُزل في سنة ٨٩ هـ وعُيّن مكانه موسى بن نصير والياً على افريقية . وكان والد موسى رئيس الشرطة في أيام معاوية ، ولكنه رفض ان يقاتل معه علياً في معركة

صفين ، وبرغم ذلك فان ابن أبي سفيان ، الذي كان يعرف مزاياه ، احترم ارادته .

وكان انسحاب حسّان إيذاناً بثورة قام بها البربر ، ولكن هؤلاء اخطأوا تقدير قوة الوالي الجديد وهمته ؛ وعندما اشتبك معهم في سلسلة من المعارك التي قادها هو بنفسه مع أولاده ، مزّق شملهم وطرد المتآمرين من اليونان من البلاد واعاد الأمن فيهـا إلى نصابه . ولقد استطاع موسى ، بحنكته ودرايته وموقفه الودي المسالم من اعيان البلاد ، ان يكتسب ثقتهم المطلقة ويفوز بولائهم واخلاصهم ، وعيّن الفقهاء لتعليم الناس قواعد الدين الاسلامي ، وفي خلال فترة وجيزة من الزمن اعتنق الشعب البربري بأسره دين محمد .

وإذ كان البيزنطيون ما فتئوا يناوئون المسلمين ويهاجمونهم من جزز البحر الابيض المتوسط ، فقد ارسل اليهم موسى جيوشه لأخضاعهـم وتأديبهم ، ففتحت هذه الجيوش جزائر منورقة وميورقة وايفيقيـة ، وبذلك ضُمت الى الامبراطورية الاسلامية ؛ وسريعاً ما ازدهرت هذه الجزر تحت الحكم الاسلامي ، ذلك أن العرب ، شأنهـم في الأماكن الأخرى ، شيدوا فيها المباني الجميلة ، وادخلوا اليهـا مختلف أنواع الحرف اليدوية ، واحدثوا التحسينات المادية الاخرى في البلاد .

وقد أصبحت ولاية موسى بن نصير الآن معادلة من حيث اتساع رقعتها لولاية الحجاج ، ذلك أنها كانت تمتد من حدود مصر الغربية الى شواطىء المحيط الاطلسي ، باستثناء كيوتا ، كما كانت تشتمل على الجزر الغربية في البحر الأبيض المتوسط ، وقُدّر لهـا ان تضم اليها بلاداً كبيرة كانت هي امبراطورية في حد ذاتها .

اسبانية

وفيما كانت افريقية تنعم بالتسامـح والعدل ، وبينما كانت تخطو

خطوات واسعة في طريق الازدهار المادي في ظل الحكم الاسلامي ، كانت جارتها اسبانية ترزح تحت نير القوط الحديدي . والحق ان حالة تلك البلاد واهلها لم تكن أسوأ منها ولا اتعس في عهد ملوك القوط . كانت طبقات الاغنياء والنبلاء والاعيان ، شأنها في أيام الرومان، معفاةً من الضرائب ؛ بينما كانت الطبقات الوسطى ، التي القيت على عاتقها الاعباء العامة الثقيلة ، تئن من البؤس والفقر ، فقتل النشاط الصناعي وانعدم الانتاج وتوقفت التجارة ، واصيبت البلاد بشلل مريع لا يقلّ هولاً عن الشلل الذي أصابها بعد خروج المسلمين منها .

كانت البلاد مقسومة الى اقطاعيات كبيرة يعيش أصحابها في قصور شامخة منيفة ينفقون فيها ايامهم التي كانوا يقضونها منهمكين في انواع الفسق والفجور . وكانت الزراعة في ايدي الاقنان الذين كانوا يباعون ويشرون مع الارض ، أو العبيد الذين كانوا يعملون تحت سياط اسيادهم الظالمين . ولم يكن للاقنان والعبيد على حدٍ سواء أي املٍ بتنشق نسيم الحرية في تلك البلاد ، ولم يكن في مكنة أي منهما أن يقتني شيئاً يدعوه ملكاً له ، كما انه لم يكن باستطاعته ان يتزوج من دون موافقة سيده ، وإذا تزوج قنٌ في مقاطعة من فتاة من مقاطعة أخرى تحتم على الزوجين ان يوزعا أولادهما بين المالكيَن . وعلى كلٍ فقد كان الاقنان والعبيد يعيشون في عالمٍ مليء بالخرافات ، وكانت حالتهم المعنوية ، كحالتهم المادية ، في أحط دركٍ .

اليهود في اسبانية

وكان اليهود ، الذين كانوا يعيشون باعداد كبيرة في اسبانية ، يعانون الكثير من عسف الملوك والكهنة والنبلاء ، وقد دفعهم الجور والظلم الى محاولة الثورة على اسيادهم ، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن قضوا عليها ونكلوا باليهود ، وصادروا املاكهم وعاملوا من بقي حياً منهم

معاملة العبيد ، ووزعوهم ، شيباً وشباناً ، ذكوراً واناثاً ، على المسيحيين . فأما الشيوخ فقد سمح لهم بالبقاء على دينهم القديم ، وأما الشبان والاطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونُشئوا عليها ، وحُرِّم على اليهود التزوج من اليهوديات . واصبح على العبد اليهودي ، اذا اراد الزواج ، ان يتزوج من عبدة مسيحية . هذا هو العقاب الذي انزله رجال الدين ، اصحاب السلطة ، باليهود ، فاصبح المواطن البائس الفقير ، والعبد التعس ، والقن الشقي ، واليهودي المضطهد ، ينتظرون الخلاص الذي طالما انتظروه ، فما لبث ان جاءهم وهم في ذروة بؤسهم من جهة لم تَدُر بخلدهم . كانت الولاية العربية على الضفة الاخرى من المضيق قد اصبحت ملجأ للهاربين من اضطهاد القوط وعسفهم ، وكان الكثيرون من الاسبانيين قد لاقوا الصدور الرحبة في افريقية الاسلامية وعاشوا فيها بعيدين عن طغيان ملوكهم وعسف رجال دينهم .

في تلك الاثناء ، وبينما كان موسى بن نصير يحكم افريقية ، اعتلى روذريق عرش اسبانية ، بعد ان خَلَعَ ملكها السابق وتيزا (غيطشة) وقتله ، وهكذا انضم جوليان ، حاكم سبتة ، اثر نكبة حلت به على يدي روذريق بشخص ابنته فلورندا ، الى اللاجئين الاسبانيين في الاستنجاد بموسى لتحرير بلادهم من نير المغتصب ، فاستجاب موسى رجاءهم ، بموافقة الوليد، وارسل ضابطاً شاباً مقداماً اسمه طريف لاستطلاع احوال الساحل الجنوبي . وكان تقرير هذا الشاب مؤاتياً ، وهكذا نزل طارق بن زياد ، احد قواد موسى الاكفاء ، ومعه سبعة آلاف رجل ، في الموقع الذي يعرف الآن باسمه . وبعد أن حصَّن الجبل كي يكون قاعدة لعملياته ، انحدر الى الجيكراس (الجزيرة) التي كان يحكمها تدمير ، احد عمال روذريق . وعندما حاول القوط اعتراض سبيله مزّق شملهم شرَّ ممزق ، وعندئذ شرع طارق في زحفه المشهود على طليطلة .

وفي تلك الاثناء تعاظم جيش طارق حتى بلغ اثني عشر الف رجل

بفضل الامدادات التي ارسلها اليه موسى . وكان روذريق منهمكاً في اخماد الاضطرابات التي نشأت في الشمال ، ولكنه ما ان سمع بالغزو العربي حتى قفل مسرعاً الى عاصمته ، وطلب الى الرؤساء الاقطاعيين ان ينضموا اليه في قرطبة مع جنودهم .

موقعة سيدونيا وهزيمة القوط

وقد بلغ جيش روذريق ، عندما انضمت اليه الامدادات ، مئة الف رجل ، ولذا كان الجيشان : العربي والقوطي ، غير متكافئين اطلاقاً عندما التقيا على ضفاف نهر كوادليت ، الى الشمال من سيدونيا .

واذ كان ابناء وتيزا ساخطين على روذريق بسبب المظالم التي حلت بهم على يديه فقد انفصلوا عنه بعد المعركة الاولى ، ومع ذلك فقد ظلت القوة التي كانت تحت امرته هائلة حسنة التنظيم مزودة بأحسن المعدات صدت فترة من الزمن هجمات المسلمين ، ولكن الحملة الاخيرة التي قادها طارق نفسه كانت من القوة بحيث لم يستطع اعداؤه الوقوف في وجهها ، فتشتت شملهم وغرق ملكهم روذريق في مياه نهر الكوادليت . ولقد احدث هذا الانتصار العظيم تأثيراً معنوياً كبيراً في نفوس اعداء المسلمين ، فخشوا مقابلتهم مرة اخرى .

وهكذا فتحت مدينتا سيدونيا وقرمونة ابوابهما ، وأبدت مدينة استجة ، التي كانت جيوش روذريق قد التجأت اليها ، بعض المقاومة ، ولكنها ما لبثت ان استسلمت لقاء شروط مرضية .

وقسم طارق جيشه الصغير الى اربع فرق ثم أمَّرَ احد قواده بالمسير الى قرطبة ، بينما توجه الثاني الى مالقة ، والثالث الى غرناطة وألبيرة ، وتوجه هو مسرعاً على رأس القوة الرئيسية الى طليطلة ، عاصمة القوط . وكان ان سقطت مالقة وغرناطة وقرطبة الواحدة تلو الاخرى دون صعوبة تذكر ، وتم اخضاع الجيكراس (الجزيرة) ، التي كانت خاضعة

لسلطان تدمير ، بسرعة . ولقد ارتاع القوط للسرعـة التي تمت بها تحركات طارق ، ولشدة الضربات التي كان يسددهـا اليهم ، وكان الاشراف يعرضون خضوعهم أو يفروا من مكان الى آخر . وفرّ كبار رجال الاكليروس الي روما ، في حين ان عامة الشعب ، من الاقنان واليهود والفقراء ، رحبوا بالمسلمين واعتبروهم محرريهم من نير القوط . واذ وجد طارق ان الاسبان قد هجروا طليطلة فقـد تركها في عهدة فصيلة صغيرة من اليهود والمسلمين ، وعلى رأسها « اوباس » ، شقيق الملك غيطشة ، وطارد فلول القوط حتى استوركاوا .

وفي تلك الاثناء تناهت انباء انتصارات طارق الى مسامع موسى بن نصير فدفعته الغيرة او المنافسة الى ان ينزل بنفسه على رأس جيش من ثمانية عشر الف رجل ليكمل الفتـح الذي بدأه قائده البارع ؛ وكان في جيشه العـديد من سادات اليمن واحفاد صحابة رسول الله ، فسار بهم شرقاً حتى وصل الى سافيلا وماردة واخضعها الواحدة تلو الاخرى ، وفي طليطلة لحق به طارق ، قائده المظفر . ولقد شهد اجتماعُ القائدين الفاتحين خلافاً لم يكن يليق بهما ، غير انهما ما لبثا ان تصالحا ووحدا قواتهما وزحفـا على اراغون ، ففتحت لها ابوابهـا كلٌ من سرقسطة وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن الرئيسية في الشمال ، وفي اقلّ من عامين اثنين غدت بلاد اسبانية كلها ، حتى حدود جبال البرينه ، في ايدي العرب . وبعد بضع سنوات فتح العرب بلاد البرتغـال وجعلوها ولاية مستقلة واطلقوا عليها اسم « الغرب » ، وفي جبال الأوستارياس وحدها استمر المسيحيون الاسبان في مقاومة المسلمين .

فتوحات موسى

وعهد موسى الى طارق مهمة اخضاع مدن جليقية ثم سار هو الى فرنسة حيث اخضع بسهولة ويسر ذلك القسم الذي كان تابعاً لحكومـة

القوط من بلاد لانكودوك . وما ان وقف موسى على جبال البرينه حتى وضع خطته لفتح اوروبة بكاملها ، ولو انه سُمح له بتنفيذ خطته وقتئذ اذن لتمكن على الارجح من النجاح فيها ، ذلك ان الغرب قد اصبح بكامله تحت قدميه ، ولم تكن هناك اية رابطـة بين الامم التي كانت تفصلُ موسى عن مقر الخلافة ، كما انه لم يكن قد ظهر بعـدُ ذلك القائد الذي يستطيع ان يوحد القوات المسيحية ويعترض تقدّم العرب ، ولكن سياسة الحذر والتردد التي اتبعها بلاط دمشق اضاعت تلك الفرصة الرائعة ، وكانت النتيجة ان ظلت اوروبة غارقة في ظلام الجهل طوال القرون الثمانية التالية ، فقد اصدر الوليد الى موسى امراً بالتوقف بينما كان يستعد للتوغل في فرنسة بغية اجتيازها الى ايطالية ، عندئذ حصر اهتمامه في اخضاع الاقسام الجبليـة من اسبانيـة بأكملها ، حيث كان المسيحيون يقيمون حصونهم المنيعة في دفاعهم اليائس ضد العرب .

ودخل موسى الى جليقية واستولى على قلاعها وطرد العدو الى جبال اوستورياس . ومن لوكو اخذ موسى يدير تحركات جيشه الذي اصبح الآن يحدق بالعصاة من كل جانب ، فأخذت عصاباتهم تستسلم الواحدة تلو الاخرى حتى لم يبق هناك سوى بيلايو وقليل من انصاره . وكان هذا على وشك ان يلقي سلاحه لو لم يصـل رسول من دمشق ، في اللحظـة التي كاد يتم بها الفتح ، يحمـل اوامر الخليفة الى القائدين بالعودة .

استدعاء موسى وطارق

ومهما كان الدافع الذي اجبر الوليد على استدعاء موسى وطارق فما لا شك فيه ان الاستدعاء كان كارثة عظمى على الاسلام ، ذلك ان رحيل موسى مكّن بيلايو من تحصين نفسه في الجبال ومن ان يكوّن هناك نواة تلك القوة التي قدر لها من بعد ان تنتصر عـلى الولايات

الاسلامية وتدمرها في الجنوب . واذ حُرم العرب من أقدر قائدين فيهم فقد نظروا بازدراء واحتقار الى تلك القبضة من المدافعين المصممين على القتال وتركوهم يزدادون عدداً وعدة يوماً بعد يوم . ولقد اتخذ موسى قبل رحيله جميع التدابير اللازمة لحكم البلاد ، فعيّن ابنه عبد العزيز حاكماً على تلك الولاية الجديدة وجعل اشبيلية مقراً له ، وعهد الى ابنه الثاني ، عبد الله ، بحكم افريقية ، بينما استعمل عبد الملك ، اصغر ابنائه ، على المغرب الاقصى ، وعهد الى عبد الصالح بقيادة الاسطول وحماية السواحل ، وجعل مقره طنجة . وبعد ان اكمل تدابيره ضماناً لحسن سير الحكم شرع في رحلته الى دمشق يحف به عدد كبير هائل من اتباعه .

تأثير الفتح

كان من تأثير الفتح في اسبانية على يد العرب ان بدأ عهدٌ جديد في شبه الجزيرة ، اذ نتج عن الفتح ثورة اجتماعية خطيرة لا يضاهيها في محاسنها غير الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . لقد قضت تلك الثورة الاجتماعية على الحقوق والسلطات التي كانت تنعم بها الطبقات الممتازة التي كان الاكليروس والنبلاء يحتلون بينها ارفع المناصب ، ورفعت الاعباء الثقيلة التي كانت قد سحقت الصناعة ودمّرت طبقات الشعب الوسطى ، فألغت الضرائب الفادحة واستحدثت نظاماً عادلاً رصيناً للضرائب ، ففرضت الجزية على غير المسلمين والخراج على المسلمين وغير المسلمين معاً . وكانت الجزية في ذاتها زهيدة جداً ، وكانت تختلف حسب استطاعة المكلّف ، فضلاً عن انها كانت تجبى على اثني عشر قسطاً متساوياً [١] ، ويستثنى منها الرهبان والنساء والاطفال بوجه عام ،

---

١ ــ كانت تتراوح بين ١٢ و ٤٨ درهما ، وكان الدرهم يساوي فرنكا واحدا .

وكذلك المقعدون والعمي والمرضى والمتسولون والأرقاء . واما الخراج فقد كانت قيمته تتوقف على انتاجية الارض ، ولذلك فانه لم يكن عبئاً على الزراعة اطلاقاً ، وكانت مدنٌ اسبانية كثيرة قد نالت شروطاً مؤاتية جداً عند الفتح فحافظ المسلمون على هذه الشروط ونفذوها بأمانة واخلاص .

ولو استثنينا املاك النبلاء ورجال الاكليروس ، الذين نزحوا عن البلاد او التحقوا بصفوف العصاة الغاليشيين ، فان الحكومة لم تصادر أية املاك في البلاد ، وكانت تقمع ببطش وشدة اعمال العنف والنهب الافرادية التي كان يقترفها الجنود ، تلك الاعمال التي لا مفر منها لدى دخول ايما جيش فاتح ، وسمحت لليهود المضطهدين باقامة شعائرهم الدينية ، كما منحت المسيحيين حرية ممارسة طقوسهم وقوانينهم ، وتركت أمر ادارتها لقضاة منهم ، وهكذا اصبح كل رجل وامرأة وطفل حراً في ان يعبد ما يشاء بالطريقة التي يشاء . كذلك عينت الحكومة موظفين مسيحيين لجبي الضريبة من ابناء طائفتهم ولتسوية منازعاتهم ، واصبحت ابواب الوظائف العامة على اختلاف انواعها مفتوحة في وجوه المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء ، وان حكومات عصريةً كثيرة جديرةٌ بأن تقتبس درساً من اسلوب الادارة الاسلاميةً في اسبانية .

والحق ان الفتح الاسلامي قد اثر تأثيره الأكبر في حالة الطبقات المستعبَدة التي كانت تعامل حتى ذلك الحين معاملة السائمة ، فعادت اليها الآن حقوقها الانسانية ،وغدا العبيد والاقنان الذين كانوا في الاراضي التي انتقلت الى ايدي المسلمين احراراً ، واصبحوا يستأجرون الارض ويعنون بها كما يعنى بها مالكها ، وأصبحت الارض ارضهم ، على ان يدفعوا حصة من غلتها الى اصحابها المسلمين . اما اولئك الذين ظلوا يعملون مع اسيادهم المسيحيين فقد تحسنت احوالهم تحسناً عظيماً ، ذلك ان ايّ تظلّم من سوء المعاملة ، او اعتناقهم الدين الاسلامي ، كان

يؤدي الى اعتاقهم بموجب القانون ، ولذلك اقبـــل العبيد والاقنان على الدخول في الاسلام بغية الحصول على الحرية والتمتـــع بنعم الحياة التي كان العهد القديم ينكرها عليهم ، واعتنقه الوجهاء والنبـــلاء اما عن اقتناع او حفاظاً على مصالحهم ، ولكنهم على كل حال اخلصوا لدينهم الجديد ، كما سيظهر فيما بعد . ولقد آثـــر المسيحيون انفسهم حكم العرب ، المتساهل الكريم ، على طغيان القوط واستبداد الفرنج ، فعادوا افواجاً الى المدن والقرى التي كانوا قد هجروها هلعاً بادىء الامر . وحتى رجال الكهنوت لم يتبرموا بالحكم الجديد ، « ولو في بادىء الامر على الاقل » ، كما يقول « دوزي » .

تقسيم اسبانية

ولقد قسم العرب اسبانية ادارياً الى اربع مقاطعات كبيرة ، وجعلوا على كل منها حاكماً مسؤولاً تجاه امير الاندلس مباشرة .

وكانت اولى هذه المقاطعات تتألف من اندلوسيا – وهي الاراضي الواقعة بين البحر ونهر الوادي الكبير – والبقعة الممتدة من هذا النهر الى وادي يانا ، ومدنها : قرطبة ، واشبيلية ، ومالقة ، وجيّان .

وكانت المقاطعة الثانية تتألف من اسبانية الوسطى بأكملها ، يحدها البحر الابيض المتوسط من الشرق ، وحدود لوزيتانيا (البرتغال الحالية) من الغرب ، وتمتد حتى نهر دورو في الشمال . وكانت اشهر مدن هذه المقاطعة : طليطلة ، وقونقا ، وسيقوبيا ، ووادي الحجارة ، وبلنسية ، ودانية ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولارقة .

وكانت المقاطعة الثالثة تتألف من جليقية ولوزيتانية ، واهم مدنها : ماردة ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمنقة الخ ..

وأما المقاطعة الرابعة فكانت تمتد من شاطىء الدورو الى جبال البرنيه على ضفتي نهر الايبرو ، ومن اهم مدنهـــا سرقسطة ، وطرطوشة ،

وتواغونة ، وبرشلونة ، وتطيلة ، وبلد الوليد الخ ..

ولما اتسعت الفتوحات فيما بعد انشئت مقاطعة خامسة فيما وراء البرنيه ، وكانت تتألف من أربونة ، وينم ، وقرقشونة ، وبزيبة ، وآدج ، وماحيلون ، ولاديف .

وكان العرب والبربر يفضلون العيش في هذه المدن ، فتجمعوا فيها على شكل قبائل . وفي حين ان هذا التجمع قد أفادهم في صد هجمات المسيحيين ، فانه أدى الى نموّ روح المنازعات والاحقاد القبلية .

والجدول التالي انما يبين توزيـــع القبائل والشعوب التي استوطنت مختلف انحاء البلاد :

قرطبة	فصيلة دمشق
اشبيلية، نبيلة	فصيلة حمص
جيان	فصيلة قنسرين
شذونة، الجزيرة	فصيلة فلسطين
رية، مالقة	فصيلة الاردن
شريش	فصيلة فارس
طليطلة	فصيلة اليمن
غرناطة	فصيلة العراق
ماردة، لشبونة الخ	فصيلة مصر

واخيراً ، استوطن عشرة آلاف فارس من الحجاز ، مع اتباعهم ، في الداخـــل . واسس عبد العزيز ، الذي استخلفه ابوه موسى لدى

رحيله الى دمشق ، ديواناً لتطبيق القوانين والنظُم الاسلامية حسب حاجات البلاد والعمل على مزج الشعبين : الشعب الفاتح وشعب البلاد الاصلي . ولقد استطاع عبد العزيز ، بفضل حكمته وتساهله ، أن يوفق بين جميع الطبقات ، فقد شجّع ، شأن ملوك المغول الاولين في الهند ، التزاوج بين الفاتحين وسكان البلاد الاصليين ، وجعل نفسه الأمثولة إذ تزوج من أرملة روذريق ، وكانت تدعى ايكولونا ، ولقبهـــا العرب بأمّ عاصم .

تطور اسبانية في عهد العرب

لقد جاء المستوطنون العرب في الاصل من بلدان كانت في الاساس زراعية ، كمصر وسورية وفارس ، وكانوا ، شأن اليهود الذين كانوا يتبعونهم اينما استقروا في مستعمراتهم ، مطبوعين على التجارة ، وكانت تعاليم النبي تحضهم على الكد والكدح ، وتجعل من العمل فريضة دينية . لذلك أخذوا على عاتقهم بهمة لا تضاهى تطوير اسبانيا تطويراً مادياً ، بعد أن كانت قد منيت بالشلل طيلة عهد الحكومة المسيحية ، فاستحدثوا عدة اعمال زراعية ، وأخصبوا الاراضي القاحلة ، وعمروا المدن المهجورة ، وزينوها بالتماثيل الجميلة ، وربطوا فيما بينها بعدد من الروابط التجارية والصناعية ، ومنحوا الناس حقاً لم يُمنحوه قط من قبل في عهد ملوك القوط ، ونعني به حق التصرف بأراضيهم . وإذ تحررت اسبانية من العبودية الاقطاعية التي طالما أنّت منها وكانت لعنة عليها ، فقد اصبحت اكثر البلدان الاوروبية سكاناً وعملاً . ولقد حوّل العرب اسبانيـــة الى جنة ، وانشأوا فيها إدارة نموذجية ، وشجعوا الفنون والعلوم ، ولكنهم لم يستطيعوا قط ان يضعوا جانبـــاً ، أو ان يكبتوا ، حتى في تلك الاصقاع النائية ، تلك الخصومات والاحقاد القبلية التي كانت تشتعل فيما بينهم في الصحراء . لقد منحهم القدر تلك الفرصة الذهبيـــة لتأسيس

امبراطورية خالدة ، ولكنهم أضاعوها بسبب من افتقارهم إلى الوحدة والتماسك . ولقد تعزز النزاع في اسبانية بفضل عاملين اضافيين معارضين أشد المعارضة للسيادة الاجنبية وهما :

(١) البربر ، الذين كانت منهم اعداد كبيرة في الجيش العربي ، والذين كانوا يكرهون الضباط العرب ويثورون بهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً ، ولم يكن قمع حركاتهم إلا ليزيد في حـدة عدائهم العنصري للعرب .

(٢) المسلمون الاسبان ، الذين كانوا يمقتون العرب لكبريائهم ، ويمقتون البربر لوحشيتهم .

ومع ان التعاليم الاسلامية كانت قد قضت على التمييز بين الاجناس والألوان ، إلا ان العرب : في تلك الاصقاع النائية التي دخلوها بحد السيف ، لم يستطيعوا ان يسموا على الاعتزاز بعنصريتهـم التي كانت تؤلف دائماً صفة أساسية لطبيعتهم . فالعربي ، شأن الانجلوسكسوني ، يعتبر نفسه انبل خلق الله ، وتذكرنا الصلة بين العرب والمولدين — سكان البلاد الاصليين — الى درجة صغيرة بالعداء العنصري القوي الذي قسّم النمساويين والايطاليين في لومباردي ، وبالعداء الذي ما يزال يفرق بين الكلتيين والسكسونيين في ايرلندة . فلقد كان المولدون في اسبانية ، شأن الايرلنديين حالياً ، يصرّون على ان يمارسوا الحكم الذاتي ، وعلى ان يحكمهم أفراد من بني جنسهم ، والواقع ان معظم ثوراتهم ضد العرب كان الفقهاء هم السبب فيها ، فقـد اعتنق الاسبان الدين الاسلامـي بالحماس المفرط نفسه ، وبالعنف الطائش نفسه الذي كانوا قد اعتنقوا به الديانة المسيحية من قبـل ، وكانوا بتحريض من الفقهاء كثيراً ما يثورون على العرب لتساهلهم في تفسير القوانين وفي تسامحهم العام ، فكان ان اضعفت هذه الخلافات كلها الامبراطورية وأدت ، كما تكهن ابن

خلدون ، الى فقدان القسم الشمالي حتى برشلونة ، قبل انقضاء ثمانين عاماً .

والآن يجدر بنا ان نحوّل انتباهنا مرة أخرى الى الشرق ، ذلك ان الوليد لم يمتد به الأجل كي يستقبل القائدين الفاتحين اللذين استدعاهما وهما في ذروة انتصاراتهما .

ولقد حاول الوليد قبل وفاته ، شأن ابيه من قبله ، بمساعدة الحجاج وقتيبة ومعظم كبار مضر ، ان يأخذ البيعة لابنه عبد العزيز ، ولكن المنية داهمته قبل ان يحقق غايته .

توفي الوليد في دير مروان سنة ٧١٥ م ، ودامت خلافته تسع سنوات وسبعة أشهر . ان كلاً من المسعودي وابن الاثير يعتبر الوليد حاكماً مستبداً طاغية ، ولكننا في هذا الزمن البعيد لا نملك إلا ان نذكر افعاله المجيدة وحسب . والذي لا شك فيه انه كان ارحم من ابيه عبد الملك ، وجدّه مروان ، وأرحم بالتأكيد ايضاً من كثير من خلفائه . والسوريون يعتبرونه بطبيعة الحال أشهر الخلفاء ، فقد شيّد الجامع بدمشق ، كما كبّر مساجد المدينة والقدس وحسّنها ، وبناءً على أوامره بُنيت المساجد في كل مدينة لم يكن فيها مكانٌ لاقامة الصلاة ، كما بنى المعاقل والحصون لحماية الحدود ، وشق الطرق وحفر الآبار في جميع انحاء الامبراطورية ، وانشأ المدارس والمستشفيات والغى الصدقات غير المنظمة ، ومنح من مال الدولة عطايا ثابتة للمقعدين وذوي العاهات والفقراء . وكذلك انشأ الوليد الملاجىء للعميان والمقعدين والمجاذيب حيث أمر بايوائهم وإطعامهم والعناية بهم على أيدي اناس عيّنهم لهذا الغرض ، كما انشأ المياتم لأيواء اليتامى وتثقيفهم ، وكثيراً ما كان يزور بنفسه الاسواق ويراقب ارتفاع الاسعار وانخفاضها ، وكان أول خليفة أموي شجع الآداب والفنون والحرف .

وكان من معاصري الوليد على عرش القسطنطينية جوستنيان الثاني

الغاشم الذي قتل في سنة ٧١١ م ، وخلفهُ فيلبسيوس الذي سُملت عيناه وخلع في سنة ٧١٣ م ، واناستسيوس الثاني الذي قتله ثيودسيوس الثالث في سنة ٧١٦ م .

الفصل العاشر

بنو امية (الفرع الحكمي) (تتمة)
٩٦ – ١٠٥ هـ ؛ ٧١٥ – ٧٢٤ م

خلافة سليمان – موسى وطارق – وفاة عبد العزيز ابن موسى – الخصومات القبلية – اليمانيون – ثورة يزيد بن المهلب – حصار القسطنطينية – نكسة المسلمين – وفاة سليمان – خلافة عمر الثاني – حكمه العاقل الفاضل – التراجع عن القسطنطينية – وفاة عمر – خلافة يزيد الثاني – ثورة يزيد بن المهلب – هلاك اليمانيين – الخصومات القبلية – كوارث المسلمين – وفاة يزيد الثاني – العباسيون

بويع سليمان بالخلافة بعد الوليد بمقتضى وصية ابيهما عبد الملك ، وكان كريم الخصال ، صريحاً ، محباً للهو ، مؤثراً للعدل ، ميالاً الى الأخذ بنصائح ابن عمه عمر بن عبد العزيز – الذي وُلي الخلافة من بعده . وكان أول عمل قام به سليمان أنه فتح أبواب السجون في العراق، وأطلق سراح الألوف ممن كان الحجاج قد زجهم فيه ، وعزل جباة ذلك الطاغية ، وألغى معظم أوامره الغاشمة .

ولو أن سليمان اكتفى بازالة الاعباء التي كان الحجاج قد القاها على اكتاف الناس في العراق اذن لما خلّف وراءه ايمـا اثر غير محمود ، ولكنه سمح لعاطفة الانتقام بأن تتسلط على عقله ، فأخذ يضطهد المضريين الذين آزروا الوليد في تغيير الوصيـة ، ورفع من شأن اليمانيين الذين شرعوا في الثأر لأنفسهم من سوء المعاملة التي كانوا يلقونهـا على يد الحجاج ، كما أخذ يزيد بن المهلب ، حاكم العراق الجديد ، يصب جام غضبه وانتقامه على أقارب عدوه اللدود وانصاره بعـد ان طواه الموت ، وفي خراسان قُتل القائد العظيم قتيبة في الحرب الأهليـة التي اندلعت نارها الآن من جديد بين المضريين واليمانيين في كل جزء من اجزاء الامبراطورية .

موسى وطارق

الذي يبدو انه من المستحيل علينا الآن أن نفسّر المعاملة التي عومل بها موسى وطارق ، فاتحا الاندلس ، من جانب سليمان ، ذلك انهما معاً من أصل يماني ، وكانا متمتعين بثقـة يزيد ، ولكنّ سليمان اساء معاملة هذين القائدين العظيمين فاتا فقيرين معدمين ، مما سيبقى وصمة في جبينه أبد الدهر . وتذهب الشكوك ايضاً الى ان سليمان كان عالمـاً بالمؤامرة التي أدت الى قتل عبد العزيز بن موسى الذي حقق حكمهُ في اسبانية اعظم النجاح والازدهار ، كما أنه استدعى محمداً بن القاسم ، فاتح السند والبنجاب ، والذي فاز بمحبة الهندوس لعدله وانصافـه ، وكان ذنب محمد الوحيد أنه كان من اقارب الحجـاج ، ولذلك لقي أشد صنوف العذاب على يدي يزيد بن المهلب ، وعُين مكانه « حبيب » ، أحد أشقاء يزيد ، حاكماً على الهند ، فأضاع ، رغم شجاعته ، تلك المنزلة التي كان سلفه قد اكتسبها بين الهنود .

وفي إبان هذا المشهد تُرك المسلمون في اسبانية وشأنهم فانتخب الجيش

إثر مقتل عبد العزيز ، أيوب بن حبيب ، ابن أخي موسى ، حاكماً على البلاد ، ولكن تعيينه لم ينل موافقة حاكم افريقية التي كانت اسبانية تعتبر جزءاً من امارته . وبعد حكم دامَ بضعة أشهر نقل إبانها أيوب مضرباً يدعى « الحر » ويقال ان الحرّ هذا قد جلب معه اربعمائة رجل من الاسرة العربية الرئيسية في افريقية ، فأصبح هؤلاء نواة طبقة قاعدة الحكم من اشبيلية الى قرطبة ، عزل الخليفة أيوب وولى مكانه النبلاء المسلمين في اسبانية . ومنذ ذلك الحين حتى استيلاء العباسيين على الخلافة ظلّ يحكم اسبانية سلسلةٌ من الحكام بعينهم الخلفاء فى دمشق تارةً وامراء افريقية ، ومركزهم القيروان ، تارة أخرى ، وكانت هذه السلطة الموزعة مصدراً لشر عظيم ، ذلك انها افسدت الادارة ، واعترضتْ مواصلة الحكم ، وشجعت الاضطرابات ، وحالت دون تعزيز الحاميات النائية . ولم يبق الحرّ في الحكم سوى ثلاث سنوات تقريباً تميزت بفتوحات واسعة في الشمال .

غزو بلاد الروم

وصادف أن كان سليمان عام ٩٨ ﻫ في مكان يدعى دابق ، بالقرب من جلكيس القديمة ، عندما وفد عليه ليون الملقب بأيساريان ، قائد القوات الرومانية في آسية الصغرى . وقد شرع ذلك الخائن ذو الوجهين في أن يزين لسليمان السهولة التي يمكنه بها الاستيلاء على القسطنطينية ، والفوائد التي يمكن أن تجنيها الامبراطورية العربية من هذا الفتح . ولكي يضمن له النجاح عرض عليه ان يكون هو نفسه دليل المسلمين الى مواطن الضعف عند الروم ، فأُخذ سليمان بهذه الوعود ومنّى نفسه باسبانية جديدة ، وجهز جيشاً بقيادة أخيه مسلمة عبر الدردنيل دون أية مقاومة ، والقى الحصار على مدينة القسطنطينية لدى وصوله الى أسوارها . وكذلك ارسل سليمان جيشاً بقيادة أحد ابنائه فأخضع تراقيا وعاصمتها

سكاليبات ، أو « مدينة السلاف » .

وإذ دب الذعر في قلوب الروم فقد عرضوا على مسلمة مبلغاً كبيراً من المال لقاء فلك الحصار عن مدينتهم ، ولكنه رفض عرضهم ، فقتلوا حاكم القسطنطينية ثيودوسيوس الثاني أو عزلوه ، واستدعوا « ليون » الخائن فهرب من صفوف المسلمين ودخل القسطنطينية ونصب امبراطوراً على عرش الدولة البيزنطية . ولما كان ليون عالماً بمواطن الضعف عند المحاصرين فقد تمكن من الصمود في وجه جميع الهجمات التي شنها المسلمون ، كما انه تسبب في اتلاف قسم كبير من عتادهم ، وهكذا أخذ جند المسلمين واسطولهم يعانون الجوع والاوبئة والصقيع ، ومع ذلك كله استمروا في حصارهم ولم يفكروا في الانسحاب إلا بأمر من أمير المؤمنين . وليس ثمة ما يثبت عدم جدارة سليمان بملء المنصب الذي كان يشغله أخوه الوليد أكثر من عدم مؤازرته مسلمة المؤازرة الكافية بينما كان هو وجيشه تحت أسوار القسطنطينية ، فلو انه أمده بالنجدات الكافية اذن لما كان هناك ادنى شك في سقوط القسطنطينية وقتئذ .

ولكن هذه الكوارث التي حلت بالمسلمين كانت اعظم من ان يقلل من هولها ذلك النجاح الذي تحقق على يدي يزيد بن المهلب في طبرستان وقوهستان ، الى الجنوب الغربي من بحر قزوين ، اللتين كانتا حتى ذلك الحين في ايدي حكام وطنيين كثيراً ما تحدوا سلطان العرب واحتموا في معاقلهم المنيعة . وأخيراً هب سليمان بنفسه الى قيادة الامدادات التي طلبها مسلمة ، ولكنه لم يكد يبتعد عن دابق ، في مقاطعة قنسرين ، حيث رأى الخائن ليون للمرة الأولى ، حتى اصيب بمرض مميت توفي على أثره في العشرين من صفر سنة ٩٩ هـ بعد حكم قصير غير مجيد دام عامين وخمسة أشهر .

وكان سليمان ، مثل اخيه ، يتوق إلى مبايعة أحد أولاده بولاية العهد ، غير ان ابنه الأكبر ، أيوب ، الذي رشحه للخلافة ، كان

قد توفي قبله ، بينما كان الثاني ، داود ، منهمكاً في تلك الحملة المنكودة على الروم ، ولم يكن أحد يدري على وجه الدقة هل كان حياً وقتئذ أو انه قتل . واذ استولى على سليمان قلق مخيف من جراء ذلك ، فقد أراد ان يحول دون الانشقاق الذي لم يكن هناك شك في حدوثه اذا لم يعين خليفة له ، ولذلك أوصى بالخلافة من بعده ، وهو على فراش الموت ، لابن عمه عمر ، ومن بعده لاخيه يزيد بن عبد الملك .

وقد كتب الخليفة سليمان هذين الاسمين على قطعة من الورق ثم ختمها وسلمها الى رجاء بن ايوب ، احد مستشاريه الموثوق بهم ، فبايع أهل البيت من سماه في تلك الورقة .

عمر الثاني

بويع عمر الثاني الملقب بالخليفة الصالح في شهر صفر من عام ٩٩هـ، وكان ابن عبد العزيز أخي عبـــد الملك الذي كان قد ولي على مصر فحكمها بالحكمة والعدل ، اما امه فكانت حفيدة عمر بن الخطاب ، ويعتبره اهل السنة خامس الخلفـــاء الراشدين . وكان من صفاته التقى والعدل والاستقامة والاعتدال ، وكانت حياته تتميز ببساطة كلية . وقد ساوره القلق من جراء عظم مسؤولية المنصب الذي عُهد اليه ، وقـــد وجدته زوجته ، فاطمة بنت عبد الملك ، يبكي ذات مرة بعد الصلاة ، فسألته عما يبكيه فقال : « لقد وليت أمور المسلمين وغـــير المسلمين ، فتذكرت الفقراء الذين يموتون جوعاً ، والمرضى المحرومين والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين والشيوخ المهيضي الجناح ، فخشيت أن يحاسبني الله من اجلهم حساباً عسيراً ، ولهذا بكيت » .

ما إن تولى عمر الخلافة حتى باع الخيول الملكية بالمزاد العلني وأمر برد ثمنها الى بيت المال ، كما أمر زوجته بأن تعيد الى بيت المال جميع الجواهر والهدايا الثمينة التي كانت قد تلقتها من أبيها واخوتها ، فأطاعت

أمره بسرور وغبطة .

وبعد وفاة عمر واعتلاء أخيها يزيد عرش الخلافة عرض عليها ان يعيد اليها مجوهراتها ولكنها أجابت بإباء ونبل : « انني لم اهتم بها في حياته ، فجدير بي ألا اهتم بها بعد وفاته » .

كذلك أعاد عمر الى المسيحيين واليهود كنائسهم وكُنُسهم التي سبق ان اغتصبت منهم ، كما رد الى آل البيت ارض « فدك » التي كانت بيد رسول الله واستولى عليها مروان . وكانت العادة في ايام الامويين حتى عهد عمر الاساءة الى ذكرى علي واهل بيته من على المنابر ، فأمر عمر بترك تلك العادة وجعل مكانها « ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . » وحضّ الناس على مكارم الاخلاق وفرض العقاب الصارم على أقل اعتداء ، ورفع الاعباء التي كان الحجاج واتباعه قد فرضوها على الذين اعتنقوا الاسلام من اهل العراق وخراسان والسند . والخلاصة ان عهد عمر بن عبد العزيز يعتبر احسن عهود الدولة الاموية ، فالمؤرخون يطرون الاعمال التي حققها هذا الخليفة الذي جعل خير شعبه غايته الوحيدة .

وفي ابان حكم عمر اقلع الخوارج عن حركاتهم في الجزيرة العربية وافريقية ، حتى انهم بعثوا بالرسل الى عمر ينبئونه بأنهم لا يعترضون على حكمه ولكنهم لا يوافقون على مبايعة يزيد . ولم يكن عمر يود توسيع رقعة امبرطوريته العظيمة بل تدعيمها وتوطيد اركانها ، فاستدعى جيش مسلمة الذي كان يحاصر القسطنطينية واوقف جميع الحملات الاخرى عند الحدود وشجع الناس على تعاطي الصناعة وحاسب حكام الولايات حساباً دقيقاً . وكان عمر دائماً يعتبر يزيد بن المهلب حاكماً مستبداً ، وكان يزيد بدوره يلقبه بالمنافق ، ولكن « المنافق » كان جاداً في أداء واجباته إزاء شعبه ، فدعا يزيدَ ذات مرة لمحاسبته عن المغانم التي

كتب في وصفها الشيء الكثير الى الخليفة السابق ، ولما لم يقدّم له جواباً شافياً أمر بحبسه في قلعة حلب حيث بقي حتى وفاة عمر .

تولية السمح على الاندلس

وفي عام ٧١٩ م انتهت اليه انباء الاضطرابات في اسبانية ، وعجز « الحر » عن التفاهم مع الاسبانيين فعزله وولى مكانه زعيماً يمانياً يدعى السمح بن مالك من قبيلة خولان . وكان السمح مشهوراً بحنكته الادارية ودرايته الحربية ، ولذا عهد اليه باعادة تنظيم الشؤون المالية والادارية ، وبناء على أمر من الخليفة اجرى السمح احصاء للجنسيات والاجناس والمذاهب التي كانت تقطن البلاد ، كما مسح بلاد الاندلس مدنها وجبالها وانهارها وبحارها ، وبيّن طبيعة الارض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل ، وبنى كذلك مسجداً جامعاً في سرقسطة وشيّد ورمّم جسوراً عدّة .

تأديب العصاة والزحف على فرنسة

وبعد ان أعاد النظام الى نصابه في اسبانية أخذ السمح على عاتقه تأديب العصاة المسيحيين في اللانكيدوك والبروفانس فهزمهم واجبرهم على اللجوء الى المعاقل الجبلية في الاستورياس ، كما اكتسح « سبتمانيا » وفتحت له اربونة ابوابها وحذت حذوها مدن كثيرة اخرى . ولما كان الوصول الى اربونة سهلاً من البحر فقد حصنها وعزز حاميتها ثم زحف على طولوز عاصمة الاكواتين وحاصرها بقوة صغيرة اذ كان قد ترك عدة فرق في المدن التي احتلها . وقبل ان يتمكن من شن الهجوم الاخير على المدينة وصل اليها ايوديس امير اكواتين على رأس جيش عظيم . ومع ان نسبة جيش المسلمين الى جيش العدو كانت كنسبة واحد الى عشرة فانهم حاربوا بما عرف عنهم من شجاعة نادرة ، وكسر قوادهم

اغماد سيوفهم وهم مصممون على الانتصار او الموت ، ودارت معركة رهيبة استمرت سجالاً بين الفريقين مدة طويلة حتى سقط السمح بعد ان أصابه رمح في عنقه . وعندما رأى المسلمون ان قائدهم يهوي صريعاً خارت عزائمهم ، ولكن عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي استولى على القيادة في الحال ونجح في سحب الجند من بروفانس بمهارة وشجاعة فائقتين فازتا باعجاب اعدائه انفسهم . ولقد وقعت معركة طولوز ، التي هلك فيها عدد كبير من العرب المشهورين ، في شهر ايار من سنة ٧٢١ م ، اي بعد وفاة عمر بقليل .

كان الحكم الصارم والعدل التام اللذان باشرهما عمر ضد طبيعة الامويين الذين بدأوا يرون الى السلطة والنفوذ يفلتان من ايديهم ؛ اذ كان يرفض علناً ان تلوّث المناصب العامة بوجودهم فيها ؛ حتى انه عزم على تغيير وصية اخيه بولاية العهد ، وهكذا عقدوا النية على التخلص بدسائسهم المعهودة من عمر فرشوا أحد الخدم فدسّ له السمّ في الطعام فقضى مسموماً في دير سمعان بالقرب من حمص في أواسط سنة ١٠١ هـ .

خلافة يزيد الثاني

وبمقتضى وصية سليمان بويع يزيد الثاني ابن عبد الملك بالخلافة وكان متزوجاً بنت اخي الحجاج ولذا كان يعطف كل العطف على المضريين خلافاً لعمر الذي كان يحافظ دائماً على التوازن بين المضريين والحميريين فأصبح هؤلاء في عهد يزيد الثاني يشعرون بكامل وطأة انتقام المضريين . وكان هذا في معظمه نتيجةً للسياسة الصارمة التي اتبعها في ايام الخليفة سليمان يزيدُ بن المهلب ازاء اسرة الحجاج بغية ابتزاز الاموال التي اكتسبوها بصورة غير مشروعة في عهد الحجاج ، ولم يستثن منهم أحداً حتى ابنة اخي الحجاج ، زوجة يزيد ، ضارباً عرض الحائط

بازدراء بتوسلات زوجها الذي اقسم ليمزقن ابن المهلب اذا صارت اليه الخلافة فتحداه ابن المهلب بقوله : « انك ان فعلت قابلتك بمئة الف مقاتل » . وهكذا فما ان علم المهلب وهو في سجنه في حلب بدنو أجل عمر حتى أدرك ما ينتظره على يد سميه ، ولذا رشا حراسه وفرّ الى العراق حيث أعلن الثورة مع أخيه ووصل الى البصرة .

ثورة يزيد بن المهلب

وكان الامـــام الحسن البصري ، مؤسس المدرسة الفقهية ، يعيش عندئذ في البصرة فأهاب بمواطنيه ألا ينحازوا الى أحد الطرفين ، ولكن شجاعة ابن المهلب واخيه وكرمهما اللذين كان لهما اكبر التأثير على العقل العربـي اشعلا حماس أهل البصرة فهبوا الى نجدتهـما واقسموا لهما يمين الولاء . ولكن يزيــد الاموي ارسل قوة كبيرة على رأسها مسلمة بن عبد الملك وعباس بن الوليد لسحق الثورة .

والتقى الجيشان في ميدان العَقْر بالقرب من كربلاء على ضفة الفرات اليمنى ودارت بينهما معركة رهيبة أسفرت عن هزيمة الثوار ، وقتــل يزيد وأخوه حبيب بعـــد ان فر معظم رجالها ، وهرب سائر اخوانهما الى كرمان حيث قتل بعضهم في معركة ثانية نشبت بينهم وبين جيوش الخليفة ، والتجأ الباقون الى خاقـــان الترك . ومع ان ثورة يزيد بن المهلب ، التي كادت ان تقوّض دعائم الخلافة الاموية ، قد سحقت ، فقد كانت لها نتائج بعيدة الأثر ، كما ان القضاء على « ازد » اليمانية التي ينتسب اليها يزيد بن المهلب في الكرمان والعراق قد هزّ العـــالم العربي بأسره وأشعل نار العداوة والبغضاء بين اليمانيين والحميريين في اسبانية وافريقية والمشرق ، وانتصر أعداء المسلمين في كل مكان ، بينما شجع عجز الخليفة ومستشاريه ، وتولية الحكام من غير الأكفـــاء ، الاضطرابات والفتن في البلاد ، ومنيت الحملة على اذربيجان بالهزيمة

المنكرة على يدي الخزر والقفجاق سكان قوقاسية ، واشتعلت الثورات فيما وراء النهر بسبب تعسف الحكام الجدد فأخمدوها بصعوبة كلية بعد ان فقدوا في سبيل ذلك العديد من الأرواح . ولم نعلم بأي نجاح حققه العرب في ذلك الحين إلا في آسية الصغرى حيث انتصر العرب على البيزنطيين .

أما في افريقية فقد أدت تولية أحد عمال الحجاج السابقين ، وقد حاول ان يعامل اهلها البربر بالشدة نفسها التي عامل بها الحجاج اهل العراق ، الى ثورة استفحل أمرها في غضون وقت قصير واستنفد قمعها في عهد خلف يزيد جميع موارد الامبراطورية . وفي اسبانية ، حيث كان عمر قد حفظ التوازن بين الحميريين والمضريين بحيث أن أيما فريق منهما لم يجد سبيلاً للشكوى ، كانت الضغائن القبلية قد شرعت بالظهور ثانية ، فانهمكت كل مدينة في منازعاتها وخصوماتها ، وفرضت من جديد تلك الضرائب الباهظة التي كان أخو الحجاج قد فرضها في اليمن في عهد الوليد الأول والغاها عمر الثاني ، مما أدى الى هجرة معظم السكان بعد الغاء جميع الاوامر العادلة التي أصدرها عمر . وكان الخوارج ، في العهد السابق ، قد أحجموا عن ارتكاب أيما عمل عدواني ، ولكنهم خرجوا الآن من مكامنهم ضد الرجل الذي كانوا يعتبرونه طاغية مستبداً ، وفيما كانت ريح الاضطرابات تعصف بالامبراطورية من كل جانب كان يزيد منصرفاً الى ارتشاف كؤوس اللهو مع جاريتيه سلاّمة وحبابة اللتين كان يحبهما حباً عظيماً . ولما ماتت حبابة أضناه الحزن عليها حتى لحق بها بعد بضعة ايام ، فتنفس بنو امية الصعداء .

الدعوة العباسية

في تلك الاثناء بدأت الدعوة العباسية بالانتشار في المشرق ، وظهر دعاتها في خراسان على هيئة تجار ابرياء ، ولكن دعوتهم لمحمد ،

رأس الفرع العباسي . لم تلبث ان انتهت الى مسامع سعيد ، عامل بني أمية ، فاستدعاهم اليه وسألهم عن صحة دعوتهم ولكن اجوبتهم البارعة وتأكيدات الناس الذين كانوا قد اكتسبوا صداقتهم حملت سعيداً على اطلاق سراحهم ، غير أن الولاة الذين جاءوا من بعده لم يكونوا في مثل بساطته او تساهله ، فكان الدعاة العباسيون يعملون وايديهم على قلوبهم أنى ذهبوا ، فلو اكتشف أمرهم اذن لتعرضوا لأشد أنواع العقاب . وبالرغم من جميع المساعي التي بذلت لسحق هذه الدعوة الخطرة فقد استمر هؤلاء الدعاة في العمل في الخفاء ، واخذ الناس يعتنقونها من كل حدب وصوب ، فلم يمض وقت قصير حتى امتلأت بلاد فارس بالجمعيات السرية التي كانت تهدف الى قلب دعائم ملك بني أمية . ولقد تضافرت عوامل عديدة في ذلك الحين على تسهيل تطور المؤامرة واشعال الثورة التي احرقت الامويين بنارها بعد بضع سنين . فما كاد عدل عمر يُنسي الناس مظالم الحجاج حتى وُلي يزيد الخلافة ، فأثارت اعماله الوحشية التي انزلها بأسرة سميه الثائر يزيد بن المهلب عداء اليمانيين . وكان هناك سبب آخر قوي مهد الطريق للعباسيين ، ففي كل مكان كان الناس ، بفعل تصرفات يزيد وسوء حكمه ، يتوقون الى ان يسترد آل البيت حقوقهم السليبة ، وكانوا يتطلعون بلهفة الى الائمة وينتظرون منهم اشارة الثورة ، ولكن هؤلاء كانوا قد نبذوا الحياة الدنيوية ، واقلعوا عن الاهتمام بأي أمر من أمورها . في خضم هذا القلق ظهر بنو العباس على المسرح يبثون دعوتهم وينشرون قضيتهم بين الناس .

بنو العباس

ينتسب العباسيون الى العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله ، وكان قد توفي في سنة ٣٢ هـ ، تاركاً اربعة بنين هم : عبدالله والفضل

وعبيدالله وكَيْسان . ويعرف عبدالله في التاريخ بابن العباس ، وقد ولد في مكة سنة ٦١٩ م ، أي قبل الهجرة بسنوات ثلاث . وقد شهد الابناء الاربعة يوم الجمل ، وفي موقعة صفين قاد ابن العباس ، وكان فقيهاً وجندياً شجاعاً في الوقت نفسه ، فرقة الفرسان تحت لواء عليّ بن ابـي طالب . وكثيراً ما بعثه الخليفة رسولاً من لدنه ، وكان هو الذي اراد عليّ ان يعينه ممثلاً له عندما اجبره جنوده المتمردون على قبول التحكيم بينه وبين معاوية .

وقد توفي ابن العباس في الطائف سنة ٦٧ هـ وهو في السبعين من عمره ، مغتماً لمقتل الحسين ، واقتفى ابنه ، الذي سمي باسم الخليفة علي ، أثر ابيه في حبه لاولاد فاطمة الزهراء ، ولما توفي عام ١١٧ هـ خلفه في زعامة الاسرة ابنه محمد ، وكان رجلاً على جانب عظيم من المقدرة والحنكة والطموح ، وكان أول من فكر في طلب البيعة لنفسه .

الدعوة لبني العباس

أخذ محمد يبث مبدأ جديداً لتبرير مطالبة اسرته بالخلافة ، وهو ان زعامة الاسلام الروحية بعد مقتل الحسين في كربلاء لم تنتقل الى ابنه علي بن الحسين (زين العابدين) ، بل الى محمد بن الحنفية ، وان هذه الزعامة قد انتقلت بوفاة ابن الحنفية الى ابنه ابـي هاشم الذي كان قد اوصى بها الى محمد بن علي بن عبدالله . وقد لقيت هذه القصة قبولاً في بعض الاوساط ، ولكن دعاة العباسيين اخذوا يؤكدون لعامة الناس المتعلقين باحفاد الرسول انهم انما كانوا يعملون لآل البيت ، فشرع المتشيعون لآل البيت من دون علم ائمتهم وموافقتهم ، ومن دون ان يدروا بالمكيدة التي كان يدبرها هؤلاء الدعاة ، يؤازرون محمداً ابن عليّ وجماعته ويسبغون عليهم حمايتهم التي كانوا بحاجة اليها لصبغ دعوتهم بالصبغة الشرعية .

ولما حضرت الوفاة محمــداً في سنة ١٢٥ هـ أوصى لاولاده ابراهيم وعبد الله ابي العبــاس (السفاح) وعبد الله بن جعفر (المنصور) بالتعاقب ، فواصلوا الدعوة التي بــدأ بها بالاخلاص والهمة والشجاعــة نفسها .

الفصل الحادي عشر

بنو أمية (الفرع الحكمي) (تابع)
١٠٥ – ١٢٥ ﻫ ؛ ٧٢٤ – ٧٤٤ م

خلافة هشام – حالة الامبراطورية القلقة – اخلاق هشام – الاحوال في الشرق – في ارمينية – في افريقية – ثورة الخوارج والبربر – غزوة الاشراف – حنظلة – هزيمة البربر – اسبانية – المنازعات الداخلية – سرعة تبديل الحكام – تعيين عبد الرحمن الغافقي – غزو شمالي فرنسة – موقعة تورس – مبالغة مؤرخي الرهبان – غزو فرنسة مرة ثانية – الاستيلاء على افنيون – انتصارات عقبة – مقتله – المشاحنات والمنازعات – انهيار قضية العرب في فرنسة – سقوط خالد القسري – ثورة زيد في العراق – مقتله – الدعوة العباسية – ظهور ابي مسلم – وفاة هشام ٠

وفاة يزيد الثاني افضت الخلافة من بعده الى أخيه هشام بعد ان استفحلت الفتن والاضطرابات في الداخل والحروب في الخارج . كانت قبائل التركمان والخزر الوحشية تضغط في الشمال ، والخوارج المتحمسون

يلتهبون سخطاً في الداخل ، ودعاة آل العباس يحيكون مؤامراتهم في الخفاء لتقويض دعائم الحكم الأموي في الشرق ، بينما هلكت زهرة شباب العرب إما في الحروب الأهلية او بسبب سياسة الشك والحسد التي كان يتبعها البلاط . وكانت الثقة العمياء التي وضعها الخليفة السابق في وزرائه قد اوقعت الدولة في ايدي رجال انانيين غير اكفاء نفّروا الناس بعجزهم وسوء حكمهم . كان هناك بضعة رجال لمع نجمهم في ذلك الظلام الحالك وانصرفوا إلى اداء واجباتهم بهمة وغيرة ، ولكن تلك الغيرة على الدين كانت قد تلاشت او اوشكت على التلاشي بين طبقة الموظفين اجمالاً ، إذ اصبح هؤلاء ولا همّ لهم سوى تحقيق مطامعهم الذاتية . في هذه الازمنة الخطيرة كانت البلاد بحاجة إلى يد قوية تنقذ سفينة الدولة من الهلاك ، ولكن هشاماً كان يفتقر بطبعه الى المزايا التي تؤهله لمواجهة تلك المصاعب التي كانت تحيق بالامبراطورية من جميع أطرافها . كان دون ريب أفضل من سلفه ، وأصبح جو البلاط في عهده أنقى ، فحل الوقار محل المجون ، وطهرت المدينة من الطفيليين الذين كانوا يعيشون عالة على المجتمع ، وأولي المزيدُ من الاحترام لتقاليد البلاد وقواعد الحياة . ولكن صرامته اتخذت مظهر الكآبة ، وبلغ تقتيره مبلغ البخل ، ومما زاد في عظم هذه النواقص بعض النواقص الأشد خطورة في أخلاقه ، إذ كان متعصباً في آرائه ، ضيقاً في تفكيره ومتشككاً بطبعه ، ولذلك لم يكن يأتمن أحداً ، بل كان يعتمد على الجواسيس والمكائد لقمع المؤمرات عليه . ولما كان سريع التأثر بالوشايات فقد كان يضحي بأقدر رجال الدولة لمجرد الشك فيهم ، وأدت كثرة تبديل الحكام الى نتائج سيئة الى أبعد الحدود .

ومن العملاء القلائل الذين حافظوا على مناصبهم في عهده « خالد بن عبد الله القسري » الذي ظل حاكماً على العراق منذ ان تولى هشام الخلافة حتى سنة ١٢٠ هجرية . لقد استطاع خالد ، بفضل حصافته وذكائه ،

وكان من اصل يماني ، ان يحافظ على التوازن بين القبيلتين المتنافستين ، فلم يحدث طيلة حكمه أي تصادم يذكر بينهما ، كما عامل النصارى واليهود معاملة عاقلة عادلة متسامحة ، فرمم كنائسهم وكُنُسهم وفتح أمامهم أبواب الوظائف المسؤولة فجلب عليه تسامحه الحكم نقمة المتعصبين ولكن مساندة الخليفة له صانته من شر اعدائه ، غير أنه سقط برغم ذلك سريعاً كنجاحه السريع الذي ظل نجمه يلمع طوال خمسة عشر عاماً

الثورة في الصغد

وبعد مبايعة هشام بوقت قصير شب نزاع عنيف بين المضريين والحميريين في خراسان واقتضى قمعه بعض الصعوبة . وتلا ذلك النزاع ثورة أخرى قام بها أهل الصغد ، وكان سببها جشع نائب أمير سمرقند الذي بعد ان كان قد وعد باعفاء من اسلم من الجزية حاول ان يفرضها من جديد إثر اعتناق اناس كثيرين للاسلام . وانضم الى الثائرين عدد من المستوطنين بقيادة زعيم عربي يدعى الحارث ، وكان يحقد على الحاكم لنكثه بالعهد ، كما تلقوا الامدادات من رئيس قبائل الترکمان التي كانت وقتئذ تتجول فيما وراء النهر .

أسد القسري والي خراسان

ولقد بذلت محاولات جدية لقمع الثورة دون جدوى ، الى ان عهد خالد عامل العراق إلى اخيه أسد بمهمة اعادة الأمن والنظام في الولاية ، فقام اسد بطرد الثائرين من فرغانة واجبرهم على اللجوء إلى الترکمان ، وإذ كانت هذه القبائل الرحل توالي هجماتها على البلاد فتلقي في قلوب اهلها الهلع والرعب فقد زحف أسد في سنة ١١٩ هـ على « خوتال » ، شرقي فرغانة ، ولكن فصل الشتاء ارغمه على العودة الى بلخ حيث اقام مقره الشتوي وسمح لجنوده بالعودة الى ديارهم .

ولقد رأى التركمان في انسحاب المسلمين فرصة مؤاتيـــة لاستئناف اعمالهم التخريبية ، فاجتاحوا ما وراء النهر كرة ثانية واعملوا في البلاد سلباً وقتلاً ، وفيما هم منهمكون في ذلك انقض أسد عليهم انقضاض الصواعق بعد ان كان قـــد جمع رجاله باضاءة المشاعل عــلى رؤوس الهضاب ، ولم يستطع الفرار منهم احد باستثناء الخاقان الذي قتل بعد قليل على يد أحد مرؤوسيه . وعندما سمع هشام بالنبأ لم يصدقه بادىء الأمر ، وارسل الرسل للتحقق من صحته . وعندمـــا تأكد الناس من موت ذلك العدو اللدود للاسلام،اقاموا الزينات والافراح في دمشق عاصمة الامبراطورية . غير ان أسد نفسه لم يلبث ان توفي في سنة ١٢٠ هـ ، اي قبل عزل اخيه عن إمارة العراق بفترة وجيزة ، وتولى بعده على خراسان نصر بن سيار فاستطاع الاحتفاظ بمنصبه رغـــم جميع المكائد والدسائس حتى وافته منيته في سنة ١٣٠ هـ .

شمال فارس وارمينية

وفيما كانت هذه الاحداث تجري في آسية الوسطى اجتاحت قبائـــل القوقاس شمالي فارس وارمينية . وفي عام ١٠٨ هـ غزت بـــلاد فارس واذربيجان قوة اخرى من التركمان ، ولكنهم هزموا آخر الأمر وأجلوا عن البلاد ، غير ان السهولة التي دخلوا بها الى بـــلاد فارس شجعت قبائل أخرى على أن تحذو حذوهم ، وبعد اربع سنوات زحفت قوة هائلة من الخزر على ارمينية ودخلتها واشتبكت مع المسلمين في معارك هزم فيها المسلمون الى ان قتل الجراح الذي خلف مسلمة بالقرب من اربيل وغشي الخزر البلاد حتى بلغوا الموصل حيث التقاهـــم سعيد الحرشي بجيش معظمه من المتطوعين الذين جمعهم بعد ان أمره هشام بالاسراع الى مكان الكارثة وهزمهم هزيمة منكرة واعمل فيهم فتكاً وذبحاً وفر من بقي منهم حياً الى جبال آرارات مخلفين وراءهم الاسرى والغنائم التي

كانوا قد كسبوها فأعيدت الى اصحابها الشرعيين .

اعادة تولية مسلمة

ولما كان هشام متقلباً لا يستقر على قرار فقد استدعى الآن سعيداً وأعاد تولية مسلمة ، ولكنه لم يلبث ان عزله بعد سنة واحـــدة وولى مكانه مروان الذي استولى على الخلافة فيما بعد . وقد افتتح مروان حكمه بهزيمة الخزر في اراضيهم واستولى على بلاد الكرج واللسغ واخضع سائر القبائل الجبلية ، ولكن الحروب المتواصلة التي اضطر مروان إلى خوضها ضد قبائل الشمال التي استمرت في ضغطها عليه شكلت عبئاً ثقيلاً على موارد الامبراطورية .

كذلك اندلعت اضطرابات خطيرة في جنوب بلاد العرب ، وثـــار الخوارج في العراق في مناسبات عدة واستدعى القضاء عليهم استخدام قوات كبيرة .

افريقية والاندلس

اما في افريقية والاندلس فقد سارت الامور فيهما على ما يرام ردحاً من الزمن ، والحقت بعض الولايات بالامبراطورية ، فقد فتحت افريقيا السوداء سنة ١١٥ هـ وسردينيا في السنة التي تلتها ، وفي عام ١١٢ هـ تمّ فتح صقلية ، كما تم اخضاع سيراقوسة بعد معركة عنيفة ، وجرت بعض الفتوحات في فرنسة . وعلى الجملة فقد بدا ان الحظ كان يبتسم لهشام في الغرب ، غير انه ما كادت السنة تنصرم حتّى اشتعلت في شمال افريقية ثورة دموية عنيفة قـــام بها البربر والخوارج ، كما كانت قد ظهرت في هـــذه الاثناء تقريباً فرقة من المتعصبين في موريتانية اطلقوا عليهم اسم « الصفرية » ، ولم يكن يضاهيهم في عنفهم وقسوتهم سوى الازارقة في المشرق . وإذ اخرج الاضطهاد هؤلاء ، شأن اخوتهـــم

المشارقة ، عن طورهم ، فقد ثاروا بمضطهديهم وراحوا ينكلون بهـم بغية افنائهم ، واعتبروا كل من يقول بخلافة بني أمية كافراً مارقاً . كذلك اهاجتهم اضطهادات ابن حاكمهم ، الذي ناب مناب ابيه في طنجة ، ومحاولته فرض ضريبة الجزية على المسلمين ، فهبوا يداً واحدة مع البربر وقتلوا الحاكم نفسه واستولوا عـلى المدينة (طنجة) ، ومنها زحفوا على القيروان ، فأمر الخليفة قائـد الجيش العربي « حبيب بن عبيدة » بوقف عملياته الحربية في جزيرة صقلية والعودة الى افريقية لقمع ثورة البربر .

وفيما كان الثوار في طريقهم الى العاصمة التقاهم ابن قائد صقلية بقوة صغيرة لم تكن كافية لوقفهم ، ومع ذلك فقد هجم عليهم في الحال معتمداً على صفتي الاقدام والشجاعة اللتين طالما امتاز بهما العربي ، ولكن البطولة والشجاعة لم تجدياه فتيلاً أمام كثرة اعدائه ، فكسر القواد العرب ، كعادتهم ، اغماد سيوفهم ، وقاتلوا راجلين ، وحذا حذوهم الجنـد كله ، غير ان البربر احاطوا بهم من كل جانب ، وكادوا أن يفنوهم عن بكرة ابيهم .

غزوة الاشراف

هذه الموقعة المشؤومة تعرف في التاريخ الاسلامي بغزوة الأشراف ، بالنظر الى كثرة من قتل فيها من سادات العرب وفرسانهم . ولقد أدى هلاك جيش ابن حبيب الى اندلاع الاضطرابات في جميع انحـاء شمال افريقية ، كما ان نتائجه ظهرت حتى في الاندلس نفسها ، حيث ثار الاهالي بحاكمهم وانتخبوا مكانه قائداً كان هشام قد عزله من قبل . ولما انتهت انتصارات البربر إلى مسامع هشام ثارت ثائرته واقسم لينزلن بالثوار اشد ضروب التنكيل ، فاستدعى الحاكم الذي كان ابنه اصل كل ذلك البلاء لسوء ادارته وارسل بدلاً منه قائداً باسلاً يدعى كلثوم كي

بمحو آثار الكارثة ، ولكن نزاعاً نشب بين اثنين من قواد كلثوم عشية المعركة ادى إلى النتيجة المعتادة : فقد هُزم العرب مرة اخرى وقُتل كبار قوادهم ، وقصد جزء من الجيش إلى اسبانية ، بينما رمى الباقون انفسهم في القيروان التي كان البربر والخوارج يحاصرونها وقتئذ بقيادة أحد زعمائهم « عكاشة » . وكان البربر يشنون هجمات متتابعة ردهـا العرب بعد ان اعملوا السيوف في رقابهم ، وارتد عكاشة ردحـاً من الزمن إلى الصحراء .

حنظلة حاكم افريقية

وعين هشام « حنظلة بن صفوان » ، من قبيلة كلب ، حاكماً على افريقية ، فما ان وصل إلى القيروان حتى صرف اهتمامه إلى تقويـة الحصون واثارة همة المدافعين ، غير انه لم يمض وقت طويل حتى تعرض حكمه وقوته العسكريه للاختبار ، ذلك ان ثلاثمائة الف مقاتل من البربر انقضوا على العاصمة الافريقية وأحاطوا بهـا من كل جـانب ، فأصاب العرب عسر شديد ، ولكن حنظلة كان بطلاً من ابطال الزمان القديم ، إذ كان يجمع بين الغيرة الدينية التي عرفت في عهد عمر بن الخطاب وبين رقة القلب التي كانت نادرة في ذلك العصر . لقد وقف في الساحة الكبرى أمام المسجد الجامع وانذر الناس بأن الحرب بـين المسلمين المحصورين وبين الثوار المحاصرين انما كانت حرب حياة أو موت ، وان انتصار البربر معناه فناء أهل المدينة جميعاً .

كان الموقف دقيقاً جداً ، وكانت جموع البربر تضج حول المدينة بينما وقف حماتها المتعبون يرقبون المعركة بقلوب واجفة من فوق الاسوار ؛ ولقد لقيت دعوة حنظلة استجابة سريعة مـن المواطنين ، واثبتت نساء العرب ، اللواتي اعتدن مواجهة الاخطار وحمـل السلاح ، مساعدتهـن القيمة لأزواجهن واخوتهن في ميدان القتال ، فألف حنظلة منهن قوة

احتياطية عهد اليها بالدفاع عن المدينة وقت هجوم الجنود والمتطوعين على الاعداء . وقد انفق حنظلة وقواده طيلة الليـــل في توزيع السلاح واعطاء الأوامر للعمل بها في الغد ، وبعد صلاة الصبح كسر المدافعون اغماد سيوفهم وانقضوا على الاعداء واشتبكوا معهم في معركة ضارية دامت من الصباح حتى المغيب ، فانهزم البربر هزيمة منكرة ، واستمر الجيش العربي في مطاردتهم حتى فقد البربر كل أمل بجمع صفوفهم واستعادة قوتهم ، والمقول ان مئة وثمانين الفاً من البربر قد قتلوا مع كبار قوادهم في تلك المعركة ، بينما مني المسلمون بخسارة زهيدة نسبياً، وهكذا تمكن حنظلة من ان يعيد الامن والنصاب الى تلك الربوع ، وخلت البلاد من الفتن والاضطرابات طيلة أيام حكمه ، واستعادت افريقية في ظله ازدهارها عاجلاً .

الاندلس

كانت بلاد اندلوسيا الواسعة ، التي تشتمل على شبه جزيرة إيبريان مع غسكونيا ولانكيدوك وجزء من سافوي ، تؤلف وقتئـــذ جزءاً لا يتجزأ من الدولة الاموية ، وكان سكانها ، في معظمهم ، قد اقتبسوا اخلاق الفاتحين المسلمين ومدنيتهم ، ولكن بعدها عن قلب الامبراطورية أضعف السلطة المركزية ، كما ان النظام الذي ادير الحـــكم على اساسه كان دائماً مصدراً للمتاعب ، ذلك ان اسبانية كانت تعتبر ولاية ثانوية تابعة لافريقية ، وكان لامير القيروان سلطة تعيين حكام اندلوسيا من دون الرجوع الى الخليفة ، وكان من الطبيعي ان يضحي بالمصالح العامة على مذبح العصبيات القبلية او العشائرية ، كما ان كثرة تبديل الحكام أدت الى نشوب الحرب الاهلية . وعندما قتل السمح عنـــد أسوار تولوز ، اختـــار الجيش عبد الرحمن الغافقي قائداً له ، ولكنه لم يبق في منصبه سوى بضعة أشهر ، أي حتى وصول عنبسة الذي عينه امـــير افريقية

والياً على الاندلس .

عنبسة والي الاندلس

وبعد تولي هشام الخلافة بوقت قصير قاد عنبسة حملة عـــلى فرنسة واستولى على كركسون ونيم وغيرهما من الاماكن المهمة الاخرى ، وعقد محالفة دفاعية هجومية مع الجاليات القوطية المجاورة . ويقول رينو : « ان انتصارات عنبسة تعود الى اللباقة وحسن الادارة بأكثر مما تعود الى القوة ، كما ان جهوده التي بذلها لاكتساب ثقة الأهلين قد قوّت مركز العرب في جنوب فرنسة . » ثم ان عنبسة ارسل الاسرى الذين أخذهم في المدن الفرنسية الى برشلونه حيث عوملوا معـــاملة حسنة ، فساعدوا على ايجاد روابط الود بين اهالي الاندلس وبين العرب . ومما يؤسف له ان عنبسة قد قتل في كمين نصبه الغسكونيون في احدى شعاب جبال البرنيه ، فعادت بموته الاضطرابات الى شبه الجزيرة ، وتوقفت جميع العمليات الحربية في فرنسة ، اذ اسرع نائبه « الاذرح » بالعودة بالجيش الى الاندلس . وفي إبان السنوات الخمس التي اعقبت مقتل عنبسة وحتى اعادة تولية عبد الرحمن الغافقي في سنة ١١٣ هـ ، تعاقب على حكم تلك البلاد خمسة حكام لم يمكث بعضهم في دست الحـــكم سوى اشهر معدودات ، وبذلك منيت ادارة البلاد بالشلل التام ، واشتد ساعد الثوار بقيادة بيلايو .

ولما ولي الهيثم على الاندلس سنة ١١١ هـ وسعى الى تدمير حصونهم ومعاقلهم والى استئناف اعمال الفتح فيما وراء البرنيه ، فاستولى على ليون وماسون وشالون وبون وأوتون ، صالحته مدن اخرى على دفع الجزية . ولكن هذا الفتح في النهاية لم يأت بأية ثمرة ، ذلك ان العرب ، بسبب من اختلافاتهم ، لم يتمكنوا من الاحتفاظ بهذه المدن « كما ان وحشية البربر ، الذين كانوا يؤلفون القسم الأكبر من الجيش العربي ، حولت

ودّ اهالي سبتمانيا الى عداء مرير .

تولية عبد الرحمن الغافقي على الاندلس

عندما قتل الهيثم استدعى هشام عبد الرحمن الغافقي وولاه على الاندلس فكان لتعيينه صدى حسن في قلوب الاسبانيين واعتبروه فاتحة عهد جديد في البلاد . وكان عبد الرحمن اقدر الحكام الذين شهدتهم تلك البلاد في ايام الأمويين ، إذ كان يجمع الى القدرة الفائقة في الادارة المدنية نبوغاً عسكرياً من الطراز الاعلى ، وكان ذا نفوذ غير محدود على كل من الحميريين والمضريين . وفي حين كان محبوباً من جنوده فان رقة قلبه وكرمه وعدله اكسبته محبة الشعب . ولقد قام بجولة كاملة في جميع المدن والمناطق لينظر في الشكاوى التي انهالت من كل جانب ، فعزل القضاة ، او الحكام المحليين ، الذين ثبت لديه اخلالهم بواجبهم او اساءتهم للأمانة وعين في مكانهم رجالاً اشتهروا بالمكانة وحسن السمعة ؛ وكذلك عامل عبد الرحمن جميع الطبقات على قدم المساواة ، دون تمييز بين العنصر او المذهب ، واعاد الكنائس الى اصحابها الشرعيين الذين كانت قد اغتُصبت منهم ، واعاد النظر في الادارة المالية ، وعاقب كل من أخل بالأمن عقاباً شديداً . غير ان مهمة اعادة تنظيم الحكم لم تصرفه عن ضرورة صيانة الحدود الشمالية ، اذ كانت في نفسه رغبة طبيعية للانتقام للهزيمة التي مني بها العرب امام تولوز ، وشوق شديد الى احراز انتصارات شبيهة بانتصارات موسى وطارق ، ولذا سعى سعياً موصولاً الى انشاء جيش لا يمكن صده في ابان زحفه نحو الشمال. وكان الحماس الديني لا يزال في اوجه ، كما ان القتال تحت راية مثل ذلك القائد الباسل اجتذب الكثير من المتطوعين .

ثورة مونوزة ومقتله

وكان يحكم قردجان ، في الجانب الآخر من جبال البرنيه ، حاكم مسلم يدعى « عثمان بن أبي نسعة » ، وكان الكتاب النصارى يسمونه وقتئذ « مونوزة » . كان عثمان قد تزوج من « لامبيكي » الجميلة ، ابنة « اودي » ، « دوق أوف اكواتين » وعقد معاهده تحالف هجومية دفاعية مع ابيها . وبالاتفاق مع حميه رفع علم الثورة على عامل الاندلس ، غير ان عبد الرحمن لم يكن من اولئك الرجال الذين تلين قناتهم ازاء العصيان ، ولذا بعث في التوّ جيشاً الى « الباب » ، حيث كان مونوزة يقيم مع زوجه ، ففر الزعيم الثائر الى الجبال ، ولكنه قبض عليه وقتل ، ووقعت زوجته المنكودة في يد عبد الرحمن فأرسلها مكرّمة الى دمشق حيث تزوجت من بعد من أحد اولاد هشام .

وقد ادت هزيمة مونوزة ومقتله الى سخط الدويلات المسيحية التي كان متحالفاً معها ، ولذا الفى عبد الرحمن نفسه مضطراً الى النزول الى ميدان القتال قبل أن يُتم استعداداته لغزو الشمال .

غزو شمال فرنسة

سار عبد الرحمن مخترقاً أراغون ونافارا ودخل فرنسة في ربيع عام ٧٣٢ م من طريق واديي بيكورال وبرن . وكانت مدينة « أرنس » ، التي يصفها الكتاب العرب بانها واقعة في سهل موحش على نهر يبعد ثلاثة فراسخ من البحر ، قد وافقت على دفع الجزية ، غير أن أهلها رفضوا تنفيذ معاهدتهم لدى سماعهم بمقتل « مونوزة » ، وهكذا سار عبد الرحمن عليهم أولاً ، ونشبت معركة هائلة على شواطىء الرون اعقبها سقوط المدينة . ومن « ارنس » سار عبد الرحمن على « بوردو » فاستولى عليها بعد مقاومة طفيفة ، وانزل بامير اكواتين ، الذي حاول

عرقلة زحفه على « دوردون » ، هزيمة منكرة .

وبهذا النصر قضى عبد الرحمن على كل مقاومة في « اكواتين » ، واستولى على « بورغاندي » ، وخفقت راية الاسلام على ليون وبيزانصون وصانص . وترك عبد الرحمن حاميات قوية في هذه المدن فأضعفت من قوة جيشه ، ثم سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة .

وبعد أن مني « اودي » بهزيمته على ضفاف الدوردون ، ووجد أنه غير قادر على الصمود في وجه الغزاة ، طلب معونة من شارل ، أو كالدوس كما يسميه مؤرخو العرب ، الابن الطبيعي لـ « بيبان هارستال » الذي كان ، بحكم منصبه كأمين لبلاط مورفيكان ، يتمتع بنفوذ عظيم على الفرنج . واذ كان شارل رجلاً قديراً وطماعاً ، فقد رأى في طلب اودي وسيلةً للتوسع ، فاستجاب لـــه فوراً ، وحشد قوة كبيرة من متوحشي قبائل حدود الدانوب والألب وقفار المانية ، وزحف بهم نحو الجنوب . وكان العرب في تلك الاثناء قد زحفوا على توروس واستولوا عليها بعد هجوم عنيف ارتكبوا فيه اعمال السلب والنهب ، ويقول أحد كتاب العرب إن الكارثة التي حلت بالجيش العربي وقتئذ مردها إلى غضب الله من افراط البربر في القسوة والعنف في توروس بالرغم من الاوامر المشددة .

وبينما كان القائد العربي يحاول عبور نهر اللوار استناداً الى أخبار جواسيسه الخاطئة هاجمه شارل بجيوشه الجرارة ؛ واذ وجد ان العدو يفوقه عدداً فقد أمر في الحال بسحب مراكزه الأمامية وارتد من شواطىء النهر وتمركز في نقطـــة واقعة بين تور وبواتييه . وكان حال الجيش مدعاة لقلقه العظيم ، اذ كانت للفصائل القبلية ، المثقلة بالغنائم ، والتي تعمر قلوبها البغضاء والشحناء ، قد عصت أوامره وأبت القيام بأي عمل يستدعي اتحادها ردحاً من الزمن ، وكانت فضلاً عن ذلك تتوق الى الانسحاب متمسكة بالاسلاب التي غنمتها في ابان زحفها نحو الشمال ،

والتي احدثت تهاوناً عظيماً في صفوفها وأوهنت روح النظام فيهـا . وطبيعي أن عبد الرحمن كان يخشى ، كما كان شارل يرجو ، أن تكون الاسلاب وقت المعركة عائقـاً خطيراً يشل حركة العرب ويسبب لهم الحرج ، ولذا فكّر في حمل الرجال على التخلي عن جزء من الاسلاب ، وفي الوقت نفسه لم يشأ أن يخلق روح السخط بالاصرار على اطاعـة اوامره ، وكانت نتيجة هذا الضعف ، اذا صح أن يسمى ضعفاً ، من اخطر النتائج ، ذلك أن جيش شارل ، وكان يتألف من الفرسان والمشاة المرتدين جلود الذئاب ، والمرسلين شعورهم المتجعدة على اكتافهم ، اجتاز نهر اللوار على مسافة بضعة أميال من معسكر العرب [1] .

وبعد مناوشات طفيفة دامت اياماً عدة ورجحت فيها كفة العرب ، دارت في اليوم التـاسع معركة كبيرة استمرت حتى حال الظلام بين الفريقين . وفي صباح اليوم التالي استؤنف القتال فضاعف الجنود المسلمون من جهودهم وكادوا يفوزون بالنصر عندمـا دوّت صرخة تؤذن بان الخطر كان يتهدد معسكرهم ، بما فيه من كنوز ، من كل جانب ، فتركوا صفوفهم واسرعوا إلى الذود عن اسلابهم ، وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام إلى صفوفهم ، وذهبت جهوده ادراج الرياح ، إلى أن اصابه سهم قاتل ، فأثّر موته في الجيش أسوأ تأثير ، واغتنم العدو هذه الفرصة فحمل على المسلمين حملة شديدة ، ولكنّ هؤلاء عادوا فجمعوا صفوفهم وانقضوا علي العدو الى ان ارخى الليل سدوله فعاد كل من الفريقين الى مواقعه .

الخصام بين القواد المسلمين

وما إن وصل العرب الى معسكراتهم حتى نشبت نزاعات شديدة بين

---

١ ــ من استحيل تحديد الموقع الحقيقي الذي جرت فيه المعركة ، ولكن الذي لا شك فيه ان مسرح هذه الموقعة التاريخية بين الفرنجة والعرب كان في الارض الواقعة بين البوكتيارس وتوروس .

قواد عبد الرحمن ، وشهر كل منهم سلاحه في وجه الآخر ، وعندئذ اصبح النصر على الفرنجة غير وارد ، كما اصبح التقهقر بسلام الطريقَ الوحيد المتبقي أمام المسلمين ، ولذا سحب القواد المسلمون جنودهم تحت جنح الظلام باتجاه سبتمانيا . وعند الفجر كان الهدوء مخيماً على معسكر المسلمين مما حمل شارل وأودي على الظن بأن في الأمر خدعة : ولذا اقتربا من معسكر المسلمين بهدوء وحذر ، واستبد بهم الفرح عندما وجدوه خالياً خاوياً إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا ان يصحبوا الجيش المتقهقر فانقضوا عليهم وذبحوهم ذبح النعاج . ولم يجرؤ شارل على تعقب المسلمين فعاد ادراجه على الفور نحو الشمال [1] ، وخسر العرب في سهول تور السيادة على العالم بعد ان كادوا يقبضون عليها بايديهم ، فالعصيان والعصبية القبليــة ، التي ما زالت منذ الازل نقمة على المسلمين ، هما اللذان اديا الى تلك الكارثة ، وقد سُمـّي الميدان الذي جرت فيه تلك المعركة في التاريخ العربي « بلاط الشهداء » ، بالنظر الى كثرة من استشهد فيها من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن . وما يزال الاتقيــاء يعتقدون أن ملائكة السماء يمكن ان تسمع هناك وهي تدعو المؤمنين لصلاة الغروب .

ويصور المؤرخون الرهبان خسارة العرب بانها بلغت ٣٦٠ الف رجل ، اي ما يزيد على اربعة اضعاف العدد الذي دخل به عبد الرحمن فرنسة فعلاً ! وهذه المبالغة انما تتضح اذا علمنا انه لم تمض بضعة اشهر حتى اعاد المسلمون هجومهم ، بالرغم من الفتن والاضطرابات الداخلية ، بجيش لجب ، ولو انه لم يكن مزوداً بالعدة والنظام اللذين كان جيش عبد الرحمن مزوداً بهما من قبل .

١ ــ لا ريب ان تلك الموقعة كانت فاصلة من ناحية واحدة ، وهي ان عبد الرحمن كان الرجل الوحيد الذي استطاع توحيد المضريين والحميريين ، ولذا فان موته كان خسارة لا تعوض ، ذلك ان احدا من بعده لم يستطع ان يحدث فيهم التاثير نفسه او ان يتمتع بالنفوذ الذي كان له على قوات المسلمين .

ولقد ارسل نائب عبد الرحمن في الحال انباء تلك الكارثة الى أمير افريقية والى الخليفة هشام في دمشق ، فارسل هشام على الفور حاكماً جديداً اسمه عبد الملك بن قطن الفهري وأمره بأن يعيد الى علم المسلمين هيبته في تلك البلاد . وكان اهالي المناطق الجبلية في شمالي شبه الجزيرة قد حاولوا الافادة من مقتل عبد الرحمن لقلب الحكم العربي ، ولذا وجه الحاكم الجديد أول جهوده اليهم فسار حتى وصل « اراغون » و « نافاره » وهزم الثوار في معارك عديدة الى ان اجبرهم على طلب الصلح ، ثم انه استولى بعد ذلك على لانكيدوك وعزز المواقع التي كانت في ايدي المسلمين في تلك المنطقة .

وفي سنة ٧٣٤ م تحالف « يوسف » نائب مقاطعة اربونة ، مع « مورنتيوس » ، أمير مرسيليا ، الذي كان محالفاً للمسلمين ، وعبر نهر الرون واستولى على « سان ريمي » (وكانت تدعى وقتئذ فريتا) ثم زحف على افنيون واستولى عليها بعد حصار لم يدم الا فترة قصيرة .

وبعد سقوط افنيون عاد عبد الملك الى الجنوب ، ولكن الخليفة لم يلبث ان عزله في شهر رمضان من عام ١١٦ هـ (نوفمبر ، ٧٣٤ م) وعين مكانه « عقبة بن الحجاج السلولي » وكان رجلاً عادلاً فاضلاً محبوباً من جميع المسلمين . وفي خلال السنوات الخمس الاولى من حكمه دخل الى فرنسة مرات عدة ووصل برجاله وسلاحه الى ابعد مما وصل اليه المسلمون من قبل ، وفي عهده اقام المسلمون حاميات في جميع الاماكن المكشوفة حتى نهر الرون ، وكانت هذه المراكز العسكرية تدعى « الرباط » وكانت الغاية منها الدفاع والاستكشاف . ولقد حوّل عقبة اربونة الى قلعة ضخمة وخزن فيها الاعتدة والاسلحة ، وفي سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م) دخل الى دوفيه ، واستولى بالتتابع على سان بول ،

وترواشاتو ، ودونزير ، وفالانس ، ونيوليونز ، ثم انتشرت الفصائل العربية في بورغاندي وهددت عاصمة فرنسة . كذلك كان المسلمون قد استولوا قبل سنة واحدة على مدينة بيدومون ، وانشأوا المعاقل الحربية في الاماكن المهمة . واذ وجد شارل ، الذي اكتسب منذ معركة تور لقب مارتل ، أنه غير قادر على الصمود في وجه المسلمين وحده ، فقد استنجد بليونبيراند ملك اللومبارديين . وكان تشيربيراند ، اخو شارل ، قد جمع جيشاً من الاراضي الشرقية من مملكة الفرنجة ، وهكذا زحف الجيشان المتحدان على الممتلكات العربية . وفي الوقت نفسه حرّض البشكنس والغسقونيين على اغلاق ممرات البيرنيه ، وهكذا تلقى المسلمون الهجمات من كل جانب ، واستولى الفرنجة على مدينة ايفينون بعد حصار طويل وفتكوا بجميع المسلمين فيها ، ثم حاصروا ناربون ، ولكن بالرغم من ان الحلفاء قد هزموا جيشاً ارسل بالبحر لنجدتها فقد كان دفاع المحصورين العرب قوياً الى درجة هلع لها قلب شارل فرفع الحصار عنها ، غير أنه ، لكي يحول دون اي تقدم آخر للمسلمين ، حوّل بقعة كبيرة من الاراضي العامرة في جنوبي اللوار الى خراب ، وهدم مدينتي « بيزيه » و « ادج » وغيرهما من المدن المهمة التي جملها العرب ، وأحرق مدينة « ناني » ، بمسرحها الفخم وتماثيلها وعادياتها القديمة ، كما هدم مدينة « ماكيلون » التي كانت قد بلغت درجة من الازدهار لم تعرفها قط في ايام القوط او الفرنج .

وفيما كانت هذه الاحداث تقع في فرنسة كانت افريقية مسرحاً لثورة البربر الكبرى التي اتينا على وصفها والتي سرت عدواها الى الاندلس . ففي سنة ١٢٣ هـ . ثار عبد الملك بن قطن ، حاكم الاندلس المعزول ، على عقبة فأسره وفتك به ، ثم استولى على زمام الحكم ، ولكنه لم يلبث طويلاً في دسته ، ذلك أن اهل الشام ، الذين فروا من جيش كلثوم في افريقيـــة ، وصلوا الى اسبانية وعلى رأسهم بلج بن بشر

القشيري ، فأضافوا بوصولهم عنصراً جديداً من عناصر الشغب والفتنة . وفي معركة جرت بين عبد الملك وبلج قتل عبد الملك فامر بلج بصلبه ، ولكنّ هذا لم يلبث أن توفي متأثراً بجراحه التي اصابته في معركة جرت بينه وبين ابن عبد الملك .

وعندئذ اختار جنود الشام « ثعلبة بن سلامة » ، احد زملائهم ، والياً على الاندلس ، وبذلك بدأت الحرب الأهليـــة بالاشتعال ، فمال المولدون ، اي مسلمو الاسبان ، الى ابناء عبد الملك ، وتحزب جنود الشام الى الرجل الذي ولوه عليهم ، في حين حارب البربر لمصلحتهم دون غيرها . وهكذا اصيبت الادارة في اسبانية بالفشل التام ، وهجرت المراكز الامامية التي كان العرب قد انشأوها في فرنسة ، كما سارع قائد حامية نوربون مع خيرة جنوده الى نجدة عبد الملك وابنائه ، وخلت كذلك سائر المدن التي كانت في ايدي العرب من حامياتها . ولو انّ « بيبين القصير » ، الذي خلف والده شارل ، هجم على المراكـــز العربية وقتئذ اذن لعجز المسلمون عن اية مقاومة ، ولكن بيبين لم يكن قد نسي بعد الدروس التي كان قد تلقنها في الحروب الماضية ، ولذا آثر التربث حتى تقضي الفتن الداخلية على قوى العرب وعندئذ يوجه اليهم ضربته . وفيما كان المسلمون في اسبانية منهمكين في هذه الحرب الطاحنة ، كانت الامور في دمشق تسير من سيء الى اسوأ بالرغم من الانتصارات المختلفة في آسية الصغرى ، فقد كان على العراق ، كما سبق منا القول ، عامل اسمه خالد ظل يحكم البلاد بقوة وعدل منذ ان تولى هشام الخلافة ، غير أن حكمه الناجح وتسامحه كانا قد اثارا عليه الكثير من الاعداء فألبوا عليه الخليفة هشام ، وكانت التهمة الرئيسية ضده أنه كان يعطف على الهاشميين . والأرجح أن هشام ، وكان هو نفسه بخيلاً مقتّراً ، قد شك في أن خالداً قد جمع ثروة طائلة في ابان حكمه الذي دام خمسة عشر عاماً ، ولذا عـــزله في سنة ١٢٠ هـ . وعين مكانه

يوسف بن عمر وكان مضرياً يكره خالداً ويلقب بالمنافق ، فراح يعذب خالداً العذاب الشديد ليكتشف موضع ثروته ، ولكنّ الأوامر ما لبثت أن جاءت من الخليفة باطلاق سراحه ، من دون سائر بني هاشم الذين أخذ يوسف ينزل بهم صنوف القسوة وسوء المعاملة .

ثورة زيد حفيد الحسين

وفي ذلك الحين ايضاً طلب زيد حفيد الحسين من هشام بعض التّرضية ، ولكن الخليفة طرده من حضرته فخرج ساخطاً وسافر في التو الى الكوفة وحاول الثورة على الخليفة بالرغم من نصح أهله بألا يقدم على تلك المغامرة الجنونية وبألا يركن الى اهل العراق ، غير انه أصر على موقفه ولم يلبث ان هُزم وقتل ودفنه اصحابه خلسةً ، ولكن الأمويين اكتشفوا قبره فنبشوا جثته وصلبوها ثم اخذوها بعد حين وأحرقوها وذروا رمادها في الفرات ، وهو عمل وحشي أثار على الأمويين السخط وعرضهم لثارات مخيفة ، وعندئذ فرّ يحي بن زيد الى خراسان ، وكان شاباً أريباً في السابعة عشرة من العمر .

ولقد سند موت يزيد الدعوة العباسية ، اذ انه ازال من طريقها منافساً قوياً ، كما تصادف موته مع ظهور ابي مسلم الذي كان السبب في تقويض دعائم الدولة الاموية . اما محمد ، حفيد العباس وصاحب فكرة اقصاء بني أمية عن الخلافة واحلال احفاد الرسول محلهم ، فقد توفي في سنة ١٢٤ هـ . تاركاً لابنه الاكبر ابراهيم تحقيق مطامحه .

ظهور أبي مسلم

ولد ابو مسلم الخراساني في اصفهان من اصل عربي ، وكان قد دخل في خدمة محمد بن علي بن العباس فأعجب بذكائه وقدرته على التنظيم وأوفده الى خراسان ليرأس الدعوة العباسية ، فاستطاع بحسن بيانه

وقدرته ان يجتذب عدداً كبيراً من الناس الى الدعوة الهاشمية ، وسهلت مهمته وفاة هشـــام في الرصافة في قنسرين في الشهر السادس من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٥ هـ ، وقـــد بويع من بعده بالخلافة ابن اخيـــه الوليد الثاني .

وفي عام ١١٣ هـ توفي الامام محمد الباقر ، وخلفه ابنه جعفر الصادق .

الفصل الثاني عشر

بنو امية الفرع (الحكمي) (تابع)
١٢٥ – ١٢٦ ؛ ٧٤٣ – ٧٤٤ م.

رقعة الامبراطورية العربية عند وفاة هشام – اخلاق خلفه – ظلمه لاقاربه – مقتل خالد القسري – ثورة يحيى بن زيد وموته – تاثيرها على اهالي خراسان – الحالة في اسبانية – حسام (ابو الخطار) حاكم الاندلس – خضوع جميع الاحزاب – تساهله وعدله في بادىء الامر – تحزبه لليمانيين – فتنة المضريين – موقعة شقوندا – انتخاب ثعلبة – وفاته – انتخاب يوسف فارس الاندلس – وفاته – وصول عبد الرحمن، حفيد هشام – هجوم بيبن القصير – مذبحة المسلمين حصار اربونة – فتحها بسبب الخيانة – زوال حكم العرب في فرنسة – الحالة في افريقية – الفتنة على الوليد الثاني – وفاته – تولية يزيد الثالث – وفاته – تولية ابراهيم – ثورة مروان – موقعة عين الجر – فرار ابراهيم – مبايعة مروان ٠

رقعة الامبراطورية العربية

عندما توفي هشام سنة ٧٤٣ م كانت الامبراطورية العربية قد وصلت

الى اوجها ، ففي اوروبا كان الجزء الجنوبي من فرنسة ، وشبه جزيرة ايبريا بكاملها ، باستثناء بعض الشعاب التي كانت معقلاً لرجال العصابات ، في ايدي المسلمين . وفي البحر الابيض المتوسط كانوا يبسطون سلطانهم على جزر ماجوركا ومانوركا وإيفكيا وكورسيكا وسردينيا وكريت ورودس وقبرس وجزء من صقلية وكثير من جزر الأرخبيل اليوناني . اما في افريقية فكان سلطان الامبراطورية العربية يمتد من جبل طارق حتى خليج السويس ، وفي آسية من صحراء سيناء الى هضاب المغول .

غير انه بينما كانت المؤامرات الواسعة العميقة الجذور تعمل على اضعاف سلطة الخلافة في المشرق ، كانت الخصومات والمنازعات تنذر بتقطيع أوصال الامبراطورية في المغرب . وفي هـذه اللحظة الحرجة الى ابعد حـدود الحرج توفي هشام فخسرت به الامبراطورية حاكماً كان ، بالرغم من جميع نواحي ضعفه ، فاضلاً وحذراً على الأقل ، ذلك ان خلفه ، الوليد بن يزيد ، كان يختلف عنه اختلافاً كلياً اذ كان متهتكاً خليعاً سكيراً اشمأز الشعب منه لسوء سيرته ومجونه . وكان هشام قـد سعى الى ان يعزله من ولاية العهد ولكن وصية أخيـه يزيد الثاني كانت صريحة ملزمة . كذلك حاول هشام ان يقوّم من اعوجاج ابن اخيه ، ولكن الوليد ترك العاصمة ساخطاً الى مكان يسمى الأزرق في الاردن وقبع هناك منتظراً وفاة عمه بصبر نافد ، وما ان سمع بنبأ وفاته حتى أسرع الى دمشق ، وكان اول عمل قام به بعد توليته انه طرد أسرة هشام من القصر ، حتى انه لم يوافق على اقامة مراسيم الدفن الا بعد وساطة بذلت لديه في سبيل ذلك . ومما زاد في نقمة الشعب عليه قسوته على ابناء عمه الوليد الأول وعمه هشام ، وكانوا رجالاً محنكين أبلوا البلاء الحسن في الحروب ضد الروم . وقد حاول في بادىء الامر ان يستميل اليه الجنود بزيادة مرتباتهم ، وان يحبب اليه الشعب بتوزيع المكافآت والجوائز على أفراده ، كما زاد في ارزاق الفقراء والعجزة ،

ولكن كل هذه المحاولات لم تجده نفعاً بالنظر الى تقلب اهوائه وانحلال اخلاقه وقسوة طباعه .

وكان خالد والي العراق السابق يعيش في دمشق منذ ان عزله هشام ، ولكن الوليد بعث به الى عدوه يوسف فقتله ، كما ان الوليد اخذ يطارد يحيى بن زيد حتى اقدم يائساً على رفع علم الثورة ، مؤثراً الموت في ساحة الوغى على ان يُذبح ذبح النعاج ، فمات فعلاً الميتة التي اختارها ، واحتز رأسه وحمل الى الوليد ، وصُلبت جثته ، فأثار مصيره المشاعر في خراسان وعجل بسقوط الدولة الاموية ، واعلن الشعب الحداد وسُمي باسمه كل من ولد في يوم وفاته في خراسان ، وعندما رفع ابو مسلم علم الثورة « انتقاماً لآل البيت » انضووا تحت رايته متشحين بالسواد ، وهو اللون الذي اصبح منذ ذلك الحين شعار العباسيين . ولقد اخذ ابو مسلم اسماء جميع الذين اشتركوا في قتل يحيى وطاردهم وقتلهم دون شفقة .

الحالة في اسبانية

يجدر بنا الآن ان نعود قليلاً الى الاندلس . لقد وافق الخليفة هشام على تعيين ثعلبة والياً على الاندلس ولكن تحزب الحاكم الجديد الى اليمانيين سبّب ثورة المضريين عليه ، يؤازرهم البربر والمولدون . غير ان ثعلبة نجح في انزال الهزيمة المنكرة بالحلفاء الثائرين عند اسوار ماردة ، ويقال ان عشرة آلاف اسير قد وقعوا في يديه منهم ، وكان في نيته ان يفتك بهم في اليوم التالي ؛ وعندما ابتلج الفجر ؛ وكان الجميع يتوقعون ان تبدأ عملية التقتيل ، لاحت فجأة راية الخليفة عن بعد فسرت قشعريرة الفرح في قلوب الجمع ، ذلك ان اسم الخليفة ، بالرغم من الضعف الذي بدأ يتسرب الى الحكم ، كان موضع الاحترام والرهبة . وكانت الراية ؛ التي غلّت رؤيتها ايدي الجلادين القساة ، نذيراً بتعيين حاكم

جديد يدعى « ابا الخطار حسام الكلبي » ، وكان هو ايضاً من اصل يماني ، وموفداً من قبل حنظلة امير افريقية بناء على اوامر من هشام لإعادة الأمن والقضاء على الاضطرابات التي ثارت بين الفريقين المتخاصمين .

ولقد دخل حسام قرطبة في شهر رجب من سنة ١٢٥ هـ ، اي بعد انقضاء خمسة اشهر على وفاة هشام ، ويقول المؤرخون « انـه لم يكد يصل الى الاندلس حتى جنحت جميع الطوائف الى السلم وتصالح الثوار » . اما ثعلبة فقد انصاع واطاع وعاد الى الشام .

بدأ ابو الخطار عهده بالتسامح والعدل ، ولكنه مع ذلك لم يتخلص من النعرة القبلية ، اذ راح ينحاز الى الحميريين في اسبانية ، كما انـه اهان احدى القبائل المضرية بشخص زعيمها فثار ابناؤها عليه وذرّت الحرب الاهلية قرنها من جديد واشتعلت اشتعـالاً لم يسبق له مثيل من قبل ، وجرت معركة هائلة في ضواحي قرطبة مني فيها اليمانيون بهزيمة منكرة وقتل ابو الخطار ، وعندئذ اختار المضريون « ثوابة بن سلامة » حاكماً عليهم ، وكان ايضاً من اصل يماني ، وانتخبوا احد زعمائهم ، الصميل ، مساعداً له . وقد ظل ثوابة في دست الحكم ستة عشر شهراً ، وعند وفاته انتخب الجيش في مكانه شخصاً آخر من احفاد عقبة فاتح افريقية يدعى يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ وكان تعيين يوسف بترشيح الصميل ، فاستطاع ان يجمع بين قلوب الفئتـين المتنازعتين ، فوضعتا سلاحها جانباً ، وبذلك استطاع ان يتمرس بأعبـاء الحكم قرابة عشر سنوات من دون مصادقة دمشق ودون ان ينازعه اي منازع في الداخل .

ولكن عبد الرحمن اللخمي ، حاكم أربونة الملقب بفارس الاندلس ، ثار على يوسف ولم يلبث ان قُتل غيلة بيد اعوانه ، كما ثار ايضاً زعيم آخر في « باجه » ، وثالث في « الجزيرة » ورابع في « اشبيلية » ، ولكن يوسف استطاع القضاء على هـذه الثورات جميعاً ، ولولا قدوم حفيد هشام الى الاندلس فاراً من وجه العباسيين في شهر حزيران من

سنة ٧٥٥ م اذن لاستطاع يوسف على الارجح ان يؤسس اسرة حاكمة باسمه ، ولكن وصول ذلك الأمير الاموي الى الاندلس غيّر مجرى الأمور فيها ، ذلك انه كان شجاعاً قوياً عالي الهمة بارعاً في الادارة ، فتغلب على جميع المصاعب وأسس في نهاية الامر سلالة أموية جديدة في الاندلس .

هجوم بيبين القصير على المسلمين في فرنسة سنة ٧٥٣ م

وفيما كان يوسف منهمكاً مع اعدائه أغار بيبين القصير ، الذي كان يترقب اضمحلال العرب – بجيش كبير من البرابرة على « لانكدوك » و « سبتمانية » وسافواي الغربية ، التي كانت ما تزال في ايدي العرب ، فأشعل النيران في هذه المدن الجميلة ، فتهدمت المساجد والمستشفيات والمدارس ، واعمل السيف في رقاب العرب القاطنين فيها ، فاستحالت البلاد بأسرها الى مسرح واسع للخراب والدمار ، ونجم عن وحشية الفرنج مجاعة هائلة هلكت فيها جموع عظيمة من الناس . وبالرغم من عجز العرب وضعف شأنهم في جنوب فرنسة فقد دافعوا دفاعاً بطولياً طيلة ثلاثة أعوام ، مستميتين في كل شبر من الارض ؛ الا انه لم يبق في ايديهم في سنة ٧٥٥ م سوى مدينة اربونة التي حاصرها بيبين بكامل قواته وموارده . وقد استمر الحصار اربعة اعوام حتى انتهز نصارى المدينة ذات يوم غفلة الحراس فانقضوا عليهم وفتحوا ابواب المدينة بعد ان قتلوا بعضهم ، وعندئذ تدفق المحاصرون البرابرة على المدينة واعملوا السيف في رقاب المسلمين رجالاً ونساءً واطفالاً ، ودكوا معالم تلك المدينة الى الارض ، وعادت « لانكدوك » و « بروفانس » الى الظلمة التي كانت تكتنف اوروبة المسيحية وقتئذ . وفيما كان بيبين يطرد المسلمين من ممتلكاتهم في فرنسة على هذا النحو أدت المشاكل التي كانوا منهمكين فيها في الاندلس الى انسحابهم الى المناطق الجبلية

المتاخمة لخليج بسكاي حيث استطاع الثوار ان يؤسسوا نواة مملكة عظيمة .

افريقية

أما في افريقية فقد استطاع حنظلة ان يدير دفة الحكم في البلاد ، منذ هزيمة البربر في القيروان ، بنجاح عظيم لم يسبق له مثيل ، واعترف له البربر والخوارج بصدق قصــده وعدالة ادارته ، فنعمت البلاد في عهده بالطمأنينة والسلام ، وازدهرت تجارتها . ولكن خيانة أحد الموظفين المنفيين ، واسمه « عبد الرحمن بن حبيب » ، وطموحه ، لم يلبثا أن اغرقا البلاد في الفتن والفوضى ، إذ ثار في سنة ١٢٧ ﻫ في تونس وأسر عدداً من الاشراف الذين ارسلهم حنظلة لاقناعه بالعدول عن عمله المنكر ، وسار بهم الى القيروان ، مهدداً بذبحهم اذا هوجم ، فما كان من حنظلة ، الذي كان يكره اراقة الدماء ، إلا ان انسحب إلى آسية معتزلاً الحياة العامة . وفتحت القيروان ابوابها للثائر الذي نصب نفسه أميراً على افريقيــة ، ولكن حكمه الذي قام على الخيانة والغدر ظل عرضة للثورات والفتن المستمرة ، وبرغــم ذلك فقد ظل في دست الحكم الى ان قتل في معركة جرت بينه وبين أخيه سنة ١٣٧ ﻫ .

ويجدر بنا الآن أن نصف بايجاز التطورات السياسية التي أدت الى سقوط بني أمية :

كانت دمشق معقل الأمويين حتى ذلك الحين ، ومهما كانت صفات الخليفة واخلاقه فان افراد الاسرة لم يكونوا ليحيدوا عن ولائهم له ، وكان اخلاصهم ينبع من قرابتهم ومحافظتهم على مصالحهم ، غير ان تحولاً خطيراً بدأ في عهد الوليد الثاني ، اذ كان هذا شغوفاً بالموسيقى وسباق الخيل الى درجة أهمل معها مصالح الدولة ، وبالرغــم من أن هذا الشغف نفر منه اتقياء العاصمة فقد شاركه فيه كبار رجال اسرته ،

ولكن اسفافه وتحديه المكشوف لأبسط المبادىء الاخلاقية نفر منه حتى قلوب اخلص اعوانه ، وباعد بينه وبين الكثرة من أبناء بني أميـــة ، كما ان اغضاءه عن مقتل خالد ، حاكم العراق السابق ، عـلى يدي يوسف الظالم في شهر محرم من سنة ١٢٦ هـ قد جلب عليـه سخط الحميريين في الشام ، فثاروا عليه ثورة هائلة بقيادة يزيد بن الوليـد الأول حفيد عبـد الملك ، وانضم اليهم أهل دمشق ، فحاصروه في قصره في ضواحي العاصمة ، فحاول التفاهم معهم ولكنهم اجابوه بأن تهتكه واستهتاره هما اللذان اسخطا الناس عليه ، ثم كسروا ابواب القصر وهجموا عليه واحتزوا رأسه وطافوا به في شوارع دمشق . هذه الظروف التي احاطت بمقتل الوليد ، وذلك التمثيل الفاضح بجثته ، ازالت تلك القدسية التي كانت حتى ذلك الحين تحيط بشخص الخليفة .

يزيد الثاني

وبعد مقتل الوليد الثاني بويع يزيد ، قائد الثورة ، بالخلافة ، ويصفه المؤرخون بالتقى والورع والاخلاص في اقواله وافعاله . وفي خطبته التي القاها عقب مبايعته شرح الاسباب التي دفعته الى الثورة على ابن عمه ووعد بتحصين الحدود وتعزيز حاميات المدن ورفع الاعباء عن جمهرة الشعب وعزل الحكام الخونة . ولو قدّر له ان يعيش طويلاً اذن لأثبت جدارته وقدرته ، ولكن عهده كان قصيراً تخللته الاضطرابات فلم يتمكن من اصلاح الحال ، وجل ما فعله أنه اخضع الثورتين اللتين نشبتا في حمص وفلسطين . وكان مروان ، حاكم ارمينية ، قد رفض المبايعة في بادىء الامر ، وزحف على الشام بغية تولية احد ابناء الوليد ، ولكن يزيد استطاع أن يرشوه بمنحه ممتلكات أبيه ، وعندئذ زج بأبناء الوليد الثاني في السجون وعزل يوسف ، قاتل خالد ، من منصبه وسجنه مع

أبناء الوليد ، وعيّن عبد الله بن عمر الثاني مكانسه . إلا أن نصراً ، نائب الامير في خراسان ، رفض اطاعة اوامر عبد الله والاعتراف بسلطة يزيد الثالث . واثر الشلل الذي أصاب الادارة المركزيـــة في انحـــاء الامبراطورية القصية ، وظل عبـــد الرحمن ، الذي ثار على حنظلة في افريقية ، دونما عقاب . وكان الاصلاح الوحيد الذي حققه يزيد سبباً في اثارة سخط رجال الجيش عليه ، ذلك ان الوليد الثاني كان قد زاد في مرتباتهم فخفضها يزيد الى ما كانت عليه في ايام هشام فلقبوه بالناقص وتوفي في نهاية عام ١٢٦ هـ بعد حكم دام ستة اشهر .

وبعد وفاة يزيد تولى الخلافة اخوه ابراهيم الذي لم يعترف أحـــد بسلطانه خارج العاصمة وضواحيها ، فـــلم يبق في الحكم سوى شهرين وعشرة ايام ، ولذا لا يعده المؤرخون من جملة الخلفاء .

مروان الثاني

ولقد أسرع مروان على رأس قوة مسلحة الى دمشق بغيـــة اطلاق سراح ابناء الوليد ، وفي عين الجر ، وهي بلدة صغيرة واقعـــة بين لبنان والشام على الطريق الممتـــد من بعلبك الى العاصمة ، التقاه جيش كبير ارسله ابراهيم ، وكان في معظمه من اليمانيين ، غـــير ان جنود مروان كانوا قد تمرسوا بفنون القتال في حروبهم الطويلة مع البيزنطيين والقبائل التركية ، فاستطاع مروان ان يهزم بهـــم اليمانيين وان يمزق صفوفهم ، وبذلك اصبح الطريق الى دمشق مفتوحاً أمام مروان الظافر . وبينما كان مروان يتقدم نحو العاصمة فرّ ابراهيم واعوانه ، بعد ان قتلوا أبناء الوليد ، مؤملين بذلك عبثاً ان يوقفوا زحف مروان ، كما قتلوا ايضاً قاتل خالد ، ولهذا ثار أعوان اسرة الوليد وقتلوا عدداً من اتباع ابراهيم واخيه المتوفى ونهبوا منازلهم ثم نبشوا جثة يزيد الثالث وصلبوها

على أحد أبواب المدينة [1] ، وغرقت دمشق في حالة مريعة من الاضطراب والفوضى ، واسرع اشرافهـا يرحبون بمقدم مروان وبايعوه بالخلافة فوراً أملاً بأن يعيد ، وهو الجندي المحنك ، الأمن والسلام الى البلاد .

١ — لم تكن مثل هـذه الافعال مقتصرة على آسية وحدهـا ، ولنعطي مثلا على هذه العادة نقول انه في القرن الخامس عشر نبشت جثة برسي هستبور بأمر من هنري الرابع .

الفصل الثالث عشر

بنو امية (الفرع الحكمي) (تتمة)
١٢٧ - ١٣٢ هـ ؛ ٧٤٤ - ٧٥٠ م

مروان الثاني - اخلاقه - الثورة في خراسان - ابو مسلم - ثورة الفرس - هزيمة نصر ، حاكم خراسان، ومقتله - موت ابراهيم ، الامام العباسي - هزيمة الامويين في نهاوند - هزيمة حاكم العراق - مبايعة السفاح بالخلافة - موقعة الزاب - هزيمة مروان - فراره - سقوط دمشق - انتقام العباسيين - موت مروان - آخر الخلفاء الامويين - اسباب سقوط الدولة الاموية .

مروان الثاني

هو أحد أحفاد مؤسس الأسرة الحكميّة ، وقد سبق له ان حكم أرمينية بقوة وعزم ، وصد المرة تلو الاخرى القبائل التي كانت تحاول الاغارة عليه من الشمال . وكانت قوته على الصبر قد أكسبته لقب الحمار ، لا على سبيل السخرية ، بل اعترافاً بقوته الجسدية والارادية .

وخلافاً لمعظم أسلافه فقد كان متقشفاً يعيش كجنوده سواء في وقت السلم أو في ميادين القتال ، يقاسمهم أرزاقهم ويتحمل شظف العيش معهم . ولما انتقل الى قصره لم ينغمس في حياة الترف التي أخذ بها الخلفاء الامويون ، بل صرف اهتمامه الى دراسة التاريخ القديم . وكان مروان متقدماً في السن عندما ولي الخلافة ، ولكن خفة حركاته والسرعة التي كان يسحق بها أعداءه الذين ظهروا في كل حدب وصوب اثبتتا أن الشيخوخة لم تثقل من همته . غير ان شيئاً آخر خلاف الصفات العسكرية في الخليفة كان ضرورياً في تلك المحنة لانقاذ الدولة الاموية من الانحلال ، ونعني به القدرة على الترفع عن العصبية القبلية ، وهي صفة كان يفتقر اليها مروان ، شأن معظم أفراد اسرته .

فلو انه كان يتحلى ببعد النظر واتساع افق التفكير اللازمين لكل سياسي محنك ، وبروح التسامح الذي كان باستطاعته وحده أن يؤلف بين العناصر المتنازعة ، اذن لتغير وجه التاريخ في آسية ، ولكن حدة مزاجه وعناده وقسوته زادت من حدة نقيصته . فبدلاً من ان يسعى الى تهدئة الضغائن التي كانت تعصف بالامة العربية ، انغمس في المنازعات القبلية بذلك الحماس الأعمى ، فعامل اليمانيين بقسوة أثارت كراهيتهم وحقدهم ، وأذكت من جديد نيران البغضاء بين الحميريين والمضريين .

الثورة

وفي تلك الاثناء كانت آسية الغربية في حالة من الفوضى والارتباك ، فاعتزل الاتقياء ميدان السياسة وتركوا الامور العامة للأنانيين والوصوليين ، وكان الناس يشمون في الجو رائحة الخراب . ولم يكن قد مضى على تولية مروان وقت طويل عندما نشبت الثورة ضده في حمص وفلسطين ، وفي الوقت نفسه برز الخوارج من مكامنهم في الصحراء معلنين الحرب على الحكم الاموي الفاسد وداعين الناس الى الحق . ومهما قلنا في عقائد

هؤلاء الغلاة فان من واجبنا ان نعترف بأنهم كانوا صادقين في عقيدتهم مخلصين في دعوتهم ، وانهم لم يكونوا يحسبون حساباً لأية عراقيل تعترض سبيلهم . ومع انهم كانوا قلة نسبياً فانهم استطاعوا اكتساح اليمن والحجاز والعراق كله ، والاستيلاء عليها ردحاً من الزمن . ولقد أظهر مروان في حروبه مع هؤلاء الثوار قيادة حكيمة واسلوباً عسكرياً بارعاً ، فهزم أهالي حمص وفلسطين على التوالي ، وشرد الثوار وفتك بزعمائهم ، ثم زحف على العراق وأجلى الخوارج الى ما وراء نهر دجلة بعد معارك شديدة . أما في الحجاز فقد كان الخوارج قد استولوا على المدينة بقيادة ابي حمزة بعد مناوشة طفيفة مع أهلها ، وعاملوهم معاملة حسنة لم يروها من الامويين من قبل ، وأما اليمن فقد كانت وقتئذ في قبضة « داعي الحق » ، عامل مروان ، وكان جندياً طائشاً زنديقاً على شاكلة جنود اوروبة في القرون الوسطى ، ويقال انه صرح علناً ذات مرة بأنه لا يتقيد بأحكام القرآن الكريم ، فاشتبك مع هؤلاء الخوارج المغالين وهزمهم في عدة معارك طاحنة وأجلاهم عن الحجاز واليمن ، وقد التجأ الخوارج الفارون من العراق الى فارس حيث أضافوا عاملاً جديداً الى عوامل الفوضى والخلاف التي كانت سائدة في ذلك الحين ، بينما لجأ الخوارج الفارون من الحجاز واليمن الى حضرموت .

وبعد ان ساد الأمن وعاد النظام عيّن مروان « يزيد بن عمر بن هبيرة » ، أحد أتباع اسرته المخلصين ، والياً على المشرق ، وانسحب الى قصره المفضل في حوران ، تاركاً ادارة شؤون الدولة العملية لابنيه عبد الملك وعبد الله ، وظل هو مقيماً هناك إلى أن استدعياه لقيادة الحملة التي انتهت بمقتله وسقوط اسرته .

وفيما كان مروان يكيل الصفعات للثائرين في الشام ويكافح الغلاة في العراق وجزيرة العرب ، كانت العداوة المريرة بين مضر وحمير تعمل على تقويض دعائم الامبراطورية الاموية في آسية . كان نصر ،

حاكم خراسان ، مضرياً ، ولذلك تألب عليه الحميريون جميعاً ، وانتهز الدعاة العباسيون ذلك النزاع المميت المتأصل بين تينك الفئتين العربيتين اللتين كانتا تحكمان مختلف الأجناس فأشعلوا منجم البارود الذي صرفوا كل ذلك الوقت الطويل في إعداده للوقت المناسب ، وكان ابو مسلم ، قائد الثورة ، لائقــاً بصورة خاصة بالمهمة التي عهد اليه بهــا الامام العباسي .

الثورة في خراسان

اعطينا فيما سبق وصفاً موجزاً للدعوة العباسية ، وكيف انها انتشرت واتسعت بصورة تدريجية . ونقول الآن ان السبب الحقيقي في ثورة بني العباس هو الصبغة التي صبغ بها الحجاج الحــكم والتي ظلت ، رغم محاولات عمر الثاني ، السياسة التقليدية التي اتبعهــا الخلفاء الامويون المتأخرون الذين انقطعوا تماماً عن الاتصال بالشعوب المحكومة ، فضلاً عن انه لم تكن هناك أية روابط من الود تربط بين الحكام والأمــراء وبين أفراد الشعب .

وكان العرب فخورين بعنصريتهم فابتعدوا عن الوطنيــين وأخذوا ينظرون اليهم ، بالرغم من تعاليم الاسلام ، نظرة السيد الى المسود ، مما أدى إلى زرع بذور الكراهية لهم في قلوب السكان الاصليين . ومع أن الوظائف الثانوية في الادارات المدنية والمالية كانت في أيدي الفرس فقد أوصدت في وجوههم أبواب المناصب العسكرية والمراكز المهمة في الدولة ، وباستثناء عدد قليل ممن امتازوا باداء خدمــات جليلة للدولة . وكان أفراد الشعب المغلوب محرومين من الاشتراك في الحفلات العامة او مباهج الحكام مما جعل الغيرة تتأكل قلوبهم والحسرة تشتعل في نفوسهم على امجادهم الضائعة . وبالرغم من هذا كله فقد كان عرب الشام ، من مضريين وحميريين ، منهمكين في خصوماتهم القبلية ، فلم يشعروا

الا قليلاً بالعاصفة التي كانت تحيط بهم ، كما ان عجز السياسيين والتمييز العرقي ألهبا في قلوب الفرس شعوراً قوياً بالظلم ، ولم يكن ينقص اضرام نيران الثورة إلا « كلمة تعارف » ، وها هي قد وُجدت الآن في الدعوة الى « حقوق أهل البيت » التي أصبحت النداء الذي تتبعه وتسير وراءه الشعوب المغلوبة في المشرق . ولم يكن الحميريون والحجازيون والعراقيون المقيمون في خراسان أقل سخطاً من سكان البلاد الاصليين ، ذلك أن الفريق المستولي على الحكم كان يسعى ، كما هي العادة دائماً ، الى احتكار النفوذ والسلطة في يديه ويمنع اشتراك الفئات الاخرى فيها ، مما ولد الحسد والمنازعات . في هذه العوامل من السخط والنفور وجد ابو مسلم الخراساني الاساس لثورته ، واصبحت خراسان معقل انصار بني العباس .

كان « نصر بن سيار » ، عامل خراسان ، ادارياً حازماً قديراً ، ولكن الثورة حالت بينه وبين اظهار نبوغه ، فراح يسعى جهده لسحق الفتنة اليمنية بقيادة « الكرماني » ، بينما كان الخليفة منصرفاً إلى محاربة الخوارج في المغرب . واذ رأى ابو مسلم ضعف الحاميات العربية فقد أصدر بيانه المشهور باعلان الثورة التي طال أمد اعدادها ، وكان السبب الذي عزا اليه ثورته استرداد حقوق آل البيت من الامويين الغاصبين ، كما ان عبارة « آل هاشم » الذين اعلن نفسه حامياً لهم ، كفلت له مؤازرة المتشيعين للفاطميين .

وقد عقد الاجتماع الاول في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٩ هـ ، واستدعي الناس باضاءة المشاعل من اعالي التلال ، واحتشدت الجموع الغفيرة متشحة بالسواد ، دلالة على حزنها على زعمائها الذين سقطوا في الميدان او قتلوا غيلة ، ولم تكد تنقضي بضعة اسابيع حتى أخذت الرايات السوداء التي اطلق عليها اسم « السحاب » و « الظل » تنتقل من مدينة الى مدينة في سيرها نحو المغرب . وهكذا طرد الثوار

الحاميات الاموية من « هراة » واماكن أخرى في المشرق الاقصى ، وأدى مقتل « الكرماني » في كمين نصبه المضريون الى التحاق أبنائه بأبي مسلم فاستطاعت قواتهما الموحدة ان تطرد نصراً من مدينة « مرو ».

ولما رأى عرب خراسان الذين كانوا حتى ذلك الحين منشقين على انفسهم راية بني هاشم الخفاقة فاقوا الى انفسهم فجأة وشعروا بالخطر المحدق بهم وحاولوا جمع كلمتهم ولكن بعد فوات الأوان ، ذلك أن الثورة كانت قد استفحلت وانضم اليها الكثيرون من زعماء عرب الحجاز والعراق . ولما وجد عامل خراسان انه غير قادر على مقاومة قوات أبي مسلم التي كانت تزداد عدداً وعدة استنجد بالخليفة ولكنه لم يتلقّ جواباً، لان الخليفة نفسه كان منهمكاً في حروبه مع الخوارج في الجزيرة . وقبل ان يغادر نصر « مرو » وجه نداءً اخيراً مؤثراً إلى مروان يطلب فيه النجدة ويقول إن الثورة ما زالت في مهدها وانه ما زال بالامكان خنقها أو حصرها ، ثم فرج عن نفسه بتلك الأبيات الشهيرة التي مطلعها :

أرى بين الرماد وميض جمر

ويوشك ان يكون لها ضرام

واستجابة لهذا النداء العاجل أمر مروان حاكم العراق بأن يرسل الامدادات لمساعدة نصر ، ولكنها قبل أن تستطيع الوصول إلى نجدته كانت « فرغانة » و « خراسان » قد سقطتا بالكلية في يدي أبي مسلم فازدادت بهما موارده . وليس ادل على قوة هذا الرجل العبقري من اختيار رجاله ، فقد كان قواده من أقدر رجال ذلك العصر ، وكان منهم « قحطبة بن شبيب » الحجازي الذي تعقب نصراً إلى جرجان وأوقع به هزيمة هدّت من معنويات القوات الشامية . وقد توفي نصر وهو في الخامسة والثمانين من عمره في طريقه إلى بلدة ساوا .

وفيما كانت هذه الاحداث تتوالى في المشرق كان مروان يحاول معرفة اسم الهاشمي الذي نشبت الثورة من اجله ، وكان احفاد العباس يعيشون وقتئذ في قرية تدعى حميمة في جنوب فلسطين . وما ان علم مروان من جواسيسه ان ابراهيم الملقب بالأمام هو أصل الفتنة حتى أمر بالقبض عليه فوراً وباحضاره إلى حوران حيث سجنه مع كثيرين آخرين من الهاشميين والامويين ، وكان من بين هؤلاء الآخرين عبد الله بن عمر الثاني والعباس بن الوليد الاول اللذان شك مروان في محاولتهما القيام بثورة ضده . غير أن سجن ابراهيم لم يؤثر قط في تقدم قوات أبي مسلم ، ذلك أن قحطبة تقدم بسرعة نحو الغرب بعد هزيمة نصر في جرجان ، وكان معه خالد بن برمك الفارسي الذي اصبح لاولاده ، من بعد ، تلك الشهرة الواسعة في التاريخ والأدب العربيين . وكانت البلاد كلها وقتئذ تسبح في فوضى شاملة ، فلما دخل قحطبة مدينة « الريّ » أعاد الأمن فيها إلى نصابه ، وارسل ابنه الحسن و « ابا عون » الفارسي المولد على رأس جيش كبير طاردا به الامويين وغلاة الخوارج ، وتقدما من مدينة « نهاوند » وحاصرا حاميتها الشامية القوية . وفيما كان الحسن بن قحطبة يحاصر تلك المدينة اعترض قحطبةُ طريقَ جيش كبير كان مروان قد انفذه لنصرتها فمزقه شر ممزق . وبينما كان عبد الله بن مروان ويزيد عامل العراق يزحفان على نهاوند كان قحطبة يشدد الحصار عليها حتى فتحها عنوة قبل وصول الامدادات اليها من أي من الجانبين ، ثم ارسل فصيلة بقيادة أبي عون لمقاتلة عبد الله بن مروان ، بينما التفّ هو بجيشه الرئيسي حول يزيد ، الذي كان معسكره في جلولاء . وعندما انتهت هذه الخطة إلى مسامع يزيد سارع إلى رمي نفسه بين الكوفة وبين عدوه. ووصل قحطبة إلى الفرات بعد يزيد ثم عبر النهر وعسكر في بقعة بعيدة عن متناول يزيد . هذا وقد التقى الجيشان في البقعة نفسها التي قتل فيها الحسين ودارت بينهما معركة رهيبة اسفرت عن هزيمة الامويين وخسر

فيها العباسيون قائدهم قحطبة فتولى القيادة ابنه الحسن وطرد يزيد من معسكره واجبره على التراجع الى واسط ، وهي مدينة قوية التحصين بناها الحجاج بن يوسف في وسط الطريق بين الكوفة والبصرة ، وهكذا سقطت الكوفة دون مقاومة تذكر في يد الحسين .

وعندما انتهى نبأ هذه الكارثة الى مسامع مروان بلغ به الغضب اقصاه فارتكب عملاً وحشياً عرّض الامويين لانتقامات مريعة ، كما انه ما ان علم ان ابراهيم كان على اتصال بقوات ابي مسلم حتى أمر بوضع ابراهيم في كيس جلدي مليء بالجير الحيّ حتى قتل ، وأمر بقتـل المساجين الآخرين . وكان ابراهيم قبل مقتله قد أوصى لأخيه ابي العباس عبد الله بالامانة العباسية ، وقد اقسم ابو العباس لينتقمن أروع الانتقام لأخيه فبر بقسمه حتى لقب في التاريخ بالسفاح . ولما قتل ابراهيم فرّ اخوته الى الكوفة وظلوا مختبئين فيها حتى استولى عليها الحسن بن قحطبة ، ولم يكن قد اذيع بعد الغرض الاساسي من الحركة التي خلصت فارس من قبضة الامويين ، ذلك ان عبارة « آل البيت » كانت الشعار الذي جمع من حول الراية السوداء جميع طبقات الشعب وفاز بعطف الشيعة ومؤازرتهم .

وعندما دخل الحسن بن قحطبة الى الكوفة كان يصحبه ابو سلَمة الخلاّل الذي يقول فيه صاحب روضة الصفاء انه كان يلقب بوزير آل محمد . والظاهر ان هذا الرجل كان يدعي لنفسه الولاية على الشيعة ولكن من دون موافقة رأس الاسرة . وقد استقبله القائد العباسي باحترام كبير فلثم يديه وانزله منزلة الشرف واخبره ان ابا مسلم قد امره باطاعته في كل شيء ، فتاه ابو سلَمة خيلاء وصدر بيان مشترك باسم الحسن بن قحطبـة وابي سلَمة يدعو الناس الى الصلاة الجامعة في اليوم التالي لانتخاب خليفة . وفي ذلك النهار ارتدت الكوفة حلة غريبة ، ذلك ان جموعاً كبيرة من الناس المتشحين بالسواد كانت تسرع من كل صوب

الى ساحة المسجد الجامع لسماع الخطبة التي طال امد انتظارهم لسماعها . وفي الوقت المحدد ظهر ابو سَلَمة متشحاً هو ايضاً بالسواد ، ولم يكن احـــد غير القلة من انصار ابي العباس يعرف كيف انتهى الرجل الى اعتناق الفكرة العباسية ، وكيف فضل انقاذ رأسه على مصالح اسياده . وبعد الصلاة اعتلى ابو سَلَمة منصة الخطابة وشرع يشرح للناس غاية الاجتماع وقال ان ابا مسلم ، حامي حمى الدين ، والذائد عن آل البيت ، قد تسبب في اسقاط الامويين من اوج مجدهم ، وانه اصبح من الضروري الآن انتخاب امام وخليفة ، وانه لا يرى من هو احق وانبل من ابي العباس لهذا المنصب العظيم .

ولقد كان ابو سلمة والعباسيون حتى ذلك الحين يشكون في تأثير ذلك على المجتمعين ، وكانوا يخشون ان لا يوافقهم اهل الكوفة على خيانة آل البيت ، غير أن الكوفيين اثبتوا ما اشتهر به العراقيون من التحول والتقلب ، فلكم ثاروا وحملوا السلاح في سبيـــل نصرة قضية آل البيت ، ولكم خدعوا اولئك الذين تعهدوا لهم بالمساعدة او اولئك الذين طلبوا هم مساعدتهم ، وها هم الآن يتأثرون بالنزوة العابرة ويثبتون من جديد انهم خونة لقضية الحق بقدر ما هم حماة لها .

مبايعة السفاح

ولم يكد ابو سلمة ينتهي من ترشيحه ابا العباس لمنصب الخلافة حتى صاح الجميع بصوت واحد : « الله اكبر » ، دلالة على الموافقة ، وبعثوا في الحال برسول يحضر ابا العباس من مخبئه ، وما ان وصل الى المسجد الجامع حتى تهالك الناس على لثم يده ومبايعته بالخلافة . وعندما انتهت البيعة اعتلى ابو العباس المنبر والقى الخطبة واصبح منذ ذلك الحين امام المسلمين وخليفتهم ، وهكذا استولى بنو العباس على السلطة على حساب اولاد فاطمة الذين لاقوا من بعد على ايديهم معاملة من معدن آخر .

وفي الوقت نفسه كانت الاحـــداث تتعاقب بسرعة في الشمال ، اذ اشتبك ابو عون مع ابن مروان في « شهرزور » شرقي الزاب الصغير وهزمه بعد ان اوقع به خسائر فادحة ، فما كان من مروان الا ان عبر دجلة بجيش قوامه ١٢٠ الف مقاتل وسار نحو الزاب الكبير . وكان ابو عون في تلك الاثناء قد تلقى الامدادات من الكوفة ، وتولى عبد الله ابن علي ، عم السفاح ، قيادة القوات العباسية . والتقى الجيشان على الضفة اليسرى من الزاب في قرية تدعى « الكشاف » ، وخلافاً لنصح مستشاريه عقد مروان جسراً على النهر وتقدم عليه بشجاعته المعهودة الى القتـــال ، وانقض على اعدائه وانتصر في اول معركة جرت بينه وبين جيش عبد الله بن علي ، ولكن ابا عون ، مساعده ، أمر جنوده بالترجل ، وشرع عبد الله يحثهم على الاخذ بثأر ابن اخيه ابراهيم ، ثم اطلق صيحته : يا محمد ! يا منصور ! فردد الجنود صيحته ، وحملوا على جنود مروان حملة صادقة . وكان مروان من ناحيته يحض جنوده على الثبات والمحافظـــة على سمعة بيته ، ولكن نداءاته ذهبت ادراج الرياح ، وذلك انهم لم يستطيعوا الصمود امام هجمات العباسيين ، فهزموا شر هزيمة ، وبصورة خاصة عندما شاهدوا حصان مروان من دون صاحبه .

هذه المعركة التاريخية التي ختمت مصير الدولة الاموية جرت في الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة في سنة ١٣٢ هـ ، وفي ختامها فرّ مروان الى الموصل ولكن هذه المدينة أوصدت ابوابها في وجهه ، فأسرع عندئذ الى حوران حيث مكث مدة حاول فيها عبثاً جمع جيش آخر ، وكان العباسيون القساة يتعقبونه من مكان الى آخر ، ففر من حوران الى حمص ثم الى دمشق . ولما لم يجد امانا على نفسه سارع الى فلسطين ، ولكن العباسيين كانوا يطاردونه دونما كلل ، وعلى رأسهم عبد الله بن علي ، وكانت الموصل وحوران وحمص قد استسلمت للسفاح

دون قتال ، في حين ابدى الامويون في دمشق بعض المقاومة ، ولكن جيش العباسيين ما لبث ان اقتحم المدينة وفتك بحاكمها ، صهر مروان ؛ وبذلك انتقلت دمشق حاضرة الشام وعاصمة الامبراطورية الى العباسيين ، وفي الخامس من رمضان سنة ١٣٢ ، اي بعد خمسة اشهر من دخول الكوفة ، وثلاثة اشهر من موقعة الزاب ، اخذ العلم العباسي الاسود يرفرف خفاقاً فوق قصر بني امية .

ولقد اظهر عبد الله بن علي وحشية لم يشهد التاريخ لها الا امثلة معدودة من قبل ، فلم يقصر انتقامه على الاحياء ، بل اصدر اوامره فنبشت القبور واحرقت العظام [1] وذر رمادها في الهواء ، ثم تعقب مروان الذي فكر لدى مغادرته فلسطين في الرحيل الى الممتلكات البيزنطية والاستنجاد بخليفة قسطنطين ، ولكن اصحابه الذين لم يتخلوا عنه وقت محنته نصحوه بالعدول عن هذه الفكرة واشاروا عليه بالذهاب الى مصر او افريقية حيث يستطيع حشد جيش آخر يحتل به الامبراطورية الشرقية او يؤسس مملكة جديدة اقوى في المغرب ، وعندئذ اسرع الى الفيوم في مصر العليا ، وارسل عبدُ الله بن علي أخاه صالحاً مع ابي عون لتعقبه ، فأدركه ابو عون عند الفسطاط والفاه في كنيسة صغيرة في بوصير على ضفة النيل الغربية يستريح من عناء السفر .

واذ صمم مروان على ان يكافح حتى آخر نسمة من حياته فقد هجم على اعدائه شاهراً سيفه ، ولكنه اصيب برمح خر على اثره صريعاً ، وهكذا قضى واحد من اشجع افراد بني امية وافضلهم ، وبموته سقطت الدولة الاموية . وأمر السفاح ، الذي لقب « بالمنتقم للبيت الهاشمي » ، فتعقب العباسيون بني امية وطاردوهم بكل قسوة ، وضربوا اعناق الرجال اينما وجدوهم ، وبثت العيون والارصاد للبحث عنهم في اقصى البقاع

---

١ – يقول ابن خلكان ، بناء على شهادة شاهد عيان ، ان المعاملة الوحشية التي عامل بهما الامويون زيدا وابنه هي التي حملت عبدالله بن علي على الاخذ بثارهما .

وتحت الخرائب وفي المغاور وعلى التلال ، وعلى الجملة فان التاريخ لم يعرف مثيلا لهذه المذابح غير حروب الورود التي استؤصلت فيها أسرٌ بأكملها.

وعلى ضفاف نهر ابسي فطرس في فلسطين احضر عبد الله بن علي الى خيمته ثمانين رجلاً من أقارب مروان ، بعد ان وعدهم بالأمان ، ففتك بهم دون رحمة او شفقة ، غير ان الكثيرين تمكنوا من الفرار من سيف « المنتقم » ونالوا من بعدُ حماية خلفاء السفاح ، وكان من بين الناجحين عبد الرحمن حفيد هشام الذي ارتحل الى الاندلس . اما بنات مروان اللواتي كن معه وقتئذ فقد ارسلن الى حوران مع آخرين من أفراد الأسرة حيث عاشوا في فقر حتى خلافة المهدي الذي خصص لهم الارزاق وعاملهم معاملة تتفق ومكانتهم .

وبموت مروان انقضى حكم البيت الاموي في المشرق . والذي لا ريب فيه أن بعض خلفائهم كانوا من العظماء ، في حين أن آخرين منهم لم يقلوا سوءاً عن معاصريهم في العالم الغربي . فعمر الثاني ، المسمّى عن جدارة ماركوس اوريليوس العرب ، كان حاكماً متقدماً على عصره . ومع ان الوليد الاول وهشام لا يمكن ان يقارنا به فقد كانا رجلين ذوي كفاءة ممتازة وتوق عظيم الى النهوض بالشعب وتحقيق رفاهيته . اما مروان نفسه فقد كان جديراً ، لولا نهايته المفجعة ، بأن يتبوأ مكاناً مرموقاً بين ملوك العالم نظراً لشجاعته وحكمته .

هذا وقد دام الحكم الاموي منذ قتل عليّ بن أبي طالب حتى مقتل مروان قرابة احدى وتسعين سنة . ومهما كان الصراع بين بني امية وبني العباس وحشياً وانانياً فانه ولّد عوامل ساعدت على بعث التطور العقلي في العالم الاسلامي وقدّم الى العالم رجالا عظاماً .

الفصل الرابع عشر

نظرة عامة

الحكومة ـ الايرادات ـ الادارة ـ الخدمة العسكرية ـ اصلاح العملة في خلافة عبد الملك ـ دمشق ـ حياة البلاط ـ المجتمع ـ مركز المراة ـ استحداث نظام الحريم ـ الملابس ـ العادات ـ الآداب ـ الفرق الدينية والفلسفية ٠

الحكومة (٤٠ ـ ١٣٢ هـ ، ٦٦١ ـ ٧٥٠ م)

في أيام الجمهورية كان الخليفة ينتخب باجماع أهل المدينة ، وكان العرب في الخارج يقبلون هذا الانتخاب ولا يعترضون عليه . وكانت مراسيم البيعة تتم في المسجد الجامع حيث كان المسلمون يجتمعون ليبايعوا الخليفة . غير ان الخلفاء منذ عهد معاوية أخذوا في تعيين ولاة عهودهم وكان الأشراف ورجال الجيش يحلفون يمين الولاء لهم في حضرة الخليفة نفسه ، بينما كان الحكام يأخذون البيعة لهم في الأمصار التي يحكمونها. وكان هذا النظام يجمع ما بين مساوىء الديموقراطية والاوتوقراطية دون

الافادة من حسنات اي منها ، فحالما تؤخذ البيعة كانت موافقة الشعب، سواء حُصل عليها بطريق الاغتصاب او التملق او الرشوة ، تضفي صبغة شرعية على الانتخاب .

وفي ايام ابي بكر وعمر وعلي كانت الخزانة العامة ، وتسمى بيت مال المسلمين ، تعتبر في الحقيقة ملكاً للشعب ، وكان لكل فرد في رابطة الشعوب الاسلامية الحق في ان يتقاضى مرتباً من دخل الدولة . وبقيام الاوتوقراطية في عهد معاوية اصبحت واردات الامبراطورية ملكاً خاصاً للخليفة ، وخاضعة لرقابته المطلقة ، وهكذا استطاع معاوية عندما ولّى عمرو بن العاص مصر ان يهبه خراجها كله مكافأة له على مساعدته ضد الإمام عليّ .

الايرادات

كانت الايرادات في العصر الأموي تجبى من المصادر نفسها ايام الجمهورية ، وهي :

(١) الخراج
(٢) ضريبة الاعناق
(٣) الزكاة
(٤) الجمارك والمكوس
(٥) الجزية
(٦) الأخماس (خمس غنائم الحرب) .

وكانت الضرائب التي تجبى في كل ولاية تدفع الى خزانتها . ولما كانت اللامركزية هي القاعدة فان مصاريف الولاية الادارية كانت تدفع من خزانتها ، وكانت مرتبات الجند والموظفين تدفع من ايراداتها . كذلك كانت اعمال المنافع العامة ، كانشاء الطرق والقنوات والأبنية العامة ، كالمساجد والمدارس ، تتم على حساب الولاية نفسها ، ثم يرسل ما

يتبقى الى الخزانة الامبراطورية في دمشق . وكانت الجباية من اختصاص العمال الذين يبدو انهم كانوا يمارسون الوظائف التنفيذية الى جانب اعمال الجباة في الهند البريطانية . وكان الولاة أحياناً ، اذا ما جمعوا بين وظيفة صاحب الخراج وبين وظيفتهم الاصلية ، كما كان الحال بعد ولاية عمر الثاني بصورة خاصة ، يشذون عن القاعدة ويعهدون بالجباية الى كتّابهم ، مما ادى الى ابتزاز اموال الشعب ومعاقبة الكاتب معاقبة شديدة مصحوبة بمصادرة املاكه .

كذلك كان الخلفاء وافراد الاسرة المالكة يخصون انفسهم بالاملاك الشاسعة ، وكانوا حتى ولاية الوليد الثاني يعنون بزراعتها عناية خاصة . اما في ابان الحروب الاهلية التي سبقت ولاية عبد الملك فقد اهملت اعمال الري العظيمة التي قام بها عمر في كلدة فتهدمت ، وهكذا تحولت مساحات شاسعة الى اراض جرداء قاحلة .

ولم تكن الضرائب تجبى وفق مقياس واحد بل كانت تختلف في كل ولاية باختلاف الشروط المفروضة عليها والامتيازات التي كانت تمنح لها من حين الى آخر من قبل الخلفاء المتقدمين . وكانت المحاولات تبذل أحياناً لزيادتها مما كان يؤدي الى الثورة وشق عصا الطاعة .

وكانت الامبراطورية مقسمة الى خمس امارات هي :

(١) الحجاز واليمن واواسط جزيرة العرب .

(٢) مصر العليا والسفلى .

(٣) العراقان : عراق العرب (بابل القديمة وكلدة) وعراق العجم (فارس) ، وعمان ، والبحرين ، وكرمان وسجستان ، وكابول ، وخراسان ، وسائر انحاء ما وراء النهر ، والسند ، وبعض اقسام من البنجاب ، وكانت هذه جميعها تؤلف امارة واحدة شاسعة ، ويحكمها امير العراق وعاصمته الكوفة وتتبعها :

أ ـ خراسان وما وراء النهر وحاضرتها مرو .

ب – البحرين وعمان ويحكمها عامل تحت اشراف والي البصرة .
ج – السند والبنجاب ويحكمها عامل آخر .
(٤) الجزيرة وارمينية وأذربيجان وبعض اقسام آسية الصغرى .
(٥) افريقية ، وكانت اهم الامارات اطلاقاً ، وتشتمل على شمال افريقية حتى حدود مصر الغربية ، واسبانية ، وجنوبي فرنسة ، مع جزائر صقلية وسردينية وجزر البليار ، وكانت حاضرتها القيروان ويتبعها :
أ – طنجة وجزر البحر الابيض المتوسط .
ب – الاندلس وعاصمتها قرطبة .

الادارة السياسية والعسكرية

كانت الادارة السياسية والعسكرية في كل امارة في يد اميرها ، ولكن اعمال الجباية كانت تناط بموظف آخر يدعى صاحب الخراج مستقل تمام الاستقلال عن الامير ومعين من قبل الخليفة رأساً . وكان قضاة المدينة الرئيسية يتمتعون بحق تعيين وكلائهم ، بينما كان النظر في شؤون الطوائف غير الاسلامية منوطاً بحكام أو رؤساء دينيين من الطائفة نفسها . وكانت امامة الصلاة ، وهي من أهم الوظائف ، منوطة بالامير او القاضي الأكبر .

وكان رئيس الشرطة (صاحب الشرطة) تابعاً للأمير ، غير انه في اوائل حكم هشام ألفت قوة جديدة اطلق عليها اسم « الاحداث » ، وكانت تقوم بمهام الميليشيا وتعتبر خطوة وسطى بين الشرطة والجندية النظامية .

ديوان الخاتم

ولتسهيل المكاتبة والاتصال بين الخليفة وعمال الولايات في سائر انحاء

الامبراطورية الفسيحة من جهة ، وللقضاء على اعمال التزوير من جهة اخرى ، انشأ معاوية ديوان الخاتم ، فكان كل أمر يصدر عن الخليفة تسجل نسخته الاصلية في سجل خاص ثم يختم ويرسل الى الجهة المعنية . كما انشأ نظاماً بريدياً بلغ في ايام العباسيين درجة عظيمة من الكمال .

غير ان سياسة الامويين ، وبصورة اكيدة في الولايات الشرقية . لم تستمد صيغتها من معاوية ، ذلك ان عبد الملك كان مؤسسها الحقيقي. فهو الذي أمر بتنحية غير العرب عن المناصب العامة بغية اقصاء النفوذ الاجنبي عن شؤون الدولة ، وقد توسع الحجاج بن يوسف في تنفيذ هذه السياسة الى المدى الأبعد في العراق ، ذلك انه لم يكتف باقصاء غير المسلمين عن المناصب العامة ، بل عمد الى اقصاء المسلمين من غير العرب ، وذهب الى ابعد من ذلك ففوض على هؤلاء ضريبة الاعناق . والواقع ان هذه السياسة لم يقيَّض لها النجاح ، فلم يمض وقت طويل حتى عاد الفرس والمسيحيون باعداد كبيرة الى تسنم المناصب الادارية والمالية الثانوية في الدولة ، ولكنها لم تمر دون ان تترك شعوراً بالسخط أدى الى ثمار مريرة في عهد مروان الثاني .

اصلاح العملة في عهد عبد الملك

وحتى عهد عبد الملك لم تكن هناك عملة نظامية رسمية في الامبراطورية الاسلامية ، بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة بهم يسكّون بها العملة حسب احتياجاتهم المحلية . وكان السك والقيمة الحقيقية غير دقيقتين. مما شجع على تزييف العملة والتلاعب بقيمتها . وكان الناس يتداولون العملة البيزنطية والعملة الفارسية القديمة ، غير ان اتساع رقعة الامبراطورية وتطور التجارة جعلا من الضروري وجود عملة مستقرة واحدة ، ولذا انشأ عبد الملك داراً امبراطورية لسك العملة ، وسحب مختلف العملات المتداولة في البلاد وأصدر بدلاً منها عملته الذهبية والفضية

الخاصة. وكان اصلاحه هذا مزيجاً من الفئات الرومانية والساسانية ، فقد اتخذ الصلدي الروماني اساساً للعملة الذهنية ، والدرهم ، الذي اوجده عمر بن الخطاب ، اساساً للعملة الفضية ، وجعل التزييف جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً .

استعمال اللغة العربية في دوائر الحكومة

وكان الاصلاح الثاني الذي تم على يدي عبد الملك عظيماً ايضاً، فقد كانت حسابات الدولة قبل عهده تمسك بالفارسية او اليونانية او السريانية، مما كان يشجع على التزوير والتلاعب ، فلما وُلي عبد الملك أمر بأن تمسك السجلات الحكومية باللغة العربية .

وكانت التعيينات في الامارات تتم ، قبل تولية يزيد الثاني ، لأسباب سياسية او ادارية ، كما ان الامراء كانوا يعينون إما لكفاءتهم وجدارتهم او لأعمال باهرة قاموا بها في خدمة الخلفاء او الأسرة الحاكمة . غير أن الحال تبدلت في أيام يزيد الثاني ، اذ تغلغلت المحسوبية في اجهزة الدولة واصبحت هي المبدأ المستند اليه في اسناد المناصب الرفيعة دون أخذ الكفاءة والأهلية بعين الاعتبار .

وحتى هشام نفسه لم يخلص من هذه المؤثرات . وهناك شر آخر تسرب في ذلك الحين الى الادارة وأدى الى اسوأ النتائج فيما بعد ، فقد كان الامراء حتى ذلك الحين يؤمرون بالاقامة في مراكز حكمهم ، فأصبح الكثيرون من أفراد الأسرة المالكة ورجال البلاط يهجرون هذه المراكز ويقيمون في العاصمة ، تاركين الادارة لوكلائهم الذين كانت غايتهم الوحيدة اغناء رؤسائهم وانفسهم من واردات الامارة .

الآلة الحكومية

وعلى الجملة فقد كانت الادارة الحكومية في عهد الأمويين ذات

صبغة بدائية ، فلم تكن قد عرفت ذلك التنظيم الذي بدأ به العباسيون كما انه لم يكن هناك تقسيم للواجبات يساعد على ادائها اداء فعالا . وكانت هناك اربع دوائر تضطلع بمهام الدولة هي :

(١) ديوان الخراج ، ويشبه وزارة المالية في عصرنا الحاضر .

(٢) ديوان الخاتم حيث كانت توضع انظمة الدولة ويصادق عليها وتختم بخاتم الخليفة .

(٣) ديوان الرسائل الذي كان يراقب شؤون الولايات ويصدر جميع الرسائل الى الحكام .

(٤) ديوان المستغلات ، او مجلس الأيرادات المتفرقة .

والى جانب هذه الدواوين كان هناك ادارتان تابعتان لديوان الخراج وتتوليان دفع مرتبات الشرطة والجند .

وكانت الخدمة العسكرية ، بطريقة ما ، اجبارية على جميع رعايا الامبراطورية العرب الذين كانوا ملزمين بالانضواء تحت ألوية فصائلهم في فترات معينة ليتلقوا التدريب اللازم . وكان الجندي في الخدمة الفعلية يتقاضى مرتباً أعلى من المرتب الذي يتقاضاه وهو في الاحتياط ، ولكن كل شخص قابل لأن يدعى الى الخدمة العسكرية كانت تصرف له الارزاق من خزانة الدولة ، وسآتي على التنظيم العسكري بوجه عام في أيام العرب عند الكلام عن العصر العباسي ، وهو العصر الذي بلغت فيه آلة الدولة ، سواء في الحرب او السلم ، درجة عالية من الكمال . أما الاسطول فكان بقيادة ضابط يطلق عليه لقب « امير البحر » .

المــدن

كانت المدن تحاط جميعها بالاسوار للدفاع عنها ، وكانت مختلف الحرف والصناعات تشغل أحياء او شوارع مختلفة تسمى باسمائها ، ولكن تقسيم المدن الى احياء لم يقتصر على الحرف وحدها ، ذلك ان العرب

اشتهروا دائماً بمقتهم للمركزيـة ، ولذا فانهم كانوا ، اينما حلّوا ، يتجمعون حسب تقسيمهم القبلي ، فكان لكل قبيلة حيها الخاص بها ، وبيوتها ، ومسجدها ، وسوقها ، ومدفنها . وقد شجع هـذا التجمع القبلي على التمرد والعصيان .

دمشق

اما دمشق فقد كانت عندما غزاها المسلمون مدينة مزدهرة ، ومقراً للحاكم الروماني ، واصبحت في ايام الامويين من اجمل مدن العالم قاطبة ، وحاضرة الامبراطورية الاسلامية ، فقد جملوها بافخم المباني ، وانشأوا فيها الفوارات والملاهي . وقـد بدأ تجميلها بتشييد قصر الخضراء الذي بناه معاوية واستمد اسمه من لونه وزخرفه الاخضر ، وفي ايام خلفائه شيدت فيها قصور ومساجد لا تحصى ذات قباب وابراج بيضاء ، وقد ابتنى فيها الوليد بصورة خاصة المنشآت العامة ، كما شيد الجامع الاموي الذي خلد اسمه على مر العصور .

الموصل

بيد ان الشغف بالبناء لم يقتصر على الخلفاء ، بل تعداهم ايضاً الى افراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة الذين أخـذوا ينافس بعضهم بعضاً في تجميل دمشق وغيرها من المدن الكبرى . فقد ابتنى الحر [1] ، الذي حكم مدينة الموصل احدى عشرة سنة في عهد هشام ، كلية ونزلاً ، كما ابتنى لاقامته الخاصة قصراً بالغ الجمال يدعى بالمنقوشة . ولما بلغه ان اهالي الموصل يعانون صعوبة كبرى في الحصول على ميـاه الشرب أمر ببناء قناة ما تزال آثارها باقية حتى اليوم ، وغرس على جانبي الطريق الممتدة بحذائها اشجاراً وارفة لكي يسير تحتها سكان المدينة وعائلاتهم في

---

١ ـ هو الحر بن يوسف حفيد الحكم .

الأسيات ترويحاً عن النفس .

مياه الشرب في دمشق

اما نظام مياه الشرب في دمشق فلا يزال متفوقاً على امثـاله في الشرق ، ولا يزال أثراً خالداً من آثار الخلفاء الامويين . ومـع ان بردى كان يزود المدينة بمقادير كافية من ميـاه الشرب ، فقد أبدى الامويون مهارة فائقة في تنظيم مجاري المياه بحيث ان احقر البيوت مـا يزال مزوداً حتى الآن بمسقاة خاصة ، وحفروا سبع اقنية رئيسية تمتد عبر المدينة الى جانب عدد لا يحصى من المجاري التي تربط كل بيت بالقناة الرئبسية .

طراز البناء

وكان لمدينة دمشق ستة ابواب ضخمة كانت ابراجها تُرى من بعيد. وعندما غزا العرب بلاد الشام لم يكونوا بعد قد اوجدوا طرازاً معمارياً خاصاً بهم ، ولكنهم سرعان ما أنشأوا نمطاً فاق بجماله واكتماله الطرازين الفارسي والبيزنطي . ولما كان الطراز المعماري لأي شعب من الشعوب يستمد صبغته من عادات ذلك الشعب الاصيلة وظروف حياته البدائية فاننا نرى في الاقواس والاعمدة والمناثر والقباب تشابهاً قوياً بينها وبين تقوس احواش النخيل المحببة الى قلوب العرب وتقببها .

حياة البلاط

كان أمير المؤمنين يؤم المصلين يوم الجمعة وسائر أيـام الاسبوع . وقد واظب معاوية وعبدالملك وعمر الثاني على أداء هذا الواجب مواظبة تامة ، ولكن خلفاءهم كثيراً مـا اهملوا حضور الصلاة اليومية ، ولم يسعهم التخلف عن حضور صلاة الجمعة لإلقاء الخطبة . وكان الخلفاء

بهذه المناسبة يظهرون بالمسجد الجامع متشحين بالملابس البيضاء ويتعممون بالعمامات البيضاء التي كانت تحلّى احياناً بالجواهر . وكان خاتم النبي والقضيب هما الشعاران الوحيدان لمنصب الخلافة ، وكان الخليفة يعتلي المنبر لالقاء خطبة الجمعة ، الا ان بعض الخلفاء ممن كان يستهويهم اللهو والطرب وجدوا حتى في حضور صلاة الجمعة ازعاجاً لهم . فيزيد الثاني ، مثلاً ، كثيراً ما كان ينيب عنه صاحب الشرطة في إمامة المسلمين والقاء الخطبة . والى جانب هذه المهام الدينية كان الخليفة يمارس واجبات محكمة التمييز العليا ، فيفصل في القضايا الخطيرة ، ويستقبل كبار رجالات الدولة ومبعوثي الامراء المجاورين .

وكانت الاستقبالات على نوعين : عامة ، وخاصة . وكان الخليفة في العامة منها يجلس في قاعة الاستقبال الكبرى ، يحف به عن يمينه امراء الاسرة المالكة ، وعن يساره رجال البلاط وكبار رجال الدولة ، وامامه اعيان المدينة وارباب الحرف والشعراء والفقهاء وغيرهم . اما الحفلات الخاصة فقد كانت تقتصر على افراد الاسرة المالكة وكبار رجال الدولة ورجال البطانة . وكان الخلفاء في هذه الاستقبالات يتأنقون في ملابسهم الى ابعد حدود التأنق ، فالوليد الثاني ، مثلاً ، كان يتشح بالأثواب الحريرية الموشاة بالذهب والسراويل المصنوعة من الدمقس ، في حين ان سليمان لم يرتد في حياته غير الدمقس ، ودفن به .

وكان الخلفاء الامويون الاولون يقضون اوقات فراغهم في الاستماع الى اخبار الحروب والمغامرات والى قصص ابطال العرب قبل الاسلام . كذلك كان الشعراء يفدون عليهم لالقاء القصائد في حضرتهم . وفي ايام يزيد الاول انتشرت عادة شرب الخمر في القصور الملكية ، وكان هو نفسه يسرف في الشراب ، وكانت مجالسه ، كمجالس يزيد الثاني ، مجالس معاقرة اكثر منها مجالس انس وطرب . ولم يمض زمن طويل حتى دخلت الموسيقى والغناء مجالس الخلفاء ، وأخذ أشهر المغنين يتدفقون

علي دمشق من مكة والمدينة اللتين كانتا في ذلك العهـــد موطن الفنون الموسيقية . ولم تكن لعبة الشطرنج والبولو قد انتشرتا بعد ، الا ان لعبتي النرد والورق لم تكونا مجهولتين على ما يبدو .

سباق الخيل

ويقال ان هشاماً كان أول منَ انشأ حلبة لسباق الخيل بغية تحسين نسلها ، وكان هنالك أربعة آلاف جواد في اصطبلاته واصطبلات غيره تجري في سباق كان ينظمه هو بنفسه ، وحتّى الاميرات كن يدربن الخيول ويركبنها .

الموسيقى

وكان الوليد الثاني شغوفاً بالخيل وسباقاتها شأن هشام ، غير ان الشغف بالموسيقى بلغ في عهده مبلغ الجنون ، اذ كانت الاموال الهائلة تنفق على مشاهير المغنين والموسيقيين الذين كانوا يُستقدمون الى البلاط من اقصى انحاء البلاد . وأدى تدفق طبقات الجواري على العـــاصمة لمزاولة الرقص والغناء الى افساد المجتمع والى عزل الحرائر بالتدريج .

نظام الحريم

ويقول مؤرخ متزن [1] : « ان نظام الحريم لم يبدأ بالفعل الا في ايام الوليد الثاني الذي احب ان يتشبه بالبيزنطيين فأدخل في قصره نظام الخصيان . ومنذ ذلك الحين اخذت تلك المخلوقات المنكودة تلعب دوراً في البلاطات الشرقية بوصفهم خداماً امناء وحراساً على شرف الحريم . وكان الخصي عادة شائعة عند اليونان . » وقد حمل الجاحظ ، أحد مشاهير المعتزلة ، في القرن الثـــالث للهجرة ، على تلك العادة بأسلوبه

١ ــ فون كرومر

اللاذع ، ولكنها تأصلت في البلاط الاموي بالرغم من سخط فقهاء المسلمين وتعنيفهم .

اقتباس العادات الاجنبية

كذلك اقتبس الامويون عادات وقواعد كانت منتشرة لدى ملوك الفرس القدماء ، ففي حين اقتدى الرجال بالخلفاء في شرب الخمرة اقبلت النساء على احتساء شراب مبرد اسمه الجلاّب ولا يزال يباع حتى يومنا هذا في اسواق دمشق وبيروت . والذي كان يبدو ان نساء الاسرة المالكة اولعن بهذا الشراب ولعاً خاصاً ، حتى ان كأساً كبيرة من البلور والذهب قد عرضت من بعد في خزينة بغداد على انها الكأس التي كانت أم حليم، زوج هشام ، تحتسي شرابها منها .

وكان يزيد الاول ، ثاني الخلفاء الامويين ، يعاقر الخمرة يومياً ، تشبهاً بملوك الفرس الاقدمين ، ولم يكن ليصحو من نشوتها الا نادراً . ويقال ان عبد الملك كان يفرط في شرب الخمرة مرة واحدة في الشهر ، ولكنه كان يتعاطى دواء كان يتعاطاه اباطرة الرومان فيبدو في صباح اليوم التالي نشيطاً دونما اثر للخمرة ودوارها .

اما الوليد الاول فكان يعاقر الخمرة مرة كل يومين ، بينما كان اخوه يزيد الثاني وابن اخيه الوليد الثاني يعاقرانها بصورة دائمة . ومن بين خلفاء الاسرة الاموية ثلاثة لم يعاقروا الخمرة اطلاقاً ، وهم عمر الثاني وهشام ويزيد الثالث .

النساء

ذكرنا فيما سبق ان عادة عزل الحريم التي كانت منتشرة عند الفرس من اقدم الازمنة لم تظهر عند المسلمين الا في عهد الوليد الثاني ، ذلك

ان استهتاره المطلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية ، وجرأته وبروده اللذين كان يدخل بهما إلى البيوت اجبر الناس على اتخاذ الاحتياطات ضد التطفل الخارجي ، وسريعاً ما أصبحت هذه العادة تقليداً مقدساً .

وبرغم هذه الظروف القاسية ظلت المرأة حتى خلافة المتوكل ، عاشر الخلفاء العباسيين ، تنعم بقدر وافر من الحرية ، ذلك ان الشهامة القديمة كانت ما تزال حية عند الرجال ، ولم يكن الترف البيزنطي والفارسي قد قضى بعد على بساطة الصحراء وحريتها ، وكان الآباء ما يزالون يفخرون بأن يلقبوا بأسماء بناتهم الجميلات [1] ، كما كان الرجال يخوضون غمار الحروب وهم يهتفون بأسماء اخواتهم أو حبيباتهم ، وكانت الفتيات العربيات المثقفات يحدثن الرجال دونما حرج أو شعور بالاثم ، وكن يستقبلن الضيوف دونما خجل ، وكن يعرفن قدر انفسهن فيعاملهن من حولهن باحترام وتقدير .

الملابس

لم تتطور ملابس الرجال في ذلك العصر إلا قليلاً عما كانت عليه في الازمنة القديمة ، ولم تكن تختلف ايضاً من حيث النوع والكمية حسب مقدرة الشخص المادية ، بل من حيث التفصيل والشكل حسب مهنته . فملابس الفقيه أو الكاتب كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن ملابس الجندي ، وكانت هناك انواع مختلفة من الملابس لمختلف الاغراض ، فكان ثمة ملابس خاصة بركوب الخيل ، وهي عبارة عن سترة وسروال ضيقين يستعاض بهما عن الملابس الفضفاضة التي تستعمل في الداخل .

وان المرء ليستطيع ان يتصور بسهولة ويسر ذلك المشهد الفرح الخلاب الذي كانت تبرزه دمشق عندما كانت مقراً للخلافة ومركزاً للجيش ومركزاً لتجارة امبراطورية عظمى . كان وجهاء البلاد ورجال الدولة

---

١ ــ كابي سلمى وابي ليلى

يتشحون بحللهم الغالية ويمتطون جيادهم المطهمة ويسرعون الى بلاط الخليفة يحف بهم الأتباع والخدم ، وكان الاعراب الذين لوحت وجوههم شمس الصحراء ، وعلى رؤوسهم العقال والكوفية المخططة باللونين الأحمر والأصفر ، يحدقون بأبصارهم وقد أخذوا بروعة المدينة وجلبتها ؛ وحشود القرويين الشاميين في اثوابهم القرمزية وسراويلهم الفضفاضة ونعالهم الحمراء وعماماتهم البيضاء او الزرقاء يسوقون حميرهم وجمالهم المحملة بغلال الريف ، والهاشميون بملابسهم الارستقراطية وقفاطينهم الطويلة والسيدات تحف بهن وصيفاتهن ؛ كل هذا كان يؤلف صورة حية جذابة من غير شك.

الطعام

وفي هذا الوقت تقريباً بدأ يتردد ذكر المناديل والملاعق . كان المنديل يربط حول العنق او يدس طرفه في القفطان ، كما هي العادة الآن في كثير من اقطار القارة الأوروبية . اما الملاعق فكانت اما خشبية ذات ايد طويلة لتناول الحساء من السلطانيات ، او خزفية تستورد من الصين .

وكان العرب يبدأون نهارهم بتناول طعام مؤلف من الحليب الممزوج بالعسل ، او من الحليب والسكر ، حتى اذا ما أشرقت الشمس تناولوا فطورهم في احدى الغرف الداخلية بحضور جميع افراد الأسرة ؛ وكانت الظهيرة هي الوقت الذي يقدم فيه طعام الغداء في غرفة الاستقبال . اما العشاء فكانوا يتناولونه بعد صلاة المغرب على مائدة تغطى بالقماش الابيض وتصف حولها الكراسي ، فتقدم اولاً كؤوس الحليب الممزوج بالعسل وغيره من انوع الشراب ثم صحاف الشواء . وبعد العشاء يؤدي المضيف وضيوفه صلاة العشاء ثم ينتقلون الى غرفة اخرى ويمضون الامسية بالتحدث والسمر .

وقد ازداد منع اختلاط الجنسين بازدياد النفوذين البيزنطي والفارسي على الحياة الاجتماعية العربية .

الرقيق

من الصعب ان نطلق لقب رقيق على من هم في هـذا الوضع في الإسلام ، ذلك ان الرق عند المسلمين لا يشبه اطلاقاً اي نظام للرق يمارسه اي شعب آخر . فقـد نهى النبي العربي عن استعباد الناس والمتاجرة بهم ، ومنع اقصاء الاطفال عن والديهم ، والاقارب عن أقاربهم ، وأمر بأن « الأرقاء » يجب ان يُطعموا ويكسوا وبألا تسـاء معاملتهم اطلاقـاً ، وبأن يسمح لهم بافتـداء انفسهم والعمـل عـلى تحرير رقابهم . وكان « الأرقاء » في الحقيقة اعضاء في الاسرة ، غير انهم بالرغم من مركزهم المتفوق بالنسبة الى سائر الانظمـة فإن استقدامهم بأعداد كبيرة أثر تأثيراً ضاراً في الحياة الاجتماعية العربية ، اذ انه ساعد على الحط من مقاييس المثل العليا وعلى ارخاء الروابط الاخلاقية . كذلك بدأت تظهر في ذلك الحـين تقريباً نتيجة سيئة اخرى وهي ان العرب المستوطنين في البلاد الأجنبية شرعوا يتزوجون من بنات الشعوب المغلوبة ، وهو أمر كثيراً ما اظهر التاريخ نتائجه .

الآداب

لم يلق الأدب في العصر الاموي من التشجيع ما لاقته الموسيقى والفنون والشعر . وفي عهد عمر الثاني كان القضاة والفقهاء والعلماء موضع التقدير والاعزاز ، إلا ان العقلية الأموية لم تكن في هذا الاتجاه ، ولم يشتهر منهم طوال حكمهم سوى عالم واحد هو خالد بن يزيد الاول ، وكان عالماً في الطب والكيمياء ، وله تآليف في هـذه العلوم ، وتوفي سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م .)

الفرق المذهبية والفلسفية

ولم يظهر في العهد الاموي مذهب معين كما ظهر في العهد العباسي ،

كما لم تكن قد ظهرت بعد هيئة من العلماء الذين يتمكنون من اجبار أولي الأمر على التقيد بفتاواهم في سبيل مصالحهم الشخصية ، فضلاً عن ان الخلافات كانت في معظمها ذات طابع شبه سياسي او عائلي ، وكانت الامامة ، او الزعامة الروحية في الإسلام ، هي مدار الخلاف الرئيسي بين الفرق المختلفة . فالأموي كان يؤكد ، ولو انه لم يكن يؤمن ، بأن الامامة كانت وقفاً على اسرته ، بينما كان احفاد النبي يرون انها من حقهم وحدهم ، وكان العباسيون يدعون بها لفرعهم ، في حين ان الخوارج كانوا يقولون بأن انتخاب الامام من حق الامة كلها دون مراعاة للجنس او القبيلة او الاسرة . وكان الامويون يتمسكون بمبدأ أساسي هو كره عليّ وافراد اسرته .

ولم تتخذ الآراء الدينية اتجاهاً فلسفياً الا عند الفاطميين ، ذلك ان انتشار العلم في ذلك الحين اطلق روح البحث والاستقصاء ، واصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل مجتمع من المجتمعات ، والجدير بالذكر انّ زعامة تلك الحركة الفكرية انما وجدت في تلك المدرسة التي ازدهرت في المدينة ، والتي أسسها حفيد علي بن ابي طالب المسمّى بالامام جعفر والملقب بالصادق ، وكان رجلاً بحاثة ومفكراً كبيراً جيد الألمام بعلوم ذلك العصر ، ويعتبر اول من أسس المدارس الفلسفية الرئيسية في الاسلام .

ولم يكن يحضر محاضراته اولئك الذين أسسوا فيما بعد المذاهب الفقهية فحسب[1] ، بل كان يحضرها الفلاسفة وطلاب الفلسفة من الأنحاء القصية. وكان الامام «حسن البصري»[2] ، مؤسس المدرسة الفلسفية في مدينة البصرة، وواصل بن عطاء[3] ، مؤسس مذهب المعتزلة ، من تلاميذه الذين

١ ـ كابي لحنيفة ومالك .
٢ ـ توفي في رجب سنة ١١٠ هـ. (تشرين الاول « اكتوبر » سنة ٧٢٨ م) .
٣ ـ ولد سنة ٨٠ هـ. (٦٩٩ ـ ٧٠٠ م.) وتوفي سنة ١٣١ هـ. (٧٤٨ ـ ٧٤٩ م.)

نهلوا من معين علمه الفياض. وقد عُرف واصل والامام العلوي بدعوتهما الى حرية ارادة الانسان .

كذلك كان يزيد الثالث والمأمون من المعتزلة ، كما كان منهم ايضاً ابراهيم اخو يزيد الثالث . وفي دمشق ذهب ثلاثة من علمائها ، وهم : معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وابو يونس الاسواري ، الى ابعد من واصل في التأكيد على حرية ارادة الانسان المطلقة ، بينما كان جهم ابن صفوان يقول بالقدر .

الفصل الخامس عشر

العباسيون
١٣٢ – ١٥٨ هـ ، ٧٤٩ – م
السفاح والمنصور

حكم السفاح – وفاته – تولية المنصور – اخلاقه – ثورة عبدالله بن علي – مقتل ابـي مسلم – تشييد بغداد – تظاهرة محمد وابراهيم ابني الحسين – انهزامهما ومقتلهما – غزو اسبانية – فشل الغزو – ثورة الخزر – اغارة الروم – وفاة المنصور .

تغيرت معالم آسية الغربية بقيام الدولة العباسية ، فانتقلت قاعدة الحكم من الشام الى العراق ، وفقد أهل الشام ذلك النفوذ الذي كانوا قـد احتكروه حتى ذلك الحين ، وتحول مجرى التقدم من الغرب الى الشرق إلا ان وحدة الخلافة ذهبت الى الأبد ، ذلك ان اسبانية ، منذ البداءة ، لم تعترف بسلطان العباسيين ، وتمكن عبد الرحمن الأموي من اخضاعها بسهولة ويسر ، وأسس فيها دولة ضارعت دولة العباسيين قوة ومجداً .

ولقد مارس العباسيون الأولون سلطاناً عظيماً على افريقية العربية ، ولكن هذا السلطان ما لبث ان تلاشى مع الزمن الى سلطة اسمية ، إلا ان تقلص الأمبراطورية لم يخل من فوائد ، ذلك انه ساعد مؤسسي الخلافة العباسية على توطيد حكمهم ، وتنظيم موارده ، وعلى النهوض بالشعب مادياً وعقلياً .

وكان الخلفاء التسعة الأولون ، باستثناء واحد منهم ، رجالاً عرفوا بالحنكة الفائقة ، وسياسين من طراز رفيع ، واشتهروا بحبهم للشعب وتفانيهم في سبيل خيره ، وكانوا جميعاً يجمعون الى المزايا الحربية معلومات ومعارف عقلية راقية . وبالرغم من ان عهود بعضهم قد لطخت باعمال الظلم والجور ، إلا ان ذلك كان من مميزات ذلك العصر في جميع انحاء العالم المعروف وقتئذ ، ونتيجة للسياسة السلالية .

ويقول مؤرخ فرنسي مشهور : « ان حكم العباسين الأولين كان أعظم عهود العرب في الشرق ، اذ ان عصر الغزو كان قد انقضى ، وبدأ عصر المدنية . »

* * *

أشرنا فيما سبق إلى كيفية مبايعة ابي العباس بالخلافة ، وكيف انه اكتسب لقب السفاح لتنكيله بأعدائه وكل من اشتبه بإخلاصه ؛ في تلك الأيام لم تكن لحياة الانسان اية قيمة تذكر ، سواء في الغرب أو الشرق كما انه لم يكن للدين سلطان كبير على كبح جماح الوحشية الطبيعية في الانسان . ومع ذلك فان السفاح ، بالرغم من كل قسوته وظلمه ، كان يعتبر حاكماً كريماً مهتماً بواجباته ، بعيداً عن الانغماس في الملذات الشخصية ، فخلافاً للعادة التي كانت متبعة في عصره وبين شعبه كان للسفاح زوج واحدة هي أم سلمى ، وكان يحبها حباً شديداً ، وكان لها نفوذ عظيم عليه ، وبالرغم من نفوذها وسلطانها عليه لم تكن لتستطيع حتى هي نفسها ، ان تهدىء من ثورته على الأمويين احياناً .

ولقد آتت هذه المعاملة السيئة ثمارها ، ذلك انها احدثت تحولاً في شعور الناس لمصلحة الأمويين في انحاء مختلفة من البلاد ، فثار اعوانهم على السفاح في دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والعراق ، وكانت العادة في مثل هذه المناسبات ان يحلق الرجال لحاهم ويعلنوا عصيانهم على بني العباس ، بيد ان العباسيين كانوا يعالجون تلك الثورات بالطرق السياسية الى درجة لم تعرف من قبل ، وكان العصاة يلقون سلاحهم بشروط مؤاتية .

يزيد بن هبيرة

وكان يزيد بن هبيرة ، عامل مروان على العراق ، لا يزال قابضاً على واسط ؛ إلا ان الحسن بن قحطبة وأبا جعفر، اخا السفاح وخليفته، حاصراه طيلة أحد عشر شهراً أطلقا فيها السفن الملتهبة في النهر بغية اشعال النار في المدينة ، ولكن المدافعين امسكوا بالسفن وقلبوها على أعقابها بالكلابات الحديدية . واذ وجد يزيد ان الدولة الاموية قد انهارت وأنه لا أمل بعودة سلطانها كتب الى « عبد الله بن الحسن » أحد احفاد علي يرغبه في الدعوة لنفسه وبذلك يتجمع حوله خصوم بني العباس . ولما لم يصله جواب ويئس من مواصلة المقاومة ، خصوصاً وان اليمانيين في واسط كانوا قد انحازوا الى السفاح ، استسلم الى أبي جعفر بعد أن أمنه على نفسه وعائلته واتباعه ، وكل ما كانوا يملكون . ولقد كان في نية أبي جعفر أن يفي له بالعهد،إلا ان السفاح كان خاضعاً لتأثير أبي مسلم الذي كان يرى في يزيد منافساً له لما كان له من كثرة الاتباع وسعة النفوذ بين عشيرته ، ولذا نصح السفاح بان يوعز بقتله ، فانصاع السفاح وكتب بذلك الى أخيه ، بيد ان أبا جعفر رفض المرة تلو الاخرى ان ينفذ الأمر الظالم ، ولكنه اضطر آخر الأمر الى الاذعان وارسل قوة الى منزل يزيد ففتك به رجالها مع اكبر ابنائه وعدد من اتباعه .

وهكذا أصبح السفاح الآن سيد آسية ومصر دون منـــازع ، كما قدمت اليه افريقية العربية طاعتها . وقد حرص السفاح في توزيع الأمارات على ان يعهد بها إما الى افراد من اسرته او الى رجال امتازوا بخدماتهم الجليلة للقضية العباسية ، فاستعمل ابا جعفر على العراق واذربيجان وأرمينية ، وعمه داوود بن علي على الحجاز واليمن واليامة ، وعبد الله بن علي على البصرة وملحقاتها [1] وأبا مسلم على خراسان ؛ وابا عون عـــلى مصر . كذلك عين خالداً بن برمك وزيراً لبيت المال ، وجعـــل أبا سلمة ، الذي كانت له اليد الطولى في تولية السفاح الخلافة ، وزيراً له ومستشاراً خاصاً . ولقد أثار نفوذ أبـي سلمة حسد ابـي مسلم الخراساني ، فدبر مكيدة للقضاء عليه ، وفي ذات ليلة ، بينما كان ابو سلمة عائـــداً الى منزله من قصر السفاح ، هجم عليه رجال ابو مسلم وفتكوا به ثم عزوا قتله الى الخوارج .

غزو الجيش البيزنطي

وبالرغم من التدابير التي اتخذها الخليفة الجديد فان البلاد كانت ما تزال في اضطراب ، ولذا اغتنم البيزنطيون الفرصة وهاجموا الحدود الإسلامية في الشال وقتلوا السكان الآمنين وأسروهم وأمعنوا في المدن تدميراً وتخريباً .

وفاة السفاح (ذو الحجة ١٣٦ هـ ؛ حزيران ٧٥٤ م)

وفي سنة ١٣٦ هـ توفي السفاح في الأنبار ، ولم يعقب غير ابن اسمه احمد وبنت اسمها ريطة تزوجت فيما بعد من ابن عمها محمد المهدي [2] . وقبل وفاته أوصى بالخلافة من بعده لأخيه جعفر ، ثم لابن أخيه عيسى .

---

١ ــ البحرين والاحساء وعمان والاهواز الخ .

٢ ــ ابن ابي جعفر ، وقد تولى الخلافة فيما بعد .

خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ه ؛ ٧٥٤ م)

وكان ابو جعفر وقتئذ يؤدي فريضة الحج في مكة ، ولذلك فان عمه عيسى بن علي أخذ له البيعة طبقاً لوصية السفاح . ومع أن السفاح كان أول الخلفاء العباسيين ، فان المنصور يجب ان يعتبر مؤسس دولتهم ، فإليه يعزى تمكن العباسيين من الاحتفاظ بالحكم كل تلك المدة الطويلة ، واليه يعود الفضل في ذلك السلطان العظيم الذي مارسوه ، والنفوذ الذي تمتعوا به حتى بعد زوال سلطتهم الزمنية . واذ كان المنصور عالماً بالطبيعة الانسانية فقد وضع ونفذ طوال حكمه الطويل ، وبصورة تدريجيـــة ، تلك المبادىء التي ساعدت على انشاء هيئة دينية قوية متفانية في سبيـــل الاسرة الحاكمة الجديدة .

وباعتلاء المنصور عرش الخلافة بدأت تلك السلسلة من الخلفاء الذين لمع نجمهم في آسيا ، والذين بذلوا قصارى جهدهم وطاقتهم في سبيــل تحسين حالة الامة وزيادة رفاهيتها ، فاستحقـــوا حب الشعب ومودته . لقد صرفوا هممهم الى بناء المدن الجديدة ، وشق الطرق والجداول والأنهار ، وانشاء المؤسسات الثقافية والخيرية ، وتشجيع الآداب وحمايتها ، وتطوير التجارة وأنواع الحرف . يقول المؤرخ سديو : « ان العباسيين باقلاعهم عن اعمال الحرب ، قد سموا على روح عصرهم ، اذ بدأوا يدركون فوائد الحضارة ، واخذوا في الاستجابة الى صوت الشعب فأعطوه نظاماً ادارياً ثابتاً ، ووطدوا العدل ، ونشروا العلم وربطوا بين مختلف إمارات الامبراطورية بروابط تجارية وثيقة . »

اخلاق أبي جعفر

كانت اخلاق أبي جعفر مزيجـــاً غريباً من الخير والشر ، فهو لا

يشق له غبار في السياسة والادارة ، كما لا يمكن القول بأنه كان يقل عن أي حاكم آخر حكمة وبعد نظر واهتماماً بأمور الشعب ورفاهيته ؛ وكان براً بأبنائه ، ولكنه كان من ناحية أخرى خدّاعاً محباً لسفك الدماء. كانت قسوة السفاح تعود الى حقده وحبه للانتقام ، في حين أن خلفه أبا جعفر لم يكن يريق الدماء إلا بعد روية وتفكير ، ولم يكن يبقي على كل من يعتبره خطراً على نفسه وعلى أسرته ، وكانت معاملته لأولاد علي بن أبي طالب أسوأ صفحة في تاريخ بني العباس . يقول السيوطي: « كان المنصور أول من أحدث ثغرة الخلاف بين العباسين والعلويين بعد أن كانوا من قبل كتلة واحدة . »

ثورة عبد الله بن علي

ما إن علم ابو جعفر بوفاة السفاح حتى عاد مسرعاً الى الكوفة وتولى زمام الحكم ولقب بالمنصور . ولم يكد يتبوأ كرسي الخلافة حتى ثار عليه عمه عبد الله بن علي ، وكان عاملا على الشام في ايام السفاح ، فأمر المنصور أبا مسلم بسحق ثورة عمه فأنزل به هزيمة منكرة بالقرب من نصيبين ، وهرب عبد الله بن علي مع أسرته الى أخيه سليمان ابن علي في البصرة حيث بقي مختفياً الى ان عزل سليمان من منصبه ، وعندئذ وقع عبد الله مع ابنيه الكبيرين في قبضة المنصور الذي أمر بحبسهم في قلعة بالقرب من الهاشمية [1] ؛ غير ان بطل موقعة الزاب ما لبث ان اعتُبر مصدر خطر على الخلافة بحيث لا يجوز ابقاؤه على مقربة من العاصمة ، ولذلك بنيت له دار جعل اساسها على الملح ، ثم نقل اليها بالاحترام والتقدير ، فلما هطلت الامطار تقوضت الاساسات وتهدمت الدار على السجين التعس واهله فقتلوا لساعتهم — وكان مصيراً استحقه عبد الله نظراً للمعاملة الوحشية التي عامل بها الامويين !

---

١ — مدينة بناها السفاح غير بعيد من الكوفة .

وبعد موقعة نصيبين رغب ابو مسلم في العودة الى مقر حكومته في خراسان ، حيث كان له من السطوة والنفوذ مقدار عظيم ، وحيث كان قد أصبح في الحق مصدر خطر على العباسيين . وكان له في خراسان اتباعٌ كثيرون ، وكانت هناك طوائف تؤمن بنبوته . كان يستطيع ، باشارة منه ، ان يحطم دولة العباسيين ، بمثل ما استطاع ان يشيدها . كذلك أصبح موقفه من الخليفة فوق ما يستطيع هذا احتماله ؛ ففي نصيبين ، عندما وفد عليه رسول الخليفة ليحصي الغنائم ، ثارت ثائرته وتفوه بحق الخليفة بكلمات غير لائقة ، ولذلك أصبح همّ المنصور الأول ان يزيل من طريقه هذا الرجل الخطر ، ولهذه الغاية كان من الضروري أن لا يُسمح له بالعودة الى خراسان ، معقل أصحابه وأتباعه المخلصين ، وعرض عليه المنصور ولاية الشام مع جميع ملحقاتها ، ولكن أبا مسلم كان ادهى من أن يؤخذ بتلك الخدعة ، فمضى صوب خراسان على رأس الجيش الذي كان قد سحق به جيش عبد الله بن علي في نصيبين ؛ وكان من المستحيل على المنصور أن يعترض سبيل ابي مسلم ، ولذلك التجأ الى سلاحه المعهود ، فأغدق على ابي مسلم الوعود الكثيرة المغرية حتى اطمأن ابو مسلم وشخصَ الى العاصمة لزيارة البلاط حيث استقبل بالاحترام والحفاوة ، غير ان رجاله جردوا ذات يوم من سلاحهم ، وقتل هو نفسه بالقرب من الخليفة .

وبعد ان قتل المنصور ابا مسلم شعر بأنه هو الحاكم الفعلي ، وأمن على نفسه ، وشرع يوجه التفاته الى اختيار موقع يشيد عليه عاصمة ملكه . والواقع ان دمشق لم تكن تفتقر إلى تلك الروعة التي تجتذب اليها العباسيين فحسب ، بل كانت ايضاً موقعاً خطراً ، في حين أن تقلب أهواء اهل البصرة والكوفة جعل تينك المدينتين غير لائقتين بأن تكونا مقراً للحكومة ، وبعد بحث طويل قر رأي المنصور على الموقع الذي تقوم عليه بغداد اليوم .

والمقول أن بغداد كانت مصيفاً لكسرى انو شروان ملك الفرس .
وقد استرعى جمال موقعها انتباه المنصور فشيد فوقهـا مدينة الخلفـاء
العباسيين .

بغداد

اختط المنصور بغداد على ضفة الفرات الغربية ، غير انه ما لبثت
أن ظهرت بغداد جديدة على الضفة الشرقية ، شيدها ولي العهد فسميت
« المهدية » باسمه ، وكانت تضاهي بجمالها وعظمتها مدينة المنصورية .
وكانت بغداد في ايام عظمتها ومجدها ـ قبل أن يغير عليها جنكيزخان ،
ويدمرها تدميراً ـ عاصمةً لائقة بعظمة الاسلام ، ذات شكل مستدير ،
تحيط بها اسوار ضخمة ، وينتصب قصر الخلافة في وسطهـا ، والى
جانبه المسجد الجامع ، غير ان بناءها لم يكتمل إلا في عام ١٥٠ هـ ،
وكانت احداث كثيرة قد وقعت في ابان تشييدها وانتهت كلها لصالح
المنصور ، ذلك أن مقتل ابي مسلم أثار أتباعه في خراسان فأعلنـوا
العصيان ، ولكنهم هزموا وتشتت شملهم ؛ وأضرم الراوندية ، الذين
كانوا يعتقدون بحلول الإله في الخلفاء العباسيين ، نار الثورة في الهاشمية
وهددوا بالفعل حياة المنصور لولا انه قمع حركتهم بقسوة وطهر المدينة
من تلك العناصر الجاهلة الغارقة في الخرافات . وتفرغ المنصور بعـد
ذلك إلى مقاتلة البيزنطيين واجبر امبراطور القسطنطينية على طلب الصلح
فعُقدت بينه وبين المنصور هدنة لمدة سبع سنين ، وبعـد ذلك صرف
المنصور عنايته إلى ترميم الحصون التي كان المغيرون المسيحيون قد
دمروها ، وإلى تعمير المدن المخربة المهجورة ، وتعزيز الحاميات الدفاعية
عند الحدود . ولهذه الغاية قام هو نفسه بجولة في المناطق ، وأرسل
الحسن بن قحطبة الى كبدوكيا على رأس جيش كبير ، وأمر بتشييد
ملطية والمصيصة وعدد آخر من المدن من جديد ، ثم انشأ فيها الحاميات

القوية ، كما ابتنى الحصون الجديدة في كلوديا وبعض المراكز الستراتيجية الاخرى صداً لهجمات البيزنطيين .

ضم طبرستان (١٤٢ ﻫ)

وفي جبال طبرستان ، الى الجنوب الغربي من بحر قزوين ، كان الأهالي ما يزالون على دينهم القديم ، وكان يحكمهم رؤساء منهم تحت سلطة الخلافة الاسمية . وقد ثار هؤلاء فجأة على العرب المستوطنين وفتكوا بعدد منهم ، مما اضطر الخليفة الى انفاذ جيش هزمهم وفتك ببعض رؤسائهم ونفى البعض الآخر ، بذلك ضمت طبرستان وكيلان نهائياً الى الامبراطورية العباسية . ولم يكد يتم هذا النصر للخليفة حتى اغار أهالي الديلم [١] على الاراضي العربية ، ولكن جيوش الخليفة صدتهم على اعقابهم بعد معركة حامية الوطيس ، ومن ثم شُيدت مراكز عسكرية قوية على الحدود منعاً لأي غزو مماثل من جانبهم . وفي سنة ١٤٣ اجرى الخليفة تنقلات بين العمال والأمراء ، وأوجد نظاماً جديداً يقضي باستخدام المكاتبين بغية اطلاع الحكومة المركزية على كل ما يجري في مختلف الامارات ، وانشأ دائرة واسعة من المخبرين والجواسيس لا تقل شأناً عن مثيلاتها في اية حكومة عصرية ، ومع ان تلك الدائرة كانت تساعد الخليفة على الوقوف على المؤامرات التي تحاك ضده ، فإنها بالتأكيد لم تساعد على نشر الشعور بالأمن والطمأنينة بين رعيته .

نأتي الآن إلى صفحة في تاريخ هذا الخليفة تعكس لنا اقلّ قدرٍ من طيبة قلبه ورأفته . ولكي يتسنى لنا فهم ما تعاقب من الاحداث يتحتم علينا أن نلقي الآن نظرة على المركز الذي كان العلويون يحتلونه وقتئذ .

---

١ ــ الاراضي الجبلية في شمالي كيلان غربي بحر قزوين ، وسنقرأ الكثير عن اهل الديلم لدى وصولنا الى الخلفاء العباسيين المتأخرين .

كان بنو الحسن ، احفاد الخليفة الخامس [1] ، يحيون حتى ذلك الحين حياة العزلة ، فلم يسهموا في الشؤون السياسية . وبالرغم مما اصابهم من سوء المعاملة فانهم لم يحاولوا قط ان يثوروا بالسلطة القائمة . كذلك عاش أحفاد علي الثاني ، ابن الحسين ، حياة اكثر عزلة ، منصرفين الى الدراسات الفلسفية والأدبية ، مبتعدين عن الشغب الذي كان بنو عمومتهم العباسيون منهمكين فيه . وكان زيد وابنه قد دفعتها القسوة والتنكيل إلى انتضاء السلاح في وجه هشام والوليد الثاني ، فسقطا صريعين في ميدان القتال ؛ إلا أن بني الحسن وبني الحسين ظلوا يعيشون في المدينة على دخلهم الضئيل من ممتلكاتهم التي تركت لهم ، وعلى ما كانوا يصيبونه من التجارة وأجور التدريس . غير انهم ، بالرغم من فقرهم ورقه حالهم ، نسبياً ، كانوا يتمتعون باحترام واعتبار كبيرين بين مواطنيهم ، وكان يعيش معهم في المدينة احفاد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأولين واحفاد الزبير وكبار رجال الصحابة ، وكانوا جميعهم مرتبطين بروابط مختلفة مع العلويين . وقد أثار النفوذ الذي كان هؤلاء يتمتعون به ، والاعتبار الذي كانوا يلاقونه ، شكوك المنصور وريبته ؛ وأدت به السهولة التي تم فيها القضاء على دولة مروان الى أن يخشى على دولته من مصير مماثل ، ولذلك التجأ الى مختلف اساليب الجاسوسية لكي يكتشف ما اذا كانت هناك اية مؤامرة تحاك ضده ، فأرسل الرسل وأمرهم بالاختلاط بالعلويين واكتساب ثقتهم وتشجيعهم على الافضاء بمكنونات صدورهم لكي تثبت عليهم تهمة التآمر من بعد . ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد لاضطهاد العلويين في هذا العهد ، فعندما شرعت الدولة الأموية في التفكك والانهيار اهتم آل البيت بطبيعة الحال وعقدوا اجتماعاً في المدينة حضره معظم افراد البيت الهاشمي والمنصور نفسه [2] ،

---

١ ـ الحسن الاول ، وكان متشيعو بيته يلقبونه بالمجتبى .

٢ ـ لم يكن الامام جعفر الصادق حاضرا هذا الاجتماع .

وفي هذا الاجتماع وافق الجميع على مبايعة محمد [1] بالرغم من وجود ابيه في قيد الحياة ، وكان يلقب بالنفس الزكية ، نظراً لنبل اخلاقه وطهارتهـا ، ولسمو تفكيره وفضائله ، وكان من بين الذين بايعوه المنصور نفسه .

إلا اننا رأينا كيف ان الخلافة آلت في النهاية الى بني العباس . وعندما اعتلى المنصور عرش الخلافة عاودته ذكرى تلك البيعة الخالدة فأظلمت حياته وعمّقت شكوكه ، وسمّمَ جواسيسه أفكاره باتهاماتهم وافتراءاتهم الباطلة التي كانوا يلصقونها بابناء الحسن ، فحاول ان يلقي القبض على محمد وأخيه ابراهيم ، ولكنهما لاذا بالفرار ، ثم قبض على كبار أفراد الاسرة ، بما فيهم ذلك الأب الشيخ ، عبد الله ، ورئيس اسرة الخليفة عثمان الملقب بمحمد العثماني [2] ، وأرسلهم جميعـاً مقيدين بالسلاسل الى الكوفة حيث سجنهم في قصر هبيرة . واذ كان محمد العثماني ينعم بمحبة أهل الشام واحترامهم فقد اعتبره الخليفة خطراً على العرش العباسي ، ولذلك أمر بجلده ، ثم قتله . أما الآخرون فقد لقوا معاملة اتسمت بالقسوة والشدة الى درجة جعلتهم يصرحون بأنهم كانوا أحسن حالاً حتى في زمن الامويين . ثم راح الخليفة يطارد محمـداً وابراهيم ويبث عليهما عيونه وارصاده ، حتى يئس محمد فأرسل أخاه ابراهيم يستثير أهل الاهواز والبصرة ، بينما ظهر هو نفسه في المدينة . وقد جرى الاتفاق على اعلان خلع المنصور في البصرة والمدينة في آن واحد ، ولو نجحت هذه الخطة اذن لتقوضت على الأرجح دعائم الحكم العباسي . إلا أن محمداً اضطر الى الظهور قبل ان يتم أخوه استعداداته ، وهكذا تمكن المنصور من مهاجمتها بالتتـابع . وقد استطاع محمد في بادىء الامر أن يكتسح كل شيء أمامه ، فقبض على عامل المنصور في

---

١ - محمد بن عبدالله بن الحسن الثاني (المثنى) ابن الحسن الاول ابن علي .
٢ - هو محمد بن عبدالله بن عمر بن عثمان بن عفان .

المدينة وزج به في السجن ، وتمكن في خلال بضعة ايام من أن ينشر سلطانه على جميع انحاء الحجاز واليمن ، فبايعه أهلها بالخلافة . وافتى الامام ابو حنيفة والامام مالك ، مؤسسا المذهبين الفقهيين الشهيرين ، بصحة دعوته . واذ وجد المنصور أن تلك الحركة كانت أشد خطراً مما توقع فقد التجأ إلى مـــا اشتهر به من خداع ومواربة ، وبعث بكتاب الى النفس الزكية يعده فيه بالأمان على نفسه وولده واخوته ومن بايعه وتابعه ، وبانزاله حيث شاء من البلاد ، ومنحه مبلغاً كبيراً من المال . فكتب اليه محمد يعده إن دخل هو في بيعته أن يؤمنه ويصفح عنه لأن الخلافة كانت من حقه ، ثم ختم رسالته بقوله : « أي الأمانـــات عرضت عليّ ، أأمان ابن هبيرة ؟ ام أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان ابي مسلم ؟ » فكتب اليه ابو جعفر كتاباً فيه كثير من المهاترة ، وأتى فيه على ذكر المبادىء التي قامت عليها الدولة العباسية ، متجاهلاً انه بايعه في المدينة ، ومؤكداً انه لما كان النبي لم يعقب ذكراً فان أبناء بنته لا يحق لهم أن يرثوه ، وليس من عمومته أحد حي غير العباس ، ولذا فانه هو وارثه الوحيد ، دون غيره .

وما كاد المنصور يبعث بهذا الكتاب حتى أرسل عيسى ابن أخيه على رأس جيش كبير لسحق النفس الزكية ، وقبيل المعركة خيّر محمد أتباعه بين تركه ومؤازرته ، وعندئذ تفرق معظمهم ، اذ كانوا يخشون على أنفسهم وعائلاتهم ، ولم يبق معه سوى ثلاثمئة رجل يواجه بهم جيش المنصور . ونشبت بين الفريقين معركة هائلة انتهت بمقتل محمد واتباعه جميعاً ، فدفنوا في مقبرة الشهداء بالقرب من المدينة .

اما ابراهيم فقد فسدت اجراءاته بسبب ثورة اخيه المبكرة ، ومع ذلك فقـــد تمكن من حشد قوات كبيرة تمكن بها من إلحـــاق الهزيمة تكراراً بجيش المنصور الى ان اصبح مركز العباسيين على جانب عظيم من الخطر بحيث صمم الخليفة على الفرار من الكوفة لولا انه اوفد في

اللحظة الاخيرة جيشاً آخر بقيادة عيسى لمقاتلة ابراهيم ، فسار حتى وصل الى موقع على ضفة الفرات جرت فيه معركة انتهت بانكسار جيش الخليفة ، ولكن هنا ايضاً تغلبت انسانية العلويين فخسروا قضيتهم ، ذالك ان ابراهيم ، عندما رأى الى جيش عدوه يلوذ بالفرار أمر رجاله بالتوقف عن مطاردته ، وما إن رأى العباسيون ذلك حتى كروا راجعين وانضم اليهم الكثيرون ممن القوا بأنفسهم خشية الاصابة . وفي المعركة التي تلت اصيب ابراهيم بسهم جندله الى الارض صريعاً وتفرق رجاله .

وشرع المنصور يصب الآن جام نقمته على المدينة والبصرة فقبض على الكثيرين من اعيان البصرة الذين آزروا ابراهيم وفتك بهم وهدم مساكنهم وخرب بساتينهم ، كما صادر املاك ابناء الحسن وابناء الحسين في المدينة ، والغى جميع الامتيازات التي كان يتمتع بها أهل المدينة ، واوقف المؤن التي كانت تردهم من مصر ، بل انه ذهب الى ابعد من ذلك فهدد بالموت الامام جعفر الصادق لمطالبته برد املاكه اليه ، وحبس الامام ابا حنيفة ، وامر بجلد الامام مالك دون شفقة او رحمة ، كما امر بقتل بعض مساجين قصر هبيرة ، بينما قُتل آخرون مسمومين بأبخرة غرف القصر الفاسدة . وعندما تلقى المنصور رأس ابراهيم ارسله الى ابيه ليزيد من لوعته في سجنه ، وعندئذ التفت الأب الى الرسول قائلاً : « قل لصاحبك : قد مضى من يومنا ايام والملتقى القيامة . » ويقول الرسول : « ما رأيت المنصور قط اشد انكساراً منه في الوقت الذي بلغته هذه الرسالة . »

واعترفت افريقية وغربي آسية الآن بسلطة المنصور ، وبالرغم من ان الاندلس لم تكن خاضعة لسلطانه الزمني فان الخطبة كانت تقرأ باسمه حتى في تلك البلاد بوصفه حامي حمى الحرمين . وفي سنة ١٤٦ هـ ولى ابنه جعفر على الموصل ، وعين له مساعداً هو « حرب بن عبد الله » ، وكان جندياً باسلاً ، وقد ابتنى قصراً فخماً بجوار هذه المدينة أعده

لسكن جعفر وفيه رزق بابنته زبيدة [١] .

وفي تلك الاثناء تقريباً قام امير افريقية ، ابن مغيث اليحصبي ، بمحاولة لغزو الاندلس ، ولكن عبد الرحمن الاموي هزم الحملة هزيمة شديدة ثم بعث برأس القائد العباسي الى مكة حيث القيت سراً امام الخليفة المنصور الذي اتفق وجوده فيها عندئذ ، فلم يعرف احد ملقيها. وهلع المنصور هلعاً شديداً وحمد الله على ان جعل بينه وبين « صقر قريش » كما كان يسمي عبد الرحمن ، بحراً واسعاً .

غارة الخزر

وعندما شق الخزر عصا الطاعة واغاروا على بلاد الكرج صدتهم جيوش الخليفة واتخذت جميع الاحتياطات للحيلولة دون وقوع أمثال هذه الغارات في المستقبل . وبما ان الاكراد كانوا قد شرعوا في الخروج عن طاعة الخليفة فقد عين وزير بيت المال خالداً بن برمك عاملاً على الجزيرة فتمكن بحزمه وعدله من ان يعيـد الأمن الى نصابه في تلك البلاد .

مبايعة محمد المهدي بولاية العهد

وعندئذ فكر المنصور باكراه ابن اخيه عيسى على التنازل عن ولاية العهد ، فاستعمل لهذه الغـاية أساليب اجبرت عيسى على الرضوخ ، وعندئذ سارع المنصور الى اسناد ولاية العهد الى ابنه فبايعه الناس ولقّبه المهدي .

---

١ ــ زوجة هرون الرشيد واسمها الحقيقي « امة العزيز » ، وقد سماها جدها المنصور بهذا الاسم ، وهو مصغر زبدة ، تحببا ٠

وفاة الامام جعفر الصادق (١٤٨ ﻫ ، ٧٦٥ م)

وفي سنة ١٤٨ ﻫ توفي الامام جعفر الصادق في المدينة ولكن المدرسة العلمية التي كان قد أسسها لم تغلق بوفاته لحسن الحظ ، بل ظلت تزدهر برئاسة ابنه وخلفه موسى الملقب بالكاظم ؛ الا ان انقساماً آخر ذر قرنه الآن بين الشيعة حول منصب الامامة ، اذ ان الامام جعفر كان قد اوصى لابنه الاكبر اسمعيل الذي توفي في حياة ابيه ، فأوصى عندئذ لابنه موسى ، ولكن بعضاً من اتباعه رفضوا الاعتراف بإمامته وقالوا بإمامة حبيب بن اسمعيل . وهكذا ظهرت الطائفة الاسمعيلية التي اسست دولة الفاطميين في مصر .

وفي السنة التالية نشبت ثورة عنيفة في خراسان بقيادة احد زعمائها المشهورين . ويسمى « ستادسيس » ، ولكن ثورته ما لبثت ان أخمدت وارسيل هو مخفوراً مع عائلته الى بغداد حيث لقوا معاملة حسنة .

افريقية

أما افريقية فقد كانت مصدر قلق متواصل للخليفة المنصور وكان عاملها « غلاب » ، من قبيلة تميم ، قد عُين في سنة ١٤٨ ﻫ وحكم البلاد بنجاح قرابة سنتين ، ولكنه قتل في معركة بينه وبين الخوارج بالقرب من تونس ، فخلفه عمر بن حفص فحكم البلاد بقوة وحزم ثلاث سنوات ثار الخوارج على اثرها مرة اخرى وحاصروا القيروان وقتل عمر اثناء الحصار فسقطت المدينة في ايدي الثوار . ولما علم المنصور بالنبأ ثارت ثائرته واشتد سخطه وارسل جيشاً آخر بقيادة عامل جديد اسمه يزيد المهلبي [١] ، وكان رجلاً ذا همة عالية ومقدرة ادارية بارعة ، فهزم الخوارج وفتك بزعيمهم وطارد فلولهم ولم تمض بضعة أشهر حتى

---

١ ــ هو يزيد بن ابي صفرة ، ولقب بالمهلبي نسبة الى عمه المهلب .

عاد الأمن الى تلك الربوع ، وظل يزيد قابضاً على زمام الحكم في افريقية الى ان توفي سنة ١٧٠ هـ فخلفه ابنه داود .

وفي سنة ١٥٥ هـ ، بنى المنصور مدينة « الرفيقة » ، واحاط الكوفة والبصرة بالاسوار والخنادق ، وأمر باجراء احصاء لجميع السكان .

وعندما أخل امبراطور الروم بشروط الصلح وغزا الاراضي الاسلامية مُني بهزيمة منكرة اعقبتها معاهدة جديدة تعهد الامبراطور بموجبها بدفع الجزية . وفي سنة ١٥٦ هـ أجرى المنصور تنقلات جديدة بين الامراء والعمال ، وعين بالفعل احد ابناء الحسين عاملاً على المدينة .

وكانت الجهود التي بذلها والهمة التي عمل بها في سبيل بناء امبراطوريته قد استنفدت قواه الجسدية وجعلته يشعر باقتراب اجله ، ولذا ارسل في طلب ولي عهده وأسدى اليه نصائحه الاخيرة التي يجب ان يسوس الامبراطورية على اساسها .

وفاة المنصور (٦ ذي الحجة ١٥٨ هـ ، تشرين الأول « اوكتوبر » ٧٧٥ م)

وبعد أن ودع ابنه وداعاً مؤثراً غادر المنصور بغداد الى مكة وفي نيته ان يقضي ما تبقى من ايامه في الارض المقدسة ، ولكنه توفي في الطريق في بئر ميمونة على بعد بضع ساعات من مكة فاحتفروا له مئة قبر ودفنوه في واحد منها خشية أن يعرف الناس قبره الحقيقي .

وقد حكم المنصور قرابة اثنتين وعشرين سنة ، وكان نحيف الجسم ، طويل القامة ، ابيض البشرة ، قدوة في سلوكه وحياته ، لم يأت عملاً يشين بلاطه ، وكان مثالاً صالحاً لرعيته في اطاعة القوانين اطاعة عمياء والامتثال الى احكام القضاة امتثالاً تاماً ؛ فقد أرسل قاضي المدينة ذات يوم في طلبه للتحقيق معه في دعوى اقامها عليه بعض اصحاب الجمال ، فحضر بنفسه مع حاجبه ووقف وقفة متقاضٍ عاديٍّ امام القاضي الذي

لم ينهض من مقعده لاستقبال مولاه . وأصدر القاضي حكمه لصالح المدّعين فأثنى المنصور على استقلال القاضي ونزاهته ووصله بكيس من المال في مناسبة لائقة . هذا وقد ترك المنصور بيت المال عامراً يكفي ، كما قال لابنه المهدي ، لسد نفقات الدولة لمدة عشر سنوات .

الفصل السادس عشر

العباسيون (تتمة)
١٥٨ – ١٧٠ هـ ؛ ٧٧٥ – ٧٨٦ م

خلافة المهدي – عظمة حكمه – انسانيته – الزنادقة – الحروب مع الرومان – ايرين ترضى بالجزية – وفاة المهدي – خلافة الهادي – انفصال موريتانيا (المغرب الاقصى) – وفاة الهادي ·

محمد المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ ؛ – ٧٧٥ – ٧٨٥ م)

عندما توفي المنصور خلفه ابنه محمد الملقب بالمهدي ، والذي ينتسب من جهة امه [١] الى احد ملوك الحميريين في اليمن . وكانت سياسة المهدي تختلف اختلافاً كلياً عن سياسة ابيه ، اذ كان بطبيعته انسانياً كريماً ، ولذلك سارع حال توليه الخلافة إلى اصلاح الحالة التي ادت اليها اعمال القسوة والعنف في عهد ابيه ، فافتتح عهده باطلاق سراح جميع المساجين ، باستثناء اولئك القتلة الذين كانوا ينتظرون تنفيذ حكم

١ – واسمها « ام موسى » .

الاعدام فيهم ، والمتهمين بجرائم خطيرة ، كما أطلق سراح الحسن بن ابراهيم وأغدق عليه العطايا الكثيرة ، واعاد للمدن المقدسة امتيازاتها القديمة التي كان ابوه قد الغاها ، وسمح لها بأن تتلقى من جديد الاعانات التي كانت تتلقاها من مصر ، وردّ الى آل البيت املاكهم التي كان قد صادرها ابوه المنصور . وكان المنصور ، من حين الى آخر ، يفرض الغرامات الباهظة على موظفي الدولة الذين كان يفصلهم بتهمة اختلاس الاموال وتبديدها ، وكان يحتفظ بهذه الغرامات في خزانة خاصة تدعى « بيت مال المظالم » ويكتب على كل منها اسم الشخص الذي استوفيت منه ، فأعاد المهدي هذه الأموال الى اصحابها ، أو الى ورثتهم [1] .

وفي ابان حملته على الروم مرّ المهدي بقصر مسلمة الشهير فتذكر بِرّ ذلك القائد العظيم بجده محمد فطلب اولاده ورجاله واجازهم بعشرين الف دينار ، كما اقطعهم الاقطاع والضياع الكبيرة . وفي اثناء حجه الى مكة سنة ١٦٠ هـ احاط نفسه بقدر كبير من الابهة لم يُعرف له مثيل من قبل،ووزع ما يقرب من ثلاثين مليون درهم على اهل الحجاز و ١٥٠ الف ثوب في مكة وحدها ، كما أعاد بناء مسجد النبي وجمّله ووسع المدارس والمساجد في جميع المدن الرئيسية ، وبنى عدداً جديداً في المدن التي كانت تخلو منها ، واختار بمهارة وحذق فاق بها أباه ٥٠٠ رجل من ابناء الانصار وألّفَ منهم حرسه [2] .

وقد حاول أحد أبناء مروان الثاني القيام بفتنة في الشام ولكنه ما لبث ان هزم وأخذ أسيراً ، فأمر المهدي بحبسه ردحاً من الزمن ثم

---

١ ـ يقال ان المنصور اوصى المهدي برد هذه الاموال لكي يكتسب بهذا الصنيع قلوب الناس .

٢ ـ لو ان خلفاءه احتفظوا بهذا الحرس لما رجحت كفة الحرس التركي فيما بعد ، ولكن سياسة المنصور ، التي يظهر ان الخلفاء قد تاثروا بها من بعد ، كانت تتجه الى اضعاف شأن العرب الذين كانوا ما يزالون يعتبرون انفسهم زهرة فرسان المسلمين .

اطلق سراحه ومنحه مرتباً سخياً . وكان لمزينة ، ارملة مروان ، جناح خاص في القصر افردته لها الخيزران فأقامت فيه ولقيت جميع ضروب الاعتبار والتكريم من سائر افراد الاسرة المالكة . ويقال ان الخيزران كان لها تأثير عظيم على زوجها ، ولهذا كان بهو استقبالها مزدحماً دائماً بالعظماء وطلاب الوظائف او الرعاية . وقد أقصى المهدي عيسى ابن اخي السفاح عن ولاية العهد نهائياً وجعلها لولديه من الخيزران ، موسى وهرون ، بالتعاقب ، واخذ لهما البيعة بولاية العهد .

المقنّع

وفي ايام المهدي ثار « هاشم بن حكيم » الملقب بالنبي المقنّع . وكانت خراسان تعج دائماً بشتى الطوائف والمذاهب ، وكانت وقتئذ في حالة غريبة من الهياج والاضطراب . كان هاشم رجلاً قصيراً بشعاً ، وكان يتقنع دائماً بقناع ذهبي بغية اخفاء قبحه عن اعين الناس ، ولذا سمي بالمقنّع ، وكان يقول لاتباعه بأنّ روح الله تحلّ من حين الى آخر في احد عباده المجتبين ، وانها حلت الآن في شخصه كما حلت في شخص آدم ونوح وابي مسلم ، وان الديانة هي الايمان فحسب ؛ وكانت تعاليمه الاخرى ثورية واباحية على نطاق واسع ، فتبعه العديد من الناس ، وتمكن لفترة من الزمن من ان يتحدى قوات الخليفة ، غير انه ما لبث ان هُزم وقُتل وتشتت اتباعه في « كيش » .

وكان اتباع المقنع يرتدون الملابس البيضاء ، ولذا سموا بـ «المبيِّضة» ، ولم تلبث ان ظهرت في جرجان ، شرقي بحر قزوين ، فرقة جديدة ، دعي افرادها بـ « المحمِّرة » ، وكانوا يدينون بمبادىء اباحية وتعصبية مماثلة ، وكانوا مصدر قلق ومتاعب للدولة ، غير ان حركتهم قمعت دون صعوبة تذكر ، والظاهر ان مبدأ النهلستية القديمة ، وكان يجمع بين مبادىء المزدكية والمانوية ، كان قد انتشر بين عدد كبير من الناس .

عاش « مزدك » في زمن كسرى انو شروان في القرن الرابع للميلاد ، وكان يبشر باشتراكية إباحية لا تستند الى اىما قانون . وكان كسرى قد استعمل الحديد والنار في سبيل القضاء على فرقته ، ولكن الحية خُدشت ، ولم تمت .

وفي عهد المهدي اخذت نِهلستية مزدك تمتزج بالفلسفة المانوية ، وتنتشر في خراسان ، حتى انها وجدت طريقها الى بعض انحاء من غرب ايران والعراق ، فأوهنت من روابط المجتمع ، واضعفت ازمَّة الحكم ، لما كانت تبشر به من التحلل من القيود الاخلاقية والخروج على التقاليد . وقد سمي افراد هذه الفرقة بالزنادقة ، وكان من بين التهم التي اتهموا بها خطف الأطفال من الشوارع العامة . وسواء كانت هذه التهمة صحيحة او كاذبة فان الذي لا ريب فيه ان الزنادقة قد قوضوا دعائم التقاليد الاجتماعية والمعتقدات الدينية بتظاهرهم بالطاعة حسب الشروحات والتفاسير ، ولكن المهدي لم يبد ازاء تلك الشرذمة اي رحمة او عطف ، فطاردها دون شفقة اذ كان يعتبر افرادها اعداء الاخلاق والنظام والسلطة .

وفي سنة ١٦٣ هـ اغار البيزنطيون على الأراضي الاسلامية وتوغلوا في المقاطعة الواقعة على حدودهم وعاثوا فيها الفساد والتخريب ، واستولوا على « مرعش » فأحرقوها وفتكوا بأهلها ، غير انهم ما لبثوا ان تراجعوا لدى اقتراب « الحسن بن قحطبة » منهم ، فانتقم منهم بتدمير بعض مدنهم . ونشبت فتنة جديدة استدعت قدوم المهدي نفسه الى ميدان القتال ، فأناب عنه ابنه موسى في بغداد وسار هو بطريق الموصل الى قاعدة الحرب ، فاتخذ مدينة حلب مقراً عاماً للتجيش الامبراطوري ثم ارسل ابنه هرون لمحاربة الرومان ، وبعث معه قواداً مشهورين كعيسى بن موسى ، وعبد الملك بن صالح ، والحسن بن قحطبة ، ويحيي ابن خالد .

واستولى جيش الرشيد على مدينة «سمالا» وغيرها من المدن الاخرى، وعندئذ توجه المهدي الى بيت المقدس لاداء فريضة الحـــج ، بعد ان ولى هرون بلاد الغرب ، بما فيها ارمينية واذربيجان ، وجعل ثابت بن موسى مديراً لبيت المال ، واستوزر يحيى بن خالد . ولكن البيزنطيين لم يتركوا البلاد تنعم بالهدوء والاستقرار ، اذ لم يلبثوا أن أرسلوا جيشاً بقيادة « ميكاميكومس » اجتاح الاراضي الاسلامية ونشر فيها الخراب والرعب ، فأسرع هرون لصد الغزاة وهزمهم هزيمة منكـــرة بعد أن أنزل بهم الخسائر الفادحـــة ، وواصل الجيش العربي زحفـــه باتجاه القسطنطينية . وعندما شاهدت ايرين — أرملة ليون الرابع التي كانت تحكم بيزنطة باسم ابنها قسطنطين السادس ، والتي كان طموحها السبب في إشعال هذه الحرب الجديدة — أضواء المعسكر العربي تتلألأ على ضفاف البوسفور سارعت الى طلب الصلح بعد أن منيت بهزيمة منكرة اخرى ، فأجابها القائد العربي إلى طلبها بعد أن تعهدت بدفع جزية سنوية كبيرة، وبتجهيز الجيش المظفر بالادلاء والمؤونة في طريق عودته .

وفي سنة ١٦٨ هـ . أشعلت القبائل المرتحلة في الصحراء نار الثورة ، فنهبت القوافل واقلعت عن الصلاة ، وعاملت الحجاج معاملة سيئة ، فقمع الخليفة ثورتها ، ولكن الظاهر انه عاملها برأفة ولين كبيرين .

وفاة المهدي

وفي السنة التالية قام المهدي برحلة نحو المشرق ولكنه توفي في الطريق في مكان يسمى « ماسبذان » حيث كان قد توقف ليمتع نفسه بالصيد، وكان مولعاً به اعظم الولع . وقد استوزر في أوائل عهده ابا عبيد الله، ثم استوزر يعقوب بن داود الذي تمت بمشورته ونصحه معظم الأعمال المجيدة التي قام بها المهدي ، غير أن الوشاة في أواخر ايامه سمموا افكاره إزاء وزيره حتى ارتاب بولائه وإخلاصه وتآمره مع العلويين ،

فحبسه في السجن السياسي المسمى « المطبق »[1] فبقي فيه عدة سنوات إلى ان اطلق سراحه هرون الرشيد .

وكان هرون حاضراً وفاة المهدي فأعلن في الحال خلافة موسى الهادي بناء على وصية الخليفة المتوفى ، وكان اول من بايعه وارسل اليه ايضاً الخاتم وقضيب النبي والبردة .

كان الهادي في الرابعة والعشرين من عمره عندما تولى الخلافة ، ولكن مدة حكمه كانت أقل من سنتين. ويصفه المؤرخون بأنه كان رجلاً صعب المراس ، عنيداً ، قاسي القلب ، وبأنه كان بالرغم من ذلك شجاعاً عالي الهمة كريماً محباً للعلم والأدب .

ولم يقدّر الهادي إخلاص اخيه ، بل لقد سعى جاهداً في ابان حكمه القصير إلى ان يغيّر ولاية العهد ويجعلها لابنه جعفر ، ولذلك سجن يحيي بن خالد البرمكي ، مستشار هرون الرشيد ، وعدداً آخر من أعوان اخيه الذين كان يعتبرهم خصومه ومناوئيه في خطته . كذلك نشب خلاف بينه وبين امه الخيزران التي ارادت ان تتمتع بالسلطان نفسه الذي كان لها على شؤون الدولة في ايام زوجها ، فاستاء الهادي من تدخلها وهدد الاشراف والنبلاء بسخطه اذا هم استمروا في حضور استقبالاتها ، وهكذا انقسم رجال البلاط إلى فئتين : فئة انحازت إلى الخليفة الشاب وابنه ، وفئة انحازت إلى هرون الرشيد والملكة الأم . وقد حاول هرون بكل وسيلة ممكنة ان يهدىء من غضب اخيه ، ولكنه غادر اخيراً البلاط حفاظاً على سلامته ، وكان ذلك بناءً على مشورة يحيي .

هذا ولقد أساء حاكم المدينة معاملة بعض افراد اسرة الحسن ملصقاً بهم كذباً تهمة معاقرة الخمر ، مما أدى الى نشوب ثورة بقيادة الحسين[2] فقتل فيها عدد من افراد هذه الاسرة والاسر الاخرى ، وفرّ ادريس[3] ،

---

١ ـ باستيل العباسيين .

٢ ـ الحسين بن علي بن الحسن الثاني ابن علي بن ابي طالب .

٣ ـ اخو النفس الزكية .

ابن عم الحسين ، إلى موريتانيا ، المغرب الاقصى ، حيث ساعده البربر على تأسيس دولة الادارسة ، ومنذ ذلك الحين استقل المغرب الاقصى عن الامبراطورية العباسية .

وفيما كان الهادي مقيماً في « عيسى أباد » ، وكانت بلدةً على مسيرة يوم واحد من بغداد ، مرض مرضاً شديداً فأرسل في طلب امه « الخيزران » وكان لقاؤهما حزيناً مؤثراً ؛ وقد خاطبها الهادي بقوله : « انا هالك في هذه الليلة وفيها يلي اخي هرون . وقد كنت امرتك باشياء ونهيتك عن اخرى مما اوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ؛ ولم اكن بك عاقاً بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً » . ثم اخذ يدها ووضعها على قلبه [1] ، كما أمر بأن يلي هرون الخلافة من بعده ، ولفظ انفاسه الاخيرة في الخامس عشر من شهر ربيع الاول سنة ١٧٠هـ (٧٨٦ م) ، وكان طويل القامة كأبيه ، وله سبعة اولاد وبنتان احداهما تدعى ام عيسى ، وقد تزوجت من بعدُ المأمون بن هرون الرشيد.

---

١ ـ المسعودي .

الفصل السابع عشر

العباسيون (تتمة)

١٧٠ – ١٩٨ هـ ، ٧٨٦ – ٨١٤ م

الرشيد والمأمون

خلافة هرون الرشيد ـ اخلاقه ـ حكمه المجيد ـ البرامكة ـ منح افريقية الحكم الذاتي ـ الحالة في آسية ـ ولاية العهد ـ مبايعة الامين والمامون بولاية العهد ـ تقسيم الامبراطورية ـ سقوط البرامكة ـ جان دارك العرب ـ الحروب الرومانية ـ خيانة نيقوفور ـ هزيمته ـ معاهدة جديدة ـ نقض البيزنطيين لشروط المعاهدة ـ نتيجته ـ وفاة الرشيد ـ مبايعة الامين ـ اخلاقه ـ اعلانه الحرب على المامون ـ طاهر يهزم جيش الامين ـ حصار بغداد ـ مكة والمدينة تبايعان المامون بالخلافة ـ وفاة الامين .

خلافة هرون الرشيد

على اثر وفاة الهادي تولى الخلافة هرون الرشيد تبعاً لوصية المهدي ، وتنازل جعفر بن الهادي عن جميع حقوقه في الخلافة .

كان هرون الرشيد في الحق من اعظم حكام العالم ، ويعتبر عهدُهُ

المع عهود الحكم العربي في آسيا . والمعروف عنه أنه كان محافظاً على تكاليف الشرع ، تقياً ورعاً ومحسناً كريماً ، وانه مع ذلك كان مكلفاً بان يحيط نفسه بهالة من العظمة والجلال ، وانه استطاع ان يفرض شخصيته على الشعب ، وان يتمتع بنفوذ عظيم في الحياة الاجتماعية . كذلك كان هرون الرشيد جندياً بالفطرة والممارسة ، ولذلك فانه كثيراً ما قاد المعارك بنفسه ، وجال في انحاء امبراطوريته للقضاء على الفتن وضمان الرضوخ للقانون والالمام بشؤون رعيته ، وتفقد الحدود والممرات ، ولم يقصّر لحظة في التمرس باعباء الحكم بصورة شخصية ، فنعم التجار وطلاب العلم والحجاج في عهده بنعمة الطمأنينة والأمن ، وليس ادّلّ على اهتمامه البالغ برفاهية شعبه من تلك المساجد والكليات والمدارس والمستشفيات والمستوصفات والخانات والطرق والجسور والقنوات التي انشأها وشيدها في جميع انحاء البلاد ، ولم يبزه في تشجيع الفنون والآداب سوى ابنه المأمون ، ولكن احداً لم يكن ليضاهيه في متانة الخلق وحدة الذكاء . وبالرغم من ان حكمه ، بخلاف حكم المأمون ، لم يخل بالكلية من المساوىء التي كثيراً ما تنجسم عن تمرس شخص واحد بالسلطة المطلقة غير المحدودة ، فان رفاهية الشعب بصورة عامة والتقدم الذي تمّ في عهده على شكل لم يعرف من قبل يعوّضان كثيراً عن مساوىء الحكم المطلق .

البرامكة

وتعود عظمة الادارة زمن هرون الرشيد في معظمها الى الحكمة والكفاءة اللتين كان يتحلى بهما الرجال الذين عهد اليهم بادارة دفة الحكم في الامبراطورية طيلة السنوات السبع عشرة الاولى من حكمه . ولقد سبق ان اشرنا الى المركز الممتاز الذي كان خالد بن برملك يتمتع به في عهدي السفاح والمنصور ، والى ابنه يحي الذي عهد اليه المهدي بتربية

الرشيد . ونذكر الآن ان الرشيد ولّى مربيه السابق منصب الوزارة حالما تولى منصب الخلافة ، وكان يناديه : يا ابت ! دلالة على الحب ، ويلجأ دائماً الى مشورته ونصحه ، كما منحه سلطة مطلقة فاتسمت ادارته بالحكمة والحزم ، ولم يهمل صغيرة ولا كبيرة ، وكان يعتبر خير الشعب ورفاهيته واجبه الاول . وكان ابناء يحيى الاربعة : الفضل وجعفر وموسى ومحمد رجالاً عرفوا بالمقدرة السياسية والادارية العالية ، فولى الخليفة الفضلَ خراسان ثم مصر ، وتمكن الفضل من اخضاع يحيى بن عبدالله [1] ، الذي كان قد نجح في اقامة نفسه حاكماً على بلاد الديلم ، كما اسند الى جعفر امارة ولايات عدة ، وعندما انفجرت العداوة القديمة بين المضريين والحميريين من جديد في الشام عهد اليه بقمع الفتنة بين الفئتين المتخاصمتين. ولما استقال يحيى من بعدُ من منصب الوزارة بداعي الشيخوخة استوزر الخليفة ابنه جعفر فادار دفة الحكم بنجاح مرموق . والخلاصة ان هذه العائلة الشهيرة استطاعت ان تحكم امبراطورية الرشيد بامانة واخلاص طوال سبع عشرة سنة ، ولم يكن سقوطها المفاجىء الا نتيجة للمؤامرات والدسائس في الحكومات الاستبدادية المطلقة .

افريقية

كانت موريتانيا ، كما ذكرنا من قبل ، قد انفصلت عن الامبراطورية العباسية ، وقام امراء افريقية بمحاولات عقيمة عدة لاحتلال افريقية الغربية من جديد . وقد بقيت افريقية في قبضة يزيد بن الهيثم المهلبي حتى وفاته في سنة ١٧٠ هـ ، وعندئذ نشبت فيها الثورات والفتن الى ان تمكن اخوه « روح » من قمعها بعد ان عينه الرشيد حاكماً على افريقية سنة ١٧١ هـ . وتوفي « روح » بعد ان تمكن من حكم البلاد بنجاح سنوات

---

١ ــ من احفاد الخليفة الحسن .

عدة . ولما تمرد الجيش على ابن « روح » سارع الرشيد الى ارسال « هرثمة » ، احد القواد البارزين ، لقمع حركة التمرد ، فاعاد الامور الى نصابها وحكم البلاد قرابة ثلاث سنوات ، ولما استقال عين الرشيد أميراً اثبت عجزه المطلق عن حكم تلك الأمارة الصعبة المراس . ولما كانت افريقية حتى ذلك الحين تشكل عبئاً على الخزينة ، اذ كان يرسل اليها في كل عام مئة الف دينار من واردات مصر لسد نفقات الحكومة ، فقد عين هرون الرشيد ابراهيم بن الأغلب حاكماً على افريقية ، وجعل حكمها وراثياً في اسرته ، ومنذ ذلك الحين اصبحت افريقية امارة تتمتع بالحكم الذاتي .

آسية

أما آسية فقد كان الحكم يدار فيها بعزم وقوة ، ودونما صعوبة ، على اسس ثابتة . وفي سنة ١٧١ هـ ألحقت كابول وسنهار برمتها بالامبراطورية العربية فامتدت حدودها حتى كوش الهندوسية . وفي الوقت نفسه فصل الرشيد سواحل آسية الصغرى عن الأمارة الاصلية ، واطلق عليها اسم العواصم ، ووضعها تحت ادارة حاكم عسكري خاص ، واعاد إسكان طرسوس في كليكيا وجعل منها قلعة حصينة .

وبعد سنتين توفيت الخيزران ، وبموتها فقد يحيى بن خالد حليفاً قوياً طالما اعانه على الاحتفاظ بنفوذه الحكيم النبيل لدى الخليفة الشاب . وكان الرشيد ، حال توليته ، قد اعاد الى امه جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها في عهد المهدي ، والتي حرمها منها الهادي ، فاصبح قصرها ، كما كان في ايام زوجها ، ملاذ الاعيان ورجال الدولة . ولم يلبث الرشيد بعد وفاتها بقليل ان اخذ الخاتم الامبراطوري من يحيى واعطاه الى الفضل بن الربيع الذي بدأ نجمه بالسطوع منذ ذلك الحين .

أخذ البيعة بولاية العهد للأمين والمأمون

وفي سنة ١٧٥ هـ ، بضغط من الملكة زبيدة واخيها عيسى بن جعفر ، وبتشجيع من جميع افراد الاسرة العباسية ، عين الرشيد ابنه محمداً ، وكان عندئذ في الخامسة من عمره ، ولياً للعهد ، ولقبه بالأمين . وبعد سبع سنوات عين ابنه الآخر عبد الله المأمون ، ثم ابنه الثالث القاسم ؛ ولقبه بالمؤتمن ، على ان تكون ولاية العهد لهم بالتتابع . كذلك امر الرشيد بان يقتسم الابناء الثلاثة الامبراطورية طيلة حياتهم ، فيكون المغرب للأمين ، والمشرق للمأمون ، والجزيرة والعواصم للقاسم . وكان الرشيد يعتمد على المأمون ويثق به الى درجة انه منحه سلطة عزل القاسم عن ولاية العهد اذا رأى ذلك مناسباً ، كما انه عهد بتثقيف المأمون وتأديبه الى جعفر بن يحيى ، ووكل تربية القاسم الى ابن عمه عبد الملك الصالح .

وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد الى مكة مستصحباً الأمين والمأمون ، واودع الكعبة وثيقتين وقع كل من الأخوين على واحدة منها متعهداً على احترام وصية ابيه .

وفي السنة نفسها زارت السيدة زبيدة الحجاز ، وعندما رأت ما يعانيه المكيون من قلة مياه الشرب أمرت بحفر عدة آبار على نفقتها الخاصة ولا يزال اسمها يطلق على تلك الآبار الشهيرة حتى يومنا هذا [١] .

ثورة الخزر

وفي سنة ١٨٣ هـ اغارت قبائل الخزر ، بتحريض من البيزنطيين ، على ارمينية من الشمال فخربوها ومثلوا بسكانها على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ، فارسل الرشيد قائدين من افضل قواده لتأديب أولئك البرابرة ، فانزلا بهم عقاباً صارماً الى ابعد حدود الصرامة .

---

١ ـ يقال ان نفقات حفر هذه الابار قد بلغت مليونا ونصف المليون من الدنانير .

عرفت سنة ١٨٧ هـ. بذلك الحادث الذي لم يقلل من رونق عهد الرشيد فحسب ، بل ظل مثاراً لندمه وتأنيب ضميره على جحوده طيلة ما تبقى من حياته. لقد خدمت اسرة البرامكة هرون الرشيد طيلة سبعة عشر عاماً باخلاص نادر ، وحنكة فائقة ، وكان الشعب يتمتع في عهدها بالسعادة والازدهار ؛ ونعمت الامبراطورية بالغنى والقوة ، وازدادت الثروة القومية ، وارتقت فنون الحياة المتمدنة في كل مكان . ولكن عظمة هـذه الاسرة ومجدها ، وامعانها في اغداق الخيرات وضروب الاحسان ، جعلها معبودة جماهير الشعب من جهة ، والّب عليها الاعداء من جهة اخرى ، فعقدوا العزم على خرابها بكل وسيلة ممكنة . ولقد عزيت نكبة البرامكة الى عدة اسباب ، ولكن ابن خلدون مَحَّص الشائعات والاقاويل التي انتشرت في ذلك الحين ، والتي اعتمدها بعض المؤرخين لتفسير تصرف الرشيد ازاء هذه الاسرة الموهوبة ؛ وخلص الى ان السبب الحقيقي في نكبتهم هو « انهم كانوا قد قبضوا على ناصية الامور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب ، حتى اصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها الا باذن من الوزير ؛ وهكذا عظم نفوذهم ، وذاعت شهرتهم ، واصبحت مناصب الجيش الكبرى والادارة وقفاً على افراد اسرتهم والمقربين اليهم ، فتوجهت إليهم الانظار ، وعنت لهم الرقاب ، وتعلقت بهم الآمال ، وغمروا الناس بالاحسان في كل مكان ، فغدوا ملء الابصار والافواه ، حتى اصبح لا حديث للناس غير حديثهم ، وتضاءل اسم الخليفة ازاء اسمهم » .

وقد عملَ عدوهم الألد ، الفضل بن الربيع ، على انتهاز كل فرصة ، وما كان اكثر فرصه بحكم مركزه ، لتسميم افكار الرشيد على البرامكة ، وكان له اعوان نسوا في غمرة حسدهم ، كما يلاحظ ابن خلدون ، حتى روابط القرابة ، فأسروا الى الرشيد بان البرامكة كانوا

يدبرون مكيدة للقضاء على بني العباس ، فنسي الرشيد خدماتهم الجليلة خلال تلك السنوات الطويلة ، وأصدر ذات ليلة أمره بقتل الوزير جعفر ، وسجن يحيى واولاده الآخرين : الفضل (ربيب الرشيد) ، وموسى ومحمد . فأما جعفر فقد قتله مسرور الذي كان يصحب الرشيد ووزيره في جولاته الليلية في المدينة ، وأما الآخرون فقد زجوا في سجن الرقة ، وصودرت أملاكهم ، ولم يعاملوا في بادىء الامر بالقسوة ، بل سُمح لأتباعهم بخدمتهم في السجن ، وكانت راحتهم موضع السهر . وبعد سنة اتُّهم عبد الملك بن صالح ، من قبل امين سره وحتى من قبل ابنه ، بالتآمر على العرش فزج به الرشيد في السجن ، واتُّهم البرامكة بأنهم كانوا على علم بالمؤامرة ، وان لم يشتركوا بها ، مما أدى بالرشيد الى معاملة سجنائه بقسوة وعنف ، وحرمهم من العناية التي كانوا يلاقونها حتى ذلك الحين ، فتوفي يحيى في السجن سنة ١٩٠ هـ ، ولحقه ابنه الفضل بعد ثلاث سنوات . والظاهر أن موسى ومحمداً قد أطلق سراحها بعد وفاة ابيها ، ولكن عبد الملك ظل في السجن حتى خلافة الامين الذي أطلقه وجعله حاكماً على الشام . وعندما اعتلى المأمون عرش الخلافة رد الى البرامكة أموالهم وامتيازاتهم .

الخوارج

وفي عهد الرشيد قام الخوارج ، كعادتهم ، بثورات عديدة ، ولكن الرشيد كان يقمع ثورتهم في كل مرة بسهولة ويسر ؛ وقد اشتهرت إحدى هذه الثورات بظهور فتاة تدعى ليلى على رأس الخوارج . وكانت هذه الثورة قد بدأت بقيادة الوليد بن طريف ، وعندما قتل تولت ليلى القيادة بنفسها ، واشتبكت مع جيش الرشيد تكراراً إلى ان حملها أحد اقربائها ، وكان يقود جيش الخليفة ، على القاء سلاحها والعودة إلى حياتها الاولى ، وكانت جان دارك العرب هذه مشهورة بجمالها وجودة

شعرها .

هدم أسوار الموصل

وقد أثار سلوك أهل الموصل وشغبهم هرون الرشيد فأمر بهدم اسوار مدينتهم عقاباً لهم . اما دمشق فقد عرفت فتناً داخلية بين المضريين والحميريين ، وكان الرشيد عالماً بموقف أهل الشام غير الموالي من آل بيته ، ولذا ترك لهذه الفتن العنـــان بعض الوقت كيما تنال من قوة الفريقين المتخاصمين ، ثم تدخل في النهاية لقمع الفوضى والاضطراب بيد من حديد .

الحروب مع البيزنطيين

ولكن حروب الرشيد مع البيزنطيين كانت اهم الاحداث التي وقعت في عهده ، ففي سنة ١٨١ هـ نقض البيزنطيون المعاهدة التي كانت « ايريني » قد عقدتها مع المهدي واغاروا على الأراضي الاسلامية ، فأنزل بهم جيش الخليفة هزيمة دموية منكرة ، ثم استولى على مدينتي مطارة وانقرة ، واعاد احتلال قبرس التي كانت قد خلعت نير العرب في الحروب الاهلية ، وأغار على جزيرة كريت . ثم عقد معاهدة جديدة تعهد الروم بموجبها بدفع الجزية التي نصت عليها المعاهدة السابقة . وجرى تبادل الاسرى ، وكانت الدلائل كلها تشير الى ان ذلك السلم سيطول أمده . وفي سنة ١٨٢ هـ سملت ايريني المستهترة الغليظة القلب عيني ابنها قسطنطين السادس واستولت على العرش ولقبت نفسها بالملكة اوغستا ، وقبضت على أعنة الحكم بمساعدة عشيقها الخصي « اوتيوس » مدة خمس سنوات الى ان ثار عليها الروم وخلعوها عن الحكم ونفوها من البلاد ونصبوا وزيرها نيكفورس ، ويسميه العرب نقفور ، خلفاً لها ، فصمم الامبراطور الجديد على « ان ينقض الصلح الذي كان قد عقد

بين المسلمين وايريني » [1] وارسل رسالة بذيئة الى الرشيد يقول فيها : « من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . اما بعـــد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها في مكان البيدق ، فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقاً بحمل امثاله اليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك » ، ويقول المؤرخ : « ان الرشيد عندما قرأ هـــذا الكتاب غضب غضباً شديداً بحيث لم يجرؤ احد على النظر اليه او التفوه بكلمة في حضرته ، كما تفرق جلساؤه وترك وزراؤه المجلس صامتين . »

ثم كتب الخليفة على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . من هرون الرشيد امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ان تسمعه والسلام ! »

وقد برّ الخليفة بوعده وسار في اليوم نفسه على رأس جيشه ولم يتلكأ في الطريق الى ان وصل الى « هرقلة » إحدى قلاع الدولة البيزنطية حيث التقى ذلك الروماني المغرور بالخليفة ولقي على يديه هزيمة شنعاء منكرة [2] . ولما كانت فنون الحيلة وإظهار الندم هي الوسيلة الوحيـــدة للتغلب على فنون العرب الحربيـــة فقد توسل نقفور في طلب الصلح وتعهد بدفع خراج اكثر من السابق يؤديه كل سنة ، فقبـــل الخليفة توسله وعاد الخليفة المظفر إلى « الرقة » ، ولم يكد الرشيد يصل الى مقره حتى نقض نقفور عهده ظناً منه ان الخليفة يستحيل عليه النزول إلى الميدان مرة أخرى في ذلك الفصل القاسي ، ولكن رجاءه خاب ، ذلك انه ما ان علم الرشيد بنقضه العهد حتى عاد ادراجه « ولشد مـــا كانت دهشة نقفور من تلك المفاجأة ومن مخاطرة امير المؤمنين في ذلك

---

١ ـــ ابن خلدون .

٢ ـــ يسميها السيوطي معركة شهيرة ونصرا مبينا .

الشتاء القارس ، وتمكنه من عبور جبال طوروس المكسوة بالثلوج ، وفي الحال اسقط في يده وفر من المعركة بعد ان اصيب بثلاثة جروح تاركاً وراءه اشلاء اربعين الف قتيل في الميدان . »[1] وعاد نقفور الى طلب الصلح فلبى الخليفة طلبه ولكنه اتخذ قبـــل عودته جميع الاحتياطات للحيلولة دون نقض المعاهدة من جديد . وكان نقفور « ما يكاد يسمع باشتباك هرون في معارك اخرى حتى ينقض عهده فلا يلبث ان يمنى بالهزيمة والفشل . »[2]

وفي سنة ١٨٩ هـ زحف هرون الرشيد على الري لتأديب اميرها الذي أظهر امارات التمرد عليه ، فكانت فرصة جيدة انتهزها الروم للاغارة على الحدود العربية ، ولكن القاسم بن الرشيد — الذي كان الخليفة قد عيّنه حاكماً على العواصم — تمكن من صدهم ، ومرة أخرى صفح الخليفة عن نقض المعاهدة .

وفيما كان الرشيد في الري اجتمع اليه رؤساء الديلم وطبرستان فعاملهم معاملة سمحة منصفة واكتسب بذلك مودتهم واخلاصهم ثم عاد إلى بغداد في طريقه الى الرقة التي كانت قد اصبحت مقره الدائم الذي يراقب منه حركات الروم وقبائل الشما والشام ، ويخلد فيه الى الراحة مدة قصيرة . غير أن الروم لم يحققوا امنيته ، ذلك انّ ثورة عشائر مـــا وراء النهر اتاحت لنقفور الفرصة التي كان يترقبها فاجتاح ممتلكات الخليفة وارتكب في الاقطار الواقعة على الحدود ضروب السفك والتدمير ، فلم يستطع الرشيد ان يتحمل اكثر مما احتمل ، وأناب عنه المأمون في الرقة ومنحه السلطات المطلقة ثم شرع في زحفه نحو الشمال . ولقد انقلبت تلك الحرب الآن الى جهاد حقيقي ، الى حرب مقدّسة ، من اجل المحافظة على السلام ، واكراه الروم على احترام العهود والمواثيـــق ، فانضوى تحت

---

١ — غيبون .

٢ — موير .

لوائه ۱۳۰ الف جندي ، بالاضافة إلى المتطوعين الذين لم تسجل اسماؤهم في اللوائح ، اكتسح بهم جميع آسية الصغرى حتى « بيثينيا » في الشمال ، و « ميسيا » و « كاريا » في الغرب ، وأخذت المدن تفتح ابوابها لقواد الرشيد ، ثم احاط الجيش بهرقلة على البحر الأسود وأنزل هزيمة منكرة بجيش نقفور استولى بعدها على المدينة . وقد طلب الروم — كعادتهم — الصفح ، فأجابهم الخليفة الى طلبهم هذه المرة ايضاً ، إلا أنه أملى على الدولة البيزنطية وقتئذ شروطاً أشد وطأة ، ولو احتل العرب القسطنطينية ، اذن لكان ذلك افضل بكثير للعالم وللمدنية معاً ، ولكنه اكتفى بمعاهدة جديدة وقعها نقفور وامراء اسرته واشراف امبراطوريته وتعهدوا فيها جميعاً بزيادة الجزية التي شملت حتى نقفور نفسه وكل فرد من افراد اسرته .

غير أن الروم ما لبثوا أن نقضوا المعاهدة مرة أخرى في سنة ١٩٢هـ وأغاروا على الاراضي الاسلامية ويقول موير : « وكانت نتيجة تلك الحروب ، كنتيجة غيرها من الحروب ، اشعال نيران الكراهية الدينية » . وقد استدعت الفتن التي اندلعت في ذلك الحين بالذات في خراسان سفر الرشيد إلى المشرق ، فاضطر إلى أن يرجىء انزال العقاب بالروم الى حين آخر . وبعد ان ترك القاسم في الرقة مع خريمة بن خازم ، احد القواد المحنكين ، والأمين في بغداد ، سار الخليفة المتعب الى المشرق يصحبه المأمون ، ولكنه ما إن دخل بلاد الفرس واخترق سلسلة جبالها حتى ارسل ابنه المأمون ، أمامه الى مرو على رأس فرقة من الجيش ، وسار هو الهوينا بالقوة الرئيسية . ولما وصل الى قرية سندباد بالقرب من طوس [1] عاوده مرضه القديم الذي كان يشكو منه منذ أن غادر الرقة.وعندما شعر باقتراب منيته دعا كل من في معسكره من افراد اسرته (بني هاشم) وخاطبهم بقوله : « ان كل مخلوق ميت ، وكل

١ ـ مسقط راس الشاعر الفردوسي .

جديد بال ، وقد نزل بـي ما ترون ، وانا اوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا محمداً وعبدالله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبّحوا له بغيه ونكثه . »
ثم وزع الهبات السخية على اتباعه وجنوده وتوفي بعد يومين وهو بعد في زهرة عمره وكانت وفاته يوم السبت لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩) بعد حكم مجيد استمر ثلاثاً وعشرين سنه وستة أشهر .

اخلاقه وحكمه

مهما أمعنا في الدقة والحذر في وزن هرون الرشيد بميزان النقد التاريخي فان هرون الرشيد يحتل دائماً مرتبته السامية بين اعاظم الملوك والحكام في العالم . ان من الخطأ ان نقارن الحاضر بالماضي ، ورقي هذا العصر وتطوره بالعادات والتقاليد التي كانت سائدة منذ الف سنة ، والذي لا ريب فيه أن نقائص هرون الرشيد وسرعة انفجار شكوكه او طباعه لم تكن الا نتيجة طبيعية للحكم الاوتوقراطي ، وان مزاياه التي كان يتحلى بها ، كضبط النفس والاهتمام ذلك الاهتمام الكلي بخير شعبه ورفاهيته ، رغم كل السلطة المطلقة التي كانت في يده ، لتنهض دليلاً ناصعاً على عبقريته ونبوغه . انه لم يسمح لنفسه بالتواني في اداء واجباته لحظة واحدة ، ولطالما قطع انحاء امبراطوريته من الشرق الى الغرب لاصلاح المساوىء واقامة العدل والإلمام شخصياً بأحوال شعبه ، كما قاد بنفسه قوافل الحجاج الى الاماكن المقدسة تسع مرات ، فاكتسب بذلك مودة الناس ، وحملهم على الاعتراف بشخصيته وتقديرها ، وعلى الشعور بفوائد التضامن بين المسلمين . وكان بلاطه ألمع بلاط في ذلك العصر ، فاليه كان العلماء والحكماء يحجون من جميع انحاء العالم ، فيوليهم جميعهم عطفه وتشجيعه ، وكذلك شمل بعطفه الفنون والعلوم وكل فرع من

فروع الابحاث العقلية ، وكان أول من رفع من شأن الموسيقى وجعل منها مهنة شريفة لا تقل عن المهن الأخرى ، واشتهر من اولاده في التاريخ اربعة هم : محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم والمؤتمن وابو اسحق محمد المعتصم . وفي ايام الرشيد اخذ المذهب الحنفي يتطور حتى اكتسب شكله النظامي على ايدي علماء الدين وعلى رأسهم ابو يوسف ، قاضي قضاة الامبراطورية .

محمد الأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ ؛ ٨٠٩ – ٨١٣ م)

عندما توفي الرشيد كان الأمين في العاصمة ، بغداد ، والمأمون في مرو ، والقاسم في قنسرين ، بينما كانت السيدة زبيدة في الرقة ، فبعث صاحب البريد بنبأ وفاة الخليفة الى بغداد وفي اليوم التالي ارسل صالح، وكان مع الرشيد وقت وفاته ، خاتم الخلافة وقضيب النبي والبردة الى أخيه الأمين فانتقل هــذا فوراً من قصر الخلد حيث كان يقيم ، الى قصر الخلافة . وفي اليوم التالي صلّى بالناس والقى الخطبة وتلقى البيعة من قواد الجند والاشراف وافراد الرعية ، كما أن المأمون ارسل ايضــاً الى أخيه تهانيه المخلصة مع الهدايا .

وحالما تلقت السيدة زبيدة نبأ وفاة الرشيد غادرت الرقة الى بغــداد فاستقبلها ابنها الأمين في الانبار استقبالاً حافلا وانزلها في قصر الخلافــة حيث عاشت إلى ان توفي الأمين .

أخلاق الأمين والمأمون

من المهم في هــذه المرحلة أن نلاحظ الفرق بين اخلاق الأخوين الأمين والمأمون اللذين سرعان ما اصبح كل منهما عدواً ومنافساً شديداً للآخر . لقد تلقيا العلم على اعظم علماء ذلك العصر ، وكان الأمين في عهدة امه وخاله ، بينما اعتنى جعفر البرمكي بتنشئة المأمون الذي توفيت

امه الفارسية في طفولته .

وكان الاخوان قد تثقفا بثقافة واحدة ، ودرسا العلوم التي كانت شائعة في ذلك الزمان، وهي البلاغة والشعر والفقه والحديث ، غير انه في حين كان المأمون يستوعب ويتمثل العلوم التي كانت تلقى عليه كان الأمين المحب للهو لا يتأثر بها إلا تأثراً سطحياً .

إلا انهما كانا متساويين في ميدان الخطابة ، التي كانت صفةً لازمةً لكل أمير عربي ، ولكن المأمون كان فوق ذلك فقيهاً وفيلسوفاً ، حافظاً للقرآن الكريم مجيداً لتفسيره . وكان الرشيد يعرف الفرق بين خلقي الأمين والمأمون ، ولعله توقع قبل وفاته نتيجة التدابير التي كان قد أعدها لهما بمثل تلك العناية ، ذلك أنه أوصى بأن يكون الجيش الذي دخل به الى خراسان وما حمله معه من كنوز تحت امرة المأمون ، فقد كان ذلك اجراءً ضرورياً للدفاع عن الولايات الشرقية ، كما كان الأمين يملك الكنوز العظيمة التي كان ابوه قد تركها في بغداد، والارجح انه لم يكن ينوي أن يتقيد بميثاق ابيه ، ولذلك فقد ارسل الرسل للتحرش بالجيش وقلبه على أخيه المأمون .

وقد انحاز الفضل بن الربيع الذى كان يشغل منصب الوزارة بصورة عملية منذ سقوط جعفر البرمكي الى الأمين ، فقد كان يعرف فيه ضعف الشخصية ويثق بأنه لا بد من ان يصبح الحاكم المطلق في عهده، فأقنع الجنود بالحنث باليمين التي كانوا قد اقسموها زمن الرشيد على أن يوالوا المأمون ، وبالعودة معه الى العاصمة . وهكذا عاد الفضل بالجيش والكنز إلى الأمين الذي أسند اليه في الحال منصب الوزارة ووزع مرتبات سنتين على الجنود بصورة مقدمة .

واذ وجد المأمون نفسه على اثر خيانة الفضل مجرداً من المال والرجال ، فقد تحرّج موقفه ، خصوصاً وأن اقطاعيي ولايته كانوا قد بدأوا يعلنون تمردهم ويقومون بأعمال الشغب ، غير أنه انصرف بهمة لا تعرف

الكلل ، وبمساعدة مستشاريه الاكفاء ، إلى تهدئة خواطر الزعماء والسكان، وكان على رأس مستشاريه في تلك الازمة الرجل الفارسي « الفضل بن سهل» المعروف بشدة الحنكة وسداد الرأي ، كما كان من انصاره ايضاً هرثمة المشهور ، والقائد الناشىء طاهر بن الحسين الخزاعي . وقد عامل المأمون اشراف ولايته بالاحترام والتقدير ،وخفض الضرائب عن كواهلهم، فاكتسب بذلك عطفهم وودهم، وتحلقوا حوله باعتباره « أبن شقيقتهم» ، كما كان سلوكه تجاه أخيه سلوكاً مخلصاً ، حذراً .

تبذير الأمين

وفيما كان المأمون منهمكاً في تنظيم شؤون ولايته كان الأمين يسرع بخراب البلاد ، ويبذر الأموال على الجنود الذين كانوا يطلبون المزيد ، ويجلب المضحكين والمشعوذين من سائر انحاء البلاد ، ويسرف في شراء الجواري الحسناوات والمغنيات الشهيرات ، والخصيان الذين كثروا في الدولة البيزنطية والذين كان نبلاء روما الجديدة يستخدمونهم ، لا في حراسة نسائهم فحسب ، بل في ادارة شؤون الدولة ايضاً . وقد انهمك الامين في ضروب المجون واللهو الى درجة جعلته يعاف شؤون الملك ويعهد بها الى الفضل بن الربيع الذي كان يتميز بالطموح من دون كفاءة او اقتدار .

وفي تلك الاثناء قتل نقفور في حرب دارت بينه وبين البلغار فخلفه ابنه « استبرق » . وبعد حكم دام فترة قصيرة توفي هذا فولي الحكم ميخائيل بن جرجس ، زوج اخت « استبرق » ، ولكنه لم يلبث أن اجبر على التنازل للقائد « ليو » الذي لم يكد يعتلي العرش حتى نقض معاهدة الصلح مع المسلمين وشرع في الاغارة عليهم ، ولكن الأمين لم تكن له اذنان تسمعان شكاوى رعيته ، وبدلاً من أن يستخدم طاقته وموارده في الدفاع عن الامبراطورية اعلن الحرب على أخيه المأمون .

وقد خشي الفضل بن الربيع على نفسه عقابَ المأمون على خيانته اذا ما قدّر له أن يتولى الخلافة ، ولذلك شرع يحرض الأمين على خلع أخيه من ولاية العهد ، فلم يُعِر الأمين اقتراحه اذناً صاغية في بادىء الأمر ، ولكن إلحاح الفضل بن الربيع ، مع نصيحة احد المستشارين المسمى عيسى بن ماهان ، والذي لم يكن يقل عن الفضل خسة ولؤماً ، أدى به إلى اتخاذ تلك الخطوة المشؤومة ، فاستدعى المأمون الى بغداد ، ولكن هذا اعتذر عن الحضور بقوله انه لا يستطيع مغادرة امارته بالنظر الى احوالها المضطربة ، فأمر الخليفة عندئذ بخلعه ونهى عن ذكر اسمه على المنابر يوم الجمعة ، كما عزل القاسم ايضاً عن الامارة التي كان الرشيد قد ولاّه اياها ، ثم بايع طفله موسى بولاية العهد ولقبه بالناطق بالحق ، ومن بعده ابنه الثاني ولقبه بالقائم بالحق .

اما المأمون فقد اجاب على عزله من ولاية العهد بضرب حصار على حدوده الغربية ، فلم يكن يسمح لأي كان بالدخول إلى ولايته دون استجوابه والتحقيق معه خوفاً من ان يتسنى للرسل من بغداد العبث برعيته وافسادها ، وبهذه التدابير اكتملت شقة الخلاف بين الاخوين ؛ وارسل الأمين في طلب الميثاقين المعلقين في الكعبة فمزقهما إرباً ، ثم ارسل جيشاً قوامه خمسون الف جندي بقيادة علي بن عيسى بن ماهان الى الري لمقاتلة المأمون وجيشه بقيادة طاهر بن الحسين ، فاشتبك الجيشان في معركة مني بها جيش الأمين بهزيمة منكرة بعد ان قتل قائده علي بن عيسى ،والتحق قسم كبير من جنوده بطاهر بن الحسين الذي ارسل خبر انتصاره مع رسول قطع المسافة البالغة ٧٥٠ ميلاً في ثلاثة ايام .

وعندئذ صادر الفضل بن الربيع مبلغ مئة الف درهم كان الرشيد قد وهبها المأمون قبل وفاته ، كما صادر جميع املاك المأمون الخاصة التي كان قد تركها في عهدة نوفل ، مربي ولديه مما دفع الشعراء

إلى هجو الخليفة الضعيف ووزيره الجشع . وقد ذهبت بطانة الامين إلى حد انها اقترحت عليه ان يأخذ ابناء المأمون رهائن لديه حتى يسلم نفسه او يفتك بهم . ولكن الخليفة لم يستقبل هـذا الاقتراح بالاستهجان فحسب ، بل عاقب بالحبس اولئك الاشخاص الذين تجرأوا على إسداء تلك المشورة المخزية .

وقد ارسل الأمين بعد ذلك عدة جيوش اخرى من العاصمة منيت كلها بالهزيمة نفسها ، وهكذا استطاع طاهر بن الحسين ان يطهر المناطق الجبلية ، وان يستولي على قزوين ، وان يصل إلى حلوان التي اتخذها مقراً عاماً له ، ومنها سار إلى الاهواز ، تاركاً هرثمة في الشمال .

مبايعة المأمون

وبايع اهل فارس المأمون بالخلافة فأصبح « امير المؤمنين » ، وعندئذ سلّم الفضل بن سهل مقاليد الامور كلها في امارته ، « من التيبت إلى همذان ، ومن المحيط الهندي حتى بحر قزوين » ، فأصبح يجمع بين امارة الحرب وامارة الخراج ، كما اسند إلى علي بن هشام منصب وزارة الحرب ، وإلى نعيم بن كاظم شؤون إدارة الدخل يساعده فيها الحسن ابن سهل .

وفيما كانت تلك الاحداث تتوالى في المشرق أشعل علي بن عبد ، احد أحفاد معاوية ، نار الثورة في الشام ، ودعا الناس الى مبايعته بالخلافة ، وفي الوقت نفسه ظهر له منافس آخر هو حفيد مسلمة ، ولكن انصارهما لم يلبثوا ان انفضوا من حولهما ، واختفى المدعيان بمثل ما ظهرا .

وفي الوقت نفسه كان قائد المأمون قد استولى على الاهواز واليمامة والبحرين وعُمان ، ثم توغل شمالاً واستولى على واسط . وكان لسرعة حركته وخضوع الشواطىء العربية الشرقية له تأثير قوي على البلدان

الاخرى ، فاعترف العباس بن الهادي ، عامل الأمين على الكوفة ، بسلطة المأمون ، وتبعه المنصور بن المهدي ، عامل البصرة ، ثم داود ابن عيسى ، أمير الحرمين ، فعاملهم المأمون باحترام وتقدير وأقرهم في مناصبهم . ثم زحف طاهر شمالاً فاستولى على المدائن ووصل إلى ضواحي بغداد ، بينما زحف هرثمة على العاصمة من الشمال .

حصار بغداد

وفي الوقت نفسه وصل قائد آخر يدعى المسيّب بن زهير ، فاشترك القواد الثلاثة في حصار بغداد . وقد عسكر طاهر بباب الانبار ، ونزل هرثمة في « نهربين » ، إحدى فتحات النهر ، واستمر الحصار عدة أشهر افرغ الأمين خلالها خزانة الدولة على جنوده وبطانته ، وانتهى إلى صهر الآنية الذهبية والفضية وتوزيعها على انصاره . ولقد اصيبت بغداد في ابان الحصار باضرار جسيمة ، ذلك ان الفريقين المتقاتلين أخذا بهدم القصور والدور التي كانت تعترض هجومها او دفاعها ، فتحول نصف المدينة الى خراب ، وعظمت محنة السكان ونكبتهم إلى درجة لم يطيقوا معها صبراً ، فانفضّ الاشراف والقواد من حول الأمين ، بينما استمر الرعاع والسوقة في كفاحهم بعناد وإصرار عظيمين ، واخيراً اضطر الأمين وامه واسرته إلى الاعتصام بالمنصورية (مدينة المنصور) على الضفة الغربية من النهر ، وهناك تحرج موقفه فأشار عليه بعض مستشاريه القلائل الذين لازموه بالفرار إلى الشام ، ولكنه مال إلى التسليم شرط أن يؤخذ إلى المأمون الذي كان يثق باخلاصه . وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات ، ولكن طاهراً أصر على أن يسلم الأمين نفسه اليه ، بينما كان الخليفة المنكود يأبى بشدة ان يسلم نفسه إلى ذلك الأعور الذي لم يكن يثق به ، والذي كان يعتقد انه عدو لدود له . وفي النهاية وافق الامين على ان يسلم نفسه إلى هرثمة ، وسوي الامر بأن

يُدفع الخاتم والقضيب والبردة إلى طاهر ، وبذلك ينال القائدان شرف إخضاع الخليفة .

مقتل الأمين

وفي ليلة الأحد ، ٢٣ محرم سنة ١٩٨ هـ ، خرج الأمين ، بعد ان ودع اولاده وداعاً مؤثراً ، إلى مركب هرثمة فاستقبله هذا بكل معاني الاحترام والرعاية ، وأمر رجاله بالاسراع به إلى معسكره ، وعندئـذ بدأ بعض جنود الفرس الغلاظ الاكباد ، وكانوا يرقبون خروج الامين برمي المركب بالحجارة الضخمة فانكسرت وانكفأت ، وكاد هرثمة يموت غرقاً لو لم يدركه احد الملاحين . اما الامين وقاضي المدينة فقد سبحا إلى الشاطىء حيث قبض عليهما بعض جنود الفرس وحملوهما إلى إحدى القلاع المجاورة وحبسوهما فيها . وكان الأمين يرتعد من البرد ، ولكن القاضي غطاه بعباءته . وفي ظلمة الليل هجمت جماعة من الفرس على الغرفة وانقضوا على الأمين فحاول المسكين الدفاع عن نفسه بالوسادة ، غير انهم ذبحوه وعرضوا رأسه في صباح اليوم التالي على اسوار بغداد .

ولما علم المأمون بنهاية اخيه البائسة حزن اعظم الحزن ، اذ لم يكن يتوقع قط ان تؤدي خلافاتهما إلى هذه النتيجة المحزنة ، وبادر فوراً إلى معاقبة القتلى ، ثم تبنى اولاد أخيه كي يعوضهم بعض الشيء عن فقد ابيهم ، ووكل الى السيدة زبيدة امر تربيتهم ، فلما بلغوا مبلغ الرجال زوجهم من بناته ، وقد مات احدهم في ميعة الصبا . كذلك ابقى المأمون لأسرة الأمين وحاشيتها جميع اموالها وممتلكاتها .

وهكذا قتل الامين وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، بعد حكم حفل بالاضطرابات وامتد اربعة اعوام وثمانية اشهر .

الفصل الثامن عشر

العباسيون (تابع)

١٩٨ – ٢٣٢ هـ ؛ ٨١٣ – ٨٤٧ م

المأمون العظيم – المعتصم – الواثق

المامون في مرو – الاضطرابات في بغداد – وفاة الامام علي الرضا – المامون في بغداد – الحروب مع الروم – المذهب العقلي – وفاة المامون – اخلاقه – تطور حياة العرب العقلية في عصر المامون – خلافة المعتصم – تغيير العاصمة – تشكيل الحرس التركي – القبض على بابك – هزيمة الروم – وفاة المعتصم – خلافة الواثق – اخلاقه – وفاته ·

المأمون في مرو

لو ان المأمون مشى توآً إلى بغداد اذن لما اختل حبل الأمن فيها في السنوات القليلة التالية ، ولكنه اعتمد على وزيره الفضل بن سهل ، واكتفى بأن يترك له السلطة المطلقة على شؤون الدولة يسيرها كيفما

شاء ، قانعاً هو نفسه بالانصراف إلى مناظرة الفلاسفة والعلماء الذين كانت تتألف منهم بطانته . وكان الفضل من ناحيته تواقاً إلى إبقاء الخليفة في مرو ، حيث كان تحت نفوذه المطلق ، ولم يكن يسمح بأن يتطرق إلى مسامع الخليفة اي نبأ عن الحالة الحقيقية السائدة في الغرب ، وهكذا ظل الخليفة يجهل تمام الجهل حقيقة الأحداث التي كانت تجري في العراق والشام .

الاضطرابات في العراق وجزيرة العرب

فبعد وفاة الامين ثار أحد اشياع الامويين ، واسمه نصر بن شبث من عشير عقيل ، على المأمون في الجزيرة ، وتمكن من تحدي جيوش الخليفة طيلة خمس سنوات . أما في العراق فقد ثار البدو ، مع جميع العناصر الرديئة المجاورة ، على الحسن بن سهل الذي كان اخوه الفضل قد ولاه على العراق .

ولم تخلُ الاضطرابات العامة في الولايات الغربية من الامبراطورية من نتائج وتأثيرات على احفاد علي الذين شعروا مع بعض اولاد اخيه جعفر الملقب بالطيار بأن الوقت قد حانَ لاستعادة حقوقهم . وفي الوقت نفسه ظهر علوي آخر يدعى « ابن طباطبا » في الكوفة واخذ يدعو الناس لآل البيت ، وكان يناصره في دعوته « ابو السرايا » ، احد قطاع الطرق ، فوحّد الاثنان قواتهما وهزما الحسن بن سهل وجعلا من نفسيهما سيدين على جنوب العراق كله ، غير ان ابن طباطبا لم يلبث ان مات مسموماً على يد ابي السرايا الذي اختار مكانه احد الشباب من العلويين . وفيما كانت هذه الاحداث تجري على ضفـــاف دجلة بويع محمد بن الامام جعفر الصادق بالخلافة في الحجاز ، وهكذا أصبحت البلاد كلها من حدود فارس الى اليمن ، غارقة في الفتن والقلاقل ، وانتشرت الفوضى وعم سفك الدماء ، وبرغم ذلك لم يكن يُسمح لأي من هذه

الانباء بأن يجد طريقه الى المأمون . وأخيراً اتخذت الثورة في العراق شكلاً مريعاً جداً بحيث اضطر الفضل الى ان يرسل هرثمة ، برغم شدة حقده عليه وحسده اياه ، لمقاتلة ابي السرايا ، فهزم الثائر وقتل ، وارسل الشاب الذي كان قد اختاره لمنصب الخلافة الى المأمون في مرو فأدخله في عداد بطانته .

وبعد أن قمع هرثمة الثورة في العراق أمر بالتوجه الى مصر ، غير أنه رفض اطاعة امر الوزير قبل ان يفتح عيني الخليفة على الاخطار المحدقة به ، فأسرع الى مرو حيث دار بينه وبين الخليفة حديث حماسي انبأ هرثمة في خلاله الخليفة بجرأة وصراحة كيف ان الامبرطورية العربية كانت تسير الى الخراب . وما كاد هرثمة يترك الخليفه إلى منزله حتى هجم عليه اعوان الوزير الفضل بسيوفهم فأصابوه بجراح خطرة توفي على اثرها بعد أيام قلائل . وكان المأمون يستفسر عن حاله فيقال له انه طريح الفراش في منزله ، ولم يعلم إلا بعد مدة طويلة بأن الدولة قد فقدت بموت هرثمة خادماً أميناً . واثار نبأ موت هرثمة موجة من السخط العنيف بين صفوف الجيش في بغداد نظراً لتعلق الجند به ، وبدأ القتال من جديد في كل مكان ، ورفض الشعب اطاعة الحسن بن سهل وأخيه الفضل وانتخبوا مكانه حسن المنصور حاكماً عليهم فقبل المنصب مؤقتاً الى أن يصل المأمون بنفسه الى العاصمة أو يرسل من ينوب عنه .

مبايعة علي بولاية العهد

وفي سنة ٢٠٠ هـ شرع المأمون في تنفيذ مشروعه الذي كان قد فكر فيه منذ امد بعيد ، وهو نقل الخلافة الى آل البيت ، ولهذه الغاية ارسل في طلب الامام الفاطمي « علي الثالث » ابن موسى الكاظم من

المدينة ، وصرح علناً بأنه بحث عن خليفة له في اسرته[1] وبين ابناء علي فلم يجد اجدر بمنصب ولاية العهد من ابن موسى ، وهكذا اخذ له البيعة بولاية العهد في الثاني من شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ ، ولقبه بـ « الرضا من آل محمد » ، وفي الوقت نفسه أمر باطراح اللون الاسود ، شعار اسرته ، وباتخاذ اللون الاخضر ، شعار الفاطميين ، شعاراً للدولة .

وقد أثارت مبايعة علي الرضا بولاية العهد غضب العباسيين في بغداد وسخطهم الشديد ، فسارعوا إلى مبايعة ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، وطردوا عمال الحسن من العاصمة ، فاتخذت الاضطرابات والقلاقل في بغداد وجوارها شكلاً مخيفاً ، واختفى كل اثر للحكم ، وشرع اللصوص وقطاع الطرق يقومون بأعمال السلب والنهب في رابعة النهار ، وساءت الامور في النهاية إلى درجة اضطر معها الاشراف إلى اتخاد التدابير الخاصة لحماية أنفسهم ، فألفوا فيما بينهم لجاناً لفرض القانون وصيانة النظام وإنزال العقاب بكل من تحدثه نفسه بالعدوان على المجتمع ، وواصلت هذه اللجان عملها حتى وصل المأمون إلى بغداد .

أما في جنوبي العراق وفي الحجاز فلم تكن الامور لتقل سوءاً ، ولم يكن لابراهيم ولا للحسن بن سهل أية سلطة ، فعمت الاضطرابات وهلع الناس وبدت امبراطورية المأمون وكأنها تتفكك وتنهار نتيجة لسوء إدارة الوزير الفارسي وانانيته .

في غمرة هذه الازمة توجه الامام علي الرضا إلى المأمون وأعلمه بحقيقة الحال ، وأنبأه بأن وزيره يخفي عنه الحقيقة ، وبأن الناس قد بايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، وبأن بني العباس لم يكونوا راضين عن مبايعته هو بولاية العهد ، كما أخبره بجميع ما حدث منذ وفاة الامين . ولقد دهش الخليفة ايما دهش وسأل بطبيعة الحال عما اذا كان

---

١ ــ يؤخذ من احصاء جرى ذلك الحين ان الاسرة العباسية بلغت ثلاثة وثلاثين الف نسمة بين رجل وامرأة وطفل .

هناك أحد غير علي الرضا يعلم بالحقائق التي سردها عليه فسمّى له الامام بعض قواد الجيش فأرسل المأمون في طلبهم وبعد ان أمنهم على أنفسهم ووعدهم بحمايتهم من انتقام الوزير ثنوا على كل كلمة قالها الامام وأضافوا ان الخلافة قد فقدت بموت هرثمة خادماً مجرباً اميناً ، وانه قتل على يد الفضل ، وان ابراهيم بن المهدي لم يكن مندوب المأمون كما ادعى الوزير ، وانما بايعه بنو العباس بالخلافة لنقمتهم عليه . عندئذ زالت الغشاوة عن عيني الخليفة وأمر بالركوب حالاً إلى الغرب ؛ وفي اليوم التالي سار مع جميع رجال بلاطه الى بغداد .

واذ وجد الفضل ان مكيدته قد حبطت وانه غير قادر على ان يصيب الامام الرضا بأي أذى ، اذ كان منصبه يحميه من كل اعتداء ، فقد شرع بصب جام نقمته على مرؤوسيه ، فأمر بجلد بعضهم وزج البعض الآخر في السجون ونكّل بعدد غير قليل منهم . وذهب الامام علي الرضا مرة اخرى إلى المأمون وأنبأه بأفعال الوزير فأجابه الخليفة بأنه لا يستطيع تجريد الوزير على الفور من كل سلطته ، وان عليه ان يفعل ذلك بالتدريج وعلى مراحل بطيئة ، غير ان الاعداء الكثيرين الذين كان الوزير قد البهم عليه ، شعروا بعزم الخليفة على عزله وتوقعوه ، فقتلوه في سرخس التي تبعد يوماً واحداً عن مرو ، فأمر الخليفة عندئذ باعتقال القتلة ومحرضيهم فضربت أعناقهم .

وفاة الامام علي الرضا

ومكث المأمون قليلاً في طوس بجوار قبر ابيه ، وهناك فقد صديقه ومستشاره الامام الرضا الذي كان قد انقذ الامبراطورية فعلاً من الخراب . وقد توفي الامام فجأة فخلفه ابنه محمد الملقب بالجواد والتقي ، وحزن المأمون لموته حزناً عميقاً وبنى له قبراً أصبح منذ ذلك الحين مزاراً يؤمه الحجاج الشيعة من جميع انحاء العالم ، ويعرف الآن بالمشهد أو

المشهد المقدس .

وبعد ان انتهت مراسيم دفن الامام واصل الخليفة سيره نحو العاصمة ، متوقفاً في كل مدينة مهمة . وفي النهروان ، حيث مكث ثمانية ايام ، قابله القواد واشراف بغداد وأفراد اسرته من بني العباس ، وكان الجميع حتى ذلك الحين يرتدون الملابس الخضراء ، ولكن الخليفة ، نزولاً على طلب طاهر بن الحسين ، الذي جاء من الرقة ليسير في ركابه ، ولرجاء الزعماء الآخرين ، عاد الى لبس السواد ، شعار العباسيين .

وصول المأمون الى بغداد

دخل المأمون بغداد دخول المظفرين ، فأقيمت الزينات في الشوارع ، وارتدى الناس أبهى الملابس ، وكان الجميع فرحين مستبشرين بعودة الخليفة إلى قاعدة حكمه . وبوصول المأمون انتهت جميع الاضطرابات والفتن ، وحلت اللجان التي كانت قد ألفت لصيانة الأمن والنظام . ومنذ ذلك الحين انصرف الخليفة إلى إعادة تنظيم الادارة وإصلاح الخراب والدمار الذي حل بالمدينة وقت الحصار .

تعيين طاهر أميراً على الشرق ، ووفاته

استعمل المأمون احد العلويين على الاراضي المقدسة ، وولى شقيقه الكوفة والبصرة ، وأسند إدارة الشرطة إلى طاهر الذي طلب في السنة التالية ولاية المشرق فاسندها اليه وتولاها إلى ان مات بعد سنتين فعين ابنه طلحة مكانه ودامت ولايته سبع سنوات .

كذلك استعمل المأمون على الشام ومصر عبدالله بن طاهر ، وكان قائداً محنكاً كأبيه وانما أكثر مروءة منه ، وعهد اليه ايضاً بمهمة إخضاع ناصر العقيلي فقاتله حتى استسلم اليه فارسله الى الخليفة فعفا عنه كعادته .

وبعد أن أعاد عبدالله بن طاهر الأمن إلى نصابه في الجزيرة سار الى مصر التي كانت تئن من فتنة داخلية فسحق الثوار في موقعة واحدة ، وكانت جماعة كبيرة من مسلمي الاسبان الذين نفاهم امـير الاندلس الاموي قد وصلوا الى مصر مع عائلاتهم واحدثوا بسلوكهم شغباً في الاسكندرية ، فدعاهم عبدالله الى القاء سلاحهم او مغادرة البلاد فاستأذنوا بالسفر الى كريت فاذن لهم في الحال وزودهم بالمؤن والمساعدات اللازمة لاحتلال الجزيرة وأبحروا مع عدد من المتطوعين الى جزيرة كريت واستطاعوا النزول فيها بسهولة . وبعد معركة قصيرة استسلم اهل الجزيرة فاحتلها المغيرون وأقاموا فيها هم واحفادهم منـذ ذلك الحين .

الاستيلاء على جزيرة صقلية

وكان زيادة الله الاغلب قد استولى قبل ذلك بعامين على جزيرة صقلية باسم الخليفة ، وفي تلك الاثناء قُمعت الثورات في اليمن وخراسان دون صعوبة تذكر ، وعومل الثوار برأفة غير اعتيادية .

وفي ذلك الحين تقريباً روع المأمون باكتشاف مؤامرة خطيرة لاغتياله دبرها عدد من وجهاء أهل بيته فأنزل بكبار المتآمرين العقاب العادل وصفح عن الباقين وكانوا من الرجال العاديين .

وفي شهر رمضان من سنة ٢١٠ هـ تزوج المأمون من خديجة الملقبة بـ « بوران » بنت الوزير الحسن بن سهل ، وكانت فتاة جميلة خطبها في اثناء اقامته في مرو ، وتدل روعة الولائم والافراح التي اقيمت في هذه المناسبة على عظمة البلاط العباسي وفخامته في هذا العصر .

بابك الاباحي وحروب الروم

وفي اوائل عهد المأمون ، بينما كانت ريح الفتن الداخلية تعصف

بالامبراطورية ، خرج أحد قطاع الطرق ، وكان يدعى بابك ، عن طاعة الخليفة واستولى على حصن من أمنع الحصون في وهاد مازندران ، وكان ينتسب الى الطائفة المانوية على المذهب الخرّمي ، ويؤمن بتناسخ الأرواح ويدعو الى الاباحية والتحرر من جميع القيود والمبادىء التي فرضتها الاديان السماوية .

وكان هذا الاباحي يغير من حصنه على البلدان المجاورة فيقتل الرجال ويسبي النساء ، فوجهت اليه الحكومة الحملة تلو الحملة ولكنه كان ينتصر عليها من معقله الحصين ، وتمكن من البقاء على هذه الحال سنين عديدة الى أن ارسل اليه الخليفة جيشاً كبيراً طوقه فهرع الى الروم وحرضهم على غزو البلاد الاسلامية . وكان على عرش الدولة البيزنطية آنذاك نيوفيلوس بن ميخائيل الذي تحالف مع بابك وأغار معه على الاراضي الاسلامية وقتل فيها عدداً كبيراً من المسلمين ، فسارع المأمون على رأس جيش كبير واشتبك مع الروم في ثلاث حملات متوالية وكاد يسحقهم سحقاً لولا انهم سارعوا الى طلب الصلح . وقد ادت هذه الحروب المتواصلة الى خلق عداوة مميتة بين الروم والعرب وتركت تراثاً من الحقد والضغينة لا تزال آثارهما باقية في الغرب حتى اليوم .

وبعد الانتصار على الروم سار الخليفة الى مصر فتمكن الافشين ، القائد التركي الذي بدأ نجمه يتألق في ذلك الحين ، من اخضاع الفرما ، اقصى نقطة في مصر العليا التي كان الثوار قد التجأوا اليها بعد طردهم من الاراضي السفلى .

وفاة المأمون

ولكي يحول الخليفة دون غزوات الروم المتكررة ، أو بالأحرى لصدّهم ، شرع في تأسيس مستعمرة عسكرية منيعة في الطوانة ، على بعد سبعين ميلاً الى الشمال من طرسوس ، ولكنه لم يكد ينتهي من

انشائها حتّى وافاه أجله ، فبينما كان المأمون واخوه معسكرين على مقربة من البدندون في ضواحي طرسوس ، جلسا ذات يوم من ايام الخريف الحارّة على ضفاف النهر الذي سميت المدينة باسمه يغسلان أقدامهما بمياهه الباردة ؛ وفي الليلة نفسها أصيب المأمون وأخوه بحمى شديدة ، فنقل المأمون على تلك الحالة الى طرسوس حيث توفي بعد مدة قصيرة ودفن في بستان لأحد اتباع والده المخلصين . أما المعتصم فقد شفي من مرضه واستطاع أن يستمع الى وصية أخيه قبل وفاته ، وقد جاء فيها قوله : « اعمل في الخلافة اذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغترّ بالله ومهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تغفل أمر الرعية ، الرعية الرعية ، العوام العوام . فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم . »

ولد المأمون في سنة ١٧٠ هـ ، أي في اليوم نفسه الذي اعتلى فيه هرون الرشيد عرش الخلافة ، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وستة أشهر ، عدا المدة « التي كانت الخطبة تقرأ فيها باسمه في جوامع مكة والمدينة ، وعدا المدة التي حوصر فيها الأمين ببغداد . »

أخلاقه

يصف المؤرخون المأمون بأنه كان قويّ البنية ، حسنَ المنظر ، هيّباً وقوراً ، يتحلى بالشجاعة والعزم والهمة وبعد النظر ، الى جانب الصفات المحمودة الأخرى ، وقد سجل له التاريخ سلسلة طويلة من الوقائع والاحداث الخالدة ، ولم يعتلِ عرشَ الخلافة العباسية قط خليفةٌ يضارعهُ حكمةً ورجاحة عقل .

المدنية والعلوم

يعتبر عصر المأمون ألمع عصر في التاريخ العربي ، ويسمى بحق عصر

الاسلام الذهبي ، فالذي لا ريب فيه أن السنوات العشرين التي قضاها في خلافة المسلمين قد تركت آثاراً خالدة لتطور المسلمين العقلي في جميع الحقول الفكرية ، ذلك أنّ منجزاتهم لم تقتصر على أي فرع معين من فروع العلم والأدب ، بل شملت كل ناحية من عـالم الفكر والعقل ، فازدهرت الفلسفة والرياضيات وعلم الفلك والطب وقطعت خطوات عظيمة خلال تلك الحقبة المجيدة من المدنية الآسيوية ، وانتقل تراثها العقلي الى اسبانية الاسلامية والقسطنطينية المسيحية ، ومنهـا تحدّرت إلى اوروبة الحديثة . وقد انشأ المأمون المدارس والكليات في جميع انحاء الدولة ، كما انشأ مجلساً استشارياً للدولة مؤلفاً من ممثلي الطوائف جميعاً ، فكان هذا المجلس يضم المسلمين واليهود والمسيحيين والصابئين والزرادشتيين على السواء ، وشملت حرية المعتقد جميع الناس في عصر المأمون .

أبو اسحق محمد المعتصم بالله (٢١٨ – ٢٢٧ هـ ؛ ٨٣٣ – ٨٤٢ م)

كان المأمون قبيل وفاته قد كتب وصيته وعهد فيها بخلافته إلى اخيه ابي اسحق محمد الملقب بالمعتصم بالله (او المعتصم اختصاراً) ؛ ومن العسير علينا في عصرنا هذا ان نفهم الاسباب التي حملت المأمون عـلى استبعاد ابنه العباس الذي كان محبوباً من الجيش ، وبخاصة من الجنود العرب ، ومن الجائز ان يكون المأمون قد خشي أن لا يتبع ابنه السياسة التي كان قد وضعها لتصريف شؤون الدولة ، ولعله رأى كذلك أن في شخصية المعتصم الأقوى والأنضج ضمانة اكبر لتنفيذ هذه السياسة .

ولقد ضج الجيش في بادىء الأمر وسعى الى مبايعة العباس بالخلافة، ولكنّ العباس احترم وصية أبيه وبادر الى مبايعة المعتصم ، وعندئـذ حذا الجيش حذوه ، وهكذا بويع المعتصم بالخلافة في طرسوس ، غير أنه بسبب من قصر نظره اوقف بناء طوانة واعاد الى طرسوس الذخائر والمؤن والاسلحة التي كانت قد ارسلت الى تلك المدينة ، وفيما عدا هذا

الاجراء سعى المعتصم الى ان يقتفي خطوات اخيه ويترسّم خططه .

تكوين الفرق التركية

على أن أعظم خطأ ارتكبه المعتصم هو انه انشأ فرقاً عسكرية من الاتراك وغيرهم من الاجانب ، تلك الفرق التي كانت من بعدُ السبب في تقويض دعائم الخلافة . وكانت تلك الفرق تنتظم المماليك الاتراك والمرتزقة من آسيا الوسطى وبلاد اليمن ، ومصر ، وكان يُطلَق على الذين جاءوا من وراء النهر أهل فرغانة ، وعلى الذين جاءوا من افريقية واليمن اسم المغاربة ، كان يقودهم ضباط من ابناء جلدتهم ، وكان هؤلاء الضباط يتلقون اوامرهم من الخليفة مباشرة . وهكذا كانت هذه الفرق مستقلة تمام الاستقلال عن جيوش العرب والفرس ، ولا عجب اذا كانت هذه الفرق قد اصبح لها بعد مدة وجيزة من القوة والنفوذ ما كان للحرس الروماني قديماً ، وأصبح في مكنتها أن تنصب الخلفاء وتعزلهم حسب رغباتها ومشيئاتها . كان افراد هذه الفرق التركية يرتدون الملابس الفاخرة ويمتطون صهوات جيادهم في شوارع بغداد فيصدمون كل من يقع في طريقهم ، فاشتد سخط الناس في العاصمة ، وشعر الخليفة بانتشار روح التذمر واشتم رائحة الثورة ، فعمد إلى الانتقال مع فرقة المحبوبة الى مكان يدعى سامرّا (أو سُرَّ من رأى) على مسير بضعة ايام الى الشمال الغربي من بغداد ، وابتنى فيها لنفسه قصراً منيفاً وشيّد الثكنات العسكرية لسكنى ٢٤٠ الف جندي ، والاصطبلات الفسيحة لاستيعاب ١٦٠ الف حصان ، كما اقطع الرؤساء الاتراك اقساماً من المدينة بنوا فيها قصوراً ضارعت قصر الخليفة فخامة وروعة .

الزط (الجت) في العراق

اشتهر حكم المعتصم بظهور القبيلة الهندية التي تعرف بالزط او

« الجت » على ضفاف دجلة . اما كيف وصلت تلك القبيلة الى تلك البلاد فليس في التاريخ ما ينبئنا بذلك ، ولكن المقول انهم كانوا يعدّون سبعة عشر الف نسمة ، وانهم كانوا يعيشون على السلب والنهب ، مما حمل المعتصم على ان يرسل عليهم قوة صغيرة فاسرتهم وارسلتهم في زوارق الى بغداد ليشاهد الخليفة ملابس نسائهم ، ومن ثم أنزلوا على حدود صقلية حيث هاجمهم الروم ، من غير ما سبب إطلاقاً ، وذبحوا معظمهم . وتشتت الباقون منهم في تريستا [1] .

وفي سنة ٨٣٥ م توفي في بغداد الامام « محمد التقي » الذي كان هو وزوجه ام الفضل ، بنت المأمون ، في زيارة للمعتصم ، فخلفه في الامامة ابنه علي .

وفي تلك الاثناء كان بابك قد انتشر هو واتباعه يعملون في البلاد السلب والنهب ، حتى أصبح اخضاعه على جانب عظيم من الأهمية ، ولذا ارسل المعتصم الافشين ، وكان من أشهر قواده الاتراك ، على رأس جيش فاشتبك معه في سلسلة معارك استولى بعدها على حصن بابك المنيع والقى القبض على ابنه وسائر أقاربه وأرسلهم الى بغداد فصفح عنهم الخليفة وعاملهم بالرعاية والعطف . أما بابك فكان قد فر مع أخيه الى أرمينية حيث قبض عليها زعيمٌ من زعمائها وسلمها الى الأفشين الذي أرسلها بدوره الى الخليفة . وإذ كانت جرائمهما أفظع من أن تُغتفر فقد أمر الخليفة بحملها على ظهر فيل ، وان يطاف بها في شوارع المدينة ، ثم نفذ فيها حكم الأعدام .

وقد اطلق الأفشين سراح سبعة آلاف امرأة مسيحية ومسلمة كان بابك قد أسرهن ، وأعادهن إلى بيوتهن ، ولدى عودة الأفشين استقبله الخليفة استقبالاً رائعاً وأغدق عليه النعم والهدايا ، ولكن نهاية الأفشين

---

١ ـ يبدو ان البوهيميين والنور هم من سلالة هؤلاء الإسرى المساكين ، بقايا قبيلة الـزط .

وكانت نهاية محزنة.

الحروب مع الروم

بينما كان الأفشين منهمكاً في مازندران ، حاول امبراطور الروم ، وكان متحالفاً مع بابك ، شن هجوم لصالح هذا الاخير ، فغزا كبيدوكيا ، ودمر البلاد الاسلامية ، وأحرق مدنها ، وأعمل السيف في رقاب رجالها ، وأسر نساءها وأطفالها ، كما أشعل النار في « زبطرة » ، مسقط رأس المعتصم ، وحوّلها الى رماد ، وقتل الرجال وسمل عيونهم بالحديد المحمّى ، ولما انتهت انباء هذه الافعال الوحشية الى مسامع المعتصم غضب غضباً شديداً وأقسم على ان ينتقم انتقاماً مريعاً ، وبادر الى تعبئة جيشه وسار به على الروم الخونة المتوحشين ، فالتقت طليعته بجيش تيوفيلس في ظاهر انقرة وأنزلت به هزيمة منكرة ، ثم سار الخليفة الى عمورية مسقط رأس تيوفيلس فحاصرها خمسين يوماً ثم فتحها عنوةً ودمرها تدميراً وقتل من سكانها ثلاثين الفاً وارسل من بقي منهم حياً الى بغداد مع القائد اليوناني « ماطس » وبعد ذلك توجه بالزحف الى القسطنطينية كي يُنزل بالقوة البيزنطية الضربة القاصمة ، غير انه توقف عن الزحف عندما اكتشف مؤامرة خطيرة في معسكره ، فقد تبين له أن بعض القواد العرب الذين كانوا يحسدون الاتراك لنفوذهم ويحقدون على الخليفة لسوء معاملته اياهم قد غرروا بالعباس الشاب وتآمروا معه على قتله . وقد اكتشفت المؤامرة مصادفة وبدت واسعة النطاق بحيث قلبت خطط الخليفة رأساً على عقب ، وكان من نتيجتها ان أعدم المتآمرون ، ومن بينهم العباس ، ومن ثم قفل المعتصم عائداً الى سامرا بعد ان عقد معاهدة صلح مع تيوفيلس الذي كانت قد نالت منه موقعة عمورية وأضعفته الى حد بعيد .

وفي سنة ٢٢٤ هـ ثار المازيار المانوي ، امير طبرستان ، وكان

الأفشين يعتقد بأن عبد الله بن طاهر لن يقوى على قمع ثورة المازيار ، وأن المعتصم سيضطر الى توليته امارة المشرق بدلاً من عبد الله ، ولذلك راح يحرّض المازيار على مواصلة القتال حتّى النهايـة . ولكن عبد الله تمكن من أسر المازيار وأرسله الى بغداد حيث أقرّ في حضرة الخليفـة بخيانة الافشين وأظهر الكتب التي كان قد تسلمها منه ، فحكم المعتصم على المازيار بالاعدام وأمر بحبس الافشين في بيته الى ان يموت جوعاً ، وبعد قليل اصيب المعتصم بمرض عضال توفي على أثره في ١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ .

ويقال ان المعتصم قد شجع الزراعة واهتم اهتماماً بالغاً في انماء موارد الامبراطورية الطبيعية . ومع انه كان حاد المزاج قاسي الفؤاد الا ان نفوذ قاضي القضاة احمد بن ابـي داود كثيراً ما حال بينه وبين ارتكابه الكثير من افعاله الجائـرة والاستماع الى مشورة وزيره السيئة ، وكان القاضي احمد بن داود من زعماء المعتزلة .

أبو جعفر هرون ، الواثق بالله (٢٢٧ – ٢٣٢ هـ ، ٨٤٢ – ٨٤٧م)

وبعد وفاة المعتصم خلفه ابنه ابو جعفر هرون ، الواثق بالله، وكان، رغم افتراءات بعض المؤرخين المتعصبين ، حاكماً ممتازاً كريماً صبوراً . وكانت ادارته تتصف بالحزم وسعة المعرفة . ومع انه كان محباً للمرح فان حياته الخاصة كانت فوق الشبهات ، وكان يرعى الآداب والعلوم ويشجع الصناعة والتجارة ، وكان محسنـاً كريماً حتّى انه لم يكن في الامبراطورية الاسلامية متسول واحد طوال حكمه ، وفي عهده جرى تبادل الاسرى بين الروم والمسلمين على نطاق واسع .

ولكن الواثق استمر في الخطأ الذي ارتكبه ابوه ، وواصل تعظيم شأن الأتراك على حساب العرب والفرس ، وعيّن « أشناس » التركي سلطاناً على الامبراطورية وقلّده سيفاً وحزاماً مطعمين بالجواهر . وكذلك

حاول الواثق أن يبث المبادىء العقلية بين أفراد الشعب ولكن القضـــاة الرجعيين قاوموا محاولته هذه وشرعوا يعملون ضـــده ، وكانت وفاته المبكرة كارثة عظمى ، اذ بموته انقضى مجد الاسرة العباسية ، وأضحى تاريخها في خلال القرنين التاليين صورة مشوشة لخلفـــاء كانوا يرتقون عرش الخلافة من دون حول ولا طول ويوارون التراب غير مأسوف عليهم .

وقد توفي الواثق في مدينة سرّمن رأى في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ .

الفصل التاسع عشر

العباسيون (تابع)

٢٣٢ - ٤٥٤ ه ، ٨٤٧ - ١٠٦٣ م
من المتوكل الى القائم

المتوكل ، او نيرون العرب - انحلال الامبراطورية - المنتصر - المستعين - ثورة الزنـــوج - المهتدي - المعتمد - المعتضد - الدولة الفاطمية - القرامطة - المكتفي - استرداد مصر - السامانيون - المقتدر - القاهر - الراضي - المتقي - آل بويه - رجال البلاط - المستكفي - الغزنيون - المطيع - الطائع - القادر - القائم - السلجوقيون - طغرل بك .

أبو الفضل جعفر ، المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ - ه ؛ ٨٤٧-٨٦١م)

عندما توفي الواثق رغب القاضي الأكبر والوزير وسائر كبار رجال الدولة في أن يرفعوا ابنه الصغير إلى سدة الخلافة ، غير أن « وصيفاً» التركي عارضَ في ذلك «لأن القلنسوة والدراعة والصولجان كانت اثقل من أن يحملها الولد » ولذلك انتخبوا جعفراً ، اخا الواثق ، ولقبوه

بالمتوكل على الله . وقد كانت مدة خلافة « نيرون العرب » هذا خمس عشرة سنة ، وفي عهده بدأ انحلال الامبراطورية وسقوطها ، اذ كان غارقاً في الفسق والفجور لا يكاد يصحو من السكر ، ومع ذلك فقد كان عظيم الاهتمام باعادة المذهب التقليدي فأصدر أمره بمنع المناظرات والمباحثات وبالتمسك بالمبادىء والتعاليم القديمة او التقليد ، وأقصى رجال الفكر عن المناصب العامة ومنع المحاضرات التي كانت تلقى في العلم والفلسفة ؛ وذهب الى حد أنه زج في السجن القاضي ابا داود وولده ، وكانا من مشاهير المعتزلة ، وصادر املاكهما . غير ان اضطهاد المتوكل لم يقتصر على رجال الفكر وحدهم بل تعداهم إلى غير المسلمين (الذميين) الذين قاسوا الامرين على يديه وأقصوا هم ايضاً عن وظائف الدولة .

وقد بلغ به كرهه للخليفة علي بن ابي طالب وآل بيته أنه هدم قبر الشهيد الحسين وحول عليه مجرى من الماء ، ومنع الناس من زيارته تحت طائلة العقاب الأشد ، كما أمر بمصادرة ارض « فدك » من جديد ، واعدم ابن الزيات ، وزير الواثق ، لأنه لم يظهر نحوه قدراً كافياً من الاحترام قبل ان يعتلي سدة الخلافة .

وقد اغتنم الروم فرصة هذه الفوضى التي عمت الامبراطورية واستأنفوا غزواتهم فأحرقوا دمياط في مصر ثم اغاروا على كليكية وأسروا منها عشرين الف شخص ذبحت منهم الامبراطورة ثيودورة اثني عشر الفاً بعد أن مثلت بهم اشنع تمثيل ، ولم ينج منهم الا اولئك الذين اعتنقوا المسيحية .

موت المتوكل

واخيراً بلغ سلوك المتوكل حداً لا يطاق فتآمر عليه القواد الاتراك وعزموا على الفتك به . ويقال ان ابنه المستنصر لم يكن راضياً عن جور أبيه ، وأنه كان على علم بالمؤامرة ، وهكذا ، بينما كان نيرون العربي

غارقاً في نشوة الخمرة فاقد الوعي دخل عليه المتآمرون وفتكوا به .

أبو جعفر أحمد المستنصر بالله (٢٤٧ – ٢٤٨ هـ ، ٨٦١ – ٨٦٢ م)

ولما قتل المتوكل بويع بالخلافة المستنصر بالله ، ويصفه المؤرخون بأنه كان حاكماً تقياً ورعاً وعادلاً ، كريم الخلق سمحاً ذكياً وحريصاً على خير شعبه ورفاهيته . وقد شيّد المستنصر قبري علي والحسين من جديد وأعاد الى آل بيتها الاملاك التي كان المتوكل قد صادرها منهم ، وألغى جميع الاعباء والقيود التي كان ابوه قد فرضها على الذميين ، غير انه لسوء الحظ ما لبث أن توفي بعد حكم لم يدم إلا نحواً من ستة أشهر [١] .

أبو العباس أحمد المستعين بالله

وكان القواد الاتراك في ذلك الحين قد أصبحوا وحدهم المتحكمين في مصير الخلافة ، ولذلك فانهم ما لبثوا أن بايعوا بها حفيداً آخر من احفاد المعتصم ولقبوه بالمستعين بالله ، ولكنهم جردوه من كل نفوذ وسلطان . وفي غمرة الاضطرابات التي اعقبت موت المستنصر شرع امراء الولايات في الاستقلال بولاياتهم تدريجياً ، وهكذا تلاشت سلطة الخلافة حتى كادت تصبح سلطة اسمية فحسب .

الطاهريون

وكان عبد الله بن طاهر قد توفي في ايام المعتصم وترك ولايته بين يدي ابنه طاهر الذي رأى ان من حقه الشرعي ان يتولى منصب ابيه ، وكانت ادارته لا تقل عن ادارة ابيه تفتحاً وعدلاً وحرية . ولقد أسست هذه الاسرة الطاهرية بلاطاً في نيسابور ، عاصمة خراسان ،

---

١ – كان المستنصر اول خليفة عباسي بني له ضريح فوق قبره .

وعندما توفي طاهر سنة ٨٦٢ م خلفه ابنه محمد فحكم الولاية حتى سنة ٨٧٣ م . وكانت القوة التي يتمتع بها الطاهريون مشجعاً لغيرهم من حكام الولايات فلم يلبث المشرق أن أفلت سريعاً من أيدي بني العباس .

فرار المستعين الى بغداد

ولما ضاق المستعين ذرعاً بجيشه التركي فرّ الى بغداد حيث كان يتوقع مناصرة جيش العرب والفرس ، فحاول الاتراك حمله على العودة دون جدوى وعندئذ بايعوا بالخلافة ابن المتوكل الثاني ولقبوه بالمعتز بالله وساروا لمحاصرة بغداد فحاصروها حتى اقتنع المستعين بالتنازل عن الخلافة شرط أن يُسمح له بالعيش بسلام في المدينة المنورة ، ولكن أحد رجال المعتزّ فتك به في واسط وهو في طريقه الى الحجاز .

ومنذ ذلك الحين بدأ القواد الاتراك يختصمون ويتنازعون فيما بينهم ، ولم يلبث أن قتل منهم قائدان هما « وصيف » و « بغا » بعد أن لعبا دوراً بارزاً في الاحداث الاخيرة ، واستولى من بعدهما على الوزارة بايكباك الذي استطاع ان يظفر من الخليفة بولاية مصر وينيب عنه احمد ابن طولون . وعندما قتل بايكباك بعد ذلك بقليل استقل احمد بن طولون في حكم مصر واثبت انه كان ادارياً بارعاً شريفاً وحاكماً عادلاً . وفي سنة ٨٦٨ م توفي الامام علي (النقي) فخلفه ابنه الحسن الملقب بالعسكري.

وقد ولي المعتز الخلافة نحواً من ثلاث سنوات . وفي سنة ٢٥٥ ه ألح الجند في طلب مرتباتهم فعجز المعتز عن تلبية طلباتهم وعندئذ جروه الى خارج القصر واذاقوه صنوف الاهانات وأجبروه على التنازل عن الخلافة ثم زجوا به في السجن حيث قتلوه غيلةً وهذا هو الدرك الذي قدّر لاحفاد المنصور والرشيد أن ينحدروا اليه !

أبو عبدالله محمد المهتدي بالله ، (٢٦ رجب سنة ٢٥٥ ﻫ)

لما تنازل المعتز رفع القواد الاتراك الى سدة الخلافة ابن الواثق ولقبوه بالمهتدي بالله ، وكان رجلاً متين الخلق فاضلاً عادلاً تواقاً إلى اداء واجبه ، ولو أنه جاء في غير هذا الزمن لأثبت جدارته وحنكته في الحكم. لقد طرد المهتدي بالله من القصر المغنين والموسيقيين والراقصات وسائر الطفيليين ، وحاول أن يحكم الدولة بمقتضى القانون ، مما جعله يصطدم سريعاً بالاتراك فالتقاهم بشجاعة مع نفر من رجاله ، غير أن اعوانه خذلوه فوقع بين أيدي الثائرين الذين أمعنوا في إيذائه حتى اجبروه على التنازل وعندئذ زجوه في السجن حيث توفي بعد وقت قصير .

أبو العباس أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ ﻫ ، ٨٧٠ م)

وبويع بالخلافة أكبر أبناء المتوكل الذين كانوا وقتئذ في قيد الحياة ، ولقب بالمعتمد على الله ، وكان ضعيفاً متقلباً محباً للهو والملذات ، ولكن أخاه ابا أحمد ، الملقب بالموفق ، كان رجلاً ذا حنكة عسكرية فائقة ، وكان هو الحاكم الفعلي للامبراطورية ، وظل ركن الخلافة وعمادها حتى وافاه اجله قبيل وفاة أخيه المعتمد . في هذا العهد ، والعهدين التاليين ، خفت سطوة الاتراك ، وظهرت بوارق امل في عودة السلطة والازدهار إلى امبراطورية المأمون المتفككة ، بالرغم من انفصال طبرستان سنة ٨٦٤ م التي استطاع أحد أحفاد علي المسمى الحسن بن زيد أن ينشر الدين الاسلامي بين اهلها ويجعل من نفسه حاكماً عليها .

وفي عام ٨٧٠ م ، استولى « يعقوب بن الليث الصفار » ، مؤسس الاسرة الصفارية ، وكان قد بدأ حياته كجندي عادي ، على سجستان من الطاهريين ، ونشر سلطانه تدريجياً على بلاد فارس الحديثة كلها ، وفي عام ٨٧٣ م ، أخرج محمداً حفيد طاهر من خراسان ولم يلبث أن

ضمّ طبرستان الى امارته بعد وقت قصير . وكان نجاحه سبباً في اذكاء غروره الى درجة جعلته يغزو العراق ، غير أن جيش « الموفق » لقيه في واسط وهزمه بعد أن انزل به خسائر فــادحة ، فانسحب يعقوب عندئذ الى امارته . وفي السنة التالية رغب ، بعد أن أعدّ عدّته ، في الاستيلاء على عاصمة الخلافة ، غير أن منيته عاجلته في جنديسابور ، فخلفه أخوه عمرو بن الليث ، وصالح المعتمد فأقرّه على امارته كلها بعد أن ارسل اليه العقد والعهد .

السامانيون

كانت بلاد « ما وراء النهر » قد انفصلت عن عاصمة الخلافة بقيام امارة الصفارية ، وأصبحت مستقلةً خاضعة لحكم اسماعيل الساماني ، وكان مالكاً للجبال وقائداً للقوافل . وتدين اسرته بظهورها الى المأمون الذي كان قد عين ، في سنة ٨١٩ م أحمد ، حفيد الساماني ، على امارة فرغانة ، ثم خلفه ابنه ناصر . ولما توفي ناصر في سنة ٨٩٢ م خلفه أخوه اسماعيل ، وكان رجلاً محنكاً متين الاخلاق ، فلم يهمــل اتخاذ اي تدبير في سبيل توطيد سلطانه ، واستطاع أن يقصي الى مــا وراء جاكارت قبائل التركمان التي كانت تشن الغارة تلو الغارة على ما وراء النهر ، كما استطاع أن يكتسب محبة رعاياه بفضل ادارته الحكيمة العادلة ، وبذلك اقام دعائم دولته على اسس متينة ، حتى اقره الخليفة على امارته فجعل الحكم فيها وراثياً في اسرته كما فعل عمرو بن الليث ، لقاء جزية اسمية يدفعها للخليفة .

الطولونيون

وكان احمد بن طولون قد استقل بملك مصر والشام ، وعندما توفي في سنة ٨٨٤ م خلفه ابنه خمارويه الذي جعل قاعدة حكمه في دمشق .

ومع أن ظهور هذه الاسرة المستقلة قد أضعف الامبراطورية ، الا أنه لم يخلُ من فائدة لشعوب البلاد التي كانت تحكمها ، ذلك أن حكامها قد ناصروا الفنون والآداب وشجعوا التجارة والصناعة .

ثورة الزنوج (الزنج)

وكانت ثورة الزنوج التي بدأت في كلدة في عهد المعتز قد أصبحت أشد ما يكون خطراً بزعامة رجل فارسي أبـــاح لاتباعه أرذل انواع الخلاعة والفجور فسمي بالخبيث صاحب الزنج ، وانضم تحت لوائه العبيد من مختلف انحاء البلاد فقوي بهم ساعده وأعلن نفسه سيداً على كلدة والأهواز وظل عدداً من السنين يتحدى كل محاولة لاخضاعه إلى ان استطاع الموفق أن يهاجمه في سنة ٨٨٢ م ويفتك به ويشتت رجاله . وفي تلك السنة نفسها كانت سلطة الخليفة تشمل جزيرة العرب والجزيرة وبابل وكلدة (العراق العربـي) وعراق العجم واذربيجان وارمينية والولايات المطلة على المحيط الهندي ، وكانت هذه البلاد ما تزال تؤلف امبراطورية واسعة جديرة بالرعاية والمحافظة .

وقد انتهزت الدولة البيزنطية الفتن الداخلية التي كانت تحدق بالخلافة وقامت بعدة غارات على الاراضي الاسلامية ، واكتسحت في بادىء الأمر كل شيء أمامها ، غير أنه لما سقطت الشام في يدي احمد بن طولون هب حاكم طرسوس الطولوني لمقاتلتهم وهزمهم في سلسلة من المعارك .

آخر أئمة الشيعة (٨٧٤م)

توفي الامام حسن العسكري في سنة ٢٦٠ هـ في عهد المعتمد وبوفاته انتقلت الامامة الى ابنه محمد الملقب بالمهدي ، آخر أئمه الشيعة .

أبو العباس أحمد المعتضد بالله (٨٩٤ م)

ولما توفي الموفق سنة ٢٧٨ هـ تولى الخلافة من بعده أخوه ثم خلفه ابن اخيه احمد بن الموفق ولقب بالمعتضد بالله . وفي خلال عهد المعتضد والعهد الذي تلاه لم يحصل اي انفصال جديد عن الدولة ، بل لقد ساعدت مجموعة من الظروف المؤاتية على تقوية سلطان هذين الخليفتين اللذين نجحا في اعادة بعض الولايات المنفصلة الى دولة الخلافة . ويلقب المعتضد بالسفاح الثاني لأن من المعتقد انه أعاد الى الاسرة العباسية ، التي كان الوهن قد تطرق اليها ، سطوتها وسلطانها . ويصفه المؤرخون بأنه كان جريئاً نشيطاً ، وادارياً عاقلاً ، وجندياً محنكاً ، وكان كالسفاح الاول قاسي الفؤاد عديم الرحمة فقمع الفتن والاضطرابات وفرض الرهبة وقضى على روح الفوضى بين الناس .

وكان المعتضد موفقاً في حروبه مع البيزنطيين فاستطاع أن يسترد منهم عدداً من المدن وأن ينتزع عدداً آخر ، كما استطاع ان يطرد الاكراد من الجزيرة وان يقمع بحزم ثورة الامير حمدان ، امير الموصل ، الذي كان قد حاول ان يستقل بالحكم .

استرداد مصر

غير أن أعظم ما حققه المعتضد انه استرد مصر سلمياً وأعادها الى الخلافة عملياً ، ذلك أن خمارويه بن احمد بن طولون وخليفته ، كان قد عرض من تلقاء نفسه على الخليفة جزية سنوية قدرها مليون قطعة من الذهب ان هو أقره على إمارة مصر وجعلها وراثية في اسرته ، وقد توطد هذا الخضوع الارادي بزواج المعتضد من ابنة خمارويه قطر الندى.

وكان حكم المعتضد حازماً صارماً ، وكانت بعض التدابير التي

اتخذها مفيدة خيّرة دون ريب ، غير أن الاصلاح الذي أكسبه محبة الشعب أكثر من أي شيء آخر انما كان القانون الخاص بالمواريث ، ذلك أن العادات العربية القديمة كانت تقضي بحرمان ذوي الارحام من الميراث ، وأخذ اهل السنة بهذه القاعدة في بادىء الامر حتّى الغاها المعتضد مع ديوان الميراث وأمر باعطاء ذوي الارحام حقهم من الميراث .

وكان المسلمون حتّى ذلك الحين يحتفلون بعيد رأس السنة الشمسية كما كان يحتفل به قدماء الفرس ، وكان الخليفة في ذلك اليوم المسمّى بعيد النيروز يستقبل المهنئين ويتلقى الهدايا ويخلع الهبات ، وكان الناس يتبادلون الزيارات ويرسلون الهدايا من البيض الملون والحلوى ، ويلهون باضاءة الالعاب النارية ويرشّون بعضهم بعضاً بالمياه الملونة أو المعطرة ، ولكن المعتضد ألغى هاتين العادتين كما منع بيع الكتب الفلسفية في الاسواق وجعل عيد رأس السنة في شهر حزيران (يونيو) بدلاً من آذار (مارس) ولذلك سمي بالنيروز المعتضدي .

القرامطة

وفي هذا العهد ظهر الفاطميون في افريقية والقرامطة الاشتراكيون الذين سرعان ما نشروا الرعب في جميع أرجاء جزيرة العرب وسورية والعراق وجلبوا الخراب والدمار على العالم الاسلامي . وكان اول ظهور القرامطة في الكوفة ثم حملوا مبادئهم الى البحرين التي كانت ملجأ جميع أصحاب المبادىء الثورية في العالم الاسلامي . وفي البحرين ، بزعامة « ابي سعيد الجنابي » اشتد ساعدهم وعظم شأنهم إلى درجة استطاعوا معها في عام ٢٨٧ هـ أن يغزوا كلدة وأن ينزلوا هزيمة منكرة بجيوش المعتضد ، ثم دخلوا الشام بعد ذلك بعامين اثنين وأعملوا فيها التخريب والتدمير . وفي سنة ٣٠١ هـ قتل ابو سعيد فتولى قيادتهم ابنه ابو طاهر

الذي استولى على البصرة وأعمل السيف والنار في البلاد التي كانت في متناول يديه . وقد استمر القرامطة في بغيهم ، يهزمون الجيش بعد الجيش ، إلى أن انقضّوا فجأة في سنة ٣١٧ هـ (في عهد المقتدر) على مكة في أهم يوم من ايام الحج فقتلوا الحجاج ودنسوا الكعبة وحملوا معهم الحجر الاسود . فطفح الكيل وهب المسلمون قاطبة للقضاء على اعداء الانسانية فنشبت حرب دموية هائلة استمرت خمس عشرة سنة وانتهت بالقضاء على هذه الفرقة المفسدة ؛ غير ان النتائج الوخيمة التي ترتبت على ظهور القرامطة لم تزُل آثارها قط ، ذلك انه قد أحال جزيرة العرب وقسماً كبيراً من بلاد الشام وكلدة الى أرض خراب وشلّ ساعد الخليفة في الوقت الذي كان يستعيد فيه قوته وعزمه، مما مكن البيزنطيين ، أعداء العرب الطبيعيين ، من غزو الاراضي الاسلامية آمنين مطمئنين .

مبايعة أبي محمد علي المكتفي بالله (٢٢ ربيع الثاني سنة ٢٩٩ هـ ؛ ٥ حزيران « يونيو » سنة ٩٠٢ م)

توفي المعتضد سنة ٢٩٩ هـ فخلفه ابنه ابو محمد علي ولقب بالمكتفي بالله ، فأثبت انه كان حاكماً عادلاً كريماً حكيماً . كان المكتفي في الرقة عندما توفي ابوه فأخذ له البيعة الوزير القاسم بن عبيد الله ، وكان وزيراً محنكاً مستقيماً . وقد وصل المكتفي الى بغداد في سفينة أبحرت وسط هتاف الشعب وتهليله ، ولدى وصوله أمر بالسجون التي كان ابوه قد ابتناها تحت الارض فهدمت وأقام في مكانها المساجد ، ورد الاراضي والبساتين التي كان المعتضد قد امتلكها ليشيد عليها قصره ، وهكذا اكتسب المكتفي محبة الناس الذين كان ابوه المعتضد قد ملأ قلوبهم بالرعب والخوف .

وبالرغم من الفتن التي قام بها القرامطة والتي شغلت جيوش الخليفة

بصورة دائمة في العراق والحجاز وجنوب الشام فقد استطاع المكتفي ان يضع مصر تحت سلطانه المباشر وان يصد البيزنطيين وينزل بهم بعض العقاب ، كما استولى على انطاكية ، احدى أهم مدنهم .

المقتدر بالله (١٢ ذو القعدة ٢٩٥ هـ ، ١٣ آب « اغسطس » ٩٠٧ م)

غير ان المكتفي توفي لسوء الطالع بعد حكم قصير دام خمس سنوات، وخلفه أخوه جعفر ، وكان صبياً في الثالثة عشرة من عمره ، ولقب بالمقتدر بالله ودام حكمه قرابة خمس وعشرين سنة . وقد استطاع وزراؤه بفضائلهم وقدرتهم ، ان يحفظوا للدولة قوتها ويفرضوا هيبتها في اوائل حكمه ، ولكن الدولة سرعان ما أخذت في التردي والسقوط في نهاية عهده بسبب طيشه وتهوره . وفي تلك الاثناء استولى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي على افريقية الشمالية وطرد منها زيادة الله بن الأغلب آخر الامراء الأغالبة في افريقية ففر الى مصر ومنها الى العراق.

وكان الديلم الذين يسكنون القسم الشمالي الأقصى من ميديا القديمة قد اعتنقوا في ذلك الحين تقريباً الدين الاسلامي على يدي حفيد لعلي يدعى الحسن أو الأطروش واستولى على طبرستان وكيلان واستخلصهما من أيدي السامانيين . وفي سنة٣٠٥هـ وصل الى بغداد وفد من لدن الامبراطور البيزنطي فاستقبل استقبالاً حافلاً ، كما جرى في السنة نفسها افتتاح مستشفى « المقتدرية » الكبير وخصص المقتدر ميزانية سنوية له بلغت سبعة آلاف دينار .

وفي اواخر عهد المقتدر آلت مقاليد الحكم الفعلي الى يدي امه التي كانت تعرف بمتانة خلقها وحسن كفاءتها ، وكانت تصدر المراسيم والأوامر باسمها وتجلس ايام الجمعة محاطة بالقضاة والأشراف للنظر في الشكاوي والمظالم . هذا وقد اكتسب أصحاب المذهب الحنبلي الرجعيون

نفوذاً عظيماً في ايام المقتدر ، وأدى تعصبهم الأعمى الى نشوب فتن عديدة في بغداد . وقد شجعهم ضعف الحكومة على ان ينصبوا أنفسهم رقباء على الناس ، فكانوا يعتدون على حرمة المنازل ويستولون بالقوة على كل ما يعارض اهواءهم التعصبية ، وكان مقتهم الخاص موجهاً الى التآليف الفلسفية والعلمية التي كانوا ينتزعونها من المكتبات ويحرقونها أمام أعين الناس .

أبو منصور محمد القاهر بالله (٣٢٢ هـ ، ٩٣٤ م)

وفي سنة ٣٢٠ هـ قتل المقتدر في معركة بينه وبين أحد النبلاء الثائرين ، فبويع بالخلافة من بعده ابنٌ آخر للمعتضد يسمى بأبي منصور محمد ولقب بالقاهر بالله . وكان القاهر ظالماً فاسداً سيء النية ، حتى أن الذين رفعوه الى سدة الخلافة كانوا هم الذين خلعوه وسملوا عينيه . وفي عهده عادت مصر فاستقلت مرة اخرى عن الخلافة وكان عليها حاكمها المشهور الأخشيد التركي مؤسس الدولة الأخشيدية .

أبو العباس محمد الراضي بالله

وعندئذ بايع القواد الأتراك بالخلافة أبا العباس محمد ، ابن المقتدر ، ولقبوه بالراضي بالله ، وبمبايعته تلاشت بقايا السلطة والعظمة التي كانت قد بقيت للخلفاء ، اذ انه لم يمض وقت طويل على توليته الخلافة حتى استولى محمد بن رائق ، حاكم واسط والبصرة ، على السلطة العليا فلم يجد الراضي بداً من أن يخلع عليه لقب « أمير الامراء » الذي استحدث خصيصاً من أجله ، ولم يبق للخليفة الآن سلطان الا على بغداد وضواحيها ، ذلك ان كلاً من حكام الأمارات استقل بامارته . وبالرغم من أن ملوك الأندلس الامويين كانوا قد امتنعوا حتى ذلك الحين عن اتخاذ

لقب الخليفة وأمير المؤمنين فان انحطاط السلطة العباسية وزوالها الفعلي في هذه الحقبة أديا بعبد الرحمن الثالث الى ان يلقب نفسه بالخليفة .

وقد عُزل محمد بن رائق على يدي القائد التركي بجكم الذي لُقب عندئذ بأمير الأمراء .

أبو اسحق ابراهيم المتقي بالله (٣٢٩ هـ ، ٩٤٠ م)

وعندما توفي الراضي بالله سنة ٣٢٩ هـ بويـع بالخلافة ابو اسحق ابراهيم ولقب بالمتقي بالله ، وكان مجرد دمية في يدي سكرتيره بجكم . ولم تمض فترة قصيرة حتى اغتيل بجكم فولي الحكم من بعده تركي آخر ولكنه لم يلبث أن هزم على يد ابن رائق فأصبح هذا أميراً للامراء مرة اخرى ، غير انه سرعان ما هزم على يدي زعيم تركي آخر ففر إلى الموصل حاملاً معه الخليفة الدمية ، وهنا كان حفيدا الأمـير حمدان ، أمير الموصل وتكريت ، يصدان غارات الروم بقدر ما كانت تسمح لها امكاناتهما المحدودة ، وعندما اغتيل ابن رائق تولى الاميران الحمدانيان حسن وعلي ، حراسة الخليفة ، بعد ان اتخذ الاول لقب ناصر الدولة ، والثاني سيف الدولة . وعندئذ أعادا الخليفة الى بغداد وأجلساه على العرش مرة ثانية ، الا ان فتنة اخرى لم تلبث ان نشبت بزعامة قائـد تركي يدعى « توزون » ، فاضطرا معها الى مغادرة بغداد ، فوقع المتقي في يدي « توزون » . وقد فر المتقي مرة الى الرقة ولكنـه ما لبث أن عاد بعد أن اغدق « توزون » عليه الوعود بألاّ يغدر به ، غير انه نكث بوعوده وسمل عينيه وخلعه عن الخلافة .

وفي عهد المتقي غزا الروم بلاد المسلمين ووصلوا الى مدينة الرها ، وكانوا يفتكون بالمسلمين من كل جـانب ، ولم تنج مدينة الرهـا إلا بتسليم مسوحة المسيح الشهيرة التي كانت محفوظة في كنيسة المدينة .

ابو القاسم عبد الله المستكفي بالله (صفر ٣٣٣ هـ ، تشرين الأول « اكتوبر » ٩٤٤ م)

وعندما خلع « توزون » المتقي بالله بايع بالخلافة ابا القاسم عبد الله ولقبه بالمستكفي بالله ، غير أن « توزون » مات بعد وقت قصير من تولية المستكفي بالله ، وخلفه في منصبه امير الأمراء سكرتيره جعفر بن شيراز . وبدأ امراء الديلم ، ابناء بويه ، زحفهم على العراق ، فأراد المستكفي أن يكتسب مؤازرتهم فخلع على اكبرهم أحمد لقب « معز الدولة » وعلى أخيه علي لقب « عماد الدولة » ، وعلى الحسن لقب « ركن الدولة » ، غير أن معز الدولة لم يلبث أن نصب نفسه سيداً على بغداد واتخذ لقب السلطان ونقش اسمه على العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة مقروناً باسم الخليفة . وكان منصبه شبيهاً بمنصب شارل مارتيل في عهد ملوك فرنسا ، ذلك انه كان هو الحاكم الفعلي ، وكان الخليفة مجرّد صورة يتناول معاشاً يومياً يبلغ خمسة آلاف دينار من خزينة الدولة . ومع أنّ معز الدولة كان محباً للآداب والفنون فانه كان بطبيعته قاسي القلب . كان متشيعاً ، وكان هو الذي جعل اليوم العاشر من محرّم يوم حزن تخليداً لذكرى مذبحة كربلاء. وفي هذا العهد غزت جيوش الروم الاراضي الاسلامية جميعاً وعجزت الامبراطورية الاسلامية الواهنة عن صد تقدمهم.

أبو القاسم الفضل المطيع لله (٣٢٤ هـ ؛ ٩٤٦ م)

وعندما شك معز الدولة في أن المستكفي يتآمر عليه خلعه وسمل عينيه في شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ٩٤٦ م ، ثم بايع بالخلافة ابا القاسم الفضل ، ابن المقتدر ، ولقبه بالمطيع لله . وقد ظل البويهيون ممسكين بزمام الحكم قرابة قرن دون أن ينازعهم فيه منازع ، وتغلبوا على العناصر العسكرية التركية ، واقصوا الحمدانيين عن الموصل ،

واصبحت الجزيرة وعراق العرب وغرب فارس كلها تحت حكمهم .. ولا ريب في أن بعضاً من حكامهم اتصف بالقسوة والظـلم ، إلا أن حكمهم أدى بوجه عام الى رفاه الشعب وازدهار الآداب والعلوم .

وتوفي معز الدولة في سنة ٣٥٦ ﻫ فخلفه في منصبه امير الأمراء ابنه « باختيار » الملقب بعزّ الدولة . وبعد سنوات سبع أصيب الخليفة المطيع لله بالشلل فتنازل بناء على طلب الأمير البويهي ، لابنه ابي بكر عبد الكريم فلقب بالطائع لله .

ومن الادلة على سخاء الأمراء الحمـدانيين والبويهيين ، ورعايتهم الآداب والفنون ، ذلك العدد من الرجال البارزين الذين تألق نجمهم في ذلك العهد ، كالمؤرخ المسعودي ، والفيلسوف ابي نصر الفـارابي ، والشاعر المتنبي ، وابي الفرج الاصفهـاني صاحب كتاب الاغاني ، وابي القاسم التنوخي والدينوري ، وكثير غيرهم من الفلاسفـة والعلماء والشعراء والقضاة ممن عاصروا المطيع لله .

وقد اقترن تولي الطائع لله الخلافة باستيلاء الخليفة الفاطمي ، الملقب بالمعز لدين الله الكبير ، على الشام والحجاز ، فأصبحت الخطبة تقـرأ باسمه في الحرمين . وبعد قليل خلع عضد الدولة ابن اخيه عز الدولة ، فاضطر الخليفة إلى أن يقرّه في مكان ابن اخيه ، ولم يكتف بذلك بل منحه ايضاً لقباً دينياً بالاضافة الى لقبه الزمني ، فسمّاه « تاج الملّة » وفي سنة ٣٧٢ﻫ توفي عضد الدولة فخلفه ابنه « صمصام الدولة » الذي لقب بشمس الملّة ، ولكن اخاه شرف الدولة لم يلبث أن عزله وتولى الحكم نحواً من اربع سنين ، بعد أن حملَ الخليفة على ان يمنحـه لقب شاهنشاه ، أي ملك الملوك . وفي سنة ٣٧٩ ﻫ توفي شرف فخلفه ابنه ابو ناصر ولقب ببهاء الدولة وضياء الملّة .

وقد شجع كلٌ من عضد الدولة وشرف الدولة الروح الادبية وأحييا مدرسة بغداد التي كانت قد اصابها الأهمال اثناء الثورات التي قامت في

وجه الخلافة .

أبو العباس أحمد القادر بالله (٣٨١ هـ ، ٩٩١ م)

خُلع الطائع لله على يدي بهاء الدولة ، وأكره على التنازل لأخيه أبي العباس أحمد الذي لقب بالقادر بالله . وقد اقام الطائع في قصر أخيه ، ويبدو أنه لقي معاملة تميزت بالتقدير والاحترام مما لم يكن مألوفاً في ذلك العصر ، وتوفي في سنة ٣٧٣ هـ . ويصفه المؤرخون بأنه كان تقياً ورعاً ، عادلاً مستقيماً ، يقضي معظم لياليه في التهجد والصلاة وينفق قسماً كبيراً من دخله في البر والاحسان ، إلا اننا لا نستطيع أن ننكر انه كان متعصباً في آرائه ضيقاً في تفكيره ، وأن ظروف عصره اجبرته على أن يتخذ موقفاً رجعياً صارماً من كل حركة ترمي الى التطوير والاصلاح .

وكان الفاطميون في ذلك الحين ينشرون سلطانهم في كل ناحية ، وكان العزيز ، خليفة المعز ، قد استولى على حمص وحماه وحلب ، واعترف بسلطانه اهل الجزيرة ، وكذلك كان مذهب المعتزلة ينتشر بسرعة .

واذ كان الخليفة القادر ملماً بالشرع ، مجرداً من كل سلطة زمنية فقد وقف نفسه على تدعيم سلطة الخلافة العباسية ومكانتها الروحية ، فكان يرئس ، بوصفه الزعيم الديني ، اجتماعات الفقهاء الذين كانوا يصدرون الفتاوى بتكفير الفاطميين وتحريم حرية الفكر ، وقد وضع هو نفسه بعض الكتيبات يهاجم فيها المعتزلة والمذهب العقلي ، فكانت نتيجة ذلك كله اذكاء روح البغضاء بين الطوائف وصبغ المعتقدات بجمود جعل الاصلاح في منتهى الصعوبة فيما بعد .

الغزنويون (٩٩٩ م)

في هذه الحقبة افل نجم السامانيين الذين حكموا بلاد ما وراء النهر

وخراسان بنجاح باهر من سنة ٨٧٤ الى سنة ٩٩٩ م ، ذلك ان جندياً تركياً يدعى البتكين ، بدأ حياته مملوكاً وتوصل الى أن ينـال مركزاً سامياً في خدمة مولاه ، فر إلى بخارى عندما سخط عليه الامير التـالي ، وتمركز في مناطق افغانستان الجبلية واتخذ غزنة قاعدة لحكمه وظل يتحدى جميع المحاولات التي جرت لاخضاعه طوال ست عشرة سنة . وعندما توفي البتكين في سنة ٩٩٥ م ، افضى الامر إلى صهره « سبكتكـين » الذي اكتسب بحكمته وحسن ادارته محبة رعاياه واحترام جيرانه ، فلم يلبث الخليفة أن اعترف بحكومته واسبغ عليها الصفة الشرعية ولقبه بناصر الدولة وبعث اليه من بغداد بالعقد والخلع التقليدية وبذلك أصبح «سبكتكين» المؤسس الشرعي للدولة الغزنوية .

السلطان محمود

ولما توفي « سبكتكين » نشب صراع على الحكم بين ولديه محمود واسماعيل ، اذ كان محمود راغباً في اقتسام الملك مع أخيه ، بينما كان اسماعيل يريد ان يستأثر بالحكم لنفسه ، ولذلك نشب بين الاخوين قتال انتصر فيه محمود إلا أنه عامل اخاه اسماعيل معاملة كريمة .

وقد انفرط الآن عقد الدولة السامانية ، ففي سنة الف للميلاد استولى السلطان الغزنوي على خراسان فأرسل اليه الخليفة العقد والخلع التقليديـة ولقبه بيمين الدولة وأمين الملّة .

وكان عهد السلطان محمود من ألمع العهود في تاريخ آسية ، فقـد جمّل غزنة ورعى العلوم والفنون ، وكان بلاطه ملاذاً لمشاهير العلماء والادباء ، وتألق في عهده نجم كثير من الفلاسفة والشعراء امثال البيروني والفردوسي والدقيقي .

وقد غزا السلطان محمود الهند مرات عديدة ، الا انه لم يستول بصورة دائمة على اي جزء وراء حدود البنجاب . وفيما كان هو

منهمكاً في الشرق عبرت قوة كبيرة من التركمان نهر سيحون من القرغيز ونزلت في بلاد ما وراء النهر ، وارتكب السلطان الغزنوي غلطته الفاحشة، عندما سمح لتلك القبائل بالاقامة في تلك الامارة ، قانعاً منها بالجزية الاسمية والاعتراف له بالطاعة . ولكي يضعف شوكة هذه القبائل — كما اعتقد — فقد أقصى الى خراسان احدى قبائلها ، مع زعيمها سلجوق ، ولكن السلاجقة هنا لم يلبثوا أن ازدادوا عدداً وعدّة الى أن استطاعوا ان يمتشقوا الحسام في وجه اسيادهم السابقين .

السلطان مسعود

توفي السلطان محمود في سنة ١٠٣٠ م تاركاً امبراطورية واسعة الاطراف لابنه مسعود الذي حاول ان يُجلي عن خراسان تلك القبيلة التي اقامت في قلب مملكته نتيجة لخطأ سياسي ارتكبه أبوه ، ونشبت بينه وبينهم معركة خالدة بالقرب من هراة دارت الدائرة فيها على مسعود فانهارت دولة الغزنويين وقامت على انقاضها دولة السلاجقة .

الدولة السلجوقية

اقتصرت سلطة السلطان مسعود الآن على افغانستان والبنجاب الى الشرق ، وعندما توفي اعتلى العرش عدة امراء تعاقبوا عليه سراعاً ، وظلت شؤون الدولة الغزنوية تتخبط في الفوضى حتى تولى امرها السلطان ابراهيم صديق الشاعر الفيلسوف الحكيم « سنائي » الذي عقد الصلح مع امير خراسان السلجوقي ووجه جهوده كلها الى تدعيم سلطانه باتجاه الهند .

طغرلبك

بعد هزيمة السلطان مسعود انتخب السلاجقة طغرلبك ، حفيد الزعيم

الذي تسموا باسمه ، لزعامة القبيلة . ويصفه ابن الاثير بأنه كان ملكاً حكيماً ، رفيقاً وكريماً ، فاضلاً يؤثر بساطة العيش ، محباً للعلم . وسريعاً ما أخضع طغرلبك جرجان وعراق العجم وخوارزم وبعض الولايات المهمة الاخرى في الغرب ، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام امراء بني بويه في شمال فارس فأقصاهم عن اماراتهم او اضطرهم الى الاعتراف بسلطانه . والمعروف عن طغرلبك انه كان كلما استولى على مدينة انشأ فيها مسجداً ومدرسة تخليداً لانتصاره ، فذاع فضله وتقواه ، مما سهل له الفوز على أعدائه .

وفيما كان سلطان طغرلبك يطغى على سلطان البويهيين في فارس كان الخليفة الشيخ القادر بالله يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فتوفي عام ٤٢٢ هـ وهو في السابعة والثمانين من عمره ، بعد أن تولى الخلافة احدى واربعين سنة . وفي عهده تألق نجم العديد من العلماء البارزين الذين خلفوا أثراً خالداً في تاريخ الاسلام ، أمثال القاضي عبد الجبار العالم المعتزلي ، وخصمه ابى أسحق الاصفهاني الأشعري ، والعلامة « الشيخ المفيد » أكبر مجتهدي الشيعة ، والشاعر « ابي عمر بن الدراج » والقاضي « ابن شاهين » ، وغيرهم .

ابو جعفر عبد الله ، القائم بأمر الله

عندما توفي القادر بالله بويع بالخلافة من بعده ابنه ابو جعفر عبد الله ، ولقب بالقائم بأمر الله ، وكان فاضلاً ورعاً عالماً شديد الثقة والايمان بالله ، محسناً وصبوراً . وكان يشجع العلم ويتقن فن الكتابة ، محباً للعدل والبر . ويبدو انه لعب ، بصمت وهدوء طيلة اربع وعشرين سنة تقريباً ، دور الخليفة المجرد من السلطة الزمنية تحت وصاية البويهيين . وفي عام ٤٦٦ هـ استولى قائد تركي يدعى « ارسلان البساسيري » على السلطة العليا بعد ان خلع الملك الرحيم

البويهي من منصب أمير الامراء ، وعندئذ استنجد القائم بالملك السلجوقي فأسرع طغرلبك الى بغداد ، ولدى وصوله ارتد البساسيري الى الموصل. غير انه ما ان ترك طغرلبك بغداد ليقمع احدى الثورات في فارس حتى عاد البساسيري الى العاصمة وخلع الخليفة العباسي وبايع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وارسل البردة والقضيب والمنبر الى مصر وخطب له في كل مسجد من مساجد العراق ، ولكن طغرلبك عاد مسرعاً الى بغداد فقاتل البساسيري وهزمه وفتك به وأعاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله الى العرش فمنحه هذا السلطة الزمنية العليا على جميع الممتلكات الاسلامية التي كانت لا تزال تعترف بسلطة العباسيين الروحية ، واقام له حفلة رائعة في بغداد ألبسه فيها بنفسه تاجين يرمزان الى السلطة على العرب والعجم وخلع عليه سبع حلل ترمز الى الأقطار الاسلامية السبع ، وعندئذ اعترف الامراء لطغرلبك بالسلطة على المشرق والمغرب .

الفصل العشرون

العباسيون (تابع)
من عهد القائم الى المستظهر
٤٥٥ ـ ٥٠٣ هـ ؛ ١٠٦٣ ـ ١١١٠ م

بدء الحروب الصليبية

الخليفة القائم بأمر الله ـ طغرلبك ـ الحروب مع الدولة البيزنطية ـ وفاة طغرلبك ـ تولية الب ارسلان ـ الغزو الروماني ـ موقعة ملازكرد ـ انهزام الجيوش الرومانية ـ اسر رومانوس ـ معاهدة الصلح ـ سمل عيني رومانوس ومقتله على يد اتباعه ـ وفاة الب أرسلان ـ تولية الملك الصالح ـ وفاة القائم ـ مبايعة المقتدي بأمر الله ـ عهد ملكشاه الزاهر ـ ظهور الحشاشين ـ حسن الصباح ـ اغتيال نظام الملك ـ وفاة ملكشاه ـ الخلاف بين اولاده ـ وفاة الخليفة المقتدي ٠ مبايعة المستظهر بالله ـ بدء الحروب الصليبية ـ حصار انطاكية ـ سقوطها ـ مذبحة المسلمين ـ تدمير معرة النعمان ـ مذبحة بيت المقدس ـ نهب طرابلس ٠

أصبح السلاجقة بزعامة طغرلبك الشعب المسيطر على آسية ، والمعروف أن هذه القبيلة هي فرعٌ من العنصر التركي ، وانها استمدت اسمها من الزعيم الذي دخلت تحت لوائه الى بلاد ما وراء النهر ، ومن بعدُ الى خراسان . ومع أن الاتراك والمغول ينتميان إلى أصل واحد فقد كان بينهما فرق كبير ، اذ بينما كان المغول يعيشون وما يزالون في اقصى حدود آسية الشرقية في حالة شبه بربرية تُقارب حياة التوحش ، كانت القبائل المغربية قد تأثرت تأثراً كبيراً باحتكاكها بمدنية العرب . وكان السلاجقة ، الذين كانوا اعظم هذه القبائل تقدماً ، قد اعتنقوا الاسلام بحرارة واندفاع ، وأصبحوا حماته الغيورين . وفيما كان العرب منصرفين إلى تشجيع فنون السلم ، كان السلاجقة منصرفين بكل قواهم الى نشر سلطان الاسلام وبسط نفوذه ، والنصفُ الاخير من القرن الحادي عشر انما يشكل ازهى حقبة في تاريخهم ، ففيها اعترف السلاجقة بسلطان أعلى واحد ، واتحد امراؤهم الاقطاعيون فيما بينهم واعلنوا له اخلاصهم وولاءهم .

وكان الروم قد انتهزوا ضعف الخلافة المتزايد كي يبسطوا سلطانهم على آسية ، وكانت الغارات التي كانوا يشنونها في الماضي قد تطورت في عهد بعض ملوكهم الاشداء الى محاولات للاحتلال ، وفي نهاية القرن العاشر الميلادي اصبحت دولتهم تمتد حتى مدينة انطاكية جنوباً ، وحتى حدود ارمينية شرقاً .

وفاة طغرلبك وتولية ألب ارسلان

وفي سنة ١٠٦٠ م . اعلن طغرلبك الحرب على البيزنطيين واقصاهم عن كبيدوكية وافروجية ، ولكنّ احتلال تينك المنطقتين احتلالاً دائماً لم يتم إلا في عهد ابن اخيه العبقري « ألب ارسلان » الذي تولى رئاسة السلجوقيين بعد وفاة عمه دون أن ينجب ولداً ذكراً ، وانعم عليه

الخليفة بلقب السلطان . ويصفه ابن الاثير بأنه « بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة الى بره بالرعية وارادته خيرهم » .

وبعد ان انتصر الب ارسلان على الروم واستولى نهائياً على «بلاد الكرج» و « ارمينية » ، عاد الى « خيوة » في اذربيجان ، ولكن الانباء لم تلبث أن وصلته بأنّ دايوكنيس رومانوس (ويسميه العرب ارمانوس) الذي كان قـد أنقذ من الاعدام ورُفع الى العرش بفضل الامبراطورة اديسيا — قد هجم على آسية الصغرى وتوغل فيها على رأس قوة هائلة قوامها أكثر من مئتي ألف رجل بغية تخريب بغداد واخضاع آسية الغربية كلها لسلطان الروم . كذلك علم ألب ارسلان انه لم يسبق أن خرج من القسطنطينية للغزو او النهب جيش اكثر عدداً وأعظم عدة من الجيش الذي خرج به ارمانوس والذي كان كلما تقدّم أمعن المسلمون في الفرار منه إلى أن وصلوا الى ملازكرد ، وكان حصناً منيعاً يقع في منتصف الطريق بين « أرضروم » و « وان » ، وهنا كان السلطان قد اسرع الى نجدتهم واشتبك مع الروم في معركة قضت على سلطانهم في آسية بالرغم من قلة عدد المسلمين الذين خاضوا المعركة مستبسلين ونجحوا في انزال الهزيمة بجيش الروم واسروا ملكهم وقواده وحملوهم الى معسكر السلطان فعاملهم معاملة طيبة بالنظر الى مكانتهم .

وبعد مفاوضات طويلة عقد السلطان معاهدة صلح مع ارمانوس تعهد هذا فيها بتزويج بناته من أولاد ألب ارسلان ، وبأن يفتدي نفسه مع جميع الأسرى بمليون دينار ، وبأن يدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمئـة وستون ألف قطعة ذهبية ، وبتسليم جميع أسرى الحرب . وعندئذ استأذن الامبراطور ورجاله بالرحيل الي عاصمتهم فأذن لهم وأمر بـأنّ تصحبهم قوة من المسلمين الى الحدود ، ولكن ارمانوس عـلم وهو في طريقه الى بلاده أن رعاياه كانوا قد خلعوه عن الملك ، وكان السلطان مستعداً لمساعدته بالسلاح ، ولكن الروم كانوا قـد قبضوا على ارمانوس

وسملوا عينيه وفتكوا به قبل ان يتمكن السلطان من الوصول الى نجدته .

وعلى أثر معركة ملازكرد وهب السلطانُ ابن عمه سليمان بن قطلمش ولاية آسية الصغرى ، وقد أثبت سليمان أنه كان حاكماً عاقلاً وحكيماً وجندياً شجاعاً وتمكن من توسيع ملكه الى هلسبونت شمالاً والى البحر الابيض المتوسط غرباً وفرض الجزية على ملوك الروم ، كما جعل عاصمته في نيقية احدى مدن الاناضول وظل فيها حتى استولى عليها الصليبيون فانتقل الى قونية وبقيت آسية الصغرى تحت حكم أحفاده الى ان تغلب عليهم التتر . ويعرف هذا الفرع من السلاجقة بسلاجقة الروم وقد تركوا كثيراً من الآثار الدالة على سلطانهم ومدنيتهم .

وفاة ألب ارسلان

توفي ألب ارسلان بطعنة من ثائر كان قد حكم عليه بالاعدام ، وكان عهده يتميز بالخير والحكمة والعدل ، وكان له طوال حكمه وزير يدعى الخوجه حسن ويلقب بنظام الملك ، أسند اليه ألب ارسلان السلطة المطلقة لادارة شؤون البلاد المدنية . وقد خلف ألب ارسلان ابنُه ملكشاه الذي تولى السلطنة ولقب بجلال الدولة .

تولية ملكشاه

وبعد ذلك بثلاث سنوات توفي الخليفة القائم فخلفه حفيده ابو القاسم عبدالله الملقب بالمقتدي بأمر الله ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ، غير انه كان قد اثبت قوة في شخصيته . ويصف المؤرخون المقتدي بأنه كان متديناً فاضلاً حازماً ، فأقصى عن العاصمة جميع العناصر السيئة واتخذ اجراءات أخرى لنشر الاخلاق الفاضلة والقضاء على الفساد ، غير أن غلاة الحنبليين كانوا مصدراً دائماً للمتاعب ، وكثيراً ما أدت الفتن التي كانت تنشب بينهم وبين الأشعرية الى خسائر فادحة في الارواح

من الطرفين معاً .

ولكن اهتمام العالم الاسلامي في هذه الحقبة لم يكن مركّزاً في الخليفة وبلاطه ، بل في السلطان الأعظم ، حاكم آسية .

عهد ملكشاه

في أوائل حكم ملكشاه نشبت بعض الفتن الداخلية التي قام باحداها أخوه نفسه ، وليس أدلّ على أخلاق السلطان من ذلك الحادث الذي جرى في طوس ، وهو انه بعد ان صلى في مشهد الامـــام علي الرضا قال لوزيره انه ابتهل في صلاته الى الله كي ينصر أخاه عليه اذا كان أجدر منه بحكم المسلمين . كان ملكشاه حكيماً ونبيلاً وعادلاً ، ولم يكن ليضارعه في هذه الصفات الا ملوك قلائل . وقد أبقى وزيره الخوجة حسن نظامَ الملك في منصب الوزارة ومنحه السلطة المطلقة ولقبه أتابك . ولعل نظام الملك أقدر وزير بعد يحيى البرمكي أنجبته آسية ، وإن اعماله في الادارة والحكم لتنهض دليلاً خالداً على عبقريته وكفاءته ، فقد انتشر الامن والسلام في ربوع السلطان الواسعة الممتـــدة من حدود الصين الى البحر الابيض المتوسط غرباً ، ومن كورجيا شمالاً الى اليمن جنوباً ، وقـــام هو نفسه باثنتي عشرة جولة في طول البلاد وعرضها ليتفقد شخصياً أحوال كل امارة وحاجاتها ، كما انشأ المنـازل والمخافر على طول الطرق التجارية وطرق الحجيج ، وازدهرت في عهده التجارة والصناعة والآداب والفنون وانتشرت اللغة الفارسية وزُينت مدن آسية بالكليات والمستشفيات والمساجد والقصور وشقت الطرق والأقنية تسهيلاً لحركة النقل والزراعة .

اصلاح التقويم

وكان لاصلاح التقويم الذي أمر به السلطان او وزيره أهمية كبرى

للعالم أجمع ، فقد عهد بالمهمة الى لجنة من العلماء برئاسة الفلكي المشهور عمر الخيام ، فأصلح هــذا اللفيف من الفلكيين جميع الاخطاء بطريقة لاحتساب الوقت فاقت ، كما يقول « غيبون » ، طريقة جوليان وقاربت دقة التقويم الغريغوري ، كما قرر أولئك الفلكيون تعيين رأس السنة في اول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بدلاً من توسط مرورها ببرج الحوت فعرفت بالسنة الجلالية نسبة للسلطان جلال الدين .

وكان سليمان ، حاكم الروم السلجوقي ، قد وسّع سلطانه حتى حدود ريوط ، واستولى على عدة جزر ، واعترف نقفور الذي اعتلى عرش بيزنطة عندما تنازل ابن قسطنطين ، والكسيوس كوستيوس ، بسلطان ملكشاه وشرعا يدفعان له الجزية . وفي سنة ٤٦٧ هـ طرد سليمان الروم من امارة انطاكية واحتلها ثانية باسم السلطان ، الا ان هــذا الاحتلال لم يلبث أن قابله َفقْدُ جزيرة صقلية بعد سبع سنوات . ففي سنة ١٠٦١ م كان النورمنديون قد غزوا تلك الجزيرة وسهلت تقدمهم الفتن التي كانت تعصف بالمسلمين آنئذ ، وبعــد حرب دامت ثلاثين عاماً أخضع الكونت الروماني « روجر » الجزيرة لسلطانه بصورة نهائية سنة ١٠٩١ م .

وفي أواخر ايام ملكشاه ظهر الحشاشون في وهاد « مازندران » التي كانت في وقت مضى معقل بابك الخرّمي وأصحابه . هذه الجمعية الدموية ، التي نشأت على غرارها فيما بعد الجمعيات السرية في اوروبة وآسية ، اسسها حسن الصباح ، وكان زميلاً لنظام الملك في الدراسة فلما خاب مطمحه في أن يلعب دوراً مهماً في الامبراطورية السلجوقية آلى على نفسه ان يقوض دعائم السلطة الشرعية بالسم والخنجر ، فالتحق بالخليفة الفاطمي في مصر وعينه هذا رسولاً الى المشرق وفوض اليه الدعوة الى مبادىء الاسماعيلية ونشرها . ولم يكن للاسماعيلية حتى ذلك الحين الا رؤساء او دعاة يتدرجون في مراتب العقيدة السرية ، واتباع

او رفقاء يلقنون مبادئها السرية بصورة تدريجية وتتألف منهمْ أغلبية الجمعية السرية . وقد رأى الحسن فوراً انه لا يستطيع تحقيق مشروعه بأمان ونشاط إلا بانشاء طبقة ثالثة مؤلفة من عملاء يكونون أدوات صماء عمياء في ايدي رؤسائهم يحركونهم كيفما يشاؤون فيلقون منهم الطاعة دونما حساب للعواقب ، وقد دعي هؤلاء العملاء بالفدائيين ، وكان رئيسهم الاعلى يسمى بسيدنا ويعرف عند العامة بشيخ الجبل الذي كان الفدائيون يؤلفون حرسه وينفذون أوامره المميتة [1] . واطلق المسلمون على هؤلاء الحشاشين اسم الملاحدة ، وفي سنة ٤٨٣ م استولى الحسن الصباح على قلعة آلموت (عش النسر) المنيعة في جبال مازندران ومنها شرع يوجه هجماته على المدن الآمنة .

اغتيال نظام الملك

وقد سيّر ملكشاه حملتين على هؤلاء الحشاشين ، ولكن منيته عاجلته قبل أن يتمكن من القضاء على جمعيتهم البغيضة . وفي سنة ١٠٩١ م اغتيل نظام الملك على يدي رسول من رسل حسن الصباح ، وكان نظام الملك ، كما يصفه ابن الاثير ، محبوباً عند الخاصة والعامة مشهوراً بحسن تدبيره وجوده ، واعقب ثلاثة اولاد هم : مؤيد الملك ، وفخر الملك ، وعز الملك ، الذين استوزرهم خلفاء ملكشاه . وقد عاد السلطان الى بغداد بعد وفاة وزيره العظيم ، وكانت قد اجريت الترتيبات لزواج ملكشاه من ابنة كومينوس ، التي يعتقد غيبون انها كانت « آنا كومينا » نفسها ، ولكن موت ملكشاه حال دون تحقيق هذه الامنية التي عُلقت عليها آمال كبيرة للشرق والغرب معاً ، فقد توفي ملكشاه وهو في التاسعة والثلاثين من عمره ، بعد حكم دام قرابة احدى

---

١ ـ يلاحظ طالب التاريخ التشابه القوي بين هذه الجماعة الدموية من القتلة وبين مختلف الجمعيات التي نشأت في اوروبة فيما بعد .

وعشرين سنة .

وبموت ملكشاه اضمحلت وحدة الامبراطورية السلجوقية وعظمتها . وبناء على طلب ارملة ملكشاه « تركان خاتون الجلالية » اقر الخليفة ابنها محموداً ، وكان ما يزال طفلاً ، في مكان ابيه ، ولقبه بناصر الدنيا والدين ، ولكن الطفل الصغير اضطر الى اخلاء السبيل لأخيه الاكبر « بركياروق » الذي استولى على السلطة العليا ولقب بركن الدين ، غير ان هذا لم يبق في الحكم سوى مدة قصيرة ، ذلك ان منافساً آخر ظهر بشخص محمد ، ابن ملكشاه الثاني ، فنشبت بين الاخوين حرب داخلية حول العراق وخراسان سهّلت على حسن الصباح تنفيذ خططه و « في هذه التربة الدموية الخصيبة التي كانت تعصف بها ريح البغضاء والتحاسد نبتت جذور الاغتيال وازدهرت افنان القتل بالسم والسيف » .

وهكذا استولى الحشاشون تدريجياً على بعض من امنع القلاع في البقاع الجبلية من شمال فارس والعراق والشام ، وقضوا بالخنجر على حياة أفضل رجال المسلمين .

ابو العباس احمد المستظهر بالله (١٥ محرم ٤٨٧ هـ ، تشرين الثاني « نوفمبر » ١٠٩٤ م)

توفي الخليفة المقتدي في سنة ٤٨٧ هـ فخلفه ابنه ابو العباس احمد الملقب بالمستظهر بالله ، وكان في السادسة عشرة من عمره . ويصفه ابن الاثير بأنه كان « ليّن الجانب كريم الاخلاق ، يحب الاصطناع ، ويفعل الخير ، ويسارع الى اعمال البر والمثوبات ، مشكور المساعي » . ولو انه جاء في عصر اكثر مؤاتاة اذن لترك على الأرجح أثراً في التاريخ ، ولكن المصادر التي كانت لديه كانت غير كافية لتمكينه من القيام بدور خطير .

الحروب الصليبية (٤٩١ هـ ، ١٠٩٧ – ٨ م)

في هذه الفترة عصفت ريح التعصب الوحشي الذي يسمى في التاريخ المسيحي « الحروب المقدسة » . في التواريخ الاوروبية يحاط الصليبيون بهالة من البطولة ، ويعتبر كل فارس او جندي اشترك في الحروب الصليبية مثلاً أعلى للشهامة والفروسية ، ولذلك فان من واجبنا ، خدمة للحقيقة ، ان نرفع النقاب عن هذه الصورة وان نكشف في هذا المجال الضيق الذي لدينا عن هول تلك الحروب وعن قسوة اولئك الذين اشتركوا فيها ووحشيتهم وخيانتهم ، وعن المآسي والويلات التي انزلوها بآسية الغربية . ويقول أحد الكتاب المبدعين : « كانت الحروب الصليبية من أشد الحروب خيالاً في التاريخ ، فقــد غزت المسيحية الاسلامَ في حملة إثر حملة قرابة ثلاثة قرون ، حتى جلب الفشل العياء ، وفقدت اوروبة زهرة رجالها واموالها ، وتهددها الافلاس الاجتماعي ، وهلكت الملايين في المعارك ، وفتك الجوع والمرض برجال الصليب الذين ارتكبوا كل ما لا يستطيع الخيال وصفه من جرائم . »

حالة المسيحيين في البلاد الاسلامية

نعِم المسيحيون منذ تأسيس الدولة الاسلامية بأكبر قدر من التسامح ، فكانوا يمارسون طقوسهم الدينية بحرية تامة ، ويتمتعون بحقوقهم وامتيازاتهم المدنية ، وكانوا يتنقلون بحرية في انحاء الامبراطورية ، ويتصلون بأمراء البلدان الاجنبية الذين هم من دينهم ، كما كانوا يتملكون الاراضي بالشروط التي كان المسلمون يتملكونها . وكانت ابواب مناصب الدولة مفتوحة امامهم ، كالمسلمين سواء بسواء ، إلا في عهود بعض الحكام المستبدين . وكانت الاديرة والكنائس المسيحية منتشرة في كل مكان ، وكان يُسمحُ للحجاج المسيحيين بأن يدخلوا فلسطين من اقاصي البلاد دونما عراقيل . والواقع أن الاحتلال العربي قد سهل الحج الى الارض

المقدسة بدلاً من أن يمنعه ، ذلك أن العرب قنعوا بتوطيد النظام بين الطوائف المسيحية المتنازعة التي لولاهم لفتك بعضها ببعض في المكان نفسه التي تدعي عبادته وتقديسه . وفي البيت المقدس ، الذي يعترف بقداسته معتنقو الديانتين معاً ، أفرد حيّ خاص لسكنى البطريق وكهنته ، ولم يكن يُسمح للمسلمين بولوجه . وعندما انتقلت فلسطين والشام الى ايدي الفاطميين في سنة ٩٦٩ م . كان تبدل السلطة في صالح المسيحيين ، ذلك أن ملوك مصر شجعوا التجارة المسيحية وشملوا المسيحيين برعايتهم ، ولكن ايما قدر من التسامح لا يمكن أن يهدىء من غلواء المتعصبين الذين اعتبروا وجود المسلمين في بيت المقدس أمراً بغيضاً مستنكراً .

كان الحجاج يأتون بحماية المسلمين ، وينعمون بكرم العرب وضيافتهم ، ولكنهم كانوا يعودون وقلوبهم مثقلة بالحقد والمقت الشديدين . وفي اواخر القرن العاشر اعتقد المسيحيون بأن العصر الألفي السعيد قد ازف ، وبهذا الاعتقاد شرعت الجموع الغفيرة تتدفق على الارض المقدسة من العالم اللاتيني ، وفي القرن الحادي عشر ازدادوا إلى درجة هائلة .

وفي هذا الوقت تقريباً انتقلت فلسطين الى ايدي اسرة اورتك التركمانية التي لم تعترف بالولاء التام للسلطان السلجوقي ولا لنائبه في الشام ، ولم يدرك هؤلاء الحكام القساة أهمية هذا الدفق الكبير من الغرباء والحماس الذي كان يتأجج في صدورهم ، فكان هؤلاء يتعرضون أحياناً لسوء المعاملة والسرقة ، وكانوا اذا ما عادوا الى بلادهم بالغوا في تصوير هذه المعاملة السيئة لاخوانهم الذين كانت تثور حفيظتهم على المسلمين .

مجلسا بلاسنتيا وكليرمنت في آذار « مارس » وتشرين الثاني «نوفمبر» ١٠٩٥ م

وقد عقد البابا « اربان » الثاني مجلساً في بلاسنتيا في شهر آذار من

سنة ١٠٩٥ ، ومجلساً آخر في كليرمنت في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها ، وأمر بتجريد حملة صليبية على « الكفار الذين في ايديهم ضريح المسيح ، ووعد بغفران الذنوب لأولئك الذين يلتحقون بها ، وبالجنة لأولئك الذين يموتون في ارض المعركة » . كان التعصب الديني هو الدافع الاساسي لهذه الحملة الصليبية ، غير أنه كان ممزوجاً بدوافع أخرى كالرغبة في تأسيس ممالك جديدة او الحصول على ثروات طائلة والرغبة في احتساء الخمور الشرقية والتمتع بالجمال السحري عند الكرجيات. وهكذا تضافر الجشع والطموح والشهرة مع الدين على اثارة هذه الحرب الدينية .

يقول « هالام » : « انه لم تترك وسيلة إلا اتبعت لاذكاء هذاالجنون الوبائي . فكان الجندي عندما يلبس الصليب معفياً من الديون والضرائب وكان شخصه محمياً من قبل الكنيسة التي كانت تغفر له ذنوبه وآثامه وتضمن له الخلود الأبدي ، ولم يكن أحد يشك في أن الذي يموت في ميدان القتال يدخل حتماً حظيرة الشهداء » .

بطرس الناسك (١٠٩٦ م)

قاد العصابة الأولى « وولتر المفلس » ، ففتك بها البلغار المسيحيون فقاد بطرس الناسك الحملة الثانية .وكان قوامها اربعين ألف رجل وامرأة وطفل من جميع الاجناس واللغات . « وعندما وصلوا الى « مالفيل » ثأروا لأفراد الحملة الاولى فانقضوا على المدينة وذبحوا سبعة آلاف من سكانها وامعنوا في جميع انواع الفجور والاباحية . » وقد تحولت المجر وبلغارية الى ارض بلقع امام حشود بطرس الناسك . ولما وصلوا الى القسطنطينية نقلهم الامبراطور الكسيوس عبر البوسفور ولم يسمح لهم بدخول المدينة ، وهناك في آسية استأنفوا ارتكاب فظائعهم ، ويقول ميشو : « انهم ارتكبوا جرائم اهتزت لهولها الطبيعة » ، اذ كانوا يقتلون

الاطفال الرضّع ويرمون باشلائهم في الهواء . وقد نقل هؤلاء فظائعهم إلى اسوار نيس نفسها ، غير أن السلطـــان حمل عليهم في خمسة عشر ألف رجل فهزمهم هزيمة منكرة اعتنق زعيمهم وبعض اصحابه الديانة الاسلامية على اثرها ، اما الباقون فقد ابيدوا على بكرة ابيهم .

وكانت الموجة الثالثة تتألف من « احط طبقات الشعب واجهلهـــا وأشدها وحشية » ، بقيادة هودسكال ، احد الرهبان الألمان . « كان هؤلاء يمزجون فكرة الفداء بالتحرر من القيود الاخلاقيـــة والانهاك في الدعارة والسكر » ، ويقول ميشو : « انهم استسلموا للدعـــارة ونسوا القسطنطينية وبيت المقدس ، وراحوا يهتكون الاعراض علناً ويرتكبون اعمال السلب والنهب ويتركون آثاراً فاضحة تدل على فعالهم » فثار بهم أهل المجر وامتـــلأت سهول بلغراد بعظام الصليبيين ولم ينج من اتباع هودسكال إلا القليل .

اما الموجة الرابعة فقد صدرت عن انكلترة ، وفرنسة ، وفلاندرز واللورين ، ويسمّي ميلز افرادهـــا « بعصابة أخرى من المتوحشين اليائسين » . ولما كان الاتراك بعيدين عنهم فقـــد انقضوا على اليهود وذبحوا منهم الألوف في كولونيا وغيرها من المدن على ضفاف الراين وموسيل ، وقتلوا سبعة آلاف منهم في مدينة ميامين وحدها .

« ثم واصلوا زحفهم جنوباً وهم يرتكبون الفظائع نفسها » ، ولكن الجيش المجري لم يلبث أن قضى عليهم في مدينة ميمسبرغ .

وفي السنة التالية ، ١٠٩٧ م ، حشد امراء اوروبة الاقطاعيون حملة اكثر تنظيماً ، وساروا على رأسها نحو المشرق ، مرتكبين الفظائع نفسها التي ارتكبها زملاؤهم من قبل ، ثم وصلوا بقيادة « كودفري » إلى القسطنطينية ؛ وتمكن الامبراطور الكسيوس بدهائه وحذقه من تحويـــل هجومهم عن القسطنطينية ونقل الزائرين غير المرغوب فيهم عبر البوسفور ، وفي شهر ايار (مايو) من سنة ١٠٩٧ م زحف الصليبيون على سهول

نيقية ، وكان عددهم سبعمئة ألف مقاتل يشكلون قوة كافية لاكتساح اكبر جيش يستطيع السلاجقة حشده ضدهم .

وقد حاصر الصليبيون مدينة نيقية ، عاصمة السلطان ، وهددوا بتدميرها ، ولكن الكسيوس اقنع السلطان السلجوقي بأن يسلمه المدينة ، وعندما رأى الصليبيون علم الكسيوس يرفرف على القلعة استبد بهم الغضب وانتابتهم نوبة عصبية هائلة ، ولكن المدينة أنقذت وسار الصليبيون منها إلى انطاكية .

حصار انطاكية ، تشرين الأول « اكتوبر » ١٠٩٧ - حزيران « يونيو » ١٠٩٨ م

سار الصليبيون الى انطاكية ، وارتكبوا في طريقهم جميع اعمال السلب والنهب والفساد ، حتى وصلوا اليها وحاصروها ودام حصارهم لها تسعة اشهر حتى قلت مؤنهم والتجأ جنودهم الى أكل اللحوم البشرية من الجوع ، ويقول ميلز : « كان جنود الصليب ينبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً . » [١]

وفوق ذلك فقد كان الصليبيون يلهون بتشويه جثث الموتى ، فقد قطعوا رؤوس ألفين من الاتراك سقطوا ابان حصار انطاكية ، وعرضوا بعضها كأنصاب لذكرى انتصارهم ، كما طعنوا آخرين بالرماح في المدينة . وفي مناسبة اخرى نبش الصليبيون جثث المسلمين من قبورها وعرضوا منها الفاً وخمسمئة على المواطنين الباكين . ويقول ميشو : « وقد وقع ابن امير انطاكية السلجوقي في ايدي الصليبيين فحاولوا اقناع اسرته بتسليم المدينة فداءً له من الأسر ، فلما أبت اسرته تلبية طلبهم ساموا الاسير الشاب أشد صنوف العذاب طيلة ثلاثين يوماً ، ثم حملوه آخر

---

١ ـ يقول فون سيبل وملز وكتاب كثيرون آخرون ان الطبقات الدنيا من الصليبيين، وبخاصة الخدم ، كانوا ياكلون اللحوم البشرية علنا .

الامر الى اسوار المدينـــة حيث ذبحوه عــلى مرأى من والديه وسكان المدينة . » [1]

فتح انطاكية

وقد فشلت محاولة لانقاذ انطاكية من الحصار ، وذلك بسبب عجز القائد السلجوقي « كربوغا » ومعاملته السيئة للامراء والقواد الذين التحقوا بجيشه . واخيراً سقطت انطاكية بسبب خيانة ارمني يدعى « فيروز » ، ويسميه العرب « بهروز » . فقد أدلى فيروز الحبال في الليل فتسلقهـــا الصليبيون واستولوا على بعض الابراج وذبحوا حراسها ، ثم فتحوا احد الابواب فاندفع منها الجيش الصليبي كله والجنود يصيحون : هذه ارادة الله ، ثم شرعوا في اعمال الفتك « دون ان يراعوا حرمة الشيوخ وعجز الأطفال وضعف النساء ، فانتهكوا حرمة المنازل ، وزادتهم رؤية المساجد وحشية فوق وحشيتهم » [2] ، وقوضوا القصور الشامخة والاكواخ الحقيرة وسالت الدماء البشرية في الميادين والشوارع على السواء ، ويقدّر المؤرخون ان عدد الذين قتلوا في تلك المذبحة في انطاكية بعشرة آلاف على اقـــل تقدير .

مذبحة معرة النعمان

وبعد ان انتهى الغزاة من ذبح المسلمين انهمكوا في أحـــط اعمال الفسق والرذيلة ، ثم ساروا من انطاكية الى معرة النعـــمان وكانت من اكثر مدن الشام سكاناً واعظمها ازدهاراً ، فاستولوا عليها وذبحوا مئة الف من سكانها فسالت دماؤهم في شوارعها . ثم استعرض «بوهيموند» أسراه ؛ ويقول ميلز « انه ابقى على الجميلات والشبان الاقوياء لبيعهم

١ ــ الجزء الاول ، ص ٤٦٢

٢ ــ ميلز ، الجزءالاول،ص ١٧٩

في سوق الرقيق في انطاكية ، وأمر بذبح الشيوخ والاطفال على مذبح القسوة » . وفي معرة النعمان ايضاً اكل الصليبيون اللحوم البشرية، حتى انه يقال ان اللحوم البشرية كانت تعرض علناً للبيع في معسكر المسيحيين» .
ومن معرة النعمان استأنف جنود الصليب سيرهم على بيت المقدس فاستولوا عليها عنوة .

الاستيلاء على القدس ومذبحة الصليبيين ، ٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ ، ١٥ تموز « يوليو » ١٠٩٩ م

يقول ميشو في هذه المذبحة « كان المسلمون يذبحــون في الشوارع وفي البيوت ، ولم يجدوا في المدينة مكاناً اميناً يعتصمون فيه ، فكــان بعضهم يلقي بنفسه من فوق الاسوار ، وكان الآخرون يزدحمون في القصور والابراج ، وفي المساجد قبل كل شيء ، حيث لم يستطيعوا ان يخفوا انفسهم عن اعين المسيحيين ، فحاصر الصليبيون مسجد عمر – حيث دافع المسلمون عن انفسهم بعض الوقت – وجددوا تلك المناظر الوحشية التي وصمت فرسان التيتون . فقد هجم الفرسان والمشاة عــلى الهاربين وأعملوا في رقابهم السيوف ، ولم يكن يُسمــع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى . كذلك وطىء الغزاة المظفــرون بخيولهم اكداس الجثث وهم يطاردون اولئك الذين حاولوا الهرب عبثاً، ويقول ريموند دي اكيلس الذي شهد تلك المذبحة : « ان الدماء قد وصلت في رواق المسجد الى الركب . » [١]

ولم تفتر همة الصليبيين في اعمال السفك الا عندمــا تقدموا الى الله بالشكر على النصر الــذي خصهم به ، ولكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى استأنفوا الفتك والسفك « وذبحوا كل من كانوا قد أبقوا على حياتهم املاً في أن ينالوا منهم فدية كبيرة ، واضطر المسلمون الى

---

١ ـ الجزء الاول ، ص ٢٣٦

ان يلقوا بأنفسهم من اعلى الابراج والمنازل ، وأحـــرق البعض منهم حياً ، وجيء بالذين لاذوا بالفرار فوضعوا فوق اكداس الجثث حيث شرع الصليبيون يمثلون بهم اشنع تمثيل ، ولم تكن لتجدي في ذلك الحين دموع النساء ولا صراخ الاطفال ولا رؤية المكان الذي صفح فيه المسيح عن جلاديه [1] .

معاملة اليهود

أما اليهود فقد لقوا مصيراً اكثر هولاً اذ ساقهم الصليبيون الى معابدهم واشعلوا فيها النيران فماتوا فيها اختناقاً .

كودفري ديبويون

وبعد فتح بيت المقدس نصّب الصليبيون كود فري ديبويون ملكاً عليها وخلفه بعد سنة اخوه الذي القى الحصار على قيصرية . وبعد مقاومة باسلة عرضت حاميتها التسليم بشروط مشرّفة فقبلها الصليبيون وعندئذ فتحت لهم ابوابها ولكنهم ما ان دخلوها حتى نكثوا بعهودهم وذبحوا سكانها الآمنين والعزل دونما شفقة أو رحمة . وقد لاقت طرابلس وصور وصيدا المصير نفسه تقريباً ، ففي ذلك الحين كانت المـــدن الفينيقية الساحلية في أوج ازدهارها ، وعندما حاصر الصليبيون طرابلس سنة ١٠٩٩ م بقيادة « تانكريد » ، يساعـــده اسطول بيزا من جهة البحر ، دافع المحاصَرون عن مدينتهم دفاع الابطال ، وقاوموا اعداؤهم بضعة اشهر ، ولكن هؤلاء ما لبثوا ان انقضوا على المدينة فافتتحوهـــا عنوة وأعملوا السيوف في رقاب سكانها وأحرقوا مكتبتها وكليتهـــا ومصنعها .

وهكـــذا انتقلت فلسطين وجزء من الشام الى ايدي الفرنج الذين

---

[1] ــ ميشو ، الجزء الاول ، ص ٢٣٩ .

استحدثوا في املاكهم الجديدة النظـــام الاقطاعي الذي كان سائداً في اوروبة وقتئذ ، وهكذا انحط المسلمون الى درك الرق او العبوديـــة ، وحلت المحاكم الاستبدادية محلّ المحاكم القضائية ، وكنت ترى العبيد مقيدين بالسلاسل يطاف بهم في الشوارع كما كان الحال في اوروبة في ذلك الحين . وقد زار الأمير اسامة بيت المقدس بعد ذلك ببضع سنين فافتدى بعضاً من اولئك البائسين .

الفصل الحادي والعشرون

العباسيون (تابع)
المستظهر ـ المكتفي ـ المستنجد
٤٩٢ ـ ٥٦٩ هـ ؛ ١٠٩٩ ـ ١١٧٤ م
الحروب الصليبية

الخليفة المستظهر ـ السلطان بر كياروق ـ حروبه مع تتش وعمه واخيه محمد ـ وفاة بركياروق ـ تولي محمد السلطنة ـ النزاع بين أمراء الاقطاعات ـ تقدم الصليبيين ـ وفاة السلطان محمد ـ وفاة الخليفة المستظهر ـ تولية الخليفة المسترشد ـ السلطان سانجار ، سلطان المشرق ـ السلطان محمود ، سلطان العراق والشام ـ ظهور السلطان عماد الدين زنكي ـ وفاة السلطان محمود ـ تولية السلطان مسعود ـ اغتيال المسترشد ـ مبايعة الراشد بالخلافة ـ عزله على يدي مسعود ـ مبايعة المكتفي ـ حروب زنكي مع الصليبيين ـ انتصاراته ـ وفاة زنكي ـ تولية نور الدين محمود ـ انتصاراته على الصليبيين ـ وفاة المكتفي ومبايعة المستنجد ـ ارسال شيركوه الى مصر ـ ضم مصر ـ ظهور صلاح الدين ـ وفاة المستنجد ـ مبايعة المستضيء ـ وفاة نور الدين محمود ٠

لم يكن في وسع المسيحية — سواء كان ذلك عمداً او مصادفة — ان تغتنم فرصة اكثر ملاءمة من تلك التي أغارت فيها على آسية ، حيث كانت الاقطاعيات قد قوضت اركان الامبراطورية السلجوقية الجبارة .

الاقطاعيات في آسية (١٠٩٩ — ١١٧٤ م)

كان الب ارسلان قد اقطع ابن عمه سليمان آسية الصغرى ، وكان ملكشاه قد وهب الشام لأخيه تتش ، الملقب بتاج الدولة ، وكان هذان الاميران يعترفان بسلطة السلطان . الا انـــه الى جانب هاتين المملكتين كانت الجزيرة والشام وفلسطين موزعة بين عدد من الامراء الاقطاعيين الذين كان واجبهم الوحيد ازاء السلطان ان يمدوه بالعون العسكري . وكان الرؤساء والامراء يدينون مختارين بالطاعة والولاء للسلطنة طيلة ايام نظام الملك ذي العبقرية الفذة ، وملكشاه صاحب الشخصية القوية ؛ الا انه ما ان انقطعت انفاسهما حتى نشبت الفتن في كل ناحية ، وحلت الحروب والاضطرابات محل السلام والطمأنينة ، فكان هناك اولاً الصراع بين تركان خاتون ، الوصية على ابنها محمود ، وبين بركياروق ، إلا أن محمود لم يلبث ان توفي وعندما اعتُرف لبركياروق بالسيادة العليـــا على الدولة السلجوقية وانعم الخليفة المتقي عليه بلقب السلطان . ثم تلا ذلك الصراع بين بركياروق وعمه تتش الذي كان يطمح هو ايضاً الى تسلم السلطة العليا ، ولكن هزيمة تتش وموته لم يجلبا السلام للامبراطورية المضطربة ، ذلك أن بركياروق لم يلبث ان انهمك في حرب مع اخيـه محمد دامت عدة سنوات .

ولقد تدفقت جموع الهاربين من وجه الصليبيين على بغداد ، وكان ذلك في شهر رمضان ، واخذوا يسردون على مسامع اهلها حـــوادث الفتك واعمال الاضطهاد التي ارتكبها الغزاة ، فعم الأسى المدينة ونسي المسلمون صيامهم وتجمعوا في المسجد الجامع وبكوا فـــأرسل الخليفة

المستظهر بالله على جناح السرعة ثلاثة من رجال بلاطه البارزين الى بركياروق ومحمد اللذين كانا معسكرين في حلوان كي يحثوهما على تسوية خلافاتهما والزحف على العدو المشترك ، ولكن نداء الخليفة لم يلق اذناً صاغية لدى الاخوين اللذين سرعان ما عادا الى الاقتتال بسبب اغتيال وزير بركياروق ، ويضيف المؤرخون الى ذلك قولهم ان الخلاف بين السلطانين مكّن الفرنج من توطيد اقدامهم في البلاد الاسلامية .

تولية السلطان محمد

وعندما توفي السلطان بركياروق في سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) خلفه اخوه محمد ودام حكمه اربع عشرة سنة ، ويصفه المؤرخون بأنه كان عادلاً فاضلاً كريماً أشاد شعراء عصره بعطفه على الفقراء وبره باليتامى .

ولكن حالة الامبراطورية السياسية لم تكن مؤاتية للقيام بأي عمل موحد ضد العدو المشترك ، اذ كان التحاسد سبباً في انقسام رؤساء الاقطاع في الشام والجزيرة ، وكان امير حلب (رضوان بن تتش)[1] خائناً ، بينما كان الآخرون ، مع رغبتهم باطاعة السلطان ، منصرفين الى تحقيق مآربهم الشخصية اكثر منهم الى خدمة القضية العامة ؛ فضلاً عن ان الفوضى التي عمت الخلافة الفاطمية التي كانت مدن الشام الساحلية وفلسطين تابعة لها في ذلك الحين قد جعلت من العسير او المستحيل مساعدة المدن التي تعرضت لهجوم الأعداء .

وكان الخليفة الفاطمي المستعلي مجرداً من كل نفوذ وسلطان ، بينما كان قائد الجيش مستولياً على مقاليد الامور ، وبدلاً من ان ينصرف الى تنظيم مصادر الامبراطورية الحربية للقيام بعمل حاسم ، فقد أخذ يقضي معظم اوقاته في القاهرة او في حياكة المؤمرات ضد منافسيه .

---

١ ـ خلف تتش ولدين هما رضوان ودقاق فولى الاول حلب والثاني دمشق .

معركة طبرية الأولى (١٣ محرم ٥٠٧ هـ ، تموز «يوليو» ١١١٣ م)

وبناء على طلب السلطان وضع الامراء خلافاتهم جانباً ووحدوا صفوفهم لمقاومة الغزاة في معركة او معركتين . وفي أوائل سنة ١١١٣ م زحف بلدوين ، ملك بيت المقدس ، على دمشق ، ولما عجز « طغتكين » عن صده استنجد بمودود أمير الموصل . وفي سنة ١١١٣ زحفت قوات امراء الموصل ودمشق وسنجار وماردين الموحدة على فلسطين واستطاعت ان تنزل بالفرنج هزيمة منكرة في معركة جرت بالقرب من طبرية وغرق عدد كبير منهم في البحيرة المعروفة باسم المدينة وفي نهر الاردن . وفي شهر حزيران « يونيو » من سنة ١١١٩ م هزموا مرة اخرى في موضع يسمى بالبلاط على يد الغازي ، امير ماردين ، وحتى المصريين انفسهم فازوا ببعض الانتصارات على سواحل البحر . ولكن اوروبة بأسرها كانت من وراء الصليبيين ، وكانت النجدات تتدفق عليهم من جميع ارجاء العالم المسيحي ، كما ان مقتل مودود بيد أحد الحشاشين بعد معركة طبرية ، وانشقاق الزعماء ، قد ساعدهم على استرداد المواقع التي خسروها ، وهكذا اخذ الصليبيون ينشرون سلطانهم ، ويستولون على المدينة تلو المدينة ، يذبحون السكان ويستعبدونهم .

وفي سنة ٥١١ هـ توفي السلطان محمد ، وبعد عام واحد توفي الخليفة المستظهر ، وكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة ، وخلفه ابنه ابو منصور الفضل ، الملقب بالمسترشد بالله .

ابو منصور الفضل ، المسترشد بالله ، ١٦ آب « اغسطس » ١١١٨م

تركت وفاة السلطان محمود أثراً في مصائر المسلمين والمسيحيين معاً . فقد خلفه في القيادة اخوه سنجار [١] — آخر ابطال السلجوقيين البواسل — وفي الملك ابنُه السلطان محمود . وفي ايام السلطان محمود ظهر اول

١ — صديق « انواري » الشاعر .

ابطال الاسلام الذي لم يصد الفرنج فحسب ، بل قاتلهم واجلاهم عن كل شبر احتلوه من ارض المسلمين . كان ذلك البطل عماد الدين زنكي — ابن أحد كبار أمراء السلطان ملكشاه ، آق سنقر (قاسم الدولة) الذي لعب دوراً خطيراً في الايام التي سادتها الاضطرابات بعد وفاة سيده العظيم . وقد توفي آق سنقر عن ولده زنكي وهو في الرابعة عشرة من عمره ، فالتف حوله جميع الامراء والزعماء وخصوه بولائهم ، واظهر هو نفسه دلائل تنم عن النبوغ ، وقوة العزيمة ، والمقدرة الادارية والعسكرية الرفيعة .

وفي سنة ٥١٦ هـ اقطع السلطان محمود الأمير زنكي مدينة واسط وشاهناه البصرة ، وبعد سنوات اربع أسند اليه امارة الموصل والجزيرة العليا وخلع عليه لقب « اتابك » ، كما ارسل اليه العهد والعقد التقليديين ، واصبح عماد الدين زنكي مؤسس الاسرة الاتابكية في الموصل. ويصف ابن الاثير حالة الضعف التي وصل اليها المسلمون في ذلك العهد وصفاً مؤثراً جداً فيقول : « كان جيش الصليبيين عظيماً ، واشتدت افعالهم فارتكبوا كل محرمة دون خوف من عقاب ، وامتدت مملكتهم من ماردين في اعالي الجزيرة الى مدينة العريش على حدود مصر ، واخضعوا مدينة حران والرقة ، وامتد جيشهم حتى ابواب نصيبين ، وقطعوا جميع الطرق الى دمشق ما عدا طريق الصحراء المار بالرها ، وفرضوا الجزية على المدن ، وقاسموا حلب على جميع دخلها حتى على رحا لأهلها بظاهر باب الجنان » .

أما زنكي فقد انصرف بقوة الى تحسين اداة الحكم وتنظيم الجيش ، فلم يمض وقت طويل حتى نزل الى الميدان بقوة تكفي لطرد الفرنج من الجزيرة ، فاستولى على منبج وبيزا (أو بوزا) ، وبذلك أصبح سيد امارة الموصل الشاسعة الاطراف دون منازع . وفي سنة ١١٢٨ م زحف زنكي على مدينة حلب تلبية لطلب أهلها الذين كانوا قد عانوا أشد

صنوف الاضطهاد من الصليبيين ، فاستولى على مدينتهم ، وحذت حماه حذو حلب ، وفي السنة التالية هزم زنكي الصليبيين عند أسوار قلعـة الأثارب واستولى عليها بعد مقاومة عنيدة ، ثم تلا ذلك هدنة قصيرة مع جوسلين ، امير الرها ، الذي يسميه ابن الأثير «أعظم الشياطين» ، مكنته من خوض الحرب الأهلية التي انفجرت عند وفاة السلطان محمود .

وفاة السلطان محمود

بعد وفاة السلطان محمود خلفه أخوه مسعود ، غير أن أخاه سلجوقشاه نازعه السيادة ، وبعد خلاف قصير الأمد وضعا خلافهما جانباً ووحدا صفوفهما وزحفا على عمهما سنجار ، ولكن هذا هزمهما في موقعة دمارج ، وعاملهما معاملة حسنة وأقرهما على ممتلكاتهما .

اغتيال الخليفة المسترشد (١٦ ذو القعدة ٥٢٩ هـ ٢٨ آب « اغسطس » ١١٣٥ م)

ثم نشبت الحرب بين الخليفة المسترشد ومسعود فأُسر المسترشد ثم هجمت عليه جماعة من الفاطميين فاغتالوه وهو في معسكر مسعود .

وخلف المسترشد ابنه ابو جعفر المنصور ولقب بالراشد بالله ، غير أن خلافته لم تدم اكثر من بضعة أشهر ، فقد اجبرته خلافاته مع السلطان مسعود على أن يغادر بغداد الى الموصل ، وعندئذ جمع مسعود القضاة والفقهاء ، وعرض عليهم اليمين التي كان قد حلفها الراشد بالله ، فافتوا بخلعه وبايعوا ابا عبدالله بن المستظهر ولقبوه بالمقتفي لأمر الله .

ولما كانت سلطة الملوك السلجوقيين قد وهنت فقد قوي نفوذ المكتفي نسبياً في العراق وكلدة حتى استطاع في آخر الأمر أن يستعيد سلطته الزمنية في الولايات الداخلية .

أما أتابك فلم يهتمّ طويلاً بالاضطرابات في المشرق ، بل حصر جلّ اهتمامه بالشام ، ذلك أن الصليبيين كانوا قد شرعوا يغيرون على البلاد الاسلامية مرة أخرى بعد ان تلقوا الامدادات من اوروبة والتحقت بهم قوة من الروم بقيادة الامبراطور « جون كومانوس » ، فاستولوا على « بذاعة » وأعملوا السيف في جميع سكانها الذكور وأسروا الاطفال وسبوا النساء ، ثم زحفوا على « شيزر » ، على مسافة يوم واحد من حماه . وكان حصن « شيزر » مسقط رأس أسامة [1] ، منيعاً مبنياً على الصخر ولا يمكن الوصول اليه إلا من طريق للخيل ضيق جداً ومنحوت في جانب الجبل ويجري من تحته نهر العاصي . ويمتد هذا الطريق عبر وهدة عميقة شيّد فوقها جسر خشبي ، فاذا ما قطع الجسر تعذر الوصول الى الحصن الذي كان منذ اوائل القرن الخامس للهجرة ملكاً لبني منقذ من قبيلة كنانة . وكان لموقع هذا الحصن الحصين وقربه من مدينة حماه ومن مراكز الصليبيين أهمية عظمى بالنسبة للفرنج والمسلمين معاً ، ولذلك فلم يكد زنكي يتلقى استغاثة ابى عسكر سلطان ، الذي كان عندئذ حاكم شيزر ، حتى أسرع الى نجدته ، وعندما اقترب اتابك رفع الفرنج والروم الحصار وانسحبوا وعاد الروم الى بلادهم . ولم يضيع زنكي الفرصة وهجم على قلعة "عرقة الواقعة في اراضي امـارة طرابلس فدمرها ثم استولى على بعلبك واستعمل عليها نجم الدين ايوب ، والد صلاح الدين ؛ إلا أن اتابك لم يستطع اجلاء الفرنج عن امـارة دمشق طالما كان على الشام أمير مستقل .

وفي عام ٥٣٤ هـ هزم اتابك الفرنج بالقرب من « بارن » في موقع يعرف بجبل فيران واستولى عليه ، وكان ذلك الموقع من امنع الحصون التي كانت في ايدي الصليبيين يشنون منه الغارات على المدن الواقعة بين

---

١ ـ كان الامير اسامة الملقب بمؤيد الدولة احد ابطال الحروب الصليبية الاولى ، وله مذكرات مهمة جدا نشرت في باريس سنة ١٨٨٤ في كتاب يسمى « كتاب الاعتبار » .

حماه وحلب .

غير أن أعظم انتصار احرزه اتابك انما كان في سنة ٥٣٩ هـ . عندما استولى على مدينة « الرها » التي كانت تابعة لجوسلين الثـاني « بطل الصليبيين وشيطانهم » ، وقد سمّي هـذا النصر بحق « نصر الأنصار » . وكان المسيحيون يعتبرون الرها من اشرف مدنهم على وجه الاطلاق نظراً لكونها مقراً لأحدى اسقفياتهم بعد بيت المقدس وانطاكية وروما والقسطنطينية ، وكانت في الواقع مفتاح الجزيرة ، وبالاستيـلاء عليها تمكنوا من اخضاع المناطق والحصون المجاورة لها . « ولما أوفى زنكي على المدينة أمن اهلها على ارواحهم واملاكهم إن هم سلموا دون مقاومة ، ولكنهم رفضوا اجابة شروطه وابوا التسليم ففتحها عنوة وفكر في صب جام غضبه على اهلها ليثأر للفظائع التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس وانطاكية ، ولكن مروءته تغلبت على سخطه ، فلم يقتـل أحداً غير المحاربين والرهبان والقسس الذين كانوا يحرضون جنود الفرنج على القتال ، واطلق سراح جميع الرجال والنساء والاطفال الذين وقعوا في ايدي الفاتحين ورد اليهم أموالهم » .

اغتيال عماد الدين زنكي (٥ ربيع الثاني ٥٤١ هـ ، ١٤ ايلول « سبتمبر » ١١٤٦ م)

وبعد أن ترك زنكي حامية قوية في المدينة تابع زحفه المظفر فأخضع سروج وباروة والقلاع الاخرى التي كانت في ايدي الصليبيين ، وفيما كان يحاصر قلعة جابر هجم عليه بعض مماليكه بتحريض من اعدائـه وفتكوا به ، وهكذا قضى واحدٌ من اعظم ابطال ذلك العصر [1] . كان اتابك زنكي عادلاً كريماً وحكيماً محباً لرعيته ، ولما استولى على الحكم في الجزيرة كان جزء كبير من تلك الامارة ومن الشام أيضاً غير ذي

---

[1] ـ ويسميه ابن الاثير بالشهيد .

زرع ، وكان الفلاحون والمواطنون في حالة يائسة من الفقر ، وكانت الحركة التجارية قد توقفت بسبب غزوات الفرنج ، ولذلك بذل جهوداً كبيرة في سبيل انعاش الزراعة واعادة الرفاهية الى البلاد ، فعاد الفلاحون إلى اراضيهم ، واعاد تشييد المدن المخربة وجمّلها ، وقمع الفتن والاضطرابات بقوة ، وعادت الحياة الى التجارة بعد أن طارد القتلة واللصوص من الفرنج .

وقد أعقب زنكي اربعة أولاد : سيف الدين الغازي وكان اكبرهم واليه اسندت امارة الموصل ، ونور الدين محمود الذي ورث عن أبيه لقب حامي المسلمين وامارة حلب ؛ وقطب الدين مودود ونصرة الدين أمير ميران .

الحرب الصليبية الثانية (٥٤٢ ﻫ ، ١١٤٧ م)

وقد أثار سقوط مدينة الرها مرتين في يد المسلمين سخطاً عظيماً في اوروبة ، واخذ الراهب الفرنسي « سان برنارد » يبشر بحرب صليبية جديدة ضد المسلمين . وفي سنة ١١٤٧ م قام امبراطور المانية كونراد الثالث وملك فرنسة لويس السابع بهــذه « الحرب المقدسة » لانقاذ مصير اللاتين . ويقول المؤرخون المعاصرون ان هذين الملــكين سارا في تسعمئة الف مقاتل لنجــدة اخوانهم في الشام وفلسطين ، واصطحب لويس السابع زوجته الينور كوين التي تزوجت فيما بعد من هنري الثالث ملك الانكليز ، واقتدى بها عدد من النساء اللواتي التحقن بهذه الحملة المشؤومة ، كما ان فرقة كبيرة من النساء حاملات الرمــاح والدروع سارت في صفوف الجيش الالماني والفرنسي مما ادى بطبيعة الحال إلى انتشار الفساد بين الجنود ، ومن المعروف أن الجيشين قد لقيا مصيرهما المحتوم ، وأن الملكين تكبدا اعظم الخسائر في اثناء زحفهما على الشام ، فأبيد قسم كبيرٌ من جيش كونراد في جوار اللاذقية ،

بينما فنيت قوات الملك لويس السابع في زحفها على السواحل على يـــد السلاجقة في اعالي جبل كادمس الذي يسمى « باباداغ » . وعندما وصل الملك لويس الى انطاكية التي كانت في يد ريموند كان قد خسر ثلاثة ارباع جيشه ، وكانت تقيم في تلك المدينة الآثمة آنذاك اميرة طولوز واميرات بلوا وسيبيل اوف فلاندرز وموريل واميرة روسي وتلكوري وبولون وسيدات اخريات كثيرات عرفن بنبل محتدهن او جمالهن ، ولكن اليانور كوين كانت اعظمهن جميعاً .

وفي مدينة انطاكية انغمس جنود الصليب في شهواتهم ، وكانت ولائم ريموند تنحط الى درك العربـــدة والسكر ، بينما ذاعت فضائح الينور ومغامراتها الغرامية . وبعد ان انعش الصليبيون انفسهم في انطاكية زحفت قواتهم المتحدة على دمشق فحاصروها عدة اشهر ، غير أن قدوم سيف الدين غازي ونور الدين محمود لنجدة المدينة اضطرهم الى رفع الحصار عنها والارتداد عاجلاً نحو فلسطين ، وعندها عاد كونراد ولويس الى اوروبة وبذلك انتهت الحرب الصليبية الثانية .

وشرع نور الدين الآن في محاربة الفرنج فاستولى على قلعة « العريمة » ، وهي من امنع القلع على حدود الشام ، وبعـــد بضعة اشهر انزل بهم هزيمة منكرة في « زغرة » بالقرب من انطاكية . وفي معركة دارت عند اسوار عنتاب قتل الامير ريموند ، أمير انطاكية ، واصيب جنوده بخسائر فادحة . وقد اعقب ريموند ابناً صغيراً يدعى بوهيموند ، ويسميه العرب « بيميند » ، في كفالة امه ، ولكن هذه السيدة لم تبق ارملة فترة طويلة . اذ ما لبثت ان تزوجت مرة ثانية من رجل لم يكن مصيره أقل سوءاً من مصير ريموند ، فقد وقع اسيراً في قبضة نور الدين في مناوشة لقي فيها الفرنج حتفهم .

الاستيلاء على قلعة أفامية

وفي سنة ٥٤٤ هـ استولى نور الدين على قلعة أفامية ، على مسير نحو يوم واحد عن حماه ، ولكنه مني بعد عامين اثنين بهزيمة في موقعة دارت بينه وبين جوسلين الثاني . ولم يلبث نور الدين ان ثأر لهزيمته هذه عندما أسر جوسلين . يقول ابن الاثير : « كان أسره من اعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسي القلب ، واصيبت النصرانية كافة بأسره » . ولقد سهل أسر هذا العدو اللدود مهمة نور الدين فاستطاع ان يستولي بسرعة على عدد من الصليبيين وقلاعهم ، كقلعة « تل باشر » و « عنتاب » و « نهر الجوز » و « برج الرصاص » وغيرها .

معركة دلوك

وقد دارت معركة اخرى في دلوك هُزم فيها الفرنج وأدت إلى إخضاع القسم الأعظم من ولاية انطاكية .

وتوفي السلطان مسعود في سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ – ١١٥٣ م) فخلفه على العرش ملكشاه ، ابن اخيه السلطان محمود ، وكان آخر سلاطين تلك الاسرة .

غير ان نور الدين ، شأن أبيه من قبله ، قد وجد صعوبات جمة في حربه مع الصليبيين طيلة الوقت الذي كانت دمشق فيه في قبضة أمير مستقل مشكوك في ولائه ، بينما كان الصليبيون ، من جانبهم ، قد قويت شوكتهم باستيلائهم على عسقلان على ساحل البحر ، واستأنفوا خطتهم الرامية الى احتلال عاصمة الشام [١] . وفي هذه الازمة استنجد

---

١ – في ايام طغتكين تحالف الصليبيون مع الباطنيين وهاجموا دمشق ، ولكنهم ردوا على اعقابهم بعد ان اصيبوا بخسائر جسيمة .

اهالي دمشق بنور الدين فاستجاب لندائهم حالاً ، واقطع حاكمهم [1] مدينة حمص عوضاً عن دمشق التي ولى عليها ابن زنكي العظيم وسط تهليل الشعب .

ولقد حصل نور الدين بهذا الانتصار السلمي الخطير على لقب « الملك العادل » من الخليفة ، وحصلت هدنة قصيرة بين نور الدين والصليبيين مكنته من اصلاح الخراب الذي سببه الزلزال الذي أصاب الشام في ذلك الحين تقريباً .

وفاة المكتفي وخلافة المستنجد

وفي ٢ ربيع الاول من سنة ٥٥٥ هـ (١٢ آذار « مارس » ١١٦٠م) توفي الخليفة المكتفي بالله وخلفه ابنه ابو المظفر يوسف الملقب بالمستنجد بالله .

وبعد ست سنوات سيّر نور الدين الحملة الخالدة على مصر ، تلك الحملة التي كانت لها نتائجها الخطيرة بالنسبة الى الفرنج والمسلمين معاً. كانت الخلافة الفاطمية آنئذ في طريقها الى السقوط ، وكان آخر خلفائها العاضد لدين الله ، قد بلغ منتهى الضعف ، وكانت السلطة الفعلية في يد وزيره شاور السعدي الذي مـا لبث ان خلع من منصبه وفرّ الى الشام مستنجداً بأمير دمشق وقاطعاً الوعود بنصرة حملة مصر وباقطاعه بعض الاراضي وبدفع جزية سنوية كبيرة . وبعد تردد اجابه نور الدين الى طلبه واعاده الى مصر مع قوة من جيشه بقيادة « اسد الدين شيركوه » ، عم صلاح الدين المعروف . وما كاد شاور الخائن يسترد سلطته ونفوذه حتى تحالف مع الفرنج وطلب الى شيركوه ان يجلو عن مصر ، فقاوم شيركوه بقواته الضئيلة مقاومة عنيدة في بلبيس ولكنه اضطر في نهاية الامر الى الجلاء عن مصر .

---

١ ـ هو مجير الدين آبك ، وقد تكاتب من بعد مع الفرنج سرا واقصي من حمص .

وفي رمضان من سنة ٥٥٩ هـ هاجمت جيوش الفرنج والروم ثور الدين . وكانت المعركة التي دارت تحت اسوار حارم من أشد معارك الحروب الصليبية . وفيها مني الفرنج بهزيمة منكرة ، واسر معظم قوادهم امثال بومند وامير انطاكية وريموند حاكم طرابلس وجوسلين الثالث وقائد الروم ، وكانت ثمرة هذا النصر الرائع استيلاء نور الدين على حارم وبانياس والمنيطرة وغيرها .

وفي سنة ٥٦٢ هـ دخل شيركوه مصر مرة اخرى ،ومرة ثانية استنجد شاور بالفرنج ، فلبى طلبه « اموري » الذي كان عندئذ حاكماً على عرش بيت المقدس ورأى الفرصة سانحة للاستيلاء على مصر والاستئثار بها . ويقول ميشو : « إن الكرّ والفرّ اللذين ابداهما شيركوه ينهضان دليلاً على كفاءته العسكرية الممتازة » ، بينما يقول ابن الاثير : « لم يعرف التاريخ حادثة اعظم شأناً وأجلّ خطراً من تلك الحادثة التي تغلبت فيها الجيوش المصرية على جيوش الفرنج » .

وبعد هذا النصر الباهر استولى شيركوه على الاسكندرية وثبت اقدامه فيها ، ومن ثم عقدت معاهدة صلح بين المصريين والفرنج من جهة ، وبين نائب نور الدين من جهة اخرى ، وافق اموري بموجبها على ان يسحب جنوده من مصر وان يمتنع عن التدخل في شؤونها ، كما وافق شيركوه بدوره على ان يجلو عن الاسكندرية لقاء خمسين الف قطعة من الذهب ، وان يعود الى الشام . ولكن الفرنج ، بالاتفاق السري مع شاور ، حصلوا على حق إبقاء مقيم في القاهرة ، وعلى ان تحتل قواتهم بعض المدن ، وعلى ان يتناولوا جزية سنوية قدرها مئة الف دينـــار ، وذلك خلافاً لشروط الصلح الذي عقدوه مع شيركوه . واخيراً بلـــغ سلوك الصليبيين الذين كانوا يحتلون القاهرة والأماكن الاخرى مبلغاً لا يطاق ، واشتد استبدادهم الى درجة دفعت العاضد نفسه الى الاستنجاد بنور الدين فأنجده هذا وسيّر شيركوه مرة اخرى الى مصر على رأس

قوة كافية للقضاء على الصليبيين . وعندما اقترب شيركوه من مصر اسرع الصليبيون في مغادرة البلاد مع مغانمهم كلها ، وفي اليوم الثامن من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١١٦٩م دخل شيركوه القاهرة من جديد فرحب به سكانها والخليفة الفاطمي واعتبروه منقذ مصر . وعندما قتل شاور عُين شيركوه مكانه في منصب رئيس الوزراء وقائد الجيش ، ولكنه توفي بعد شهرين فخلفه ابن اخيه صلاح الدين يوسف المشهور ، ولقب بالملك الناصر ، وظل يعتبر نفسه نائباً لنور الدين .

وقد فاز صلاح الدين بمحبة الجميع بالنظر الى تسامحه وعدله . وكان العاضد وقتئذ على فراش الموت ، فعمد صلاح الدين ، وكان حنفيّ المذهب ، الى ان يعيد بهدوء سلطة الخليفة العباسي الى مصر . وفي سنة ١١٧٠ م توفي الخليفة المستنجد فخلفه ابنه ابو محمد الحسن الملقب بالمستضيء بالله . ويصف ابن الاثير المستنجد بأنه كان « من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، فهيماً ، كثير الرفق بهم ، شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس » .

وفي سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) توفي قطب الدين مودود ، ثالث ابناء زنكي ، فخلفه ولده سيف الدين غازي الثاني ، وفي أيامه اضطربت أحوال الموصل فأسرع نور الدين الى نجدة ابن اخيه ونظم المملكة واعاد سيف الدين إلى عرش الموصل محتفظاً لنفسه بقيادة الجيش .

وفي شهر محرم سنة ٥٦٧ هـ توفي آخر الخلفاء الفاطميين [١] وبموته غدت مصر تابعة مرة أخرى للنفوذ الروحي لخلفاء بغداد ، واصبح صلاح الدين منذ ذلك الحين سيّد مصر فحكم حتى وفاة نور الدين محمود بوصفه نائباً له ، ثم استقل بالحكم بعد ذلك ، وكان في الثالثة والخمسين من عمره [٢] .

---

١ ـ دام حكمهم ٢٦٦ سنة .

٢ ـ ولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ ـ ١١٣٨ م (٥٣٢ هـ) .

وفي سنة ٥٦٩ هـ ارسل صلاح الدين أخـاه توران شاه لاخضاع اليمن ففتحها . وقد مكنته وفاة نور الدين من تدعيم استقلاله في حكم مصر كلها ، وقسم من بلاد النوبة ، والحجاز واليمن .

ولم يعقب نور الدين سوى ابن واحد يدعى اسماعيل (الملك الصالح) ولم يكن وقتئذ قد بلغ الحادية عشرة من عمره :

الفصل الثاني والعشرون

العباسيون (تابع)

٥٧٦ ـ ٥٨٩ هـ ؛ ١١٨١ ـ ١١٩٣ م

الحروب الصليبية

الخليفة الناصر ـ الملك الصالح اسماعيل ، امير دمشق ـ دعوة صلاح الدين الى دمشق ـ الحرب بين صلاح الدين والملك الصالح ـ صلاح الدين حاكم سورية ـ تلقيبه بالسلطان ـ وفاة الملك الصالح ـ مملكة بيت المقدس ـ الصليبيون ـ فتح عكا ونابلس واريحا وغيرها ـ حصار بيت المقدس ـ استسلامها ـ انسانية صلاح الدين ـ الحرب الصليبية الثالثة ـ حصار عكا ـ دفاعها البطولي ـ هزائم الصليبيين ـ وفاة فردريك بربا روسا ـ وصول ملكي فرنسا وانكلترة ـ الاستيلاء على عكا ـ قسوة ريكاردوس قلب الاسد ـ صلاح الدين يدمر عسقلان ـ الصلح مع ريكاردوس ـ وفاة صلاح الدين ـ صفاته واخلاقه ٠

الملك الصالح ابن نور الدين محمود

عندما علم صلاح الدين بوفاة سيده ومولاه كتب إلى الملك الصالح فوراً يعزيه بوفاة والده ، كما أرسل اليه الهدايا التقليدية وعرض عليه خدماته وولاءه ، واستمر في الدعاء له في خطبة الجمعة وفي ضرب النقود باسمه ، وهما اهم رمزين للسلطة العليا . إلا ان صغر سن الملك الصالح شجع وزراءه ورجال بلاطه على ان يعمل كل منهم في سبيل توسيع سلطانه على حساب الملك الصغير ، واضطر صلاح الدين ازاء دسائسهم الى ان يبعث بكتاب شديد اللهجة يحذرهم فيه وينذرهم من مغبة الخيانة ويهددهم بالمجيء بنفسه الى دمشق للمحافظة على مولاه اذا لم تستقم الامور . عند ذلك أسرع احد الامراء ، كمشتكين ، في ارسال الملك الصالح الى حلب ، تاركاً دمشق عرضة لهجوم الفرنج الذين لم يضيعوا الفرصة فحاصروا المدينة ولم يرفعوا الحصار عنها الا بعد ان دفع اهلها فدية كبيرة . وعندئذ استشاط صلاح الدين غضباً وسار مسرعاً مع بعض قواته الى دمشق على رأس سبعمئة خيال فاستولى عليها ولم يدخل قصر نور الدين بل أقام في البيت الذي كان يعيش فيه ابوه نجم الدين ايوب عندما كان في دمشق ، ومن هناك ارسل الى أتابك الشاب كتاباً اعرب فيه عن احترامه وولائه وطاعته ، واكد له انه لم يأت الى دمشق الا لحمايته ، فجاءه الجواب الذي كتبه أعداؤه متضمناً ، بدلاً من الشكر والثناء ، اتهامات بنكران الجميل وشق عصا الطاعة ، فسخط صلاح الدين وزحف على حلب بغية مقابلة الملك الصالح شخصياً ، فلم يقابله الملك الشاب ، بتحريض من كمشتكين ، مقابلة ودية . وعندما اقترب صلاح الدين من حلب ركب ابن نور الدين ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، الى السوق وذكّر الناس بفضل ابيه عليهم ودعاهم الى مساعدته على « ناكر الجميل في خارج حلب » . وعندئذ خرج أهالي حلب شاكي السلاح فخاطبهم صلاح الدين بقوله : « يعلم الله اني لم

آرم قط الى اشهار السلاح في وجه الملك ، ولكنهم طالما أرادوا ذلك فليكن كما يريدون » . ودار قتال أسفر عن هزيمة اهل حلب وفرارهم الى المدينة .

فلما الفى كمشتكين نفسه عاجزاً حرّض الحشاشين على قتل صلاح الدين ولكن هجومهم باء بالفشل وعندئذ استنجد كمشتكين بالصليبيين وبسيف الدين غازي الثاني ، أتابك الموصل[1] ، فحاصر الصليبيون حمص ولكنهم رجعوا عنها عند مجيء صلاح الدين الذي حاول مرة اخرى الوصول الى اتفاق ودي مع ابن نور الدين ، فعرض عليه في كتاب مهذب اعادة حماة وحمص وبعلبك على شرط ان يقرّه على ولايتي دمشق ومصر ، ولكن الملك رفض عرضه رفضاً باتاً .

وعندئذ دارت معركة عند اسوار حلب منيت فيها جيوش الملك الصالح بهزيمة أخرى ، وحوصرت مدينة حلب حصاراً جدياً حتى اضطر كمشتكين وسيف الدين غازي إلى طلب الصلح فأرسلا ابنة نور الدين ، وكانت ما تزال طفلة ، إلى معسكر صلاح الدين بغية استثارة شفقته ورأفته والحصول على شروط مؤاتية . وقد استقبل صلاح الدين الفتاة بأكبر قدر من اللطف والعطف وأغدق عليها الهدايا ، ونزولاً عند طلبها ردّ الى أخيها جميع المدن التي كان قد استولى عليها من امارة حلب ، وعقد معاهدة صلح مع اخيها اقره بموجبها على ولاية دمشق ، ومنذ ذلك الحين اوقف الدعاء في الخطبة للملك الصالح في الشام والحجاز ومصر ، وعندئذ اقره الخليفة العباسي ، « مصدر السلطة الشرعية » على الاستقلال بملكه وأنعم عليه كالعادة بلقب السلطان .

وفاة الملك الصالح (١١٨١ — ١١٨٢ م)

وفي سنة ٥٧٩ ﻫ توفي الملك الصالح وهو في التاسعة عشرة من عمره

---

١ — ابن عم الملك الصالح .

فوُلي من بعده ابنُ عمه عز الدين الذي كان قد خلف سيف الدين في اتابكية الموصل . وقد تنازل عز الدين لأخيه عماد الدين عن ولاية حلب وأخذ منه اتابكية سنجار ، وبعد فترة وجيزة اعترف بسلطان صلاح الدين ، وحذا حذوه أمير الموصل على أن يقره صلاح الدين على الاراضي الواقعة بين دجلة والفرات ، وهكذا لم ينته عام ١١٨٢ م . حتى اعترف بسلطة صلاح الدين جميع امراء آسية الغربية ، بما فيهم سلطان قونية وأمير ارمينية[١] وأصبح من حقه أن يطلب مساعدتهم عند أي طارىء .

مملكة بيت المقدس

ولكن مملكة بيت المقدس كانت تستمد حاجتها من الرجال والمواد الحربية من جميع انحاء اوروبة ، وكان الفرسان الباحثون عن المجد ، والمغامرون الباحثون عن الكنوز والثروات ، والمتعصبون التواقون إلى محاربة « الكفار » ، والمجرمون الهاربون من العدالة ، يتدفقون على شواطىء الشام . وكان « عموري » قد مات في ذلك الحين تقريباً تاركاً العرش لابنه بولدوين الرابع ، ولكن هذا الفتى البائس أصيب بمرض مُعدٍ سريعاً ما جعله جديراً بالشفقة والرثاء ومنعه من أن يقوم بأيما دور في ادارة شؤون مملكته . وقد تزوجت أخته ازبيلا من المركيز مونتغرات وولدت له طفلاً أسمته بولدوين ايضاً ، وعندما توفي مونتغرات تزوجت من « كيديلسكنان » فعينه بولدوين نائباً عنه ، ولكنه سرعان ما عزله وعين مكانه ريموند ، أمير طرابلس ، وفي الوقت نفسه تنازل عن العرش لابن أخته بولدوين الخامس الذي كان في الخامسة من عمره . والمفروض أن الملك الطفل قد قتل بيد أمه ، او بايعاز منها ، وسواء كان ذلك صحيحاً أو باطلاً فان أمه ازبيلا قد نصبت عند وفاته ملكة على بيت المقدس ووضعت هي بيدها التاج على مفرق زوجها . وهكذا

---

١ وعاصمتها خلات وكان يحكمها امير مسلم .

انتقل عرش فلسطين في سنة ١١٨٧ م إلى ازبيلا وزوجها ليسكنان .

وفي عهد بولدوين المجـذوم عقدت هدنة بين السلطان والفرنج . ويقول ميشو « والجدير بالملاحظة أن المسلمين وفوا بعهودهم بينما اعطى المسيحيون الاشارة لحرب جديدة . » وكان ريجينولد ، زوج كونستانس ارملة ريموند ، قد وقع اسيراً في يد نور الدين محمود منذ زمن طويل ، فاطلق الملك الصالح سراحه وعندئذ تزوج من ارملة هامفري فحصل بذلك على أمارتي الكرك والشوبك .

وفي سنة ١١٨٦ نقض ريجينولد الهدنة القائمة بين المسيحيين والمسلمين وهاجم احدى القوافل الكبيرة المارة بالقرب من حصنه وذبح عدداً من افرادها ونهب بضائعهم ، وعندئذ استبد الغضب بالسلطان وطلب من ملك بيت المقدس معاقبة المعتدي ، ولما رفض الملك الطلب هبّ صلاح الدين بنفسه إلى انزال القصاص بريجينولد ، فحاصر الكرك بينما ارسل قوة صغيرة بقيادة ابنه الاكبر علي الملقب بالملك الأفضل الى الجليل لمراقبة الفرنج الذين لم يكادوا يسمعون بحصار الكرك وبتقدم الملك الأفضل حتى وحدوا صفوفهم وزحفوا عليه فأسرع السلطان من جهة الى نجدة ابنه . كان الجيشان متكافئين ، والفرنج قد احتشدوا في سهول صفورية ، ولكن صلاح الدين استطاع بمناورة بارعة اخراجهم إلى واد مغلق بين الجبال المجاورة لطبرية بالقرب من تل حطين ، فانحدر الفرنج «كالجبال المتحركة » نحو بحيرة طبرية ، بينما تمركزت قوات السلطان امام البحيرة وتمكنت بذلك من ان تقطع الماء عن الصليبيين . وفي مساء يوم الخميس ، الثاني من شهر تموز (يوليو) ، وقف الجيشان وجهاً لوجه ، وانقضى الليل كله في الاستعداد للمعركة الرهيبة في اليوم التالي ، وفي صبـاح الجمعة ، الخامس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٣ هـ ، نشبت المعركة ودارت فيها الدائرة على مملكة كيديلسكنان بعـد أن أعمل المسلمون السيف في رقاب جنده وقتلوا منهم عشرة آلاف ، وفتكوا

بعدد من قوادهم وأسروا الآخرين . وكان بين الأسرى كيديلسكنان نفسه وأخوه جوفري ورينو صاحب الكرك (السبب الرئيسي لهذه الحرب) ، وابن هامفري وكونت هوغ أمير جبيـــل وابن امير طبرية ، ولم ينج من الأسر سوى ريموند أمير طرابلس وأمير طبرية ورينو أمير صيدا وابن أمير انطاكية اذ تمكنوا من الفرار والوصول الى الساحل .

وقد احسن السلطان معاملة كيديلسكنان ، غير أنه أمر بقتـــل رينو أمير الكرك وبضعة قواد آخرين نقضوا مثله المعاهدة وفتكوا بالمسلمين اثناء الهدنة . ولم يدع السلطان لاعدائه مجالاً كي يفيقوا من هذه الهزيمة بل واصل مطاردتهم واستولى على قلعة طبرية ووقعت زوجة ريموند أمير طرابلس أسيرة في قبضته فأرسلها الى زوجها معززة مكرمة ، ولم يسيء أحد من المسلمين الى اية امرأة أو طفل ، وما لبثت عكا أن شاهدت صلاح الدين تحت اسوارها . هذه المدينة التي قاومت اقوى جيـــوش المسيحيين طيلة عامين سقطت في قبضة صلاح الدين في يومين ، ثم فتحت نابلس واريحا والرملة وقيصرية وارسوف ويافـــا وبيروت وعدة مدن أخرى ابوابها دون أية مقاومة ، ولم يبق في ايدي الصليبيين على الساحل سوى صور وطرابلس وعسقلان ، ولكن هذه الأخيرة استسلمت بعد حصار قصير وفازت بشروط سخية .

بيت المقدس

عندئذ وجه السلطان اهتمامه الى بيت المقدس التي كانت تضم داخل اسوارها اكثر من ستين ألف جندي ، الى جانب سكانها المدنيين الكثيري العدد . ولدى اقترابه من المدينة ارسل في طلب وجهائها وخاطبهم بقوله : « اني اعرف ، كما تعرفون ، أن بيت المقدس مدينة مقدسة ، وانني لا أود أن انتهك حرمتها بإراقة الدماء ، فاتركوا استحكاماتكم وسأعطيكم جزءاً كبيراً من كنوزي والاراضي التي تستطيعون زراعتها

مهما كانت مساحتها » ؛ غير أن الصليبيين ، بتعصبهم المعروف ، رفضوا هذا العرض السخيّ الانساني ، فسخط صلاح الدين لهذا الرفض وأقسم ليصبن جام غضبه على المدينة انتقاماً لأعمال السفك التي ارتكبها رفاق غودفري وجنوده ، وبعد الحصار الذي دام فترة من الزمن ارتخت عزائم الصليبيين والتمسوا الرأفة « باسم إلهَ جميع البشر » فتغلبت رقة قلب السلطان على رغبته في الاقتصاص ، وسمح للروم ونصارى القدس بالاقامة في بلاده وبالتمتع بحقوقهم المدنية كاملة ، كما سمح بالبقاء للفرنج واللاتين الذين شاءوا أن يقيموا في فلسطين بوصفهم رعايا للسلطان . أما المحاربون داخل المدينة فقد أمر برحيلهم خلال اربعين يوماً ، وضمن لهم سلامة الوصول بحراسة جنوده إلى صور او طرابلس ، وحدد فدية الرجل منهم بعشرة دنانير شامية وخمسة دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل ، فمن عجز عن اداء الفدية أخذ أسيراً .

غير ان هذا الشرط لم يعمل به قط ، فقـــد افتدى السلطان نفسه عشرة آلاف شخص ، بينما أطلق اخوه سيف الدين سراح سبعة آلاف آخرين ، وكان رجال الدين والاهـــالي يحملون معهم جميع أموالهم واشيائهم الثمينة دون ان يتعرضوا لأقل أذى ، كما شوهد عــــدد من المسيحين يحملون على اكتافهم آباءهم وامهاتهم واصدقاءهم الضعفـــاء والشيوخ . وقد تأثر السلطان بهذا المشهد فوزع عليهم الصدقات وزودهم بالدواب لحمل اثقالهم . ولما استأذنته ملكة بيت المقـــدس بالرحيل مع امرائها وفرسانها احترم شقاءها وخاطبها بلطف كبير ، وكان يتبعهـــا رهط من النساء الباكيات المعولات يحملن اطفالهن بين أذرعهن ، واقترب عدد منهن من السلطان وخاطبنه متوسلات فتأثر صلاح الدين بتوسلاتهن وأمر في الحال برد الأسرى الأبناء الى امهاتهن ، والازواج الى زوجاتهن ، ووعد بأن يعامل كل من بقي تحت سلطانه بالعطف والرحمة ، كما وزع الصدقات السخية على اليتامى والارامل ، وسمح لرجال الاسعاف ، وان

كانوا قد حملوا السلاح في وجهه ، بمواصلة عملهم في إسعاف الجرحى والعناية بالمرضى والحجاج المسيحيين .

وبوسعنا الآن ان نتبين الفرق الشاسع بين انسانية صلاح الدين ومروءته وبين وحشية أقرب امراء المسيحيين . يقول ميلز : « ان الكثيرين ممن غادروا بيت المقدس توجهوا الى انطاكية ، ولكن بوهيموند لم ينكر عليهم الضيافة فحسب بل سلبهم ايضاً اموالهم ، فتوجهوا عندئذ الى البلاد الاسلامية حيث استقبلوا جميعاً استقبالاً حسناً . » ويقدّم ميشو بعض التفاصيل المذهلة عن لا إنسانية المسيحيين نحو منفيي بيت المقدس فيقول انهم بعد ان صدهم اخوانهم في المشرق هاموا على وجوههم في الشام ومات الكثيرون منهم حزناً وجوعاً ، وقد أغلقت طرابلس ابوابها في وجوههم ، « حتى ان امرأة منهم انتهى بها اليأس الى ان تلقي بطفلها في البحر وهي تلعن النصارى الذين رفضوا نجدتها . »

واحتراماً لشعور المغلوبين على امرهم كان السلطان قد احجم عن دخول المدينة قبل ان يغادرها الصليبيون . وفي يوم الجمعة ، السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ه ، دخل الى بيت المقدس يحف به امراء الامبراطورية واعيانها الذين جاءوا الى معسكره لتهنئته بانتصاره ، وامر بترميم ما دمرته الحرب ، وتشييد المساجد والكليات التي هدمها الفرنج ، وأقام ادارة حرة حكيمة لحكم البلاد تختلف اختلافاً كبيراً عن طغيان الصليبيين واستبدادهم .

ومن بيت المقدس زحف صلاح الدين على صور التي كان الصليبيون قد التجأوا اليها بعد اطلاق سراحهم ، واصبحت حامية صور ، بعد ان قويت شوكتها بهم ، على استعداد للدفاع عن المدينة دفاعاً عنيداً بقيادة المركيز مونتفرات ، وكان رجلاً قديراً عظيم الدهاء . وقد رفض كونراد نداء السلطان لتسليم المدينة زاعماً انه كان في إمرة ملك

وراء البحار ، ولم يضع صلاح الدين وقته في حصار صور بل تحول عنها حيناً وسار بمحاذاة الساحل الشمالي واستولى بالتتابع على اللاذقيــة وجبلة وصهيون وبيكاس وبؤزير وديو برساك وأمــاكن اخرى محصنة كانت لا تزال في قبضة الفرنج واطلق سراح كيديلسكنان بعد ان اقسم له بشرفه على أن يسافر فوراً الى اوروبة ، ولكن ما ان استعاد هذا الفارس المسيحي حريته حتّى حنث بقسمه وحشد جيشاً عظيماً من فلول القوات الصليبية والقوات القادمة من الغرب فحاصر بها مدينة عكا الّتي تركز حولها منذ الآن اهتمام القارات الثلاث طيلة السنتين التاليتين .

الحرب الصليبية الثالثة

وقد كان لسقوط بيت المقدس وقع هائل في العالم المسيحي ، وبذل رجال الكهنوت اقصى ما يملكون من جهد لاثارة حمية الشعب وحمل ملوك اوروبة وامرائها على شن حرب صليبية اخرى ، فتكللت جهودهم بالنجاح التام وتدفقت النجدات على صور والمعسكر المخيّم امام عكا ، واشترك في تلك الحرب ملوك العالم المسيحي الثلاثة العظام : فردريك برباروسا امبراطور المانية ، وفيليب اوغسطوس ملك فرنسة ، وريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة . ولو ان صلاح الدين ، بمــا عرف عنه من إدراك وبعد نظر ، وحّد وقتئذ قوات مصر والشام وضرب حصاراً متيناً على السواحل الفينيقية اذن لاستطاع ان يشل حركة الصليبيين في فلسطين وان يمنع نزول النجدات القوية الّتي وصلت بسرعة من اوروبة ، غير انه نسي ان سلامة البلاد الفينيقية تتوقف على مناعتها من ناحية البحر ، وان النصر في البرّ لا يمكن بحال ان يقف حاجزاً دون ورود النجدات من ناحية البحر ، وهكذا كانت السفن الاوروبية تمــدّ الصليبيين يومياً بالمؤن والذخائر والرجال . وبهذا الصدد يقول المؤرخون من أمثــال ابن الاثير وابن شداد : « كان صلاح الدين يُبقي على

سكان المدن التي يفتحها ، كما كان يؤمنهم على اموالهم ومتـاعهم .
والمعروف ان الفرنج كانوا يهرعون الى صور بأموالهم ونسائهم واطفالهم حتى تجمع منهم عـدد عظيم ، وطفقت تردهم النجـدات من وراء البحار [1] » . ثم يضيف ابن الاثير الى ذلك قوله انه لم تترك وسيلة الا اتُبعت لاذكاء روح التعصب في شعوب اوروبة ، وقد اخذ بطريرك القدس ، الذي كان صلاح الدين قد احسن معاملته واكرمه ، يطوف مدن الفرنج حاملاً صورة المسيح وقد جرحه احد الاعراب ، مما أثار سخط المسيحين وغضبهم الى ابعد الحدود ، وبهذه الطريقة تمكن من حشد جيوش عظيمة لمساعدة الفرنج في فلسطين ؛ حتى النساء هرعن الى الانتظام في هذه الحملة . وهكذا تدفق الفرنج من كل صوب ، في البر والبحر ، ولما تجمعت قواتهم في صور فكروا اولاً في الهجوم على صيدا ، غير انهم مـا لبثوا اخيراً ان اعتزموا الاستيلاء على عكا من جديد ، وهكذا زحفوا عليها بمحاذاة الساحل تحميهم سفنهم من ناحية البحر وقد كان البحر في الحق مساعدهم الأكبر ، ذلك انه كان يجلب لهم المواد الحربية والذخيرة والمؤن والنجدات من اوطانهم . وقد وصلوا الى عكا في الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٥ هـ والقوا الحصار عليها فوراً .

وما ان علم صلاح الدين بزحف الفرنج حتى عقد مجلساً حربياً ، وكان في رأيه ان يهاجمهم ويشتبك معهم في القتال ابان زحفهم ، غير ان امراء جيشه ثنوه عن عزمه ونصحوه بأن يقاتلهم في مكان مكشوف قرب عكا . فلما وصل صلاح الدين الى ذلك الموقع رأى ان الصليبيين كانوا قد عسكروا وأقاموا جناحيهم على البحر وبذلك طوقوا المدينـة وقطعوا عنها جميع المواصلات البرية ، وعندئذ عسكر صلاح الدين امام الصليبيين وضرب خيمته على « تل كيسان » ، وامتـد جناحه

١ – ابن الاثير

الايمن الى الفياضية وجناحه الأيسر الى نهر بيلوس [1] ، ثم اخـــذت بعض الامدادات ترده من الموصل وديار بكر وسنجار وحوران ، بينما كانت النجدات تتدفق على الفرنج من ناحية البحر .

وفي مستهل شعبان من سنة ٥٨٥ ه شن صلاح الدين هجومه على الصليبيين ، وانقض تقي الدين ، ابن اخي صلاح الدين ، عليهـــم انقضاض الصاعقة ، فشتت شملهم ، واجلاهم عن مراكزهم ، واعاد الاتصال بمدينة عكا . ويقول ابن الاثير : لو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة ، ولكنهم لمـــا نالوا منهم هذا القدر اخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غداً» . وكان صلاح الدين قد استبدل الحامية وزوّد عكا بالذخائر والسلاح ، وكان من بين الامراء الذين دخلوا المدينـــة حسام الدين (ابو الهيجاء الملقب بالسمين) ، وفي اليوم السادس من شهر شعبان بدأ الفرنـــج المعركة فخرجوا من وراء متاريسهم وهجموا هجوماً صادقاً ولكن المسلمين أعملوا فيهم سيوفهم فقتلوا منهم عدداً عظيماً حتى اضطروهم الى التقهقر والعودة الى خنادقهم .

وكانت جيوش صلاح الدين وقتئذ موزعة على جميع انحاء البلاد ، فكان ثمة جيش يراقب « البيمند » ، امير انطاكية ، وجيش آخـــر معسكر في حمص امام طرابلس للدفاع عن تلك الحدود ، وثالث يراقب صور ، ورابع في دمياط والاسكندرية وغيرهما لحماية المـــدن المصرية الساحلية من غزوات الفرنـــج من ناحية البحر . واذن فبالرغـــم من الامدادات التي تلقاها السلطان فان قواته كانت أقل عـــدداً من قوات الصليبيين الذين ارادوا سحقه قبل ان تصله نجدات اخرى فشنوا عليه هجوماً آخر تكلل بالنجاح الجزئي في بادىء الامر ولم يلبث ان فشل في النهاية فشلاً ذريعاً ، وبلـــغ عدد الذين قتلوا في تلك المعركة من

---

١ ــ ويسميه ابن الاثير « النهر الجاري » ، وابن شداد « النهر الحلو » .

الصليبيين عشرة آلاف رجل . وبالرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين في تنظيف ميدان القتال والقاء جثث القتلى في البحر فقد افسد نتن الجثث المكدسة في الميدان الجو والهواء وانتشر من جراء ذلك وباء مميت اصيب بعدواه السلطان نفسه ، وعندئذ اشار عليه الاطباء والقواد بمغادرة المكان فانسحب الى الخروبة ، وما كادوا يغادرون موقع القتال حتى « استعاد الفرنج هدوءهم » واستأنفوا حصار عكا ، وانشأوا خندقاً عميقاً حول معسكرهم بغية حماية انفسهم من هجمات صلاح الدين ثم بنوا سوراً عالياً يختمون به اذا ما اصابتهم الهزيمة .

وتضى صلاح الدين الشتاء في الخروبة ، وفي ربيع عام ١١٩٠ م هبط ثانية الى سهول عكا وأخذ موقعه السابق . وكان الفرنج قد بنوا ابراجاً خشبية ضخمة ملأوها بالرجال المسلحين لمهاجمة حصون المدينة ، وكان المحاصَرون ، باشراف أحد المهندسين الدمشقيين ، يقذفون الصليبيين بالقلل الملأى بالنفط المشتعل حتى اندلعت النيرانُ من الابراج المتنقلة وتحولت الى رماد . وفي هذا الوقت تقريباً انضم بعض الجيوش الى السلطان من جانب الجزيرة ، كما وصل اسطول مصر حاملاً المؤن والذخائر الحربية الى حامية عكا ، واشتبك مع الفرنج في معركة حربية دارت فيها الدائرة عليهم ودخلت السفن المصرية ميناء عكا . غير ان المسلمين ساورهم رعبٌ وقلق عظيمان عندما علموا في ذلك الوقت بالذات بأن فردريك برباروسا ، امبراطور المانيا ، قد شرع في زحفه على فلسطين بجيش جرّار ، وان التركمان عرقلوا سيره بمناوأة جناحيه ، وانه مع ذلك نجح في العبور الى كيليكيا العليا (بلاد الارمن) التي كان يحكمها ليون الأفون ، ابن اسطفان ، فبعث السلطان بالرسل الى حلفائه يستنجد بهم ، كما ارسل وفداً الى يعقوب المنصور ، سلطان مراكش ، ولكنهم جميعاً ابدوا فتوراً في اجابة طلبه ، وهكذا كان على صلاح الدين أن يعتمد على مصادره الخاصة في مقابلة قوات اوروبة

الموحّدة ، إلا ان الامبراطور الالماني لم يقدر له ابداً الوصول الى هدفه. ذلك انه غرق في نهر السلاف بالقرب من سلوقية ، فدبت الفوضى في صفوف جيشه ، وعاد عددٌ كبير من جنوده الى بلادهم ، بينما جاءت قوة صغيرة بقيادة ابنه الى انطاكية ومن ثم الى فلسطين ، واخيراً اقلعت على احدى السفن عائـــدة الى الوطن ، فتحطمت في الطريق ، وغرق كثيرون من افرادها في البحر .

وفي العشرين من شهر جمادي الثانية سنة ٥٨٦ ﻫ خرج الفرنج من معاقلهم واشتبكوا مع المسلمين في معركة انتهت بهزيمتهم وفرارهم بعد ان خلفوا وراءهم في الميدان جرحاهم وقتلاهم ، وعندئذ يئس الصليبيون ووهنت منهم العزائم ، إلا انه لم يمض يومان اثنان حتّى وردتهم نجدة عظيمة من وراء البحار بقيادة الكونت هنري ابن اخت ملك الانكليز وقريب ملك فرنسة ، فنزل بجيوشه دون صعوبة تذكر في جوار عكا واتصل بقوات الصليبيين التي كانت معسكرة هناك ، وحصّن المعسكر ثم حشد قواته واعلن عزمه على مهاجمة السلطان ، فارتد صلاح الدين عند ذاك الى الخروبة ، ومكّن انسحاب قوات السلطـــان الصليبيين من تشديد الحصار على عكا ، ولكن المسلمين المحصورين في المدينة تحملوا هول هذا الهجوم وصمدوا في الدفاع عن المدينة صمود الابطال . وكان الأميران قرقوش وحسام الدين يثيران حماس الجنـــود وشجاعتهم ، ولم يتركا فرصة إلا انتهزاها لمباغتة الفرنج واحباط هجماتهم [١] . وكان المسلمون يحرقون آلات المحاصِرين ، وفي معارك عديدة اجلوهم عن مواقعهم ، وعندئذ شدّد الكونت هنري الحصار ولكن السلطان كان يغيث الحامية بارسال المؤن اليها بالبحر من بيروت .

وعندئذ ارسل الفرنج خطاباً الى البابا حاكم رومة الكبرى يستنجدونه فيه على المسلمين ، فأخـــذت المساعدات تتدفق عليهم من كل حدب

---

١ ميشو.

وصوب . وعندما انضمت هذه الامدادات الى الكونت هنري خرج من معاقله للاشتباك مع قوات السلطـــان فلقيهم « بجيش حسن التنظيم » ، إلا ان صلاح الدين كان مع الاسف مريضاً في ذلك اليوم ولم يستطع إلا ان يشهد المعركة من خيمة صغيرة ضربت على تل مشرف على الميدان. واستمرت المعركة مدة طويلة ، ولكنها انتهت بردّ الفرنج إلى مواقعهم الدفاعية بعد ان اصيبوا بخسائر فادحة، « ولو لم يكن صلاح الدين مريضاً ذلك اليوم اذن لكانت تلك المعركة معركة حاسمة. » « وبدأ الفرنج الآن يشعرون بوطأة الجوع ، كما أن اقتراب فصل الشتاء أجبرهم على ارسال سفنهم الى جزر اليونان المجاورة . » وقد عُهد بأمرة المدينة الى سيف الدين عليّ بن احمد المشطوب ، ولكن حامية المدينة المنهكة لم تُستبدل لسوء الطالع بغيرها ، كما ان الامراء ، بالرغم من اوامر السلطان ، لم ينتهزوا الفرصة لتزويد المدينة بالمؤن والذخيرة .

فلما حلّ فصل الربيع عادت سفن الفرنج الحربية باعداد هائلة وقطعت مرة اخرى الاتصال مع حامية عكا ، حتى انه لم يعد ثمة وسيلة لارسال الكتب الى معسكر السلطان إلا بواسطة الغواصين .

وفي ١٢ ربيع الاول من سنة ٥٨٧ هـ وصلت امدادات جديدة الى الفرنج المعسكرين امام عكا ، « ونزل ملك فرنسة ، فيليب أغسطوس ، الذي يعد من أشرف ملوكهم ، بالرغم من عـــدم اتساع املاكه » بجيش لجب ، وعندئذ ارسل صلاح الدين ، وكان معسكراً وقتئذ في « شفا عمرو » ، في طلب النجدة من قواده ، ولكن الصليبيين تلقوا ، قبل وصول النجدة الى صلاح الدين ، امدادات كبيرة قويت بها شوكتهم لدى وصول ملك انكلترة في عشرين سفينة محملة بالمقـــاتلين والذخيرة الحربية ، فعظم بهم شر الفرنج وتضاعفت وطأتهم على المسلمين « لأن ملك انكلترة كان مشهوراً في عصره بالشجاعة والمكر والنشاط والصبر».

وعندما علم صلاح الدين بمقـــدم ملك الانكليز أمر بارسال سفينة

محملة بالمؤن والذخيرة الى عكا من بيروت ، ولكن الصليبيين هاجموا هذه السفينة قبل أن تتمكن من الرسوّ في الميناء . وعندما وجد ربانها يعقوب الحلبي أن سفينته ستقع في يـد العدو أغرقها فغرقت بكل من كان فيها .

عندئذ بدأ الصليبيون في تشديد الحصار على عكا ، فقاومت حاميتها ودافعت دفاع الابطال وردت عنها هجمات الفرنج حيناً من الزمن ، ولم تكن الامدادات التي وعد بها امراء صلاح الدين قد وصلت بعد . وبالرغم من المعارك المتكررة فقد وجد صلاح الدين نفسه غير قادر على اكراه الصليبيين على رفع الحصار ، وبدأ المحاصرون يشعرون بوطـأة الحرب والجوع والأوبئة وبقسوة الكفـاح الذي استمروا فيه سنتين ، فخرج مشطوب قائد الحامية الى فيليب اوغسطوس وخاطبه بقوله : « لـقد قضينا اربع سنوات في حكم هذه المدينة ، وعندما استولينا عليهـا في بادىء الامر اطلقنا سراح أهلها ومكنّاهم من الذهاب باموالهم وعائلاتهم وانا الآن نسلم اليكم المدينة بالشروط التي سبق ان منحناها لكم . » ولكن ملك فرنسة رفض أن يبقي على حياة اي فرد من حامية المدينـة او سكانها إلا اذا سلّم المسلمون بيت المقدس وجميع المدن التي استولوا عليها من الصليبيين منذ موقعة طبرية ، فعاد الأمير الى المدينة مصمماً على القتال الى النهاية فاما ان ينتصر واما ان يدفن تحت انقاض المدينة . واستمر الكفاح اليائس ردحـاً من الزمن ، ولكن الجوع كان يعض المحاصرين بأنيابه ، بينما كان جيش السلطان عاجزاً عن نجدتهم لعـدم وصول الامدادات . وأخيراً استسلم أهل المدينة بعد ان تعهد لهم الفرنج بالابقاء على حياتهم ، وعلى ان يردّ المسلمون من ناحيتهم صليب المسيح ويقدموا الفاً وستمئة اسير ، ويدفعوا مئتي الف دينار لزعماء الصليبيين . وقد حدث بعض التأخر في دفع الفدية ، وعندئـذ اخرج ريكاردوس قلب الأسد جنود الحامية من المدينة وذبحهم على مرأى من اخوانهم .

وقد خسر الصليبيون في سبيل الاستيلاء على عكا ستين الف رجُل .

وبعد أن أنعش الصليبيون أنفسهم في مدينة عكا بطريقتهم المعتادة زحفوا بقيادة ريكاردوس على عسقلان . وكان السلطان يسير بمحاذاتهم ويشتبك معهم في القتال حتى بلغ عدد المعارك التي جرت على طــول المئة والخمسين ميلا احدى عشرة معركة . وفي معركة « ارسوف » وحدها خسر السلطان ثمانية آلاف من أشجع رجاله ، وعندما وجد ان جيشه اضعف من إن يمنع سقوط أقوى موقــع في فلسطين في ايدي الصليبيين أسرع الى عسقلان واجلى عنها سكانها ودمرها تدمــيراً ، فلما وصل ريكاردوس رأى الى تلك المدينة المنيعة وقد تحولت الى انقاض وخرائب . بل ان ريكاردوس رأى اكثر من ذلك . لقد رأى أمامه رجلاً حديدي الارادة ذا همة لا تكل ولا تملّ ، فتأثر تأثراً كبــيراً بشخصية صلاح الدين وتاق الى عقد الصلح معه بعد ان يئس من ذلك الكفاح المضني العقيم ، وعلى ذلك ارسل الى اخي السلطان سيف الدين (الملك العادل) يطلب المفاوضة معه ، فتقابل الاميران وتولى الترجمة بينهما ابن همفري [1] ، وأبدى ريكاردوس رغبة شديدة في الصلح وذكر الشروط التي يقترحها ولكن السلطان رأى استحالة قبولها وهكذا لم تؤد المقابلة الى أية نتيجة . وقد سخط المركيز مونتفرات عندئذ على تصرفات ريكاردوس وأرسل الى السلطان مبعوثاً يعرض عليه الصلح من جانبه هو ومشترطاً حصوله على صيدا وبيروت ، فوافق السلطان عــلى شروطه شرط ان ينفذ هو شروطه اولاً ، ولكن رسلاً آخرين وصلوا من ملك انكلترة يحملون شروطاً للصلح وكتابين اولها الى « اخيه وصديقه » الملك العادل وثانيهــما الى السلطان ، وكانت الشروط الوحيــدة التي طلبها ريكاردوس هذه المرة ان يُسمح للصليبيين بالاحتفاظ بالمدن الــتي في

---

١ ـ يقول بهاء الدين بن شداد : « لقد رأيته يوم عقد الصلح . كان في الحق جميلا ولكنه كان يحلق لحيته على عادتهم . »

ايديهم ، وان يُرد اليهم بيت المقدس وخشبة الصليب الحقيقية ، ولكن السلطان رفض رفضاً شديداً اعادة بيت المقدس واعرب عن استعداده لرد خشبة الصليب ، شرط ان يعقد الصلح طبقاً لرغباته .

المفاوضات

وجدّد ملك انكلترة محادثاته مع الملك العادل وتوصل معه الى اتفاق يخضع لمصادقة السلطــان ومجلسه . وكانت الشروط ان تتزوج اخت ريكاردوس ، ارملة ملك صقلية ، من الملك العادل ، وان يعطيهـا ريكاردوس بائنة لها المدن الساحلية التي في يديه وان يعطي السلطان أخاه المدن التي كان قد استولى عليها ، وأن يحكم الزوجـان بيت المقدس بوصفها مدينة محايدة يؤمها اتباع الديانتين ، وأن يستبدل الاسرى ، ويعاد الصليب الى المسيحيين ، وان يحتفظ الرهبان بامتيازاتهم . وقـد رأى السلطان في هذه المقترحات وسيلة لاعادة السلام بين الديانتين اللتين طالما نشبت بينهما المعارك الدامية ، فقبلها فوراً . ولو ان كهنة ريكاردوس سمحوا بعقد المعاهدة اذن لاستطاعت ، على الارجـح ، ان تسدّ تلك الثغرة التي ما تزال تفرّق بـين المسيحية والاسلام ، ولكنهم اعترضوا ايما اعتراض على زواج اميرة مسيحية من فارس شهم شجاع كسيف الدين ، وهددوا ريكاردوس بالحرمان ، كما اخذوا يثيرون مخاوف ملكة صقلية السابقة وأوهامها ، حتى قلق ريكاردوس من تهديداتهم ، وارسل الرسل الى « اخيه وصديقه » يطلب منه ان يعتنق المسيحيـة ، ولكن الامير رفض بطبيعة الحال مثل هذا الاقتراح .

مقتل كونراد

وفي الوقت نفسه وصل رسلٌ جدد من المركيز ، وعندها اتصـل

ملك انكلترة بزعيم الحشاشين بغية تخليصه من حليفه المزعــج ، فهجم عليه فدائيان واغتالاه في ١٦ ربيع الثاني من سنة ٥٨٨ ه .

وسار ريكاردوس على رأس حملة عظيمة إلى بيت المقدس ، ولكن هذه الحملة منيت بفشل ذريع قوّى رغبته في مغادرة فلسطين ، فأرسل الرسل الى السلطان يحملون اليه مقترحات جديدة ويسحبون جميع المطاليب السابقة . وكانت رسالة الملك الى السلطــان تقول : « انني راغب في ودك وصداقتك ، وليس لي أي مطمع في ان استولي على هذه الارض ولقد اعطيت الكونت همفري ، ابن شقيقتي ، البلاد التي بيدي ، وانني الآن أتركه في رعايتك وسيلبي هو اوامرك ويصحبك في حملاتــك الى المشرق ، وانني اطلب منك الكنيسة (في القدس) » .

وقد ارسل السلطان الى ريكاردوس جواباً مرضياً بعد ان استشــار مجلسه ، وعادت البعثة نفسها مصحوبة بابن الكونت همفــري ومحملة بهدايا ملك الانكليز الذي اعلن تنازله نهائياً عن بيت المقدس ولكنــه طلب لقاء ذلك مدينة عسقلان والداروم وغزة ، فأجاب السلطان بأنــه سوف يعقد صلحاً منفرداً مع امير انطاكية ، وانه مستعد لاعطــاء ريكاردوس مدينة اللد وحدها من دون سائر المدن الثلاث .

وعندما علم صلاح الدين بأن الصليبيين يزحفون على بيروت تــرك معسكره ونزل الى الميدان ثانية واستولى عنوة على يافا ، وعندئذ طلب ملك انكلترة عقد مؤتمر مع مندوبي الملك العادل ، ولدى وصولهم الى معسكره أخذ يشيد بذكر السلطان ويمتدح مزاياه ثم طلب الى رئيسهم ان يناشدوا السلطان « بحق الله ان يعقد الصلح » . واستجابة لهذا النداء أقطع السلطان ملك الانكليز البلدان الساحلية من صور الى قيصرية ، ولكن ريكاردوس طلب يافا وعسقلان ، فأعرب صلاح الدين عن استعــداده لاعطائه يافا ورفض اعطاءه عسقلان مهما كلف الأمر .

واخيراً تنازل ملك الانكليز عن المطالبة بعسقلان ، وعقد الصلح بين

الجانبين « وصدر بيانٌ يعلن قيام الصلح بين المسيحيين والمسلمين وان ربوع الفريقين يجب ان تنعم بالطمأنينة والأمن ، وان بامكان رعايا كل فريق دخول ربوع الفريق الآخر دون خوف او ازعاج . وفي ذلك اليوم احتشدت الجماهير لسماع النبأ ، وفرح الناس من الجانبين فرحاً عظيماً ، وأذن للجيوش التي قدمت من البلدان القصية لانجاد الجيش بالعودة الى بلادها » . كما عاد ريكاردوس الى بلاده ، واما ما حدث له بعد ذلك فأمره معروف من قراء تاريخ انكلترة

نهاية الحرب الصليبية الثالثة

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي هلك فيها عددٌ هائل من الناس ، وخرّبت الوف البيوت في المشرق والمغرب على حد سواء ، وفقدت المانية فيها واحداً من اعظم أباطرتها ، كما خسرت فرنسة وانكلترة فيها زهرة فرسانها ، وكان كسبها الوحيد هو الاستيلاء على عكا !

وبعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليـــلاً في بيت المقدس ثم سار منها بحراسة كوكبة من الفرسان الى الساحل لتفقد حالة القلاع البحرية واصلاحها ، وفي بيت المقدس بنى صلاح الدين مستشفى وكلية وجعلها تحت إمرة امين سره ومؤرخ حياته ثم عاد الى دمشق وبقي فيها مع عائلته حتى وافاه اجله يوم الاربعاء الموافق ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ. ويقول مؤرخ مسلم : « كان يوم وفاة صلاح الدين نكبة على الاسلام والمسلمين لم يحل بهم مثلها منذ الخلفاء الاربعة الراشدين ، فعم الاسى والحزن البلاط والامبراطورية والعالم ، وشيعته المدينة بأسرها الى مثواه الاخير بالصراخ والعويل . »

اخلاقه

وهكذا قضى ملك من اعظم الملوك وانبل السلاطين الذين أنبتهـــم

العالم ، وكان قبل وفاته قد وزع اموالاً كثيرة على الفقراء بقطع النظر عن دينهم ، بينما لم يخلف سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً حملها الى بغداد الرسول الذي جاء ينعاه الى الخليفة . ويمكننا الحكم على اخلاقه وصفاته من خلال اقوال معاصريه الذين يصفونه بأنه كان رقيق القلب كريماً حليماً متواضعاً صبوراً على الشدائد . « كان صديقاً للعلماء واهل الفضل ، وكان يقربهم اليه ويعاملهم بالعطف والاحسان » .

ومن مآثر صلاح الدين انه ملأ امبراطوريته بالكليات والمستشفيات ، وكان وزيره القاضي الفاضل ، الذي استوزره ثلاثةٌ من سلاطين آل بويه ، يتنافس مع سيده في رعاية العلم والفنون ، وكان مجلس صلاح الدين مؤلفاً لا من القواد أمثال قرقوش وحسام الدين ومشطوب ، بل من العلماء امثال القاضي والكاتب عماد الذين امين سر السلطان والقاضي الحقاري الذي كثيراً ما استبدل بلباس القضاة الفضفاض لباس الجندية ؛ وكثير غيرهم .

الفصل الثالث والعشرون

العباسيون (تابع)
٥٨٩-٦٦١ هـ ؛ ١١٩٣ - ١٢٦٨م

اغارة التتر

ابناء صلاح الدين ـ قيام الملك العادل ـ الحرب الصليبية الرابعة ـ ابناء الملك العادل ـ نظرة عامة على العالم الاسلامي في المشرق ـ الخلافة ـ الخليفة الظاهر ـ الخليفة المستنصر ـ الخليفة المستعصم ـ اغارة التتر ـ سقوط بغداد ـ تدمير المدنية الاسلامية·

أبناء صلاح الدين وتقسيم الامبراطورية

لم يضع صلاح الدين قبل وفاته ، لسوء الطالع ، نظاماً خاصاً لولاية العهد ، وكانت نتيجة قصر النظر هذا تقويض الامبراطورية التي انقسمت بعد وفاته إلى ثلاث ممالك مستقلة يحكمها كلٌ من اولاده الكبار : علي، الملك الأفضل (ابو الحسن ، نور الدين) ، وقد حكم الشام وفلسطين، ومكنه استيلاؤه على دمشق ، عاصمة الامبراطورية ، من أن تكون له

الافضليه على اخويه ، وعثمان ، الملك العزيز (ابو الفتح ، عماد الدين) الذي كان يحكم مصر في زمان أبيه ، وقد نودي به ملكاً عليها ، وغازي ، الملك الظاهر (غياث الدين) وقد ولي امارة حلب . أما الملك العادل (سيف الدين ، ابو بكر) ، أمير الكرك والشوبك ، وأخو صلاح الدين الذي كان يتمتع بمحبة الجيش ، فقد حكم قسماً من الجزيرة وعدة مدن في جوار الفرات ، بينما احتفظ ابناء شيركوه بحمص واحتفظ افراد آخرون من الأسرة ببعض الأمارات المهمة الأخرى ، وكان على اليمن أخ آخر لصلاح الدين .

ولو ان ابناء صلاح الدين الكبير ظلوا متحدين اذن لتمكنوا ، على الارجح ، وبالرغم من انقسام الامبراطورية ، من أن يحتفظوا بملكهم ويورثوه لابنائهم واحفادهم ، غير ان خلافاتهم وقلة كفاءتهم اعانت الملك العادل على الاستيلاء على ممتلكات اخيه ، كما أدت الخصومات التي نشبت بين الأفضل والعزيز إلى طرد الأول من دمشق واستيلاء العادل عندئذ عليها ، واكتفاء العزيز بمدينة صرخد وحدها . وعندما توفي العزيز لم يكن له سوى ولد قاصر (الملك المنصور محمد) فاستدعي الأفضل لتولي الوصاية عليه ، ثم نشبت الخلافات بين الأفضل والعادل الذي أخرج الافضل وابن أخيه المنصور من مصر ، ومنحهما بعض الاقطاعات في الجزيرة حيث اقاما واحفادهما من بعدهما . أما العادل فقد استقل في حكم مصر ولم يلبث أن استولى على الشام وشرق الجزيرة وخلاط وارمينية العظمى ، وفي سنة ٦١٢ هـ استولى على اليمن واستعمل عليها حفيده يوسف .

ويصف المؤرخون سيف الدين (الملك العادل) بأنه كان ملكاً كثير المعرفة ، بعيد النظر ، عظيم الفطنة ، حسن النوايا والمقاصد ، مستقيم السيرة حازماً ، وكان،شأن أخيه ، محباً للعلم والعلماء . وقد اصبح الملك العادل ملكاً على الشام واعالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع

كما اصبحت امبراطوريته تعادل في اتساع رقعتها امبراطورية أخيـــه ، وأضحت الخطبة تقرأ له من على المنابر وتضرب السكة باسمه [١] .

الحرب الصليبية الرابعة

وبعد عامين من وفاة صلاح الدين أشعل البابا كلاستين الثالث نار حملة صليبية أخرى ، ولكن حروب الابطال كانت قد انتهت بانتهـــاء النزاع بين ريكاردوس وصلاح الدين ، واصبحت الحروب بين المسلمين والمسيحيين منذ ذلك الحـــين ضعيفة نسبياً . وبالرغم من الانقسام الذي ساد معسكر المسلمين فقد كانت هذه الحملة التي قام بها الفرنج عقيمة شأن سابقاتها . يقول ميشو : « إن جميع قوى الغرب فشلت في محاولة لاقتحام قلعة صغيرة في الشام » . وقد نزلت قوةٌ كبيرة من الصليبيين على الشاطيء الفينيقي واستولت على بيروت ، مخالفة بذلك شروط المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين ، والتي اقسم على احترامهـــا جميع الامراء في الشام وقتئذ ؛ وكان ابناء صلاح الدين في ذلك الحين مـــا يزالون على رأس ممالكهم ، ولكن الملك العـــادل ، بوصفه اكثر ابطال المسلمين اختباراً وتجربة ، أسرع من امارته لمقاومـــة الفرنج ، فاستولى عنوة على يافا بينما كان الصليبيون يحاصرون « تبنين » وقـــد انتهى ذلك الحصار بفشل ذريع ، وعقدت هدنة مدتها ثلاث سنوات ، وتميزت تلك الحرب كسابقاتها بأفظع ضروب الفتك التي اقترفها جنود الصليب .

الحرب الصليبية الخامسة :

وبعد ثلاثة أعوام اعلن البابا « انوسينت » الثالث حرباً صليبية اخرى « لا لشيء إلا لجمع الأموال لسدّ نفقات حياته المترفة واشباعاً لبخله »

١ ــ ابو الفداء ٠

كما يقول أحد الكتاب الاوروبيين ، ودعا امراء العالم المسيحي الى الاشتراك فيها . وقد رفض ريكاردوس ملك انكلترة أن يعير نداءات البابا أيما اهتمام ، ولكن سائر امراء اوروبة لم يكونوا في مثل حكمته ورجاحة عقله ، وهكذا خرجت قوة هائلة لغزو بلاد المشرق من جديد ، ولكنها لحسن طالع الاسلام والمسلمين ، بدلاً من ان تزحف على الشام ، توجهت بأسلحتها نحو القسطنطينية . وتتفق رواية ابن الأثير عن تلك الحملة الى حد مدهش مع روايات المؤرخين الاوروبيين ، فهو يقول : « كان قد وثب على الملك أخ [1] له فقبض عليه وملك البلد منه ، وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولده [2] والتحق بالصليبيين الذين اجتمعوا ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ بيت المقدس ، فاستنصر بهم على عمه الذي اغتصب الملك من ابيه » ، ثم يصف الاعمال الاجرامية التي ارتكبها الصليبيون في المدينة فيقول : « انهم اشعلوا فيها النيران قانية حتى احترق ربع عمارتها » ، وقد بدأت تلك الاعمال عندما اشتد هوس بعض الحجاج « عند رؤية الجوامع وكنائس اليهود التي لا يعبد فيها غير إله واحد » ، فهاجموا الكفرة واعملوا السيف في رقاب الأهلين وأحرقوا منازلهم بالنار ، ولكن « الكفرة » وبعضاً من جيرانهم المسيحيين هبوا للدفاع عن ارواحهم وأموالهم واتت النيران التي اشعلها التعصب على الابنية الاثرية ، وظل لهيب الحرائق يرتفع طيلة ثمانية ايام فتشاهد على مسافة عدة فراسخ من الميناء .

وعندما استولى الصليبيون على المدينة بالقوة اعملوا السيف في رقبة كل رومي التقوه . يقول المؤرخ فيلوهارديون : « كان من المناظر المروعة مشاهدة النساء والاطفال يركضون هنا وهناك ، وقد تملكهم اليأس القاتل والخوف المرعب ، ينتحبون ويتضرعون دون مجيب . »

---

١ ـ واسمه ايزاك انكلوس .

٢ ـ الكسيوس .

ويقول ميلز وغيبون ان الفظائع التي ارتكبها الحجيج كانت موضع انتقاد شديد من البابا انوسينت الثالث ، اذ بلغت حداً يفوق الوصف ، وقد تجرد الصليبيون من كل أثر للرحمة او الشفقة ، اذ انهم ارتكبوا في خلال عدة ايام ابشع المناظر واكثرها إثارة في داخل المدينة وخارجها ، كما يقول ميشو : « اصبحت القرى والكنائس عرضة للسلب والنهب ، وازدحمت الطرق بالجموع المروّعة تهيم على وجوهها وقد لاحقها الخوف وأضناها التعب وارتفعت من اعماقها صرخات اليأس . » ويقارن المؤرخ نيسيطاس البيزنطي ، الذي كاد الصليبيون يعتدون على عفاف ابنته، وبين جنود صلاح الدين وبين الصليبيين فيقول : « انهم عندما استولوا على القدس لم يعتدوا على حرمة المنازل ، ولا على العذارى ، ولا الراهبات ولم يسيئوا قط الى المسيحيين ، ولم يعملوا السيف في رقابهم او يلقوهم طعمة للنيران ، في حين ان هؤلاء المتهوسين ، عقب دخولهم المدينة ، انتزعوا الجواهر من كؤوس الهياكل المقدسة ، وطفقوا يشربون بها الخمور ، وفرشوا المناضد التي كانوا يقامرون وياكلون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت اقدامهم التماثيل المقدسة ، ومزقوا في كنيسة سانت صوفيا ستارها المشهور ، وانتزعوا حواشيه الذهبية ، وحطموا المذبح المزين بالصور الفنية ، واقتسموا قطعهُ الصغيرة فيما بينهم ، ونقلوا على بغالهم وخيولهم التحف الفضية ، والمصنوعات الذهبية التي انتزعوها من الابواب والمنابر والهياكل ، وكان كلما ناء حيوان بحمله الثقيل طعنه صاحبه بخنجره طعنة نجلاء حتى غدا الرصيف المقدس ملطخاً بدماء الحيوانات . ومن مهازل القدر ايضاً انهم نصبوا تمثال الشيطان على عرش البطريك ، واخذت المومسات يرقصن في الكنيسة رافعات عقيراتهن بأغنيات تثير الضحك والسخرية » .

الحرب الصليبية السادسة

وفي سنة ١٢١٦ – ١٧ م دعا البابا انوسينت الثالث الى الحرب الصليبية السادسة ، فالتحق بها النساء والاطفال والشيوخ والعمي والعرج والمجذومون ، كما ان ملك المجر ودوق النمسا ، وجميع رؤساء الاقطاعيات في المانية السفلى ، وحدوا صفوفهم وقواتهم واشتركوا في هذه الحملة على الشرق فنزل اولاً مئتان وخمسون الف مقاتل ، معظمهم من الالمان ، في الشام ، وبعد ان خربوا عدداً من الموانىء توجهوا الى مصر فوصلوا الى فرع النيل الشرقي وحاصروا دمياط .

وفاة الملك العادل (٧ جمادى سنة ٦١٥ هـ ، ٢١ آب (اغسطس) سنة ١٢١٨ م)

وكان الملك العادل مسرعاً في طريقه من شمال الشام الى مصر ولكنه توفي بجوار دمشق ، وكانت مدة حكمه اثنتين وعشرين سنة على وجه التقريب هزم خلالها الفرنج مراراً وتكراراً واحبط هجماتهم في البر والبحر . وقد اقتسم اولاده امبراطوريته من بعده ، فولي محمد الملقب بالملك الكامل (ابو المعالي ، ناصر الدين) مصر ، وولي ابنه الثاني ، عيسى ، الملقب بالملك المعظم (شرف الدين) الشام ، وكانت تمتد من حمص حتى العريش على الحدود المصرية ، وتشمل فلسطين والقدس والكرك وغيرها ، بينما ولي موسى ، الملقب بالملك الأشرف (مظفر الدين) امارة حلب .

حصار دمياط (١٠ رمضان ٦١٦ هـ ، ١٩ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٢١٩ م)

وبعد حصار دام ثمانية عشر شهراً سقطت دمياط بأيدي الصليبيين

فدخلوا المدينة بالمشاعر نفسها التي دخلوا بها بيت المقدس من قبـل ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يصبوا جام نقمتهم الا على القليل القليل ، ذلك ان دمياط قد تحولت ابان الحصار الى مقبرة ، فمن اصـل السبعين الفاً الذين كانوا يعيشون في دمياط عند بـدء الحصار لم يبق سوى ثلاثة آلاف على قيد الحياة يروون ما حل بهم من مآسٍ . وحتى هذا المنظر المؤسف لم يؤثر في الصليبيين او يُثر في نفوسهم الشفقة ، فقد ذبحوا البقية الباقية دونما رحمة ، ثم زحفوا على القاهرة .

ومع ان الملك الكامل كان قد تلقى النجدات من اخويه فقـد شعر بأنه غير كفؤ لمقاتلة قوات الصليبيين الهائلة ، ولذلك عرض عليهم ان يرد اليهم جميع المدن التي كان صلاح الدين قد استولى عليها ، شرط ان يتنازلوا له عن دمياط ، غير انهم كانوا واثقين من قدرتهم عـلى فتح مصر كلها ولذلك رفضوا عرض الملك الكامل . وكانت مياه النيل آنذاك قد بدأت في الارتفاع ففتح المسلمون السدود فغمروا البلاد بالمياه فجأة ، والفى الصليبيون أنفسهم وقد انفصلوا بالكلية عن قاعـدتهم . وانقض المسلمون على قافلة كانت تنقل اليهم المؤن فأخـذ الجوع ينتشر في صفوفهم ، بينما واصل المسلمون هجماتهم على الفرنج حتى اضطروهم الى طلب الصلح ، وعندئذ تبادل الفريقان الأسرى وعقدت معاهدة بين الفريقـين وافق الصليبيون بمقتضاها عـلى الجلاء عن دمياط شرط ان يتمكنوا من التراجع بسلام حتى الساحل ، كما نالوا بعض الامتيازات للحجاج واستردوا خشبة الصليب الحقيقي « المشكوك فيها » .

ولم يكد الصليبيون يغادرون البلاد حتى نشبت الخلافات بين الأخوة، فتحالف الملك المعظم مع جلال الدين الطموح ، ابن علاء الدين خوارزم شاه ، بغية خلع الملك الكامل ، الذي دخل من جانبه في مفاوضات مع فردريك الثاني امبراطور المانية ، وكان آنئذ يستعد للقيام بحملة صليبية اخرى لحسابه الخاص ، خلافاً لمشيئة البابا .

وفاة الملك المعظم (ذو القعدة ٦٢٤ ﻫ ، تشرين الاول - تشرين الثاني ١٢٢٧ م)

وفي سنة ١٢٢٧ م توفي الملك المعظم ، تاركاً امارة الشام لابنه الملك الناصر داود ، وعندئذ اتفق الملك الكامل والملك الأشرف على الاستيلاء على دمشق ، وعلى اعطاء الناصر حوران والرها والرقة عوضاً عنها ، فتم لهما ذلك . وفي سنة ١٢٢٩ م (٦٢٩ ﻫ) وصل فردريك (ويسميه العرب « الانبرور ») الى الشام ، فجرت مخابرات عديدة بينه وبين الملك الكامل انتهت اخيراً بعقد معاهدة بين الاثنين مدتها عشر سنوات وستة أشهر وعشرة أيام ، وحصل فردريك بموجبها على القدس وبيت لحم والناصرة وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا ، ولم يبق للمسلمين فيها سوى ممارسة شعائرهم الدينية والاحتفاظ بمسجد عمر في بيت المقدس . الا ان هذه المعاهدة لم تحظ بموافقة المسلمين ولا المسيحيين ، فقد كانت مصدر حزن وأسف للمسلمين الذين فقدوا بمقتضاها كل ما كان صلاح الدين قد فاز به ، وللنصارى كذلك لأنها سمحت للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية . ولم يلبث فردريك ان عاد الى اوروبة للدفاع عن بلاده ضد عدوان البابا عليها .

وفاة الملك الكامل (٢١ رجب ٦٣٥ ﻫ)

وفي ٨ آذار « مارس » سنة ١٢٣٨ م توفي الملك الكامل ، فنصب الامراء على العرش ابنه ابا بكر ، الملك العادل ، وكان شاباً ضعيف الخُلق منصرفاً الى اللهو ، فخلعه اخوه ايوب ، الملك الصالح ، الذي كان اقدر على كبح جماح المماليك الذين كانوا يشكلون وقتئذ الطبقة الارستوقراطية في مصر . وفي سنة ٦٣٧ ﻫ (١٢٣٩ - ٤٠ م) استعاد ابو ناصر داود ، امير حوران ، القدس من المسيحيين ودمر اسوارها .

في هذا الوقت كانت آسية الغربية في حالة من الفوضى ، باستثناء الارضي الواقعة تحت نفوذ الخليفة . ولكي نتمكن من فهم الاحـداث التي اخذت تتعاقب بسرعة منـذ ذلك الحين ، والاسباب التي ادت الى الكارثة التي كانت تقترب بسرعة لتحل بالمدنيـة الاسلامية ، نرى من الضروري ان نعود قليلاً الى الوراء .

كان المكتفي والمستنجد والمستضيء قد نجحوا في استعادة سلطتهـم الزمنية على العراق والجزيرة السفلى وفارس والاهواز ، وكانت سلطتهم الروحية أقوى مما كانت عليه منذ وفاة الواثق .

وفاة المستضيء وخلافة الناصر لدين الله

وفي سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ — ٨٠ م) توفي الخليفـة المستضيء فخلفه ابنه ابو العباس ولقب بالناصر لدين الله ، ويصفه المؤرخون بأنه كان حاكماً قديراً ناجحاً ، ويقول الذهبي ان حكمه الذي دام سبعـاً واربعين سنة كان حافلاً بالامجاد ، فقد انشأ جيشاً قوياً ، وكان محترماً مرهوب الجانب من جميع الامراء المجاورين ، وقد ساد الأمن والسلام في عهده ربوع البلاد وانتشرت الرفاهية والازدهار في جميع الارجاء .

ولما توفي الناصر ولي الخلافة ابنه ابو نصر محمد ولقب بالظاهر بأمر الله ويقول فيه ابن الاثير : « لما ولي الخليفة أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنّة العمرين » ، وتوفي بعد حـكم لم يدم إلا نحـواً من سنة واحدة .

أبو جعفر المنصور ، المستنصر بالله (١٠ تموز « يوليو » ١٢٢٦ م)

عندئذ بويع بالخلافة ابنه ابو جعفر المنصور ولقب بالمستنصر بالله ، فاحتفظ بهيبة الخلافة وعظمتها ، ويصفه المؤرخون بأنه كان شجاعـاً

شهماً عادلاً حكيماً وتقياً . وقد انشأ المستنصر على الضفة الشرقية من دجلة كلية انفق عليها بسخاء وزودها بكل ما يلزم لراحة الطلاب ، كما نظم جيشاً قوياً للدفاع عن مملكته ضد غارات التتر .

غارة التتر

كانت اصقاع منغوليا الشاسعة ، والمعروفة عادة بالتتر الصينية . الممتدة من حدود فرغانة الشرقية الى آمور ، يقطنها ، كما هي الحال اليوم ، قبائل بربرية متوحشة تسمى بأسماء مختلفة ، وان كانت كلها من اصل واحد ، ويصفها عبد اللطيف البغدادي الذي كان شاهد عيان على المشاهد الفظيعة التي ارتكبها هؤلاء المتوحشون في مختلف حواجز المدنية بقوله : « ان نساءهم يحاربن كما يحارب الرجال وسلاحهم الرئيسي هو القوس والنشاب ، وهم لا يحرمون شيئاً اذ انهم يأكلون جميع الدواب ، ولا يبقون على أحد في حروبهم ، بل يذبحون النساء والاطفال على حد سواء ، وهم معتادون عبور الأنهار العميقة بالقرب ، او بامساك أذناب الخيول ، فيسبحون وراءها ، ولا يعرفون تعباً او نصباً ، ويستقبلون الموت من غير خوف ولا وجل . »

وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد اتحدت قبائل التتر تحت إمرة جنكيزخان الملقب بغضب الله ، وقد ولد في سنة ١١٥٥ م ، واسمه الحقيقي « تنوخين » ، ونودي به خاقاناً او رئيساً أعلى للقبائل في سنة ١١٨٩ م ، ومنذ ذلك الحين بدأ في زحفه نحو الجنوب والغرب ، ولم تكد تمضي سنة ١٢١٩ م حتى كان قد فتح الصين واستولى على جميع بلاد التتر .

وكان العالم الاسلامي وقتئذ تحت حكم أسر عديدة جديدة ، وكانت الامبراطورية السلجوقية قد زالت من بلاد فارس ، وكان السلطان سانجار ، بعد حكم مجيد دام قرابة نصف قرن ، قد مني بالهزيمة واخذ

أسيراً مع زوجته تركان خاتون عـــلى يد قبيلة ثائرة من قبائل التركمان الذين أخذوا ، بعد هذا النصر المفــاجيء على مليكهم ، يتوغلون في مرو ونيسابور ، ولكن التتر هم الذين اكملوا ما كان هؤلاء قد بدأوا به من اعمال التدمير والتخريب . وقد بقي سانجار اسيراً طيلة سنوات اربع ، وبعــد وفاة زوجته التي لم يحبَّ ان يتركها وحيــدة في الأسر هرب من سجنه ووصل الى نيسابور حيث وجد عاصمته خراباً وامبراطوريته قد دمرت وزالت ، فمات بعد قليل غماً وأسى ، فخلفه على العرش ابن أخيه طغرل ، ولكنه اغتيل فاستولى على مملكته أحد نبلاء البلاط .

وفي سنة ١١٥٠ م تقريباً ظهرت اسرة جديدة في افغانستان الشرقية فحلت محل الدولة الغزنية ودمرت اركانها ، ذلك أن علاء الدين حسين « جيهانسوز » ، مؤسس الدولة الغورية ، انقض عــلى غزنة في سنة ٥٥٠ هـ واجبر اسرة سبكتكين على الانسحاب الى لاهور حيث لم يلبثوا ان اصبحوا ملوكها الهنود الوطنيين .

الدولة الغورية

وكان سانجار حجر عثرة في سبيل مطامح علاء الدين حسين نحــو الغرب ، ذلك أن سانجار كان عندئــذ في اوج قوته ، ولذلك اضطر علاء الدين الى ان يجد منفذاً لنشاطه وطاقته في اتجاه الهند . وفي سنة ١١٥٦ م خلف علاء الدين ابنُه سيفُ الدين الذي توفي بعد مدة قصيرة فاعتلى العرش عندئذ ابن عمه غياث الدين . وفي سنة ٥٦٩ هـ ضمت غزنة نهائياً الى المملكة الغورية .

وفي سنة ٥٧١ هـ استولى شهاب الدين [١] ، اخو غياث الدين وقائد جيوشه في الشرق ، على مولتان ، وفي سنة ٥٨٢ هـ قُبض على «خسرو مالك » آخر ملوك الدولة الغزنية ، بحيلة حربية وقُتل . وفي سنة ٥٨٩هـ

١ ــ ويعرف في التاريخ باسم معز الدين محمد بن سام .

هزم غياث الدين جيوش الهند الموحدة في معركة « نارين » الخالدة على ضفاف نهر « ساراسوتي » ، وبهذا النصر الوحيد اصبح المسلمون أسياد هندستان الحقيقيين .

وفي سنة ٥٩٩ هـ خلف شهاب الدين أخاه غياث الدين ، وعندما اغتيل في سنة ٦٠٢ هـ ، دون ان يعقب ولداً ، ولي على الهند مملوكه قطب الدين (ايبك) ، بينما ولي غزنة مملوك آخر من مماليكه ، وكان يدعى يلدز . وقد خلف أيبك ابنه ابو المظفر آرام ، ولكنه لم يبق في الحكم الا نحواً من سنة واحدة ، اذ عزله صهره « آلتماش » ، (شمس الدين) ، الذي حكم الهند قرابة خمس وعشرين سنة ؛ وكان اول ملك مسلم في تلك البلاد تسلّم العقد من خليفة بغداد . وقد حكم الهند من بعده اولاده حتى سنة ١٢٦٥ م عندما نادت (راضية) ، ابنة آلتماش ، بنفسها ملكة على الهند سنة ٦٣٤ هـ بناءً على رغبة والدها ، وعندئذ شاهد الشرقيون لأول مرة ملكة سافرة . وقد نعمت البلاد في عهدها بالأمن والطمأنينة، ولكن حياتها انتهت بمأساة ، فقد اسرها الهنود وفتكوا بها وهي تحاول قمع احدى الفتن .

وكان السلطان ملك شاه قد اقطع خادمه « نشتاكين » امارة خوارزم، وخلفه عليها ابنه قطب الدين محمد الذي انعم عليه سانجار بلقب خوارزم شاه ، غير أن « ادسيز » ، ابن قطب الدين وخليفته ، ثار على سيده السلطان سانجار في اواخر عهده واستقل بامارته ، ثم ضمّ « طاقش » ، حفيد ادسيز ، عراق العجم الى مملكته ، وعندما اغتيل طغرل ، آخر الحكام السلاجقة وابن اخي سانجار ، اقطعه الخليفة بلاد الفرس وخوارزم وخراسان . ولما توفي طاقش خلفه ابنه علاء الدين محمد ، وباستيلائه على بلخ وهراة اكمل اخضاع خراسان كلها واضاف الى مملكته مازندران وكرمان وغزنة وأخيراً بلاد ما وراء النهر التي كان يحكمها نائب عن رئيس قبائل كرخيتي . وفي سنة ١٢١٤ م زحف علاء الدين على عاصمة

الخلافة ، غير ان عاصفة ثلجية أوقفته عن الزحف في جبال آسباد على مقربة من همدان فعاد ادراجه الى عاصمته . وبعد اربع سنوات اكتسحته قبائل المغول التي استفزها هو بقسوته ووحشيته .

وفي الوقت الذى أغار فيه التتر كانت اسرة « زنكي » العظيم قد زالت في الموصل ، وكان آخر الأمراء الأتابكة قد خلف طفلاً يدعى مسعود تحت وصاية مملوكه المخلص « بدر الدين لؤلؤ » ، وفي سنة ١٢١٨ م توفي مسعود ولم يلبث ان مات من بعده ابنه ، فأصبح بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، وكان قد حكم الامارة مدة سبع وثلاثين سنة عندما غزا المغول البلاد .

الروم (١٢٤٣ — ١٢٤٤ م)

وكان على عرش قونية في سنة ١٢٣٥ — ١٢٣٧ ، عندما قام المغول بغارتهم الاولى على آسية الصغرى ، علاء الدين قايقوباد ، الحفيد السابع للسلطان سليم ، وفي سنة ٦٤١ هـ هزموا ابن قايقوباد وخليفته غياث الدين واضطروه الى دفع الجزية وان يستقبل مقيماً في بلاطه يدعى « بروانة » .

مصر (١٢٤٠ — ١٢٤١ م)

ذكرت فيما سبق كيف ان الملك الصالح ايوب نادى بنفسه ملكاً على مصر سنة ٦٣٨ هـ ، وكيف انه اخذ في توسيع رقعة ملكه بصورة تدريجية حتى استولى على الشام وأكره امراء آل بويه ، حكام تلك البلاد ، على الاعتراف بسلطانه . وبينما كان يبذل جهوده في سبيل توطيد السلام والنظام في بلاده تدفقت على الشام فلول جيش محمد خوارزم شاه فارّة من المغول وأغرقت البلاد في بحر من الفوضى . وقد عملت هذه الفلول بقيادة أحد الامراء أولاً ثم تحت إمرة أمير آخر ،

ولكنها ما لبثت ان انقلبت على جميع امراء الشام وأخذت ترتكب جميع ضروب السفك والسلب ، واشتبكت مع الملك الصالح في سلسلة من المعارك انتهت بالقضاء عليها نهائياً عام ٦٤٤ هـ .

الحرب الصليبية الثامنة (٦٤٧ هـ ، ١٢٤٩ – ١٢٥٠ م)

وبينما كان الملك الصالح منهمكاً في الشام شن الفرنج الحرب الصليبية الثامنة بقيادة الملك لويس التاسع . وقد نزل لويس التاسع في دمياط بعد ان أخلاها المسلمون فحوّل مساجدها الى كنائس وجعلها مقاماً له . وما إن دخل الصليبيون الى دمياط حتّى أخذوا يعيشون حياتهم المعتادة ، وشرع امراؤهم يتنافسون في اقامة الولائم الفخمة ، بينما انغمس عامتهم في أحط الرذائل « فانتشر الفساد انتشاراً لم يستطع الملك ان يوقف تياره الجارف . »

ويقول ميشو : « كانت شهوة المقامرة قد تملكت القواد والجنود ، حتّى انهم بعد ان خسروا اموالهم راحوا يقامرون حتّى على خيولهم وأسلحتهم . وفي ظل علم الصليب استسلم الصليبيون الى أحط ضروب الرذيلة وتفشت أشنع أنواع الفساد في الصفوف كلها . » « ولأشباع شهواتهم غير المحدودة الى اللذة واللهو لجأوا الى جميع أنواع العنف ، فكان قواد الجيش يبتزون أموال التجار الذين كانوا يزودون المعسكر والمدينة بالمؤن وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة ، مما ساعد كثيراً على قلة الطعام عند الصليبيين ، وكان الجنود يغيرون على القوافل ويخربون المدن والسهول ويأسرون النساء المسلمات ويقودونهن الى دمياط . » ويقول جوفنيل : « ان الجنود ارتكبوا أبشع ضروب العنف مع العذارى والمتزوجات . »

وعندما توفي الملك الصالح ايوب كان له ولد يدعى توران شاه (الملك المعظم) وكان هذا مقيماً آنئذ على حدود الشام ؛ وقد أخفت

شجرة الدر ، زوجة الصالح — وكانت على جانب عظيم من الحنكة والشجاعة — نبأ وفاة زوجها حتى أقسم كبار القواد يمين الولاء لابنها توران شاه .

ولدى وفاة الملك ايوب خرج الفرنج من دمياط لفتح مصر ولكنهم منوا بهزيمة منكرة وقتل منهم عدد كبير ، كما وقع الملك لويس نفسه وكبار قواده في ايدي المسلمين . وقد ادى تحزب توران شاه الى المماليك « البرجية » ، وهي الفرقة المناهضة للمماليك « البحرية » ، الى سخط هؤلاء فقتلوه غيلة ثم نصبوا على العرش شجرة الدر ، فاصبحت تُقرأ لها الخطبة في المساجد وتضرب النقود باسمها ولقبت « بالمستعصمية » (اي خادمة الخليفة المستعصم في بغداد) ، والصالحة (زوجة الصالح ايوب) و « ملكة المسلمين » و « ام الملك المنصور خليل » [1] . وقلدت شجرة الدر « شاشنكير معز الدين ايبك » قيادة الجيش العامة [2] ولكنه لم يلبث ان خلعها واعتلى العرش مكانها . غير ان الامراء لم يرضوا بذلك وأرادوا ان يولوا على العرش واحداً من السلالة الملكية ، ووقع اختيارهم على شاب يدعى موسى ، احد أحفاد الملك الكامل ، ولقبوه بالملك الاشرف .

وفي ذلك الحين كان الناصر يوسف حاكماً على دمشق وحلب والشام كلها ، وبتوسط الخليفة عُقدت معاهدة صلح بين الناصر يوسف وبين ايبك نائب الملك الأشرف نصت على أن تكون البلاد حتى نهر الاردن في ايدي المصريين . وفي السنة التالية اغتصب معز الدين ايبك المُلك من الملك الأشرف وارسله إلى اقاربه في اليمن ، وكان هذا الشاب آخر من قرئت له الخطبة من الملوك الايوبيين في مصر .

وقد أمعن معز الدين ايبك في اضطهاد المماليك البحرية حتى اضطرهم

---

١ — كان لها ابن يسمى خليل توفي في سن الطفولة .

٢ — اتابك العساكر .

إلى الفرار الى الشام ، ثم نشبت الحرب من جديد بين النــاصر وايبك فتدخل الخليفة كرة أخرى وعقدت معاهدة صلح امتدت حدود الناصر بموجبها حتى العريش على حدود مصر . وبعد ذلك بعامين اغتيل ايبك فولي على العرش ابنه نور الدين علي ولقب بالملك المنصور ، وارسل الخليفة الى الملك الناصر براءة السلطنة التي طال التماسه اياها ، وبالرغم من ان الملك الناصر كان سيداً على الشام من الفرات حتى حدود مصر فقد كان هناك عدة امراء صغار داخل سلطنته . وكان على حمص وقت اغارة المغول الملك الأشرف موسى ، حفيد شركوه ، الذي عزله الناصر حوالي سنة ١٢٤٨ م عن امارته واعطاه عوضاً عنها منطقة تل باشر . وقد اعاد المغول الملك الاشرف الى ملكه وأنابوه عنهم في الشام . أمــا حماه فقد كانت في ايدي احفاد تقي الدين عمر ، ابن اخي صلاح الدين العظيم ، الذي كان قد ولاّه حماه . وكان ابنه محمد ، الملك المنصور الأول ، قد اكتسب شهرة واسعة لشجاعته في الحروب الصليبية ورعايته العلم والعلماء ، وكان على حماه حفيده المنصور الثاني عنــدما غزا المغول بلاد الشام . وأما الكرك والشوبك فقد كانتا في ايدي احفاد الملك العادل (سيف الدين ابي بكر) اخي صلاح الدين ، وكان يحكم تلك الامارة وقت اغارة المغول حفيده الملك المغيث تقي الدين عمر . وكان الايوبيون ، الى جانب تلك الامارات في الشام ، لا يزالون يحتفظون بقسم صغير من ممتلكات صلاح الدين في الجزيرة ، وكان يحكمه في ذلك الحين الملك الكامل ، خامس ملوك تلك الأسرة الذي قتله المغول .

حماقة خوارزم شاه الوحشية

تلك كانت حال الملوك والأمراء المسلمين عند غزو المغول . وفي سنة ١٢١٨ م توثقت العلاقات بين جنكيزخان ، الملك البربري الذي كان سيداً على المــلايين من الرحّل المسلحين ، وبين خوارزم شاه ،

الملك التركماني الطائش الذي ارتكب عملاً وحشياً عرّض العالم الاسلامي الى وحشية حوّلت آسية الغربية في خلال بضع سنين إلى مقبرة واسعة ؛ وتفصيل ذلك أن فريقاً من التجار جاءوا من بلاد المغول فلما وصلوا قتلهم نائب خوارزم شاه على مقربة من الحدود بحجة انهم كانوا يقومون بأعمال التجسس ، وعندئذ طلب المغول تسليم الحاكم المجرم فأجاب خوارزم شاه بقتل الرسول . ولما وصل نبأ هذا العدوان على الانسانية واللياقة الدولية الى جنكيزخان خرج بجيشه البالغ مليوناً من الجنود وزحف على فرغانة سنة ٦١٥ هـ .

وبالرغم من الحروب الكثيرة التي كانت سهول ما وراء النهر وخراسان وفارس ميداناً لها فقد كانت هذه البلاد وقت اغارة المغول مزدهرة أيما ازدهار ، وكان أهلها ينعمون بالرفاهية ، كما كانت الحركة الأدبية والفنية والصناعية تلقى كل رعاية وتشجيع ، وكانت المدن عامرة بالسكان تزينها الأبنية الجميلة ، الخاصة والعامة ، حصيلة قرون من الازدهار والمدنية ، وكان سكان كل من هراة وبلخ يبلغون مليون نسمة ، كما كان سكان بخارى وسمرقند يفوقون هذا العدد بكثير .

اكتسحت جيوش المغول قوات الملك خوارزم شاه اكتساحاً ، ونحن نهمل هنا المدن الصغيرة والقرى ونكتفي بوصف ما حدث في المراكز الرئيسية للمدنية والتجارة . فأما « خوجاند » فقد دمرت تدميراً وقتل سكانها ، بينما تحولت بخارى الى رماد ، وقد وصف ابن الأثير ما حلّ بهذه الحاضرة العظيمة التي كانت مركز العلم بعبارات مؤثرة لا يسمح لنا ضيق المجال باقتطاف اي منها .

واصل المغول تقدمهم في وادي الصغد الجميل ووصلوا الى سمرقند التي لم تكن عاصمة بلاد ما وراء النهر فحسب بل مركزاً من اعظم المراكز التجارية ايضاً . كان محيطها يبلغ ثلاثة اميال ويحيط بها سور يخترقه اثنا عشر باباً حديدياً ، وحصون متفرقة . وكانت حاميتها تتألف

من ١١٠ آلاف جندي بينهم ٦٠ الفاً من التركمان والكنكليس و ٥٠ الفاً من الفرس . فلما وصلت الجيوش الثلاثة التي كانت قد اكتسحت شمالي بلاد ما وراء النهر الى المدينة المنكودة الطالع ، هجمت عليها سرية كبيرة ، وقد ظن الجنود الاتراك أن المغول سيعاملونهم معاملة المواطنين فهجروا المدينة مع عائلاتهم وأمتعتهم ، ولكنّ المغول افنوهم عن آخرهم . عند ذلك خرج ائمة المدينة وأعيانها وعرضوا استسلامهم ، وبالرغم من ذلك فقد نُهبت المدينة وقتل عدد هائل من سكانها ، وأسر جنكيزخان ثلاثين ألفاً من الصناع وأرسلهم عبيداً الى ابنائه المتعددين ، كما جند عدداً مماثلاً لاستخدامهم في الأعمال العسكرية والنقليات وغير ذلك ، ولم يبق من سكان المدينة المليون سوى خمسين ألفاً يروون للناس ما حل بمدينتهم المنكودة ؛ واستولى الذعر على سكان بلخ اذ رأوا ما حلّ بمدينتي بخارى وسمرقند فأرسلوا اليه الهدايا وعرضوا عليه طاعتهم ، ولكنه خشيَ أن يخلّفَ تلك المدينة العامرة وراءه فأخرج أهلها بحجة احصائهم وافناهم عن آخرهم ثم حوّل مدينتهم إلى رماد .

وفي سنة ١٢٢٠ م استولت تلك الحشود الوحشية على اوركانج بعد معركه يائسة تبعتها مذبحة عامة ، ثم دمرت المدينة بكسر السدود القائمة على نهر سيحون ، وفي « نيسا » أسر المغولُ سبعين الفْ شخص بين رجل وامرأة وطفل ، ثم اضجعوهم على الارض جنباً الى جنب وربطوهم بالحبال ورشقوهم بالنبال . أما نيسابور ، عاصمة الطاهريين ، السلاجقة الفرس ، فقد دُمرت في سنة ١٢٢١ م تدميراً وزرعت ارضها بالشعير ، ولم ينج من سكانها سوى ٤٠٠ من اصحاب الحرف أرسلوا الى الشمال ، ويقول « ميرخوند » ان اكثر من ١٬٧٤٧٬٠٠٠ رجل قتلوا في مذبحة نيسابور والمناطق المجاورة .

وفي هراة وضواحيها واصل المغول اعمال القتل والحرق والتدمير طوال اسبوع ، ويقال ان مليوناً وستمئة الف شخص قتلوا ، وأن تلك

المنطقة خلت من سكانها ، وتحولت البقاع المجاورة إلى صحارى قاحلة ؛ ثم زحفوا على الرى وديناوار وهمدان فأعملوا فيهـــا السلب والنهب ، وقتلوا قسماً عظيماً من أهلها ، وبعد ذلك واصلوا زحفهم على العراق ، مقرّ الخلافة العباسية ، ولكنّ جيش المنصور ردّهم على اعقـــابهم خاسرين .

وبينما كان المغول يُعملون معول التخريب والهدم في تلك الامبراطورية كان محمد خوارزم شاه ، اصل تلك البلايا ، يفر من وجههم من مكان الى آخر وهم يطاردونه ويلاحقونه حتّى قبضوا على افراد اسرته وفتكوا بالذكور منهم ، إلا ان ثلاثة من ابنائه تمكنوا من الفرار ولم يستطع إلا واحد منهم أن يقاومهم بعض المقاومة . أما محمد نفسه فقـــد اعتصم في جزيرة في بحر قزوين حيث توفي وحيداً بداء الرئة — وكأنه كفّر بذلك عن المصائب والويلات التّي جلبها على العالم الاسلامي . واما ابنه البطل جلال الدين فقد تعقبه التتر بعناد وإصرار ، فارتد الى خوارزم فهراة فغزنة وجمع قوات جديدة تمكن بها من الانتصار على المغول في معركتين رائعتين وانزل بهم خسائر فادحة ، وعندئذ تعقب جنكيز خـــان نفسُه جلال الدين وطارده مطاردة شديدة فَعبَرَ الباميان وكابول ثم جـــدّ في السير حتّى لحق بالأمير الهارب على الضفة الغربية من نهر مهران وهجم عليه هجوماً صاعقاً ، ولكن جلال الدين قاتل بشجاعته المعهودة ، وكان يهجم على المغول المرة تلو المرة إلى أن حاصروه في احد الشعاب بعد أن قُتل جوادان من تحته ، فامتطى صهوة جواد ثالث قفز به من علو ٣٠ قدماً إلى النهر وتمكن من العبور به سالماً إلى الضفة الأخرى ، وحال ظهور جنود سلطان الهند « بلبان » دون عبور جنكيزخان النهر فسحب جيشه وارتد به نحو الغرب .

وهكذا امحت في بلاد ما وراء النهر وخراسان تلك المدنية التّي كانت حصيلة عدة قرون ، فدمرت البلاد وأقفرت من السكان ، وهُجرت

الطرق العظيمة في آسية الوسطى ، تلك الطرق التي كانت تنقل عليها بضائع الصين والهند الى آسية الغربية وأوروبة ، وأهملت الاراضي التي اشتهرت بخصبها فاستحالت إلى صحارى جرداء ، واضمحلت الصناعات والفنون ، ودمّرت المـــدن وقتل الفلاحون أو جندوا قسراً في جيش المغول ، وارسل الصناع بالألوف الى اقصى الشرق ليجمّلوا ويزينوا قصر الغازي المتوحش .

والخلاصة ان اغـــارة المغول قد قضت على الحياة العقلية في آسية الوسطى ، اذ بالرغم من أن فارس والمغرب استعادتا تدريجياً ازدهارهما العلميّ فان بخارى وسمرقند لم تستردا اطلاقاً نشاطها العقلي السابق ، وظلت جهودهما العقليه محصورة كلياً في التصوف والفقه .

وبعد أن حوّل جنكيزخان آسية الوسطى وفارس الى صحراء انسحب الى بلاده حيث توفي فيها بعد ، وعندئذ استطاع جلال الدين أن يستعيد جزءاً من بلاده ، ولكن المغول زحفوا عليه دون أن يتركوا له فرصةً لتنظيم جيشه فاضطر إلى الاعتصام بجبـــال كردستان حيث اغتـاله أحد السكان .

وفاة المستنصر وخلافة المستعصم

وفي ١٠ جمادي الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٥ كانون الاول ، ديسمبر ، سنة ١٢٤٢ م) ، في أحرج فترة من تاريخ الفترة العبـــاسية وتاريخ المدنية الاسلامية ، توفي الخليفة المستنصر فخلفه ابنه ابو احمـــد عبد الله ولقب بالمستعصم بالله ، وكان ضعيفاً متذبذباً مغرماً باللهو ، وكان عهده سجلاً متواصلاً من الفوضى والاضطراب في الداخل والمصائب والويلات في الخارج انتهى بهلاكه وتقويض دعائم اسرته ، فقـــد نشبت في ايامه الخلافات بين الحنفية والحنابلة ، وبين السنة والشيعة ، واشتد التحاسد بين عامة الشعب من جهة وبين الطبقة الارستوقراطية من جهة اخرى .

وزاد في حرج الموقف ان الخليفة سرح جنوده للاشتغــال في التجارة والزراعة . وعندما نشبت الفتنة بين السنة والشيعة أمر ابنه ابــا بكر ، وسكرتيره ، بهدم الكرخ واضطهاد اهل الشيعة فاستاء وزيره الشيعي مؤيد الدين محمد بن العلقمي ويقال انه دعــا التتر الى الشخوص الى بغــداد . ويتهم مؤرخو العرب ، امثال ابن خلدون وابـي الفداء والمقريزي والسيوطي مؤيد الدين بالخيانة ، ويؤيدهم في ذلك « مرخوند » و « واصاف » ، من كتاب المغول ، بينما « رشيد الدين » وحده يصفه بالخادم الأمين التواق إلى انقاذ الاسرة من الدمار المحدق بها ، ولكنه كان عاجزاً عن تحقيق امنيته ازاء تردد الخليفة وتذبذبه .

زحف هولاكو على بغداد (ربيع الاول سنة ٥٥٥ هـ)

ومهما يكن من أمر فــان هولاكو ، بعد ان قضى على الباطنيين ودمر قلاعهم ، زحف على تبريز ومن ثم ارسل وفداً الى المستعصم يحمل رسالة يقول له فيها : « عندما خرجنا على « الردبار » ارسلنـا اليك الرسل وطلبنا مؤازرتك فوعدتنا بها ولكنك لم ترسل رجلاً واحداً . والآن نطلب اليك ان تبدل خطتك وتعدل عن عنادك الذي لن يجلب عليك سوى خسارة امبراطوريتك وخزائنك . » فــلم يكن من الخليفة المضلّل ، بالرغم من افتقاره الى جيش قوي ، وحاجته الى المستشارين الاوفياء ، وبدلاً من ان ينحني امام العاصفة ، الا ان ارسل جواباً تجلت فيه الغطرسة والتشامخ ، فضلاً عن ان الرعاع أهــانوا وفد المغول في ابان مغادرته البلاد ، مما أثار سخط ذلك الوثني المتوحش فزحف على عاصمة العباسيين بجيش جرار يستطيع ان يحاصر به المدينة كلها . وقــد حاولت جيوش الخليفة ان تصمد في وجه الغزاة قبل وصولهم الى جوار بغداد ، الا ان تفرق الكلمة أدى الى هزيمتهــا في نهاية الامر . ولما وصل المغول الى بغداد صمموا على حصارها فنصبوا المنجنيقــات على

جميع المرتفعات خارج المدينة وعلى جميع الابراج والقصور المشرفة عليها وراحوا يمطرونها بالحجارة والغاز المشتعل فخرقوا اسوارها وأشعلوا النيران في مبانيها . وبعد حصار دام اربعين يوماً أبدى ذلك الخليفة المتردد رغبته في التفاوض مع هولاكو ولكن رسائله التي أبدى فيها استعداده للاستسلام لم تؤد الى نتيجة ، وعندئذ استدعى هولاكو كبار ضباط المستعصم وقتلهم بحجة واهية مع اتباعهم وخدامهم ، وبذلك أصبح المستعصم في موقف يائس ، واخيراً اقتنع بضرورة التسليم انقاذاً لحياته وحياة شعبه ، وخرج الى معسكر المغول يصحبه أخوه وولداه وحاشية مؤلفة من ثلاثة آلاف شخص بين قاض وشيخ وامام وعين ، ولكن هولاكو لم يسمح بمقابلته إلا للخليفة نفسه واخيه وولديه وثلاثة من رجال حاشيته ، وقد أخفى ذلك الزعيم المتوحش نواياه تحت قناع من الكلمات الناعمة والاستقبال الودي ، وطلب من الخليفة ان يرسل الى المدينة أمراً بأن يلقي السكان المسلحون أسلحتهم ويتجمعوا خارج ابواب المدينة بحجة اجراء احصاء عام لهم ، وما ان صدع حماة المدينة بأمر الخليفة حتى هجم عليهم التتر وفتكوا بهم .

نهب بغداد

وفي صباح اليوم التالي أصدر هولاكو أوامره بنهب المدينة وذبح سكانها ، ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة الى براعة مؤرخ مثل غيبون ، فالنساء والاطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على اكفهم ويتضرعون الى الجنود كي يبقوا على حياتهم وُطئت أجسادهم بحوافر الخيل ، والنساء المدللات اللواتي لم يألفن رؤية الجماهير اجبرن على السير في الشوارع العامة وتعرضن لأبشع ضروب الأذى والاهانة ، اما الكنوز الفنية والأدبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، مع بقايا المدنية الفارسية ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات ،

وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة ايام بالدماء واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال ، واستمرت أعمال التخريب والتقتيل ستة أسابيع ، فدُمرت القصور والمساجد والضرائح إما بالنار او بالمعاول بغية الحصول على قبابها الذهبية ، وأعمل السيف في رقاب المرضى في المستشفيات والطلاب والأساتذة في الكليات ، وفي الضرائح نبشت قبور الاولياء والأئمة الصالحين ، وفي المجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء ، وألقيت الكتب طعمة للنيران او مياه دجلة ، وهكذا فقدت الانسانية تلك الكنوز التي تجمعت خلال خمسة قرون ، وفنيت زهرة الامة فناءً تاماً .

وفاة المستعصم (٢٠ محرم ٦٥١ هـ ، ٢٧ – ١ – ١٢٥٨ م)

وبعد أن دامت تلك العاصفه اربعة ايام أمر هولاكو بضرب المستعصم واولاده وكبار أفراد أسرته فضربوا حتى فارقوا الحياة ، ولم ينج من الهلاك سوى عدد ضئيل من أفراد بني العباس المغمورين ، وتدمرت الى الابد مدنية بغداد ، موطن العلم ومركز الثقافة وحاضرة العالم الاسلامي . كان عدد سكانها قبل تلك المأساة مليوني نسمة ، ويقول ابن خلدون ان مليوناً وستمئة الف شخص هلكوا في المذبحة التي دامت ستة أسابيع ، وبتدمير بغداد أرخى الظلام سدوله على آسية الغربية .

يقول ابن الاثير : « إن غارة المغول هي الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الايام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . » ويقول عبد اللطيف البغدادي : « ان اغارة المغول مصيبة تتضاءل دونها كل المصائب . » امـا جويني مؤلف كتاب « جوهان كوشا » الذي كان في خدمة جنكيزخان فيقول : « ان الثورة

التي عمت العالم دمّرت العلم وفتكت بالعلماء ، وبخاصة في خراسان ، التي كانت مركز الاشعاع وملتقى العلماء ، وذهب رجال العلم ضحايا السيف ، وكانت هذه الفترة فترة قحط في العلم والفضيلة . »

وبعد ان دمر اولئك المتوحشون بغداد عبروا نهر الفرات الى الجزيرة يحملون معهم الموت اينما رحلوا ، فقد أعملوا السيف في رقاب اهالي الرها وحوران ونصيبين ، وذبحوا في حلب وحدها خمسين الفاً ، وسبوا عشرة آلاف من نسائها وأطفالها وباعوهم بيع الرقيق . وكان اهـــل حوران قد استسلموا لقاء وعد بأن يُبقي الغزاة على مدينتهم ، ولكن اولئك المتوحشون فتكوا بالاهالي ولم يشفقوا حتى على الرضّع ، ثم واصلوا زحفهم غرباً يحملون معهم الخراب والدمار ، يساعدهم على تقدمهم تلك الانقسامات التي كانت سائدة بين المسلمين انفسهم الى ان لقيهم في عين جالوت ، وهي قرية على مقربة من الناصرة في فلسطين ، السلطان بيبرس الشهير الذي اصبح فيما بعد ملكاً على مصر ، وانزل بهم هزيمة منكرة واعمل السيف في رقابهم وطردهم الى ما وراء حلب ، وبذلك طهر الشام والجزيرة من وحشيتهم وعتوّهم . وفي هذا الوقت كان ابن ايبك قد خلفه أحد قواده المسمى « سيف الدين قوتوز » الذي نصب نفسه ملكاً ولكنه لم يلبث ان قتل غيلة بعـــد معركة عين جالوت ، وعندئذ اعتلى بيبرس العرش ولقب بالملك الظاهر .

احياء الخلافة

ولقد أدرك بيبرس ضرورة إحياء الخلافة ولذلك استدعى الى مصر أحمد (أبا القاسم) ، أحد أفراد بني العباس القلائل الذين نجوا من مذبحة المغول . وعندما وصل الامير الشاب الى ضواحي القاهرة خرج السلطان للقائه مع قضاة الدوله وضباطها ، وبعد أن ثبت نسبه أمام قاضي القضاة بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله ، وكان ذلك في ١٣

رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢ نوار « مايو » سنة ١٢٦١ م) ، وضرب اسمه على النقود ودعي له في الخطبة . وفي يوم الجمعة التالي ركب الى الجامع بالموكب المعتاد لابساً البردة والقى الخطبة ، ثم تمت له المبايعة الرسمية بالخلافة وقلّد هو بيبرس منصب السلطان واعطاه العقد والخلعة .

وهكذا تم احياء الخلافة العباسية في القاهرة بفضل ذلك السلطان المجاهد ، وأصبحت منذ ذلك الحين منصباً روحياً صرفاً . وفي القرن السادس عشر تنازل آخر الخلفاء للسلطان سليم الفاتح العثماني العظيم عن منصب الخلافة ، ومنذ ذلك الحين اتخذ الملوك العثمانيون لقب الخلافة واعترف العالم الاسلامي السني بخلافتهم الشرعية .

الفصل الرابع والعشرون

نظرة عامة

الخلافة ـ البيعة ـ الحكومة ـ الآلة السياسية ـ السياسة ـ الادارة ـ الامراء والعمال ـ الوزير ـ دوائر الدولة ـ المحاكم ـ ايرادات الدولة ـ الجيش ـ البحرية ·

رأينا من قبلُ كيف أن عرب الشام ، منذ زمن الحجاج الثاني وباستثناء عهد عمر الثاني ، استأثروا بمناصب الدولة الكبرى واقصوا عنها جميع العناصر الأخرى . هذه السياسة الأنانية القائمة على القوة المادية ظلت تتمتع بالنجاح والفوز طالما كانت الشعوب المحكومة جاهلة لقواها الكامنة فيها ، ولكن الثورة التي استخلصت السلطة العليا من الأمويين ونقلتها الى منافسيهم العباسيين وضعت حداً لهذا الاستئثار ، ومنذ ذلك الحين اخذ الموالي ــ باعتبارهم رعايا امبراطورية عظيمة متمدنة ــ يحتلون مركزهم اللائق بهم كمواطنين في الدولة الاسلامية ، وفتحت لهم ابواب اعلى المناصب واخذوا ينعمون بالاحترام والمساواة مع العرب الاصليين .

والحق أن التاريخ لم يشهد ثورة أعظم من هذه لا في العصور الحديثة ولا القديمة ، ذلك انه كان لها تأثير عملي في الاعلان الديموقراطي للمساواة والاخاء الانسانيين ، والى هذا تعزى في الأساس حيوية الخلافة العباسية ودوام سلطتها الروحية ، حتى بعد أن فقدت سلطتها الزمنية ، ذلك أن قبول هذا المبدأ الأساسي — مبدأ المساواة الغنصرية بين جميع رعاياها — قد ساعد الخلفاء العباسيين الأولين على خلق نسيج متين صمد دون منازع طوال اكثر من خمسة قرون ولم يتفكك إلا امـام الهجوم البربري من الخارج .

لم يكن الخليفة حاكماً زمنياً فحسب ، بل كان ايضاً الرئيس الروحي لعقيدة ورابطة شعوب ، الممثل الحقيقي لحكومة دينية . وليست ضروب الاحترام والتبجيل التي كانت تقدم الى بعض الخلفاء ، حتى عندما كانوا ادوات صماء في ايدي وزرائهم ، والهالة التي كانت تحيط بشخصياتهم ، إلا دليلاً على عبقرية المنصور الذي ابتدع ذلك النظام الذي جعل من الخليفة الأمام الروحي والمصدر الوحيد لجميع السلطات .

طريقة تسمية الخليفة

كان الخلفاء العباسيون ، شأنهم في ذلك شأن الخلفاء الامويين ، يعينون خلفاءهم في حياتهم ، ويأخذون لهم البيعة من اعيان الامبراطورية ، وكبار القضاة وقواد الجيش وصغار الضباط والموظفين والمدنيين ، وكانت مراسيم البيعة ان يجعل المبايع يده في يد الأمير المبايع ويعاهده على الولاء والوفاء والطاعة ، وكان كبار الموظفين والولاة واعيان الامبراطورية يبايعون ولي العهد شخصياً ، بينما كانوا هم يأخذون البيعة على من يأتي بعدهم . ولاعطاء اللقب الامبراطوري صبغة اعظم كانت البيعة تؤخذ مجدداً عند وفاة الخليفة السابق . ويصف لنا المؤرخ الاندلسي المقري المراسيم التي كانت تتبع في مثل هذه المناسبات في قرطبة ، والتي كانت

في معظم تفاصيلها صورة مطابقة لمراسيم بلاط بغداد فيقول : « كان الخليفة يجلس على سرير الملك في قبة التاج المذهبة ، وكانت تمتلىء جميعُ الابهاء على رحبها بكبار رجال الدولة الذين يحق لهم حضور مجالس الاحتفال ، وكانت البيعة تبدأ أولاً بالامراء الذين يتقدمون الى العرش ويقرأون صحيفة البيعة ويلتزمون الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ، ويبايع بعدهم الوزراء واولادهم ثم اصحاب الشرطة وطبقة اهل الخدمة ، وبعد أن يتم ذلك يصطف اخوة الخليفة والوزراء والاشراف في شكل دائرة على جانبي العرش ، ثم يقف الحاجب بالباب ويأخذ البيعة من الناس اثناء دخولهم .»

الخلافة والآلة الحكومية

كان لمبايعة الخليفة صبغة قدسية ، وكانت تضفي على شخصيته قداسة لا نستطيع نحن ادراكها إلا قليلاً في هذه الايام والاحوال التي تختلف هذا الاختلاف الكبير ، وكان مما يزيد في هذه القدسية ويقويها الدعاء للخليفة المبايع في جوامع المدينة ومكة .

أما الآلة الحكومية التي كانت سائدة في عهد الخلافة العباسية واتبعت إما كلياً أو مع بعض التعديل في الدول التي انبثقت إثر انهيار الامبراطورية العربية فقد أسسها المنصور واستمدت صفتها من عبقريته . ففي ايـــام الأمويين كانت الحكومة حكومة اوتوقراطية تشوبها حرية الكلام التي كان يملكها عرب الصحراء والعلماء او الاتقياء الصالحون الذين كانوا يستطيعون بتلاوة آية من القرآن الكريم او بيت شعر لشاعر أن يغيروا من مزاج الخليفة . وفي ايام الخلفاء العباسيين الخمسة الأول استمر الحكمُ اوتوقراطياً ، ولو أن الوزراء وافراد الأسرة البارزين كانوا يؤلفون مجلساً استشارياً لا سلطة له ، فقـــد كان الخليفة مصدر السلطات جميعاً ، وعنه كانت تصدر جميع الأوامر المتعلقة بأدارة الدولة . وكان الوزيرُ في الواقع

نائب الخليفة ، ويتمتع باسمه بالسلطة المطلقة على جميع اجزاء الامبراطورية، فيعين الموظفين ويعزلهم ، ويشرف على الضرائب وعلى قبض الايرادات وانفاقها . كما كانت مخابرات الدولة كلها في يديـــه ويجمع في شخصه الادارة المدنية والعسكرية الى جانب واجباته العادية في مساعدة الخليفـــة واسداء النصح والمشورة اليه .

هكذا كان الوزراء في أوائل العهد العباسي . كانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة وينفذون أوامره ، غـــير أنه وجد على مرّ الزمن أن تلك الواجبات كانت أثقل من أن يؤديها شخص واحد ، وأصبح من الضروري تعيين موظفين آخرين أقل شأناً للقيام بأعمال مختلف الدوائر التي يرئسها الوزير . وفي عهد المأمون انقلب الحكم دستورياً بعد أن كان اوتوقراطياً فأنشأ في أيامه لأول مرة مجلس شورى نظـــامي يمثل كل طائفة تدين بالولاء للخليفة ، وكان ممثلو الشعب يتمتعون بالحرية التامة في التعبير عن آرائهم ، ولا يبدو أبداً انه حيل بينهم وبين حريتهم في المناقشة .

وفي ما تلا من العهود ، عندما فقد الخلفاء سلطانهم الزمني وأصبحوا يستمدون نفوذهم من مقامهم الروحي ، تحولت مجالسهم تلك الى مجامع مؤلفة من رجال الدين وعلماء القـــانون ، ولكن آل بويه والسامانيين والسلجوقيين والأيوبيين جميعهم كانت لهم مجالس يمثّل أعضاؤها الشعب بعض التمثيل،وكان مجلس صلاح الدين ينعقد بصورة منتظمة إما برئاسته أو برئاسة الوزير (القاضي الفاضل) لتصريف شؤون الدولـة ، ويبدو أن أعضاءه كانوا يصحبون السلطان في حَمَلاته .

وباستثناء الأمين المنكود الحظ كان الخلفـــاء العباسيون الثمانية الأولون رجالاً يتمتعون بكفاءة غير عادية ، ويسيطرون سيطرة تامةً على ولاتهم. وكانت السياسة المقررة عدم ابقاء ايمّا والٍ في منصبه وقتـــاً طويلاً في ايما ولاية من الولايات ، كما كان للخلفـــاء رسلٌ سريون يقيمون في عاصمة كل ولاية لإبقاء بلاط بغداد على علمٍ تامٍ بالأحداث اليومية التي

تجري فيها .

وكان صاحب البريد يقوم أحياناً بمهمة المراسل الصحفي الرسمي للخليفة، ان صح التعبير ، وإلى جانب هؤلاء الوكلاء والمندوبين الرسميين كان هناك هيئة كبيرة من الشرطة السرية أو المخبرين في جميع أنحاء الامبراطورية مهمتهم مراقبة أحوال الشعب مراقبة دقيقة ، وكانت أعمالهم تمتد حتى إلى البلدان الأجنبية ؛ ففي أيام المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم كان هنالك مخبرون سريون في بلاد الروم وغيرها من البلدان المهمة لأطلاع الخليفة على كل حركة من حركات أباطرة الروم . وكان هؤلاء المخبرون من الجنسين، ويبدو أنهم كانوا يقومون بواجباتهم باخلاص ونجاح يدعوان إلى الاعجاب . والمرجح أن هذا الجهاز قد تلاشى في أيام الحرس التركي وآل بويه عندما أصبح الخلفاء إما أسرى أو تحت الوصاية ، ولكنهم عندما استعادوا بعضاً من سلطانهم الزمني عادوا إلى استخدام الآلة القديمة للحصول على المعلومات والأخبار . ويقال ان الناصر لدين الله كان مطلعاً على كل صغيرة وكبيرة في بلاده وفي البلاد المجاورة لها بحيث ان الناس كانوا يعتقدون بأنه كان له اتصال بالجن[1] .

ومن ناحية أخرى كان كل ملك من الملوك يعين في بلاط الخليفة مندوباً يسمّى « شاهنا » مهمته مراقبة أعمال خصومه وحركاتهم مراقبة دقيقة ، ذلك ان الصراع من أجل بسط النفوذ على مصدر جميع السلطات كان عظيماً في بغداد شأنه في روما البابوية . وكان الملوك يعينون أيضاً مندوبين يقيمون في مدن غير العاصمة ، كواسط والبصرة وتكريت وغيرها .

السياسة

كان من أهم أهداف الخلفاء العباسيين الأولين توطيد دعائم

١- الذهبي .

الامبراطورية ، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف أقلع الخلفاءُ عن القيام بالفتوحات الخارجية ، ولم يرسلوا الجيوش الى مصر العليا وبلاد الديلم وكابول إلا لقمع فتن القبائل المتوحشة التي كانت تقطن في تلك الأقطار، ولم تكن الحروب الكثيرة التي جرت مع البيزنطيين إلا نتيجةً لغزواتهم واخلالهم بالعهود والمعاهدات .

الادارة

أما الادارة فقد كانت تسير على أسس ثابتة تشبه الأنظمة الحديثة ، وفي بعض النواحي يمكن القول انها كانت أرقى مما هي عليه في عصرنا هذا . كانت جميع مناصب الدولة متاحة للمسلمين واليهود والنصارى والهنود على السواء ، وليس أدل على الفرق بين الأمويين والعباسيين من تلك الأداة المعقدة لادارة الحكم التي استحدثت في عهد العباسيين والتي أخذت بها من بعد جميع الدول الاسلامية المتعاقبة .

الأمراء والعمال

كان يقوم على ادارة الولايات ، كما كان الحال في عهد الأمويين ، حكام أو أمراء يعينهم الخليفة ، غير ان سلطاتهم كانت محدودة إلى درجة كبيرة،ولم يُبق المنصور اطلاقاً أيما أمير على ولاية واحدة زمناً طويلاً ، وكان اذا ما عزله من منصبه طلب اليه أن يؤدي حساباً كاملاً عن ادارته ، وكان أقل شك في أمانته يؤدي حتماً الى مصادرة أملاكه .

وفي عهد المنصور كانت سلطة الأمراء والعمال محدودة ، وكانوا هم وقواد الجيش عرضة للعزل حسب أهواء الخليفة . وكانت السلطة القضائية في يد قاضي الولاية ، وكان يساعده عددٌ من النواب في مختلف المدن.

الا أن حكام بعض الولايات كسبوا لأنفسهـــم بعض الامتيازات بفضل خدماتهم الخاصة التي أدوها للدولة أو ولائهم الخاص للخليفة .

الامارات

كانت افريقية الغربية فيما وراء الصحراء الليبية ، مع جزيرة صقلية، تؤلف حكومة واحدة، وكان عليها في عهد السفاح عبدُ الرحمن بن حبيب، بينما كانت مصر في إمرة أبي العيون المشهور باخلاصه للخلافة . أما بقية الامارات فقد كانت تتألف من الجزيرة واذربيجان وأرمينية ؛ ومن المدينة ومكة واليمامة ؛ ومن اليمن؛والكوفـــة وما جاورها (السواد) ؛ ومن البصرة والبحرين وعمـان ؛ ومن عراق العجم وخراسان وبلاد ما وراء النهر ؛ ومن السند والبنجاب ؛ ومن الأهواز وجنوب فارس ؛ والموصل والشام . وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام وجعل عليها أميراً مستقلاً . أما الرشيد فعدّل الى حد ما التقسيمات الادارية ، وفصل تخوم الشام وصقلية عن امارة الجزيرة وقنسرين وجعل منها امارة مستقلة وأطلق عليها اسم العواصم .

وعندما كان الخليفة يستعمل أميراً من الأسرة المالكة كان يعين معه دائماً ضابطاً كبيراً يكون بمثابة مستشار ونائب له . وكان أمير العواصم في الواقـــع مكلفاً بحراسة الحدود والممرات الجبلية ، وقد أنشأ الرشيد طرسوس ، في كيليكية، وجعلها عاصمة تلك الامارة المهمة بعد أن حصنها تحصيناً قوياً . ولما كان الرشيد مولعاً كجده ببناء المدن فقد بنى طرسوس وأدنة ومرعش وعدة مدن أخرى ، وحصنها تحصيناً قوياً وأقام فيهـــا الحاميات من جنود الخلافة النظاميين .

الوزير

وبالرغم من أن منصب الوزير كان موجوداً عنـــد الفرس ومعروفاً

من العرب فان أحداً لم يحمل هذا اللقب الا عندما جـاء العباسيون الى الحـكم . وعندما فقدت الخلافة سلطتها الفعلية فقد الوزير مقامه السامي وحل محله أمير الأمراء . وقد نقـل آل بويه فـيما بعد هذا اللقب الى وزرائهم ولم يتركوا للخليفة الا أمين سر يعرف باسم رئيس الرؤساء ، ولكن الخلفاء،عندما استعادوا سلطانهم الزمني في عهد السلاطين السلاجقة، شرعوا في تعين وزرائهم من جديد ، وجمعوا منصبي أمين سر الوزارة والوزارة في شخص واحد .

استاذ الدار

وكان « استاذ الدار » أو « ناظر القصر » شخصية مهمة أخرى ، وكان أمير الأمراء ، في ايام الخلفاء الضعفاء ، هو استاذ الدار أيضاً ، ولم يتردد أمراء آل بويه اطلاقاً في اطلاق هـذا اللقب على أنفسهم . وعندما فقدوا سلطانهم انحط منصب « استاذ الدار » الى المعنى الحقيقي لهذا[١] التعبير : « ميتر دوتيل » . وقد عهد الخليفة المستنجد بهذا اللقب الى عبدالله بن المظفر ، ومن بعده الى ابنه عماد الدين ، أحد أحفـاد رئيس الرؤساء .

السلطان

أغدق لقب السلطان لأول مرة على « أشناس » من قبـل الخليفـة الواثق ، وكان أشناس رئيس الحرس التركي ، فوضع الواثق على مفرقه تاجاً مرصعاً بالجواهر وقلده قلادة وسوارين . والذي يبدو ان هذا المنصب ظل مغموراً الى ان تقلد آل بويه السلطة وأخذ الخلفاء يغدقون هذا اللقب عليهم في احتفالات رائعة،فكان الأمير يلبس أولاً حلة حريرية مزركشة ثم يتوج بتاج محـلى بالجوهر ، ويقلّد بسوار وسيفين ، وللتدليل على جمعه بين السلطتين المدنية والعسكرية كان الخليفة يعقد له بنفسه لواءين،

« أحدهما مزركش بالفضة على مثال ما يُمنح للأشراف، والآخر بالذهب على شاكلة ما يعطى لأولياء العهد »، وكانت براءة اللقب تتلى في حشد حافل، ثم يلثم السلطان يد الخليفة .

غير ان لقب السلطان لم يكن وقفاً على أمراء آل بويه وحدهم، بل كان الخليفة يغدقه على الفاتحين الأبطال أمثال محمود الغزنوي، وطغرل، وألب ارسلان، وملكشاه، وصلاح الدين وغيرهم، ومتى أغدقه الخليفة أصبح وراثياً في الأسرة ولو أن الأمير عليه أن يطلب الانعام عليه رسمياً، فيوافق الخليفة على ذلك ويخلع عليه الحلل التقليدية .

الملك

ثم أُحدث من بعد لقبٌ آخر هو لقب « الملك »، وكان الخليفة يمنحه مع لقب السلطان وأحياناً أخرى من دونه، وكان يُقرن دائماً بعبارة تناسب صفات الملك البارزة، وكان أول من فاز بهذا اللقب نور الدين محمود زنكي الذي لقبه الخليفة بالملك العادل .

الوزارة

يقسم علماء التشريع الاسلامي والاقتصاد السياسي الوزارة في عهد العباسيين الى نوعين : (١) وزارة تفويض و (٢) وزارة تنفيذ . وقد كان الخلفاء يفوضون الى وزراء النوع الأول جميعَ سلطاتهم، ويعهدون اليهم تدبيرَ أمور الدولة حسب آرائهم واجتهادهم، وكان لهؤلاء الوزراء أن يتخذوا أي تدبير شريطة أن يطلعوا الخليفة عليه فيما بعد . ولم يكن مثل هؤلاء الوزراء في عهد السفاح والمنصور والمهدي، بينما كان جعفر البرمكي وزير تفويض في عهد الرشيد، والفضل بن سهل في زمن المأمون .

أما وزراء التنفيذ فلم يكونوا يملكون مثل هذه السلطات الواسعة ، اذ لم يكن أحدٌ منهم يستطيع أن يتصرف حسب اجتهاده ، بل كانوا مفوضين بتنفيذ أوامر الخليفة فحسب . وكان يطلب من الوزراء أن يكونوا ذوي علم واسع وإلمام تام بشؤون الادارة والضرائب ، وأحوال الولايات وحاجاتها ومتطلباتها المتعددة . وكان باستطاعة الذميين تسنم مثل هذه المناصب ، ولو أن المتدينين من الناس لم يكونوا ينظرون الى تعيينهم بعين الرضا .

ديوان العزيز

وكانت حكومة الخليفة تسمى « ديوان العزيز » ، كما كانت الحكومة العثمانية تسمى « الباب العالي » . وكان الوزير الأكبر يرئس المجلس ؛ ومن هنا كان يسمى وزير الديوان العزيز . ولم تكن ادارة الدولة في عهد العباسيين لتقلّ في تقسيماتها واشرافها على دقائق الأمور عن أحسن النظم الادارية الحديثة ، أما أسماء الدواوين الرئيسية للدولة فقد كانت : ديوان الخراج أو وزارة المالية ؛ ديوان الضياع السلطانية أو مكتب الخاصة الملكية ؛ ديوان أو قلم مراقبة الحسابات ، ديوان الجند أو وزارة الحربية ؛ ديوان الموالي والغلمان ؛ ديوان البريد ؛ ديوان زمام النفقات ؛ ديوان الرسائل ؛ ديوان التوقيع ؛ ديوان النظر في المظالم ؛ ديوان الأحداث والشرطة ؛ ديوان العطاء المولج بدفع مرتبات الجنود النظاميين ، وكانت حماية مصالح الذميين موكلة بديوان خاص يعرف رئيسه بكاتب الجهباذة .

وإلى جانب هذه الدواوين الرئيسية كان هنالك عدد من الدواوين الادارية والسياسية والقضائية أقل شأناً ، ومن بينها ديوان العطايا ويسمى

« بديوان المقاطعات » ،وديوان الري والجداول ويسمى « ديوان الأكَرَة » .

ديون الزمام

، وكان من أشد التدابير فعالية لتحسين الادارة ديوان الزمام ، وقد استحدثه الخليفة المهدي في المراكز الكبيرة . وكان ديوان الخراج، شأنه في أيام الأمويين ، أهم دواوين الدولة ، وكانت مهامه جمع الضرائب من العراق ، أغنى ولايات الامبراطورية ، ومسك حساب الضرائب في الولايات الأخرى ، وجمع الضرائب العينية .

ديوان الرسائل

وكان هناك مؤسسة مهمة أخرى هي « ديوان الرسائل » ، وكانت مهام رئيس هذا الديوان ، الذي يمكن أن يعتبر من أهم أمناء سر الدولة تحرير المراسيم ووثائق التولية والعقود والرسائل الرسمية والسياسية، وختمها بالشمع الأحمر بخاتم الخليفة بعد موافقته أو موافقة الوزير عليها . كذلك كان رئيس ديوان الرسائل يراجع الرسائل الرسمية ويصححها ويختمها بخاتمه ، وكان يحضر المجالس العامة حيث كان الخليفة يستمع إلى شكاوى الناس ومظالمهم ، ويدوّن القرار الملكي على الالتماسات، وكثيراً ما كان يسلّم إلى صاحب الشكوى نسخة عن ذلك القرار ويحتفظ بالأصل في ملفات الدولة .

وكان الديوان التالي من حيث الأهمية ديوان التوقيع ، وهو شبيه بديوان الخاتم في عهد الدولة الأموية ، وفيه تحرر الأجوبة عن الرسائل الواردة إلى الخليفة وتسجّل وتذيل بالختم الملكي وتختم ، وكانت تحلى أيضاً بشعار الخليفة أو بآية من القرآن الكريم .

ديوان البريد

وكان في عاصمة كل ولاية « صاحب بريد » مهمته الاشراف على مؤسسة البريد ، ولم يكن عمله يقتصر على الاشراف على ارسال البريد الامبراطوري فحسب ، بل كان يتعداه الى اطلاع الخليفة على جميع الأحداث المهمة . كان صاحب البريد في الواقع معتمداً سرياً للحكومة المركزية ، وكان يقدم بصورة دورية تقارير سرية عن أحوال الامارة، وسير الادارة ، وحالة الفلاحين والزراعة ، وتصرفات السلطات المحلية ، وحالة النقد وكمية الذهب والفضة المسكوكة . وكان عليه أيضاً أن يكون حاضراً وقت دفع مرتبات الجنود .

وكانت الرسائل الخاصة تنقل مع بريد الحكومة وتسلّم الى أصحابها، غير انه من العسير القول ما اذا كان هؤلاء يدفعون أجوراً لقاء هذه الخدمة.

ديوان عرض الجند

وكان هناك ديوان آخر متصل بديوان الحرب أو تابع له ، يسمى ديوان العرض . أما الأسلحة فقد كانت في عهدة ضابط خاص يسمى « المشرف على الصناعات بالمخزن » ، وكان كل ديوان من دواوين الحكومة برئاسة مدير يسمى « الرئيس » أو « الصدر » ، وكان عمل الإشراف والرقابة الفعليّ في يد مفتشين يسمون «المشرفين» أو «النظار» . أما مفتش الزراعة والري فكان يسمى « مشرف الأكرة » ومفتش الضرائب العينية « مشرف الاقامات المخزنية » ، ومفتش مخازن الحكومة « المشرف بالمخزن » ومفتش الأعطيات « ناظر ديوان المقاطعات » . وأما نائب مدير دائرة الحسابات فكان يسمى « النائب عن ديوان الزمام » . والى جانب هؤلاء الموظفين وغيرهم كان هناك مراقب عام مهمته

أن يفتش بصورة دورية مكاتب الحكومة ويرفع تقريره المفصل الى الخليفة ، وكان يسمى « مشرف المملوكات » . والذي يبدو أن ترتيب المناصب من حيث الأهمية كان كما يلي : أولاً الوزير ، فالحاجب ، فرؤساء الدواوين ، فقاضي القضاة ، فرئيس الحرس ، فكاتب السر ، وكان الحاجب يقوم بتقديم السفراء والأمراء والأعيان الأجانب للمثول أمام الحضرة الملكية ، ومن الطبيعي انه كان يتمتع بنفوذ عظيم .

الشرطة

وكان لكل مدينة شرطتها الخاصة برئاسة « صاحب الشرطة » ، وكانت الشرطة ، شأنها زمن الأمويين ، تختلف عن الشرطة البلدية ، وكانت تقسم الى فرق أو أقسام حسب أحياء المدينة، كما كانت مسؤولة عن حماية أرواح الناس وممتلكاتهم ، وتطوف المدينة ليلاً كلٌ برئاسة ضابطها . وكان للشرطة مقام عسكري ، ولما كان أفرادها يتناولون مرتبات حسنة فقد كانوا يقومون بواجباتهم بأمانة واندفاع . وكان منصب رئيس الشرطة في بغداد يعادل منصب الأمير أو الوالي ، وفي عهد المأمون شغل القائد طاهر هذا المنصب ردحاً من الزمن الى أن طلب امارة خراسان وحصل عليها ، وفي ما تلا من العهود كان صاحب الشرطة يشغل أحياناً منصب الوزير .

المحتسب

أما الشرطة البلدية فكانت برئاسة ضابط خاص يعرف بالمحتسب ، وهذا المنصب النافع المهم انما أنشأه الخليفة المهدي وما زال قائماً منذ ذلك الحين في البلدان الاسلامية . وكان المحتسب هو المشرف الأعلى على الأسواق والاحصاء العام ، وكان يطوف المدينة كل يوم مع فصيلة من أتباعه للتأكد من تنفيذ أوامر الشرطة،وكان يفتش الأرزاق ويفحص

المكاييل والأوزان ويعاقب من يخلون بالأمن ، وكانت أية محاولة للغش تلقى العقاب الفوري . ويقــول أبو الحسن الماوردي أن الحسبة كانت « درجة وسطاً بين القضاء والقوة التنفيذية » .

نقابة التجار

وقـــد انشئت نقابة مسؤولة من بين التجار أنفسهم لمراقبة المعاملات التجارية والقضاء على الغش ، وكان يرئسها دائماً واحـدٌ من أعظمهم نفوذاً ومقاماً،وكان يعرف برئيس التجار . ولم يكن لكل مركز تجاري نقابة فحسب ، بـــل ان معظم المدن المهمـة كان لها مجالسها (ديوان الشورى) المؤلفة من أعيانها ، وأحياناً ممن يسميهم الحاكم أو الخليفة ، برئاسة « صدر » منتخب ، واذن فقد كانت الحكومة تشجع الحـــكم الذاتي وترعى المؤسسات البلدية وتشجعها ، وتكتفي من الأهلـــين بدفع الضرائب .

ادارة القضاء

وكانت ادارة القضاء على جانب عظيم من الخطورة ، وكانت جميع المسائل المتعلقة بحقوق الذميين المدنيـــة يترك الفصل فيها الى قضاتهم أو رؤساء ديانتهم . أما المسلمون فكان القاضي يفصل في منازعاتهم، وكان لكل مدينة قاضيها الخاص ، كما كان في كل مدينة كبيرة عـــدد من نواب القاضي . وكان رئيس قضاة بغداد يدعى قاضي القضاة ، وكان في الواقع قاضي قضاة الامبراطورية . ولمساعدة القضاة على إقامة العدل انشئت طبقة أخرى من الموظفين تشبه طبقة «كتاب العدل» في أيامنا هذه.

اما المحاكم الجنائية فقد كانت على ما يبدو في يد «صاحب المظالم» ، ولكنّ المحكمة العليـــا كانت تسمى « ديوان النظر في المظالم » وكان

يرئسها الخليفة نفسه أو واحد من كبار موظفيه في غيابه . أما أعضاء المحكمة الآخرون فكانوا : قاضي القضاة ، والحاجب وأمناء سر الدولة الرئيسيين ، وكان يـدعى لحضور جلساتها أحياناً رجال الافتاء . وقد حتم انشاء هذه المحكمة صعوبة تنفيذ مراسيم القاضي عندما يكون المتهم من ذوي المقامات العظيمة أو في خدمة الدولة ، ولم يكن أحد يجرؤ على عصيان أمر صادر عن هذه المحكمة ، كما لم يكن أحد من القوة والنفوذ بحيث يستطيع الافلات من صرامته .

إلا أنه لم تُنشأ « محكمة عدل عليا » نظامية إلا في عهد نور الدين محمود الذي أسس لأول مرة « دار العدل » وجمع فيهـا كل المحاكم المختلفـة . كما نظم القضاء وأصلحه بعد أن كان قد تدهور في زمن انحطاط الخلافة .

ولم يكن باستطاعة أحد أن يدلي باثبات أو شهادة أمام المحاكم إلا اذا كان متصفاً بحسن السيرة والخلُق ، غير أنه كثيراً ما كان يساءُ استعمال ذلك الشرط الحكيم ، شأن غـيره من الشروط الأخرى التي ابتدعتها عبقرية الانسان .

ايرادات الدولة

وكانت ايرادات الدولة تجبى من المصادر الآتية : (١) الخراج (٢) الأعشار ، أو ضريبة الدخل (العشر والزكاة والصدقـة) (٣) أخماس المعادن والمرعى (٤) الجزية على الذميين (بدلاً من الخدمة العسكرية) (٥) المكوس (٦) ضريبة الملاحات والأسماك (٧) الضرائب التي يـدفعها أصحاب الحوانيت على استعمالهم المحلات العامة كالشوارع والميـادين (٨) ضرائب الصناعات (٩) ضرائب الكماليات (١٠) ضرائب الواردات (الجمارك) . وقد ألغى الواثق ضريبة الجمارك تشجيعاً للتجارة البحرية . ويقول فون كريمر : « كل هـذا يثبت أن رجال المال في تلك

الايام لم يكونوا جهلة كما قد يتصور المرء » . وكان الفلاحون موضع رعاية كبرى لدى الخلفاء العباسيين الذين كانوا يبذلون قصارى جهودهم لتخفيف أعبائهم ، فقد ألغى المنصور دفع ضريبة الحنطة والشعير نقداً ، واستحدث نظام المقاسمة ، أي دفع الخراج عيناً بنسبة معينة من غلة الأرض ، وأبقى الضريبة النقدية على الزراعات الأقل شأناً، وعلى زراعة النخيل والفاكهة . ولما أدى ذلك بالجباة الى ابتزاز أموال الفلاحين وسع تطبيق القاعدة التي وضعها أبوه وأمر بجعل المقاسمة بالنصف فيما يخص الأرض التي تسقى سيحاً أي بدون تعب ، أما اذا كانت الأرض تسقى بالارواء الذي يتطلب شيئاً من النفقات فعندئذ تستوفي الحكومة ثلث المحصول ، وفي بعض الأحيان الربع ، وفي الأحيان الأخرى الخمس . كذلك جعل خراج النخيل والكروم والأشجار على حسب المساحة ، فكانت تقدّر قيمة المحصول ، ثم يؤخذ نصف غلتها أو ثلثها ، وكان يسمى هذا النظام «بالمقاسمة» تمييزاً له عن النظام القديم المسمى بالمحاسبة .

وفي سنة ٢٠٤ هـ أحدث المأمون تخفيضاً آخر في ضريبة الخراج بأن جعله « خُمسين بدلاً من النصف حتّى في أخصب الأراضي الزراعية » . وكان في بابل وكلدة والعراق والجزيرة وفارس كثير من أصحاب الأملاك والفلاحين يدفعون ضريبة محدودة على أساس اتفاقات عقدت معهم زمنَ الفتح ، وكان أهل القرى في شمال فارس وخراسان ينعمون بهذا الامتياز نفسه . وهكذا كان هناك ثلاث طرق لفرض الضريبة على الأرض :

أولاً — المساحة (المحاسبة) ، وهي الضريبة المعينة التي تدفع نقداً أو عيناً أو بالطريقتين معاً .

ثانياً — المقاسمة ، وهي الضريبة التي تدفع حسب المحصول وتجبى عيناً .

ثالثاً ــ المقاطع ، وهي الضريبة التي تدفع على أساس تسوية ثابتة بموجب اجارات أو اتفاقات بين الحكومة وأفراد الشعب .

وكان الصنف الثالث ينتظم معظم الأراضي الأميريــة ، وكثيراً ما كان الأهلون يعفون من الضرائب حتى في أقسى العهود . فالمعتضد ، مثلاً ، أعفى الناس من ربع الضريبة بتأجيل بدء السنة المالية من منتصف آذار (مارس) حتى ١٧ حزيران (يونيو) ، أي ١١ ربيع الأول . ويبدو انه منح فيما بعد إعفاءً آخر بتأجيل موعد دفع الضريبة الى ٢١ تموز . واذا ما ذكرنا ما كانت عليه الدولة من غنى ، وما كان عليه الفلاحون من ازدهار ، وما كانت عليه التجارة من اتساع ، فاننا لا نعجب اذا علمنا ان ايرادات الرشيد السنوية قد بلغت ٢٧٢ مليون درهم وأربعــة ملايين ونصف المليون من الدنانير ، وأن مصاريف المأمون اليوميــة قد بلغت ستة آلاف دينار .

التنظيم العسكري

عندما ضمّ العرب الشام اضطروا الى اتخاذ الخطوات التي تكفل حماية الحدود الشمالية من غزوات الدولة البيزنطيــة . وقد باشروا في ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، واستمروا فيه طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن العمل لم يتخذ شكلاً نظامياً الا عندما اعتلى المأمون عرش الخلافة ، فاستولى على أهم المواقــع الستراتيجية ، كطرسوس وأدنــة والمصيصة ومرعش وملطية ، التي كانت تقــع عند ملتقى الطرق أو في منتهى المفاوز الجبلية ، وحصنها ووضع فيها حاميات قوية . وفي سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ – ٧٥١م) دمر البيزنطيون ملطية ، ولكن المنصور أعاد بناءها في سنــة ١٣٩ هـ ووضع فيها حامية قوامها أربعة آلاف رجل أنزلهم في ثكنات توفرت فيها أسباب الراحة وخصص لهم مخصصات سخيــة ، وكان الجندي منهم يتناول ، إلى جانب الأرزاق ، عشرة دنانير علاوة

على مخصصاته البالغة مئة دينار في السنة . وقد ابتنى المنصور القلاع في الحَدَث بكيليكية،وزبطرة واللاذقية . وفي أماكن متعددة أخرى في فرجيا وكبدوكية ، كما حصّن الرشيد مرعش وأعاد بنـــاء طرسوس ووضع فيها حاميات قوية ، وابتنى في جوار مرعش قلعة الهارونية ، بينما أمرت الامبراطورة زبيدة باعادة بناء الاسكندرونة .

ومن بين الاجراءات التي اتخذها الرشيد لحماية الحـدود ، كما ذكرنا سابقاً،انه أنشأ العواصم التي كانت فيما مضى تابعة لمنطقة قنسرين العسكرية وجعلها امارة مستقلة مؤلفة من انطاكية ومنبج والباب ودلوك وسواها ، ونظمها على أسس عسكرية ، فأقام الحاميات في جميع النقاط المهمة وبنى تحصينات جديدة كثيرة العدد ، وكان الجنود الذين يعسكرون في هـذه الأصقاع يتناولون المعاشات الثابتـــة والأرزاق والمكافآت ، وكان من واجبهم حفظ أسلحتهم ومهامهم وخيولهم في حالة حسنة ، وكثيراً مـا كانت تقطع لهم ولعائلاتهم الأراضي لزراعتها . وقد أخذ المأمون والمعتصم بهذا النظام ؛ ولاحياء الأراضي التي دمرها الروم وخلت من سكانهـــا نتيجة لغاراتهم المتواصلة ، ولتعزيز السكان المسلمين ، فقد نقلت قبائل بأكملها من الولايات البعيدة إلى هذه التخوم .

الجيش

كان الجيش في ابان الخدمة الفعلية يتألف من طبقتين من الجنود : (١) المرتزقة ، وهم الذين كانوا يتناولون المرتبات من الدولة ، و(٢) المتطوعة ، وهم الذين كان شعورهم بالواجب يدفعهم إلى الانخراط في الجيش ، والذين لم يكونوا يتناولون مدة تطوعهم سوى الارزاق . وفي غياب هؤلاء عن الوطن كانت نساؤهم وأولادهم يمنحون المكافآت من الدولة إما عيناً أو نقداً . وكان جيش المرتزقة يتألف من فئات مختلفة: (١) المشاة أو (الحربية) ،وأسلحتهم الرماح والحراب والسيوف والتروس،

(٢) رامية السهام أو (الرامية) ، وأسلحتهم السيوف والتروس والأقواس والنشاب .

وكان لباس المشاة (الحربية) الخوذ والدروع لوقاية الصدور ، مع أجزاء لوقاية الساعدين والساقين.وكان في كل فرقة فصيلة من «النفاطين» الذين كانوا يرمون العدو بمقذوفات النفط ، وفصيلة من المعماريين يحملون الرفوش إلى جانب سيوفهم وتروسهم ، ويقال إن النفاطين كانوا يرتدون الملابس التي لا تتأثر بالنيران،والتي كانوا يقتحمون بها حصون أعدائهم المشتعلة دون أن يصيبهم أذى . وكان على رأس كل عشرة آلاف رجل « أمير » ، وعلى رأس كل ألف رجل « قائد » ، وعلى رأس كل مئة رجل « نقيب » ، وعلى رأس كل عشرة رجال « عريف » . وكان لباس الجند يختلف باختلاف الفرق والأسلحة .

وقد أنشئت فرقة خاصة معظم رجالها من الأجانب وأطلق عليها اسم « الحرس الامبراطوري » وكان جنودها يتقاضون مرتبات أعلى،ويرتدون البزات الفخمة . وفي عهد المعتصم ألبس رجال الحرس الامبراطوري الدمقس المزركش بالذهب .

وإلى جانب الحرس الامبراطوري كان هناك وحدة أخرى تحتل، على ما يبدو ، مركزاً أقل أهمية ، وكان رجالها يسمون « رجال المنزل » ، ثم اطلق عليهم فيما بعد اسم الجاندار .

وكان المرافقون العسكريون في أيام العباسيين يُسمون بالغلمان الحُجرية، وكانوا يشتغلون في خدمة الخليفة ، ثم يعينون مرافقين أيضاً عند بلوغهم سن الرشد . وكان هؤلاء الشبان يتلقون علومهم في البلاط ، ويؤخذون للخدمة بعد أن يتدربوا على الفنون الحربية ، وكانت لهم ثكنات خاصة يعيشون فيها حسب أنظمة عسكرية قاسية شبيهة بنظام الرهبنة .

المهندسون

وكان يرافق الجيش في جميع تحركاته فريق منتخب من المهندسين[1]، وكان عدد من هؤلاء الضباط يقيم في كل معقل ومدينة . وكان رئيس المهندسين يدعى « أمير المنجنيقيين » ، وكانوا بوجه عام يبدأون حياتهم العملية في الجيش النظامي أولاً ثم يعينون من بعد في فرقهم الخاصة أو في الأماكن التي يرسلون اليها . وكان من أقدر هؤلاء المهندسين يعقوب ابن صابر المنجنيقي ، وكان رئيساً للمهندسين المقيمين في بغداد . وقد اشتهر بدراساته العلمية والفنون العسكرية وألف كتاباً في الهندسة اسمه « عمدة المسالك »[2] ، وفيه يقول ابن خلكان أن صاحبه قد « عالج فيه كل ما يمت بصلة إلى الحرب كالتعبئة والاستيلاء على الحصون وبناء القلاع والفروسية والهندسة والحصار وتركيب الحركات الحربية الخ ... »

مستشفيات الميدان

وكان يرافق الجيش في ابان المعارك فريق من الأطباء ومستشفى حسن التجهيز ألحقت به نقالات لنقل الجرحى بشكل محفات تنقلها الجمال . وقد استلزم مستشفى الميدان الخاص بكل من الرشيد والمأمون عدداً كبيراً من الجمال والبغال لنقل الخيام والمؤن والأدوية ، وحتى في العهود التالية، ايام الملوك الضعفاء أمثال السلطان محمود السلجوقي ، كانت لوازم مستشفى الجيش تنقل على أربعين جملاً .

وقد أنشئت مستودعات للاسلحة ودور لصناعتها في كل مركز مهم ، وكان عرضة للتفتيش من قبل ضباط من ذوي الخبرة والمكانة العسكرية يدعون « النظار » . وكان للخيالة المعدات نفسها التي كانت لهم في عهد

---

١ – ويسمون بالمنجنيقيين .

٢ – اسمه الكامل : « عمدة المسالك في سياسة الممالك » .

الأمويين ، وهي السيوف والبلْطات والرماح والحراب ، وكانوا يرتدون بصورة دائمة تقريباً الخوذ الفولاذية والدروع . وكان لكل فرقة فصيلة من رماة السهام الخيالة ، وكان هؤلاء إما من الخراسانيين أو من الفرس الشماليين الذين اشتهروا في العصور القديمة بقدرتهم على رمي السهام وإصابة الهدف من على صهوات الخيـــل . وقد أدخـــل المهلب المشهور استعمال الركاب الحديدي منذ عهد عبد الملك .

وكما سبق منا القول فان كل عربي صحيـــح الجسم كان مفروضاً عليه أن ينخرط في الجيش ، وفي معظـم الحالات كان جنود الاحتياط لا يلتحقون بفرقهم طواعية فحسب ، بل بسرعة وهمة أيضاً ، أما إذا تخلف هؤلاء عن الانتظام في الجيش فعندئذ كان الأمراء يلجأون إلى نظام الخدمة الاجبارية كما فعل الحجاج في البصرة .

انحطاط قوة العرب العسكرية

بدأ انحطاط قوة العرب العسكرية فعلاً في عهد الخليفة المقتدر وكان سببه الرئيسي التبدل الذي طرأ على نظام دفع مرتبات الجند ، فمنذ ذلك الحين لم يعد الجنود يتناولون مرتباتهم من الخزانة الامبراطورية رأساً ، وانما من الولاة أو قادة الجيش الذين كانت تقطـــع لهم ولايات معينة لهذه الغاية . ويرجع هذا التغيير في الواقع إلى عجز الخزينة وخلوها من المال ، لأن بعض الولايات لم تكن تؤدي أيما خراج بينما اكتفى بعضها الآخر بتقديم جزء مما كان يقدمه في السابق . ولما كانت حيـــاة البذخ والاسراف تسود البـلاط فقـــد كان من المستحيـــل سد نفقات الدولة بالايرادات العادية ، ولذلك لجأ المقتدر إلى إقطاع الولايات لأعيـــان الدولة شرط أن يقوموا بجباية الايراد كلـــه لحسابهم ، ويسددوا منـــه نفقات الادارة ، ويدفعوا مرتبات الجند ، ويؤدوا مبلغاً معيناً في السنة إلى بلاط بغداد ، وكانت هذه الهبات تسمى بالاقطاعيات . ولقد أدت

هذه السياسة الخرقاء إلى نتيجتها الطبيعية ، أي انحلال الامبراطورية ذلك الانحلال السريع . وكان آل بويه يمنحون الجنود الاقطاعيات بدلاً من المرتبات ، وكانت هذه الاقطاعيات العسكرية معفاة من جميع الضرائب، وكانت محصولاتها خاصة بأصحابها من الضباط والجنود . « وكانت نتيجة ذلك أن تقلصت المدنية وعم الفقر أغنى الولايات وأخصبها ، وهجرها سكانها ، وأقصي السكان العرب تدريجياً عن أراضيهم ليحل محلهم الأجانب » .

وقبيل الحروب الصليبية كانت الحالة السياسية والاجتماعية في آسية الغربية مشابهةً لما كانت عليه في أوروبة من نواحٍ عديدة ، ذلك انها كانت مقسمة إلى عددٍ من الولايات الصغيرة والامارات الاقطاعية التي كانت تعترف بسلطان الخليفة الديني ،ولما لم يكن لهذه الولايات والامارات الاقطاعية مصلحة مشتركة تربط بينها فقد كانت تناوىء بعضها بعضاً ، مما أدى إلى إضعاف الامبراطورية بسبب تطاحنها وأنانيتها .

النظام الاقطاعي العسكري

وفي عهد السلاجقة انتشر النظام الاقطاعي العسكري إلى حدٍ أكبر ، فقد كان لكل فرد من أفراد الأسرة المالكة ، ولكل أمير ، مدينة أو منطقة يحكمها حكماً مطلقاً ويمارس فيها سلطات السيد الاقطاعي «صاحب الحصن» . وكان سيد الأرض يدفع الى السلطان جزية سنوية ، ويسير في زمن الحرب تحت لوائه مع عددٍ معين من الجنود كان عليه اعالتهم وتزويدهم بالأسلحة والعتاد على نفقته الخاصة ، وكان في العراق وحده أربعون سيداً اقطاعياً ، ولم يكن على رأس الاقطاعيات إلا عدد قليل من الأسر العربية .

وقد استُحدث النظام الاقطاعي العسكري هذا حينما انتشرت راية الأتراك والتتر ، الذين أصبحوا في ذلك الحين العنصر الغالب والمسيطر

في جميع انحاء آسية الصغرى : في مصر وافريقية الغربية وفارس والهند وحتى في أوروبة الشرقية عبر البوسفور ، ولم يبلغ في تركيا الا بعد اصلاحات السلطان محمود وانشاء جيش نظامي .

مرتبات الجنود

كان معدل مرتبات المشاة في عهد الامويين الف درهم (٤٠ جنيهاً تقريباً) في السنة ، ويلوح ان السفاح قد خفضه الى ٨٠ درهماً في الشهر . أما الفارس فكان يتقاضى ضعف هذا المبلغ علاوة على الاكراميات الدورية التي كانت تمنح له ولزملائه الجنود . ولكن الذي يبدو ان مرتبات الجنود كانت تختلف باختلاف الولايات التي كانوا يعسكرون فيها ، مثال ذلك ان المأمون كان يدفع للجندي الراجل في العراق عشرين درهماً في الشهر الى جانب الأرزاق ، وللفارس أربعين درهماً مع العلاوات الاعتيادية ، بينما كان الجندي الراجل في فرقة دمشق يتقاضى أربعين درهماً والفارس مئة درهم في الشهر . أمـا تخفيض مرتبات الجنود في العهود المتأخرة فيعزى الى سببين :

أولاً : ارتفاع سعر الذهب [1] .

ثانياً : اتساع رقعة الامبراطورية مما زاد في قدرة الخليفة على تعبئة الجنود .

عناصر الجيش

وكان الجيش ، منذ أقدم العصور ، سواء في ميدان القتال أو عند المسير ، يتكوّن من خمسة أقسام هي : (١) القلب ، وفيه القيادة العامة عادة و (٢) الميسرة و (٣) الميمنة و (٤) الطليعة و (٥) الساقة .

---

١ ـ كان الدينار في عهد الخليفة عمر يساوي عشرة دراهم ، وفي عهد المأمون ١٥ درهماً . وكان الدينار يساوي ١٣ شلنا و٦ بنسات تقريبا .

وكانت الطليعة تتقـــدم الجيش عند المسير ، وتتألف من الفرسان المرتدين الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية، والحاملين الرماح المربوطة بأسنتها باقات من ريش النعام . وكانت الكشافة معروفة عنـــد العرب أيضاً ، فقد استخدم قتيبة كشافته لا في الاستطلاع فحسب بل في صنع الخرائط للبلدان التي كان في طريقه اليهـــا . ومنذ ذلك الحين جرت العادة أن يُعد كل قائد خرائطه بواسطة الكشافين أو ان يحصل عليهـا من مركز القيادة العامة .

البحرية

باحتلال الشام ومصر خضع لسلطان العرب جزء كبـير من السواحل البحرية ، وأصبح انشاء اسطول بحري لحماية الموانىء ولقاء العـــدو أمراً حيوياً . ولذلك وجهوا عناية كبيرة الى تجهيز اسطول بحري قوي بالرجال والعتاد ، فجاءوا أولاً بالبحارة من المدن الفينيقية التي اشتهر رجالهـــا برحلاتهم الجريئة ، ثم من الشام ومصر وسواحل آسية الصغرى . وفي سنة ٢٨ هـ احتل العرب قبرس بجنود أنزلوهم من أسطولهم ، وفي سنة ٣٤ هـ استطاع أمير مصر بأسطوله المؤلف من مئتي سفينة أن يهزم البيزنطيين الذين أغاروا عليه بستمئة سفينة .

وكانت السفن تشيّد في بادىء الأمر في ترسانات جميع مؤانىء الشام ومصر ، وفي ابلة وأبو شهر في الخليج الفارسي . وكانت السفن العربية أكبر حجماً من السفن البيزنطية ، ولكنها لم تكن على الأرجح في مثل سرعتها .

أما الاسطول التجاري فقد كان في مثل فعالية الاسطول البحري ، وكانت التجارة البحرية موضع العناية والتشجيع . وكان في كل ميناء فنار يسمّى « خشاباً » . ويبدو أن الاسطول لم يكن يتألف من السفن التي كانت الدولة قد شيدتها للأغراض الحربية فحسب ، بل لقد كان

على كل ولاية أو ميناء أن تقدم عدداً معيناً من السفن عندما تصدر الدولة أمرها بذلك . وقد حدث هذا بصورة خاصة في أيام الفاطميين في مصر ،واتبع صلاح الدين الطريقة نفسها . كذلك كان اسطول الخلفاء الاندلسيين يُجمع من جميع موانىء الأمبراطورية ، وكان على كل سفينة حربية قبطان (قائد أو مقدّم) يأتمر البحارة بأمره ويشرف على تمرينهم وتجهيزهم ، ثم يليه ضابط يسمى « الرئيس » ويقتصر عمله على الشؤون البحرية . أما قائد الاسطول العام فكان يدعى « أمير الماء » أو « أمير البحر » ، ومنها اشتُقت كلمة « أدميرال » .

الفصل الخامس والعشرون

نظرة عامة (تابع)

بغداد ــ مبانيها ــ بلاط الخليفة ــ الحياة الاجتماعية ــ اللباس ــ النساء ــ مركزهن ــ الادب ــ الفلسفة ــ العلم والفنون ــ المذهب العقلي ــ اخوان الصفاء

مدينة المنصور

كانت بغداد مركز الادارات المدنية والعسكرية العظيمة التي أتينا على وصفها في الصفحات السابقة . كانت « عاصمة الاسلام ، وعين العراق ، وقاعدة الامبراطورية ، ومركز الجمال والثقافة والفنون » .

ويقول ياقوت في معجم البلدان : « ان المنصور خط المدينـــة التي سماها باسمه مدوّرة وجعل لها أربعة أبواب ، وحفر لها الخنادق ، وبنى على كل باب قبة بالغة حداً من العلو يسمح بدخول الفارس وهو شاهر رمحه ، كما شيّد حولها سورين من الداخـــل ، وبنى في الوسط قصره الذهبي ، المعروف بالخلد ، ذا الباب الذهبي » .

وعلى مقربة من قصر الخلافة بنى المنصور المسجد الجامع ، وقامت قصور الأمراء والأشراف ودواوين الحكومة ، « فأصبحت المهدية والمنصورية في الواقع شبه دائرتين ، الواحدة على الشاطىء الأيمن لدجلة والأخرى على الشاطىء الأيسر ، وكان قطرهما يبلغ اثني عشر ميلاً . كذلك كانت ضواحي المدينتين مليئة بالحدائق المونقة ، والقصور المنيفة الذرى ، والمتنزهات البديعة ، والأسواق العامرة ، والحمامات الجميلة ، والجوامع الفخمة ، وجميعها تقع على جانبي النهر . وكان سكان بغداد وضواحيها – وهي في أوج عظمتها – يبلغون المليونين عداً ، وكانت المهدية أفخم من المنصورية . أما قصر الخلافة فكانت تكتنفه حديقة غناء تبلغ مساحتها مسيرة عدة ساعات ، وعلاوة على معرض الوحوش الكاسرة والأطيار المغردة ، الملحق بحديقة القصر ، كان ثمة حظيرة للحيوانات الوحشية المعدة للصيد والقنص . أما فناء القصر فكان مزداناً بالحدائق الحاوية كل منظر رائق من النباتات والأزهار والأشجار والأحواض ، وقد نصبت حولها التماثيل الفخمة » .

« وكانت تخترق المدينة على جانبي النهر الشوارع الفسيحة بعرض لا يقل عن الأربعين ذراعاً . وكانت بغداد مقسمة إلى مربعات يقوم على رأس كل مربع « ناظر » يضطلع بالاشراف على النظافة وراحة السكان. كذلك كان يقف في زاوية كل شارع حارس مسؤول عن حفظ النظام. والمعروف أن أحد الشوارع الكبيرة أطلق عليه اسم المأمونية ، وقد كان في غاية الاتساع يمتد من نهر المعلا إلى باب الازج » .

أبواب المدينة

وكان من بين الأبواب العديدة المؤدية إلى المدينة الغربية : (١) باب الشماسية و (٢) باب القز و (٣) باب البصرة و (٤) باب الدير

و (٥) باب الشام و (٦) باب البستان و (٧) باب الطاق و (٨) باب شيراز و (٩) باب الخيزران و (١٠) باب الصبيان و (١١) باب التبن و (١٢) باب الازج .

ومن ناحية المهدية كان هناك خمسة أبواب هي : (١) باب الغراية و (٢) باب سوق التمر و (٣) باب النوبي ، حيث كانت العتبة التي يقبلها السفراء و (٤) باب العامة و (٥) باب المراتب .

وكانت مجاري المياه في الشمال والجنوب على السواء، يقوم على حراستها، شأن أبواب المدينة ، جنود يقفون ليل نهار في الأبراج المشيدة على جانبي النهر ، وكانت كل دار مزودة بصورة وفيرة بالماء « في جميع الفصول » من الجداول التي كانت تخترق المدينة ، وكانت الشوارع والحدائق والجنائن تكنس وتروى بانتظام ، ولم يكن يُسمح بترك الأقذار ضمن جدرانها . وكان يعلو ايوان قصر الخلد قبة خضراء ارتفاعها ثمانون ذراعاً ، وكانت تلك القبة « تاج بغداد وشعار المدنية ونصباً تذكارياً لبني العباس » ، وقد ركب فوقها تمثال لفارس في يده رمحٌ طويل .

الميدان

وكانت الساحة العظيمة القائمة أمام القصر الامبراطوري ، وتسمّى « المربعة » ، تُستخدم للاستعراضات العسكرية والسباقات . وكانت الساحة والشوارع تضاء ليلاً بالمصابيح ، وكان المنصور يستعرض جنده وهو في حلته العسكرية الكاملة إما واقفاً على منصة أو جالساً على عرش ، بينما كان الرشيد والمأمون والمعتصم دائماً يستعرضون الجيش على صهوات جيادهم .

وفي ناحية المهدية أيضاً كان هناك ميدان فسيح يُستعرض فيه يومياً الجنود الذين كانت ثكناتهم على الضفة اليسرى من النهر . وكان الناس

يستعملون المصاطب الطويلة الممتدة عنــد مختلف أبواب المدينة للحديث والسمر أو لمشاهدة جموع المسافرين والقرويين المتدفقين على المدينة.وكان لكل جنسية من الجنسيات في المدينة رئيس يمثلها لدى الحكومـة ويسدي الى الغرباء النصح أو المشورة أو المساعدة ، وكان هؤلاء الرؤساء مسؤولين أيضاً عن سلوك أبناء جنسهم وحسن تصرفهم .

قصور بغداد

كانت بغداد في الحق « مدينة القصور » . كانت قصورها مبنيــة بالمرمر ، وكانت أبنيتها ، وان لم تكن تختلف في بنائها ونمطها عن مباني دمشق ، مؤلفة من طبقات عدة ، وكان تأثير الذوق الفارسي واضحاً بصورة جلية في زخرفها . وكانت القصور والمنازل مزخرفــة بسخاء ، وكانت تعلق على نوافذها وأبوابها الستائر المزركشة والحرائر المشجرة . أما الغرف فكانت مؤثثة بالدواوين الفخمة والمناضد الثمينـة والمزهريات الخزفية والأواني الذهبية والفضية .

المساجد

وكانت المساجد الجامعة أبنية فخمة تضاهي في جمال تصميمها وعظمة اتساعها ودقة زخرفتها مسجد الوليد في دمشق ان لم تفقه في ذلك كله، وعلاوة على المسجد الجامع كان لكل حيّ من أحياء المدينة مسجده الخاص، كما كان في كل بلدة في جميع انحاء الامبراطورية مسجد جـامع رائع البناء والزخرف .

الكليات والمستشفيات

وكان في العاصمة والحواضر كليــاتٌ ومستشفيات وملاجىء عديدة للجنسين . وكان لكل كلية رئيس خاص بها ، كما كـانت مستشفيات

الدولة تحت اشراف طبيب مشهور . وفي عهد الخليفة المكتفي كان يشغل هذا المنصب السامي المسؤول أبو بكر الرازي المشهور الذي توفي عام ٩٢٣م . ويبدو أنه كان ملحقاً بكل ملجأ قاضٍ من العسير علينا أن نحدد واجباته ومهامه .

ولقد تمتعت الكلية النظامية التي شيدها نظام الملك في سنة ١٠٦٧ م والمستنصرية التي شيدها المستنصر بالله في سنة ٦٣٣ هـ (١٢٢٦م) بشهرة عظيمة في العالم الاسلامي ، ولكن المؤسسات الأكثر قدماً لم تكن لتقل عن هاتين فعالية ونشاطاً ، وكان الطلاب يؤمونها هي والكليات الحديثة من جميع أنحاء العالم . وكانت مدن الامبراطورية الأخرى تنافس العاصمة في ضخامة كلياتها التي كانت تشاد على نفقة الشخصيات الملكية أو الأفراد العاديين .

الملابس

كان العظماء والأشراف بطبيعة الحال يقلدون الخلفاء في ملابسهم ، ولكن الفقهاء والقضاة كانوا يلبسون العمامة والطيلسان اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم . أما العلمانيون — إذا جازت تسميتهم كذلك — فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها ، ثم استعاضوا عنها بالطربوش الحديث . وكان لباس الرجل العادي في أيام العباسيين يتألف من سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان ، وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة ، ولم تكن الجوارب مجهولة في ذلك الحين ، ويبدو أن الأغنياء هم الذين كانوا يلبسونها ، وكانت مصنوعة اما من الحرير أو الصوف أو الجلد وتدعى « موزاج » . غير انه كانت هناك فروق ملحوظة في ملابس أصحاب مختلف المهن ، وكما كان الحال في زمن الأمويين فقد كان الرجال يرتدون أثناء السفر أو الركوب ملابس تختلف عن تلك التي كانوا يرتدونها في البيوت ؛ وكان لباس النوم يدعى « قماش النوم » . أما لباس العامة

فكان يتألف من إزار (بنطلون) ، وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قمر بند » . وكان استعمال الأحذية شائعاً بين الرجال ، وكانوا أحياناً يلبسون حذاءين في وقت واحد ، وكانوا يسمون الحذاء الخارجي « الجرموك » ويخلعونه عند دخول المساجد أو القصور .

ملابس النساء

وأما ملابس النساء فقد تبدلت كثيراً عما كانت عليه في العصر الأموي، إذ كانت نساء الطبقة الراقية أو الموسرة يغطين رؤوسهن بالبرنس المحلى بالجواهر وبسلسلة ذهبية مطعمة بالجواهر أيضاً . وقد استحدثت لبـــاس الرأس هذا « علية » أخت الرشيد ، وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينـة . أما نساء الطبقـــة الوسطى فكنّ يزيّنّ رؤوسهن بحلى مسطحة من الذهب وبعصابة كثيراً ما تكون محلاة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وزنودهن. ولم تكـن أدوات الزينـة والتجميل مجهولة لديهن ، وواضحٌ أنهن أخذن فن صبغ الشفاه والخدود عن نساء فارس اللواتي يبدو أنهن كن يستعملنه من أقدم العصور . وكان من أوصاف الفتـاة العربية الجميلـة أن تكون طويلة القامة ممشوقة القد متناسبة أعضاء الجسم بيضاء البشرة ذات عينين سوداوين واسعتين .

مركز المرأة

لم يكن مركز المرأة في أيام العباسيين الأوائل ليختلف اطلاقاً عما كان عليه في أيام الأمويين . والواقع أن نظام العزلة التامة وفصل الجنسين لم يعمّ كما يبدو إلا في أيام « القادر بالله » الذي عمل أكثر من أي خليفة آخـــر على وقف تقـدم العـالم الاسلامي . ولقد سمعنا في عهد المنصور بالأميرتين (ابنتي عمه) اللتين سارتا إلى ميدان القتال وقد ارتدت كل

منها درعاً وفاءً بيمين أقسمتاها في ابان الصراع مع مروان ، وفي زمن الرشيد أيضاً كيف ان الفتيات العربيات كن يذهبن إلى القتال على صهوات الجياد ويقدن الجيوش . » وقد كانت ام المقتدر ترئس بنفسها المحكمة العليا وتجلس للمظالم وتستقبل الأعيان والوجهاء والسفراء الأجانب . ولم تعطل المجالس التي كانت تعقد في منازل النساء المثقفات إلا في عهد المتوكل ، وكانت النساء في عهدي الرشيد والمأمون يناظرن الرجال في الثقافة والفكر ويشتركن في نظم القصائد ويضفين على المجتمع الحياة والنشاط بظرفهن وثقافتهن . وكانت الامبراطورة زبيدة امرأة موهوبة وشاعرة ملهمة وكثيراً ما كانت ترسل رسائلها مفرغة بأبيات شعرية إلى الرشيد ، وتدل الرسالة التي وجهتها الى المأمون ، عقب مصرع ابنها الأمين ، على ذكاء عظيم وشعور سامٍ ، هذا إلى جانب نساء عديدات أخريات لمع نجمهن في العصر العباسي .

تطور العرب العقلي

من المستحيل علينا في الصفحات القليلة من هذا الكتاب اعطاء فكرة كافية عن التقدم العقلي الذي حققته الأمة العربية في خلال خمسة قرون، ومع ذلك فان هذه النظرة العامة لن تكون كاملة إذا لم نقدم وصفاً موجزاً لما قام به العرب من أعمال في سبيل ترقية العلم وانهاضه . ولقد أتيت في سياق هذا الكتاب على ذكر رعاية الآداب والفنون والعلوم في أيام الرشيد والمأمون ، ولذلك سأقتصر هنا على أهم خصائص الناحية العقلية في التاريخ العربي .

البوصلة البحرية

اكتشف العرب البوصلة البحرية وقاموا برحلات إلى جميع أنحاء العالم طلباً للعلم والمعرفة أو للاتجار ، فأسسوا المستعمرات في أفريقية وحتى

جزائر الأرخبيل الهندي وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا . حتّى الصين فتحت أبوابها للمستعمرين والجنود المرتزقة من المسلمين ، وكانت البصرة ميناءً نشيطاً تعج بالتبادل التجاري مع الهند وكاثاي (الصين) .

ولم يقتصر نشاط العرب التجاري على البحار ، بل كان هناك طريق عظيم للقوافل ممتد على طول بلدان افريقية الشمالية ، وآخر ممتد جنوباً عبر الصحراء الى قلب القارة السوداء . ومن الموانىء العديدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط كانت هذه التجارة الشمالية تُنقل إلى اسبانية وصقلية وايطالية وفرنسة ، وكانت طرابزون حلقة تجارة ناشطة مع الدولة البيزنطية . وكانت هناك طرق أخرى تؤدي إلى آسية الوسطى والهند الشمالية على طول السواحل القائمة على الخليج الفارسي ، وطريق يمتد من بغداد الى بحر قزوين ويتصل بواسطة السفن مع بلدان الشمال الأقصى ، مما يفسر وصول النقود العباسية إلى روسية والسويد ووجودها فيهما حتّى الآن .

اكتشافات العرب

واكتشف العرب جزر الآزور ، ويُعتقد انهم توغلوا حتى وصلوا إلى اميركة وأعطوا في القارات القديمة دافعاً لم يسبق له مثيل في كل ناحية من نواحي النشاط الانساني . وكان النبي العربي قد أوصى بأن يعمل المرء لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وبأن الاجتهاد من الايمان ، وبمزاولة التجارة والزراعة ، وكان لهذه التعاليم أثرها الطبيعي ، فكانت طبقات التجار والزراع والصناع تعامل بالتقدير والاحترام ، ولم يكن الحكام والقواد والعلماء يأنفون من أن يسموا بأسماء المهن التي كانوا يمتهنونها .

ولقد وجّه رهط العلماء والأدباء الذين برزوا في ابان هذه الحقبة الطويلة اهتمامهم إلى كل فرع من فروع الدراسات ، فألفوا في النحو والآداب والبلاغة وفلسفة اللغة والجغرافية والحديث والأسفار ، كما

ألفوا المعاجم والتراجم، وأغنوا العالم بالتواريخ الرصينة والأشعار الجميلة، وأضافوا إلى المعارف الانسانية باكتشافاتهم العلميـــة، وشجعوا الحركة الفكرية بمناقشاتهم الفلسفية. يقول سيديو: «ان الكنوز الأدبية العظيمة التي أوجدها العرب في ذلك العصر، ونتاج نبوغهم العلمي، واختراعاتهم الثمينة، تنهض كلها دليلاً على نشاطهم الفكري وتؤيد الرأي القائل بأن العرب كانوا أساتذتنا في كل شيء، اذ انهم زودونا بمواد جليلة القيمة في تاريـخ العصور الوسطى، وبأسفار مجيدة في التراجم، وتركوا لنـا صناعة لا مثيل لها، وفناً معمارياً آية في الروعـة والجمال، واكتشافات هامة في الفنون والصناعات».

وفي ابان الفترة التي نحن بصددها واصل العرب بحوثهم العلمية بهمة ونشاط عظيمين، كما وجه أقدر الرجال اهتمامهم وجهودهم إلى الكيمياء وعلم النبات والجيولوجيا والتاريخ الطبيعي، ويعتبر أبو موسى جعفر الكوفي أبا الكيمياء الحديثة، وحذا حذوه آخرون أثاروا بابداعهم وأفعالهم وعمق معرفتهم ودقة ملاحظاتهم اعجاب العلماء المحدثين. كذلك طوّر العرب علم الطب وفن الجراحة إلى أعلى الدرجات، واخترعوا الصيدلة الكيميائية وأنشأوا المؤسسات التي نسميها اليوم بالعيادات الخارجيـة، وشيـدوا في كل مدينة مستشفيات عامة سموها «دار الشفاء» أو «مارستان» (مختصر بمارستان).

وأنشأ العرب كذلك حدائق نظامية لدراسة علم النبات والأعشاب في بغداد وغيرها من المدن، وفيها كان أشهر العلماء يلقون محاضراتهم على الطلاب. والحركة العقلية نفسها التي أدت في مطلــع القرن التاسع إلى تطور العلوم والفنون ذلك التطور السريع هي التي ولّدت تلك التـآليف في الجغرافية والأسفار، ويعتبر مسلم بن حمير (سنة ٨٤٥ م)، وجعفر ابن أحمد المروي، وابن فضلان، وابن خرداذبـــة (الذي عـاش في زمن المعتضد وتوفي حوالى سنـة ٩١٢ م)، وجيهاني، والمسعودي،

والأصطخري (الذي عاش حوالى سنة ٥٩١م) ، وابن حوقل (الذي توفي حوالى سنة ٩٧٦م) والبيروني (الذي توفي في غزنة سنة ١٠٣٨م) ، وياقوت (مؤلف معجم البلدان وقد ولد سنة ١١٧٥م وتوفي سنة ١٢٢٩م) ، والبكري ، والمقدسي والادريسي أشهر جغرافيي العرب .

وقد زار البيروني[1] الهند وعاش بين أهلها الهنود ودرس لغتهم وعلومهم وفلسفتهم وأدبهم وعاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم ودينهم وخرافاتهم وأحوال بلادهم الجغرافية والطبيعية ثم جمع ملاحظاته في كتاب ضمنه مقتطفات من هوميروس وافلاطون . وإلى جانب كتابه العظيم عن الهند كانت له تآليف أخرى في علم الفلك والرياضيات والجغرافية الطبيعية وعلم التواريخ وتسلسلها والفيزياء والكيمياء .

وبعد البيروني بزمن قصير لمع نجم الأديب والرحالة النابغة ناصري خسرو الذي ولد في قرية تدعى كوبديان وعاش في مرو وتركها في سنة ١٠٤٦م في رحلته الشهيرة فزار نيسابور وقُم وتبريز وخلاط وحلب والشام ومنها زار صور وصيدا وبيروت والقدس حتى وصل إلى مصر فالحرمين فالأحساء فالبصرة ثم عاد منها إلى بلخ ، ويعتبر كتابه المسمى بالسفرنامة من أطرف كتب الأسفار في جميع لغات العالم .

التاريخ

كان التاريخ يشتمل وقتئذ على علم الآثار والسلالات البشرية وخصائصها ، وقد انصرف كبار رجال الفكر إلى هذا الفرع من الدراسات الأخاذة ، وكان منهم البلاذري الذي توفي سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) وولد في بغداد حيث عاش ووضع تآليفه ومنها « فتوح البلدان » الذي كتبه بأسلوب بارع محبب .

---

١ كان ابو ريحان محمد بن احمد من اهالي خوارزم ، وذاع صيته في عهد محمود ملك غزنة .

اما الهمذاني الذي لمع نجمه في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة فقد قدّم للعالم تاريخاً شاملاً لجنوب جزيرة العرب فصّل فيه أحوال قبائله ووصف جغرافية اليمن وبحث في سلالة سكانها . إلا أن نشاط العرب الفكري الكامل في هذه الفترة يبدو أوضح ما يكون في التآليف العظيمة التي وضعها المسعودي والطبري وابن الأثير الذين نبغوا، شأن من خلَفَهم ، في وضع الموسوعات والمصنفات الفلسفية والرياضية والجغرافية والتاريخية أيضاً . وقد كان المسعودي من أهالي بغداد . ومن سلالة عربية تنتسب الى قبيلة من قبائل الشمال ، وكان كثير الأسفار في شبابه مما أتاح له رؤيــة القسم الأعظم من العالم الاسلامي . وقد زار المسعودي الهند أولاً ثم مولتان فالمنصورة ففارس فكرمان ، ثم عاد الى الهند وبقي ردحاً من الزمن في كمباجة والدكن ، ثم سافر الى جزيرة سيلان ومنها أبحر إلى كمبالو (مدغشقر) ، ثم الى عُمان ولعله وصل حتى الى شبه جزيرة الهند الصينية وبلاد الصين ، وكان قد توغل في آسية الوسطى ووصل الى بحر قزوين . وفي ختام رحلاته أقام حيناً من الدهر في طبرية وانطاكية ثم في البصرة حيث نشر كتابه الشهير المسمّى « مروج الذهب » . ثم انتقل الى الفسطاط (القاهرة القديمة) حيث نشر كتابه « التنبيه » ثم « مرآة الزمان » وهو كتاب ضخم لم يبق إلا جزء منه . وفي كتاب « مروج الذهب » يروي المسعودي اختباراته الكثيرة في الحياة بأسلوب شيق محبب يستدل منه على أن صاحبه قد رأى أقطاراً مختلفة وخبر الحياة من جميع وجوهها .

أما الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ، الذي توفي في بغداد في سنة ٩٢٢ م ، فقد رتب كتابه حسب السنين ووصل في سرده حتى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) .

وأما ابن الأثير الملقب بعز الدين فقد كان من أهالي جزيرة ابن عمر في العراق ولكنه كان يقيم في معظم الأحيان في جوار الموصل حيث

كانت داره الجميلة محجة أعظم علماء ذلك العصر . أما تاريخه العـــام المعروف بـ « الكامل » والذي ينتهي الى العام ١٢٣١ م فيمكن أن يقارَن بأفضل تآليف أوروبة الحديثـــة ، وله أيضاً كتاب في تاريخ اتابكة الموصل .

علم الفلك

وقد برع العرب في كل فرع من فروع العلوم الدقيقـة المحكمة ، فاشتهر « ما شاء الله » و « أحمد بن محمد النهاوندي » ، أقدم فلكيي العرب ، في عهد المنصور . وفي عهد المأمون تألق نجم فلكيين مشهورين أمثال « سند بن علي » و « يحيى بن أبي منصور » و « خـالد بن عبد الملك » . وقد أضافت ملاحظاتهم في الخسوف والكسوف والاعتدال الشمسي وشبح المذنبات وغيرهـــا من الظواهر الفلكية الشيء الكثير الى المعرفة الانسانية .

وقد ترجم محمد بن موسى الخوارزمي ، بأمر من المأمون ، كتاب السيدهنتا ، أو الجداول الهندية ، ووضع ملاحظاته عليها،وألف الكندي مئتي كتاب في مختلف الموضوعات ، كالحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية والبصريات والطب . أما أبو معشر البلخي فقد انصرف إلى دراسة الظواهر الفلكية ، وما زال حسابه المشهور باسمه من المصادر الرئيسية للعلوم الفلكية . وكان « موسى بن شاكر » مهندساً عظيماً في عهد الرشيد ، ولكن أولاده الذين نبغوا في أيام المأمون والمعتصم والواثق انصرفوا بكليتهم إلى عــلم الفلك وقاموا باكتشافات عظيمة من حيث حركـــة الشمس وبعض الكواكب الأخرى وتحققوا من حجم الأرض وانحراف سمت الشمس . أما أبو الحسن فقد اخترع التلسكوب (آلـــة الرصد) الذي يصفه بأنه « انبوب مثبتة في طرفيه عدسات » ، وواصل « النايزيري » و « محمد بن عيسى أبو عبدالله » أبحاث أبناء شاكر .

وكان « البتاني » فلكياً آخر مشهوراً ترجمت جداوله الفلكية إلى اللغة اللاتينية وظلت أساس علم الفلك في اوروبة لعدة قرون .

وكان من جملة الفلكيين العديدين الذين عاشوا وألفوا في بغداد في نهاية القرن العاشر « علي بن اماجور » و « أبو الحسن علي بن اماجور » المعروفان بـ « بني اماجور » ، وقد اشتهرا باحتساب حركات القمر .

وفي أيام « آل بويه » لمع نجم عدد من الفلكيين والعلماء الطبيعيين والرياضيين نكتفي بتسمية اثنين منهم وهما « الكوهي » و « أبو الوفاء ». وقد درس أولهما حركات الكواكب ؛ أما أبو الوفاء فقد ولد سنة ٩٣٩م في خراسان وجاء إلى العــراق سنــة ٩٥٩ م حيث انصرف إلى دراسة الرياضيات والفلك وابتكر الخط المماس المستعمل في حساب المثلثات والرصد الفلكي .

ومن الفلكيين المشهورين ابن يونس وابن النابـدي والحسن بن الهيثم والشاعر العظيم عمر الخيام .

الفلسفة

وقد برع العرب في الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة أيضاً ، وأشهر الفلاسفة العرب الكندي والفارابـي وأبو علي بن سينا .

المذاهب

تعددت المذاهب في هذا العصر ، ولكن المذهب الحنفي أو الأشعري كان المذهب الرسمي للدولة . غير أن الحنابلة كانوا يتغلبون عــلى علماء الحنفية إذ كانوا يميلون إلى الصخب والشغب وكانت لهم سلطة قوية على رعاع بغداد . وكان المذهب الشافعي ينتشر بـين المتعلمــين ، واعتنقه الكثيرون من أهل الشام وثغور فينيقية . ومن أظهر خصائص التاريــخ الديني الفلسفي في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) انتعاش

المذهب العقلي انتعاشاً كبيراً ، ولعل ذلك كان يعود إلى تآليف المفكرين من أمثال المسعودي والزمخشري والفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي .

المعتزلة

حاول رجال المعتزلة أن يوفقوا بين العقيدة والعقل ، وبين الدين والفلسفة ، فاستهووا ، بطبيعة الحال ، أصحاب العقول المستنيرة ، وهكذا أقبل الكثيرون من أتباع المذهب الحنفي ، الذين كانوا يتمسكون بمذهبهم متأثرين ببعض النقاط المذهبية العادية ، على اعتناق آراء المعتزلة في المسائل الفلسفية . وبالرغم من ذلك فقد كان الاتجاه العام نحو الرجعية ، وبخاصة في أواخر ذلك القرن .

جمعية اخوان الصفاء

في هذه الفترة الدقيقة تألفت أول جمعية لنشر المعرفة ، فقد رأى بعض المفكرين ، المهتمين اهتماماً جدياً في تجديد الاسلام ، ان علماء الدين قد تمسكوا بالقشور دون اللباب ، وان الأغنياء قد انهمكوا في اللذات والشهوات ، وان الفقراء قد ترددوا في تعصبهم الأعمى ، فألفوا جمعية سرية لاصلاح الناس ووقف تردي المسلمين في الجهالة والتعصب ، وأطلقوا عليها اسم « اخوان الصفاء » ، وكان تأليفها في البصرة ، وشروط الانتماء اليها ان يكون العضو ذا أخلاق متينة وسيرة حسنة . وكان الأعضاء يعقدون اجتماعاتهم بهدوء في منزل رئيس الجمعية « زيد بن رفاعة » ويبحثون الموضوعات الفلسفية والأخلاقية بروح طيبة وصدر رحب . وقد أسسوا فروعاً للجمعية في كل مدينة من مدن الخلافة ، وفي كل مكان استطاعوا أن يجدوا فيه نخبة من المفكرين الراغبين في العمل بمقتضى طريقتهم العلمية والمؤهلين لذلك . وكان نظامهم نظاماً صوفياً بأسمى وأصح معنى للكلمة ، وكانت آراؤهم في المشاكل الاجتماعية والسياسية عملية

وانسانية إلى أقصى الحدود ، وبنتيجة جهودهم قدموا للعالم ملخصاً عاماً لعلوم العصر في رسائل مستقلة عرفت برسائل اخوان الصفاء وتضمنت شتى العلوم كالرياضيات ، بما فيها علم الفلك والجغرافية الطبيعية ، والموسيقى والميكانيكيات ، والفيزياء ، بما فيها الكيمياء وعلم النجوم والجيولوجيا ، والبيولوجيا والفسيولوجيا وعلم النبات والحيوان والمنطق وقواعد اللغة والأخلاق والبعث والنشور . وخلاصة القول انهم ألفوا موسوعة شعبية تحوي سائر أنواع العلوم والفلسفة المعروفة في ذلك العصر.

التدهور النهائي

وهكذا فعندما تألق نجم ابن سينا في الأفق كانت الطريق ممهدة لقبول مفاهيمه الراقية في علم الاجتماع والعلوم المشابهة . وفي أوائل القرن الحادي عشر كانت تلوح في الأفق تباشير النهضة في العالم الاسلامي ، غير ان الصراع الذي ألفى المسلمون أنفسهم منهمكين فيه عندما غزت القوات الصليبية أرضهم حوّل طاقتهم إلى موضوع واحد : المحافظة على النفس، ولم تكد انتصارات زنكي ونور الدين وصلاح الدين تنقذهم من أخطار غزو الفرنج حتى هبت عاصفة التتر التي اكتسحت أمامها كل مدنية المشرق وثقافته .

الفصل السادس والعشرون

العرب في اسبانية ـ الأمويون
١٣٨ ـ ٣٠٠هـ ؛ ٧٥٦ ـ ٩١٢م

عبد الرحمن الأول (الداخـــل) ـ هشام ـ الحـــكم ـ عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ـ محمد ـ المنذر ـ عبدالله

عبور عبد الرحمن الى الاندلس ـ موقعة المصعرة ـ ثورة الاشراف ـ دسائس الفرنج ـ غزوة شرلمان ـ موقعة رونج فال ـ وفاة عبد الرحمن ـ هشام الاول ـ الحروب مع الفرنج والقبائل المسيحية ـ المذهب المالكي ـ وفاة هشام ـ الحكم الاول ـ اخلاقه ـ سخط الفقهاء عليه ـ ثورة قرطبة ـ قمعها ـ نفي الثوار ـ طليطلة ـ وفاة الحكم ـ عبد الرحمن الثاني ـ عهده المزدهر ـ غارات القبائل المسيحية ـ استسلامها ـ ظهور النورمان ـ فتنة النصارى في قرطبة ـ وفاة عبد الرحمن الثاني ـ تولية محمد ـ اخلاقه ـ قمع فتنة النصارى ـ ثورة النورمان ـ هزيمتهم ـ الثورات ـ وفاة محمد ـ المنذر ـ وفاته ـ ولاية عبدالله ـ عهده المضطرب ـ وفاته ـ دخـــول العـــرب الى سافوا وبيدمون وسويسرة ٠

عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل

لم تكد تنقضي ست سنوات على موقعة الزاب حتى انبثقت دولة أموية جديدة في الغرب ، فقد كان بين من نجوا من انتقام السفاح حفيد لهشام يدعى عبد الرحمن . ويؤلف فراره من الشام الى موريتانيا ونزوله بين البرابرة المضيافين قصة رومانطيقية مليئة بمـا يحرك العواطف ويثير الاعجاب . وفي ابان مقامه بين أولئك البرابرة لم يستطع أن يقاوم طموحه إلى الاستيلاء على تلك البلاد التي كانت فيما مضى ملكاً لأسلافه ، ولما عزم على امتلاكها أرسل رسولاً يثق به لجمع كلمة أنصار بني أميـة ومساعدته على الاستيلاء على السلطة ، فقابلوا دعوته بحماس عظيم ودعوه إلى الحضور بنفسه . وفي شهر أيلول (سبتمبر) من سنـة ٧٥٥ م عبر هذا الأمير الشاب شواطىء اسبانية ونزل في مكان يـدعى « المنكب » فأسرع اليمانيون ، الذين كانوا يرزحون تحت وطأة منافسيهم المضريين ، إلى الانضواء تحت لوائه ، وبذلك تمكن سريعاً من منازلة الحاكم يوسف، الذي كان يحكم شبه الجزيرة كملك مستقل ، وان كان تابعـاً للخليفة بصورة إسمية . وقد دارت المعركة التي آلت بعبد الرحمن إلى العرش في مكان يعرف بالمصعرة ، وكانت لا تقل شأناً عن معركة مرج راهط ، فدارت الدائرة على يوسف واضطر إلى التسليم،ولكنه عاد في سنة ١٤١هـ وحاول القيام بثورة فشلت وأفقدته حياته .

لقد حقق الأمير الطريد الآن أمنيته ، وأصبح سيداً لمملكة ، غـير انه لم يتمكن من التمتع بسلام بما كسبه بمقدرته وهمته ، ذلك ان رؤساء القبائل العرب كرهوا ـ كعادتهم ـ الخضوع لحـكم شخصي ، وكان البربر يشاطرونهم في شعورهم هذا ، وكان كل من الجنسين ، بميوله الجمهورية ، يميل إلى تقسيم اسبانية العربية إلى امارات صغيرة حرة في ان يحارب بعضها بعضاً ، وان تتحد عندما يداهمها الخطر لـرد غاراتر

نصارى الشمال .

ونظراً لهذا الشعور فقد ذهبت مساعي عبد الرحمن لاقرار الأمن والنظام والتآلف أدراج الرياح ، إذ قاومها الاشراف الذين كانوا يثورون به دائماً ، ونال ثوار العرب ، شأن المسيحيين في ليون وكتالونيا ونافارا مساعدة « ببين القصير » ومن بعده ابنه شارلمان ، فقد كانت سياسة هذين الحاكمين تهدف إلى تأييد كل محاولات الحكام العرب الاستقلال عن ملك قرطبة ، وكثيراً ما كانت ثورات هؤلاء بناء على تحريض ملوك الفرنج ، ولكن عبد الرحمن تصدى لهذه الثورات بهمة لا تضاهى. ولما وجد نفسه مرغماً على القتال باستمرار من أجل مملكته ولاقرار الأمن والنظام اتبع سياسة قد لا تروق في أعيننا لبعدها عن المروءة والاستقامة، ولكنها كانت سياسة تلائم الظروف التي فُرضت عليه فرضاً ، إذ كان الصراع وقتئذ بين الاقطاعية والملكية . ولحسن حظ عبد الرحمن لم يكن هناك اتحاد بين رؤساء القبائل العربية . كانوا يشعرون بأن على النبلاء كلهم أن يتحدوا إذا أرادوا أن يقهروا الأمير ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يعملون يداً واحدة ، وفي خلال بضع سنوات أزاح الأمير الأموي جميع أعدائه من طريقه ، وقضى على الثوار ، وأصبح صاحب الكلمة العليا ، غير ان سلطانه كان يعتمد على الجنود المرتزقة ، ولم يعد ذلك الملك المحبوب ، ذلك البطل الشاب الذي جاء إلى الأندلس واستُقبل ذلك الاستقبال الحماسي المنقطع النظير ،ولم يعد باستطاعته أيضاً أن يتجول في شوارع قرطبة دونما حرس ، بل أصبح من المحتّم عليه الآن أن يحيط نفسه برهط منهم وقاية لها من انتقام أولئك الذين نالوا على يديه الهزيمة .

وفيما كان عبد الرحمن منهمكاً في إخضاع النبلاء الثائرين كان مسلمو الأندلس يتعرضون لغارات فظيعة من جيرانهم المسيحيين الذين أحرقوا مدنهم ومنازلهم وخربوا حقولهم وأعملوا في رقابهم السيوف وأسروا من

بقي منهم حياً . وفي ابان هذه الفترة التي سادت فيهـــا الفوضى وعم البلاء فقد المسلمون جزءاً كبــيراً من ممتلكاتهم الشمالية ، فقد استولى « فرويلة »[1] ابن الفونسو (الاذفنوش) على لوكو (للك) ، واوبورتو ، وشلمنقة ، وقسطيلة ، وزامورا (سمورة) وسيكوفيا (سيقوبيا) .

وفي سنة ٧٧٧ م هرب أحد الخارجين[2] الكثيرين على عبد الرحمن عبر جبال البرنيه مستنجداً بشارلمان[3] . ولم يجد أمبراطور الفرنج أفضل من تلك السانحة لتوسيع سلطانه ، واعتقد ان الفرصة مؤاتية لاستيلائه عـــلى الأندلس . ولذلك حشد جيشاً عظيماً عبر به الجبال مكتسحاً كل شيء أمامـــه حتى وصل إلى أسوار سرقسطة ، فدافع عنها حسين بن يحي الانصاري ، من أحفاد سعد بن عبيدة ، وأنزل بشارلمان هزيمة منكرة. وإذ شم شارلمان رائحة الخيانة فقد قبض على ابن يقضان وقفـل راجعاً الى بلاده . وفيما كان يعبر جبال البرنيه هاجم مؤخرته مطروح وعيشون ابنا سليمان فمزقاهـــا شر ممزق وقتلوا نخبة من أفضل رجال شارلمان[4] ، وبعد ذلك عقدت معاهدة صلح بين شارلمان وعبد الرحمن .

وهكذا توطدت سلطة الأمير الأموي في وطنه الجديد،ومع ان حكمه ظلت تشوبه الفتن والدسائس ، حتى من أفراد أسرته نفسها . فقد تكلل بالنجاح والفوز . وقد توفي عبد الرحمن في سنة ١٧٣ هـ[5] ، وكانت مدة حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة . ومع أنه كثيراً ما لجأ الى تدابير قاسية شديدة لقمع الثورات التي كانت تنشب ضـــد حكمه فقد كان بطبيعته لين

---

١ ــ ويسميه ابن الاثير « تدفيليا » .

٢ ــ سليمان بن يقضان الكلبي .

٣ ــ ويسميه ابن الاثير « فارلة » .

٤ ــ ابن الاثير ، المجلد السادس ، ص ٨ .

٥ ــ يقول ابن الاثير ان وفاته كانت سنة ١٧١ هـ .

العريكة رقيق الحاشية مولعاً بالآداب والفنون ، ويصفه ابن الأثير بأنه « طويل القامة، نحيف القوام ، حاد الخلق ، عالي الهمة ، ذكي الفهم، وافر النشاط والكرم ، وبعد النظر ، آية في الصراحة وحرية القول ، وكان يقاسُ بالمنصور في حزمه وضبط المملكة » . وقد جمل عبد الرحمن قرطبة بالمباني الفخمة والحدائق الغناء ، وشرع في بناء مسجد جامع وتوفي قبل اتمامه . ومع أن عبد الرحمن أوقف الدعاء في الخطبة للخليفة العباسي المنصور فانه لم يتخذ أبداً لقب أمير المؤمنين « احتراماً لكرسي الخلافة التي كانت ما تزالُ مهد الاسلام ومجمع القبائل العربية »[1] واكتفى بلقب الأمير .

تولية هشام

وقد خلف عبد الرحمن ابنه هشام « وكان حازماً ، ذا رأي وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصلاح ، شديداً على الأعداء راغباً في الجهاد »[2] . « وفي الواقع كان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز »[3] . وكان يرتدي الملابس العادية ويجوب شوارع قرطبة ويختلط بالناس يسمع مظالمهم وشكاواهم ، وكثيراً ما كان يعود المرضى ويزور الفقراء في بيوتهم ، ويخرج في الليالي الباردة الممطرة لاغاثة الملهوف والبائس ، وكان في الوقت نفسه حازماً قوياً ، فقد قمع الفتن بيد من حديد ولم يترك مخالفة دونما عقاب ، فازدهرت أحوال الناس في ايامه . وقد أعاد هشام بناء الجسر الذي كان السمح بن مالك قد شيّده ، وأتم بناء المسجد الجامع الذي كان أبوه قد شرع فيه ، وجمّل مدن مملكته بالمباني العامة الفخمة .

---

١ ـ المقري . ويقول المسعودي ان بني امية في الاندلس لم يتخذوا لقب امير المؤمنين طالما بقيت المدن المقدسة في يد العباسيين .

٢ ـ دوزي .

٣ ـ ابن الاثير ج ٦ ص ١٠٢ .

ولكن حزمه ولين عريكته لم يمنعا الأمراء من الخروج عليه ، وكان عليه منذ توليته أن يقمع ثورة قام بها اخوته أنفسهم . وبعد أن تم له اخضاعهم زحف على الابرو لقمع ثورة مطروح بن سليمان بن يقضان الذي كان قد دعا شارلمان إلى دخول الأندلس ، فقتل الثائر وعادت سرقسطة وبرشلونة إلى الاعتراف بسلطانه .

وقد مكنته اعادة السلام في ربوعه من تحويل اهتمامه إلى الشمال ، وكان القضاء على قبائل الحدود المسيحية قد أصبح أمراً بالغ الأهمية والحيوية ، ذلك ان غاراتهم كانت متواصلة فظيعة . كانوا يحرقون ويفتكون ويخربون حيثما ذهبوا ، وكان ذلك الصراع ، شأنه الآن ، صراعاً بين المدنية والبربرية . ولسوء الطالع كان حملة مشعل المدنية يتعرضون لأذى الفتن الداخلية ، بينما كان عملاء البربرية يتلقون المساعدات المتواصلة من الخارج . وقد اعتبر هشام أن عليه أن يلقن درساً للفرنج الذين اتبع امراؤهم حتى ذلك الحين سياسة عدائية ازاء اسبانية العربية ، وشجعوا أهلها على الثورات والفتن . ولهذه الغاية جهز هشام جيشين سار أحدهما إلى فرنسة مخترقاً كتالونيا ، فعبر سردانية واستولى على اربونة وعدة أماكن أخرى، وانزل على ضفاف نهر الاوربينا في مكان يعرف بفيلدين ، هزيمة منكرة بجيوش الكونت طولوز الذي كان يحمي سبتمانية لحساب ابن شارلمان . أما الجيش الثاني فقد انتصر انتصارات مماثلة ، إذ سار إلى جليقية وقضى على ثوارها الذين التحقوا برئيسهم برمودة وأجبرهم على طلب الصلح .

المذهب المالكي

وكان هشام يكنّ احتراماً عميقاً للامام مالك ، مؤسس أحد مذاهب السنة الأربعة ، ولذلك بذل قصارى جهده لنشر المذهب المالكي في الأندلس.

وقد أصبح المذهب المالكي منذ ذلك الحين المذهب الرسمي للاندلس ، ولذلك قوي نفوذ الفقهاء الذين كانوا يجمعون إلى الفقه مناصب القضاء الشرعي ، والذين كان الخليفة الورع هشام يكنّ لهم احتراماً عظيماً ، وأصبحت لهم سلطة عظيمة على الناس والدولة .

وفاة هشام وتولية الحكَم الملقب بالمنتصر

وتوفي هشام في سنة ١٨٠هـ فخلفه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر، ويصفه ابن الأثير بأنه كان « صارماً حازماً ، وهو أول من أظهر فخامة الملك وأسرف في تأييد هيبته » . ومع ذلك فقد تعرض حكمه للاضطرابات والفتن الداخلية بصورة متواصلة . ولم تتفق ميوله مع حياة التنسك التي أرادها له رجال الدين ، فقد كان بطبيعته ميالاً إلى المرح واللهو مولعاً بالصيد ويؤثر مجالس الشعراء والمغنين والفلاسفة على مجالس الفقهاء والعلماء مما جلب عليه سخط الفقهاء . غير أنه كان ثمة أسباب أخرى وأقوى لهذا السخط ، ذلك أن نفوذ الفقهاء كان قد قوي في أيام هشام إلى حد بعيد كما ذكرنا ، بينما كانت سياسة الحكم ترمي إلى اقصائهم عن أيما تدخل في شؤون الدولة بالرغم من أنه لم يتأخر قط عن معاملتهم باحترام وتقدير أو عن تنفيذ الأحكام التي كانت تصدر عن محاكمهم . ولكن خيبة أملهم في ممارسة نفوذهم ، وكبرياءهم الدينية ، جعلتاهم يلجأون إلى الشغب ، فأخذوا يذمون الأمير من على المنابر ويتهمونه بالكفر والزندقة ، ويبتهلون إلى الله أن يهديه الصراط المستقيم . وقد حاولوا بهذه الطريقة أن يذكوا تعصب المسلمين الاسبان الذين كان لهم نفوذ عظيم لا حدّ له . وكان القسم الأعظم من سكان شبه الجزيرة من الذين اعتنقوا الاسلام ، وكان هؤلاء في المدن الرئيسية ، كقرطبة واشبيلية وطليطلة ومدريد ، ينتمون إلى أكبر الأسر ، وكانت المصاهرة شائعة بين العرب والبربر ، من جهة ، وبين الاسبانيين ، المسلمين منهم والنصارى ، من

جهة أخرى،وكان نسلُ هؤلاء يسمون بالمولدين . وكان العرب الأصليون ينظرون نظرة احتقـــار الى هؤلاء المولدين ، وحاولوا ، كما فعلوا في فارس في العهد الأموي ، أن يقصوهم عن المناصب العليا في الدولة ، وكانت نتيجة ذلك أنهم نشأوا على كره العرب والبربر معاً . وقد ثار الاسبان المسلمون المرة تلو الأخرى على تسلّط العرب ، وبدلاً من أن يعمل الفقهاء ، عـلى تهدئة هذه الفروق العنصرية أخذوا ينحازون إلى سكان البلاد الأصليين ويشجعونهم على عصيانهم الأمير .

وفيما كانت هذه الشرور تولّد الأضرار والأذى في الأندلس ثار الحكم وسليمان ، عمّا الحكم ، مرة أخرى ، بعد أن كان هشام قد عفا عنهما ، فسار عبدالله إلى شارلمـــان في اكس لاشابيل يطلب مؤازرة ذلك الملك الطموح الدسّاس ، وتمكن بمساعدة الفرنج من الاستيلاء على طليطلة ، بينما استولى سليمان على بلنسية . وفي الوقت نفسه زحف لويس وشارل ، ابنا شارلمان ، على الولايات الشمالية فأعملا السيف في رقاب أهلها وأشعلا النار في منازلهم ، كما أغار الفونسو ، أمير جليقية،على ولاية أراغون . في هذه الظروف الدقيقة أظهر الحكمُ نشاطاً عظيماً ، ذلك أنه ترك قوة صغيرة من جيشه لحراسة طليطلـــة ، ثم زحف على الجليقيين فهزمهم ودمّر بلادهم ، وانقلب من بعـــدُ على الفرنج فأجلاهم الى ما وراء البرنيه . وبعد هذه الانتصارات عاد الحكمُ الى طليطلة حيث نشبت معركة بينه وبين سليمان قتل فيها هذا الأخير ، بينما استسلم عبدالله فعفا عنه .

وفيما كان الحكم منصرفاً الى قتال عمّيه استولى الفرنج على برشلونة ، ويعود السبب الرئيسي في ضياع هـــذه البلدة المهمة الى خيانة حاكمها الذي كان قد دعا الفرنج الى مساعدته أملاً في أن ينصبه شارلمان ملكاً مستقلاً عليها . وهكذا فـــاز شارلمان بحصن قوي في اسبانية ، فقويت شوكته ، وانقسمت ممتلكاته الاسبانية الى ولايتين : الأولى تشمل كتالونيا

وعاصمتها برشلونة ، والثانيـــة تشمل غسقونية والمدن الفرنجية في نافارا وأراغون ، غير أن ولاية غسقونيـــة لم تلبث أن سقطت مرة أخرى في أيدي الحكم سنة ٨٠٩ م .

وفي سنة ٨٠٥ م نشبت الفتن في قرطبة فعالجها الحكم باللين والرأفة . وفي السنة التالية ، بينما كان الحكم منهمكاً في اخماد ثورة أهالي «ماردة» ، ثار أهالي قرطبة كرة أخرى ، وعندئذ أسرع بالعودة إلى العاصمة ، وفي هذه المرة قمع الثورة بشدة وقسوة ، ممـــا زاد في النقمة عليه . وفي سنة ٨٠٧ م . استولى لدوغ بن شارلمان على طرطوشة ، ولكن عبد الرحمن ابن الحكم خلصها منه وقام هو نفسه سنة ٨١١ م بحملة على الفرنج فانتصر عليهم انتصاراً باهراً .

لم ينسَ أهالي طليطلة قط أن مدينتهم كانت فيما مضى عاصمة اسبانية ، وظلت ذكرى مجدهم القديم تضطرم في أفئدتهم وتزيد في عدائهم للعرب : واذ كانوا يعتزون بثروتهم وكثرتهم فقد أبوا اطاعة أوامر الملك ، ورفضوا الاعتراف بسلطة أي حاكم لا يروق لهم . وقـــد ثاروا للمرة الأولى في سنة ١٨١ هـ فأخمدت ثورتهم ، بسهولة ويسر ، على يد « عمروس بن يوسف » ، أحد المولدين ، فانحاز اليه بعض أعيان المدينة ، وبمساعدتهم استطاع أن يحمل أهلهـــا على الاعتراف بسلطة الملك . غير أنهم ثاروا كرة أخرى بعد عشر سنوات ، فلم يرَ الملك وسيلة لاخضاعهم ، بعد أن استنفـــد جميع الطرق السلمية لاقناعهم ، إلا أن يعين « عمروس » حاكماً عليهم للمرة الثانية ، وكان عمروس وقتئذ قائد الولاية الشمالية ، فارتضى أهل طليطلة هذا التعيين لأنهم كانوا يعتقدون بأنه عدوّ للملك . وقد ذهبوا إلى حد انهم سمحوا له بأن يبني داخل المدينـــة قلعة حصينة دعا اليها ذات يوم وجهاء المدينة وأفناهم عن بكرة أبيهم ، ولمـا ألفى الناس ان زعماءهم قـــد قتلوا أخلدوا إلى السكون طيلة السنوات السبع التالية .

ثورة قرطبة

وفي سنة ٨١٣م بلغت ثورة القرطبيين ذروتها ، ففي ذات يوم بلغت الحماقة بأحد العامة ان أهان الأمير في المسجد وهدده وجهاً لوجه ، وقد أدى العقاب العادل الذي انزل به إلى هياج عظيم في ضاحية قرطبة المسماة « شقوندة » ، فحاصرت الجماهير الملك في قصره ، وتفاقم الخطر ، ولكن الحكم واجه غضبة الشعب بما عرف عنه من همة وحضور بديهة ، فتمكن من صد الثائرين ، وقتل زعماءهم ، وأمر بنفي من بقي منهم حياً ، فعبر بعضهم إلى فاس ، وقصد معظمهم إلى الاسكندرية وأبحروا منها إلى كريت فافتتحوها وظلوا قابضين عليها إلى أن استعادها اليونان منهم . وفي سنة ٨١٦م عقدت معاهدة صلح بين ابن شارلمان وخليفته وبين الحكم ، ولكنها لم تدم طويلاً .

وفاة الحكَم وتولية عبد الرحمن الثاني (الأوسط)

وفي شهر ذي الحجة من سنة ٢٠٦ه (نوار سنة ٨٢٢م) توفي الحكم وكانت مدة حكمه ٢٦ سنة ، فخلفه ابنه عبد الرحمن الملقب بالأوسط . ويقول المؤرخ العربي : « ان في عهده ساد الأمن في الولايات الأندلسية ، وحسنت حالة الرعية ، وكثر الخراج » . وكان ميالاً للآداب والفنون ، مولعاً بمجالس العلماء والأدباء . وفي عهده انتشر حب الموسيقى بين طبقات الشعب وأصبح فيما بعد من مميزات الأندلسيين العرب الوطنية . وقد فاق عبد الرحمن الثاني جميع أسلافه من حيث فخامة بلاطه وعظمته ورونقه ، وفي عهده أشرقت شمس الثقافة العربية ، وتجلى جمال الأخلاق العربية وظرفها ورقة شمائلها ، ذلك الجمال الذي حاول فرسان النصرانية منذ ذلك الحين أن يقتبسوه ويقلدوه .

وما أن تولى عبد الرحمن الحُكْمَ حتى أغار أمير ليون ، الفونسو الثاني ، على مدينة سالم ، في أراغون ، واقتفت أثره بعض القبائل المسيحية الأخرى وأغارت على الأراضي الاسلامية . وعندئذ سيّر عبد الرحمن جيشاً كبيراً لتأديبهم ، فأنزل بهم هزيمة منكرة ودمر أبراجهم ومعاقلهم وخرّب مدينة ليون نفسها ، ولدى استسلامهم اشترط عليهم عبد الرحمن أن يدفعوا غرامة باهظة علاوة على الجزية المعينة ، وأن يطلقوا سراح أسراهم المسلمين ،وان يقدموا رهائن لكفالة حسن سلوكهم في المستقبل .

وكان الفرنسج قد حاولوا أيضاً الافادة من تلك الفرصة فاقتحموا بالحديد والنار أجزاء كتالونيا التي كانت في أيدي العرب ، ولكن عبد الرحمن بعث اليهم بجيش لجب أوقع بهم هزيمة نكراء وأجلاهم إلى ما وراء الحدود .

اول ظهور النورمان

في عهد عبد الرحمن ظهر النورمان (ويسميهم العرب بالمجوس) على سواحل اسبانية ، وعاثوا فساداً في مواضع عدة بالقرب من البحر ، ولكنهم ما لبثوا أن لاذوا بالفرار لدى اقتراب جيش ملك قرطبة وأسطوله . وبتحريض من لويس ملك فرنسا ثار مسيحيو «ماردة» مراراً عديدة ، ولكن إخضاعهم كان يتم بسهولة ويسر . وقد قامت ثورة جديدة في طليطلة اشترك فيها المسيحيون واليهود ، ولكنها سُحقت في سنة ٨٣٧م .

وفي أواخر حكم عبد الرحمن اشتد تعصب نصارى قرطبة إلى درجة خطيرة جداً ، وكاد يؤدي بهم إلى الثورة . ولم يكن للنصارى بوجه عام ، وبخاصة المتنورين في العاصمة وغيرها ، سبب للشكوى والتذمر في

عهد العرب ، بل لقــد توفرت جميع العناصر التي توجب ارتضاءهم لمصيرهم ، إذ لم يكن هناك ما يكدر عليهم صفو عيشهم ، أو يمنعهم من اقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة ، أو من اتباع شرائعهم ، وكثير منهم حاربوا مع المسلمين ، وكانت أعــلى المناصب المدنيـة والعسكرية مشرعة الأبواب في وجوههم على قدم المساواة مع الطبقات الحاكمـة ؛ وكانوا يوفَدون بأعداد كبيرة بمهات إلى البلدان الأجنبية ، وكان الامراء المسلمون يستغلون مواهبهم في ادارة مزارعهم . وقد بهرت روعة الآداب العربية الطبقة المثقفة منهم ، فأخذوا يتكلمون ويؤلفون بلغـة الفاتحين ، واقتبسوا أيضاً عادات العرب وتقاليدهم . ولكن هؤلاء المسيحين المستعربين تعرضوا لكراهية اخوانهم المتعصبين الذين اتهموهم بالكفر والضـــلال . يقول كاتب مسيحي معـــاصر : « كان هؤلاء يبغضون المسلمين بغضاً غرزياً ، ويحملون أفكاراً خاطئة عن محمد وتعاليمه . ولما كانوا يعيشون في وسط العرب فلم يكن أسهل عليهم من تثقيف أنفسهم في هذا الموضوع ولكنهم أبوا باصرار وعناد أن ينهلوا من المصادر التي كانت في متناول ايديهم ، وقنعوا بتصديق كل تلك الخرافات السخيفة التي كانوا يرددونها ويروونها عن نبي مكة »[1] . ولكنهم لم يكونوا يبغضون دين العرب ، فحسب ، بل كانوا يكرهون كرهاً شديداً رقة الجنس الحاكم وعاداتـــه المصقولة . وقد قوى هــذا الكره الذي ولدته تلك الأسباب ما كانوا يعانونه على أيدي عامة أهل قرطبة من الاساءات التي تنزلها المدن الحديثة بالغرباء والأجانب ، فتحول حماسهم الديني في عهد عبد الرحمن الى هياج وشغب « وأضحوا في قلل الجبال لصوصاً وسفاكين ، وفي العاصمة شهداء وقديسين » ، وجاهروا بالاجتراء على مقام النبي العربي ودينه، « ودخلوا الجوامع في أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بتلك الشتائم المنكرة وعبثوا بدين الشباب المتحفز » .

---

١ ــ دوزي .

والاجتراء على مقام النبي جريمة كبرى بمقتضى قانون الدولة الاسلامي لأنه يؤدي الى الفتنة واراقة الدمـــاء ، ولذلك فقد قُدّم المجرمون الى القاضي ، وعندما جاهروا بجريمتهم حكم عليهم بالاعدام ، غير انه لما قدّم قرار المحكمة الى مجلس الدولة طلب اليهم أعضاؤه ، باسم الحصافة والانسانية ، أن يسحبوا كلماتهم ، ولكنهم ، بدلاً من ان يتنزلوا عند ذلك الطلب ، أخــذوا يكررون جريمتهم ، وعندئذ سُمح للقانون بأن يأخذ مجراه .

وأدرك عبد الرحمن خطورة الوضع فعقد مجلساً من القسس من جميع أرجاء المملكة ، واذ لم يستطع حضوره شخصياً فقد أناب عنه أحد زعماء المسيحيين ، وكان أحد مستشاري الدولة [1] ، لتمثيله في المجلس . وقد أصدر الأساقفة قراراً بتحريم المجاهرة بسب النبي ، واتخذوا اجراءات قاسية بحق المشاغبين ، غير أن شيئاً لم يستطع اخماد ذلك التعصب الأعمى لدى أولئك الذين تحدوا بعناد قرار أساقفتهم وسلطتهم . وقد بلغ التهوس المفرط ببعضهم أن دخلوا المسجد الجامع وصاحوا بأعلى أصواتهم : «ان ملكوت السماء آتيــة لا ريب فيها ، وان جهنم أُعدت للكافرين وبئس المصير » . وعندئذ ثار الناس واشتــد منهم الغضب وكادوا يقتلون المجرمين لولا أن تدخل القاضي وأنقذهم من انتقام المصلين . وقد كان مطران العاصمة حازماً والحكومة ناشطة ، فأُودع الكثيرون من المتعصبين غيابات السجون ، ولكن شغبهم استمر حتى وفــاة عبد الرحمن في سنة ٨٥٢ م .

تولية محمد بن عبد الرحمن

خلف عبدَ الرحمن ابنُه محمدٌ ، ويقول ابن الأثير : « انه سار على

---

١ ــ اسمه كومز بن انتوني بن جوليان ، وكان المسيحيون المتعصبون يلعنونه لاسهامه في قرار المجلس .

أثر أبيه من العناية بالاصلاح ، وانه أول من أقام أبهة الملك بالأندلس ، ورتب رسوم المملكة ، وعلا عن التبذل للعامة ، وفي ذلك شُبه بالوليد ابن عبد الملك » . وبعد وفاة عبد الرحمن مباشرة ثار أهالي طليطلة كرة أخرى ، بمساعدة جيش أرسله اليهم امير ليون ، فأسرع محمد بنفسه إلى لقاء الثوار فالتقاهم بالقرب من « وادي سليطة » وهزمهم هزيمة منكرة ، وعندئذ أعلنوا طاعتهم على شروط احتفظوا بمقتضاها بقسم كبير من الحكم الذاتي . وقد بدأ خونة قرطبة ومشاغبوها يشعرون الآن بوطأة الأمير الذي كان لغضبه ما يبرره ، والذي اتخذ اجراءات شديدة لقمع الفتنة في العاصمة ، واعدام جميع المتعصبين الذين كانوا يحرضون الناس على الثورة أو يكاتبون العدو خارج الحدود . وعندما رأى المتحمسون انهم قد حُرموا من قادتهم وزعمائهم « رضخوا تدريجياً إلى القانون ، ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ذلك الحماس أثراً بعد عين »[1] .

وقد انتهز الفرنج ، جرياً على عادتهم ، فرصة الفتن الداخلية وأغاروا على الولايات الشمالية ، فلم يجد محمد بداً من اقامة جيش في تلك الأنحاء لحمايتها .

وفي سنة ٢٤٥ هـ ظهر النورمان مرة أخرى ، وبعد أن نهبوا شاطىء البروفانس ، أخذوا في أعمال السلب والنهب في السواحل الاسبانية ، فتعقبهم الأسطول الأندلسي وطردهم من الشواطىء بعد معركة حامية فقدوا فيها الكثير من سفنهم . وكانت الحملات التأديبية تسيّر في فترات منتظمة على الأمراء المسيحيين في جليقية ونافارا وليون ، وفي سنة ٨٦١م اكتُسحت نافارا واستولي على عاصمتها بمبلونة ، وبعد أربع سنوات طلب أمير ليون الصلح فعُقد معه دون قيد أو شرط . غير أن اضطرابات أكثر خطورة نشبت في أجزاء مختلفة من المملكة في أواخر عهد محمد ،

---

١ ـ دوزي

ففي أرغونة ثار مسلمٌ اسباني من ذريــة القوط واستولى عـلى سرقسطة وتطيلة ووشقا ، واتخذ لنفسه لقب الملك . وفي الغرب رفع علم الثورة عبد الرحمن بن مروان[1] بمساعدة أمير ليون الفونس الثالث . وسريعاً ما تبعت هذه الثورة ثورة أخرى أعظم هولاً في ببشتر، فقد كانت سلسلة الجبال الواقعة بين رنده ومالقة مأوى دائماً للقتلة واللصوص والخارجين على القانون ، وفيها لقي نابليون فيما بعـد مقاومة شديدة من أعدائه ، وفيها نهض عمر بن حفصون ، بعد أن فر من جيش الأمير ، وجمع من حوله عصبة كبيرة من اللصوص والقتلة ، وأسس ولاية مستقلة .

وقد سرت عدوى هذه الثورات ، فنشبت اخواتها في كل جزء من أجزاء المملكة اما بتحريض من الأمراء المسيحيــين عند الحدود أو من ملك الفرنج . ومما يدعو الى الدهش ان المملكة العربية لم تتمزق أوصالها تحت وطأة تلك الفتن والاضطرابات .

ولما كان محمد بن عبد الرحمن قد شاخ بحيث لم يعد يستطيع خوض ميدان القتال بنفسه ، فقد عهد إلى ابنه وولي عهده المنــذر بقمع تلك الفتن الخطرة ، فسار المنذر أولاً نحو الشـمال وأخضع سرقسطة وروتا وقرطجنة ولارده ، وأسر عبد الوهاب الروتي « أشجع أهل عصره »[2] ، وقدم اسماعيل بن موسى ، الثائر بأرغونة ، خضوعه . وفي سنة ٢٧١هـ زحف المنذر على ابن مروان فهزمه ودمر معقله . وكانت سرقسطة قد سقطت مرة أخرى في يدي محمد بن لب بن موسى ،حليف ابن حفصون ، فحاصرها المنذر واستولى عليها ، وفر الثائران إلى الجبال ، ولكنهما لم يلبثا أن ظهرا من جديد بعد انسحاب الجيش الملكي . وفي سنة ٨٨٦ م عاد المنذر إلى مقاتلة ابن حفصون الذي اعتصم بمدينة الحاما ، وبعد أن

---

١ ــ ويسميه ابن الاثير الجليقي .

٢ ــ ابن الاثير ، ج٧ ص ٢٥٨ .

حاصرها المنذر مدة طويلة دمرها تدميراً ، وفي تلك الآونة جاءت الانباء إلى معسكر المنذر تنعي الملك الشيخ .

وفاة محمد (٤ آب ٨٨٦ م ، صفر ٢٧٣ هـ) وتولية المنذر

ورفع المنذر الحصار وأسرع بالعودة إلى قرطبة ليضمن اعتلاء العرش ، فانتهز عمر تلك الفرصة واستولى على عدد كبير من القلاع . وكان محمد « محباً للعلم » ، « متروياً ، حكيماً ، متمرساً بقواعد الادارة واصولها » . أما خليفته المنذر فقد كان حازماً ، نشيطاً ، فطناً وشجاعاً . ولو طال أجله اذن لاستطاع من غير ريب أن يعيد الأمن والطمأنينة الى ربوع مملكته ، فقد انصرف بقوة وعزم إلى العمل ، وزحف بنفسه على الثائرين ، فاستولى على « ارشدونة » وحاصر « بيشتر » التي اعتصم بها عمر ، ثم شدد عليها الحصار حتى اضطر الثائر الى طلب الصلح ، ولكنه سرعان ما نكث بالعهد فعاد المنذر الى قتاله ، ولكن المنذر قُتل[1] على مقربة من « بيشتر » في صفر سنة ٢٧٥ هـ[2] ، وتموز (يوليو) سنة ٨٨٨ م . ومع أن حكمه لم يدم عامين اثنين فان البلاد في عهده ازدهرت وزادت رفاهية أهلها .

تولية عبد الله

خلفَ المنذر أخوه عبدالله بن محمد ، ويقول ابن الأثير : « ان في أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وسار في كل جهة متغلب ، ولم يزل الأمر كذلك طول ولايته » . لقد ارتقى عبدالله العرش في أشد الظروف حرجاً ودقة ، فقد كانت البلاد ، وقد هدّتها العداوات العنصرية ومزقت أوصالها فترة طويلة ، تبدو وكأنها تسير بسرعة نحو الدمار والانحلال .

---

١ ـ يقول دوزي انه مات مسموما بيد طبيبه .
٢ ـ المقري .

ولم يجد أمير قرطبة نفسه عرضة للمقاومة من جانب ثوار الجبل فحسب، بل من قبل الارستقراطية العربية التي أخذت تناصبه العداء ، والتي رأت أن الفرصة سانحة للاستقلال بالحكم .

وهكذا نشبت الفتن والثورات في كل مكان ، وجرت بين العرب والمولدين معارك دموية في اشبيلية والبيرة ، واعتصم عدد من زعماء البربر في بعض من أشد القلاع مناعة وأخذوا يتحدون منها السلطة الملكية ، واستولى امراء العرب على منتسا ومدينة بني سالم ولارقة وسرقسطة ، بينما سار ابراهيم بن الحجاج ، أحد أحفاد الأميرة سارة القوطية التي ورثت أسرته عنها أملاكاً هائلة في اشبيلية ، وانشأ بها ادارة مستقلة وحكماً فاق في حزمه وقوته حكم الملك نفسه ، فقد قمع ابراهيم كل عمل من أعمال السلب والاخلال بالأمن العام بمنتهى القسوة ، وشجع التجارة والفنون وبذل كل الجهود الممكنة لاصلاح ما خربته الفتن والثورات . وقد استقل زعماء المولدين بباجة وجيان ومرسية وغيرها من المدن ، واستولى ابن مروان على بطليوس ، بينما انشأ محمد بن لوبس في أراغون امارة مستقلة .

أما عمر بن حفصون فقد انتهز فرصة هذه الاضطرابات لبسط سلطانه في كل اتجاه ممكن ، حتى انه طمح الى الاستيلاء على قرطبة ذاتها . وكان السلطان حتى ذلك الحين يتبع سياسة التردد ، ولكنه صمم أخيراً على الذود عن عرش آبائه وأجداده الذي كان عرضة للضياع بالفعل ، وقد تمكن قائده عبدالله من انزال الهزيمة بابن حفصون بالقرب من بولي ، وكانت تلك المعركة معركة حاسمة فاصلة ، ذلك انها أنقذت الملكية والعرش من الانهيار التام . وقد خضعت بولي واستيجا وارشيدونا والبيرة وجيان لسلطانه فوراً ، وتم فيما بعد ، بناء على مشورة الوزير «بدر» ، استسلام ابن الحجاج طوعاً واختياراً، وبخضوع ابن الحجاج بدأ عهد جديد، وعادت سلطة الملك إلى التوطد تدريجياً في مناطق الثائرين ، وقدمت

المناطق الممتدة من الجزيرة الى نيبلة طاعتها دون قتال ، واقتفت أثرها أماكن عديدة مهمة أخرى ، وحتى بني قصي ، زعماء أرغونة ، أبدوا استعدادهم للدخول في الطاعة . وفي هذه المرحلة توفي الملك الشيخ وهو في السادسة والثمانين، بعد حكم دام ستاً وعشرين سنة وتميز بالاضطرابات والفتن ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ تشرين الأول « اكتوبر » سنة ٩٢١م) .

في هذه الحقبة التي أتناولها الآن بالوصف (٨٨٩ م) دخل العرب مرة ثانية الى جنوب فرنسة ، ولكنهم دخلوا هذه المرة من طريق خليج سان تروبيه ، وانتشروا في بروفانس ودوفينيه . كانت حركة مستقلة قام بها فريق من المغامرين الذين تجمعوا من موانىء اسبانية وافريقية ، وفي سنة ٩٠٦م اخترقوا هضاب دوفينيه ثم عبروا جبل سنيس واستولوا على بيدموند وليجوريا، وتوغلوا في سويسرة حتى بحيرة كونستانس حيث أنشأوا مستعمرة لهم، واستولوا في فرنسة على فريجوس ومرسيلية وكرينوبل، وظلت نيس في قبضتهم مدة طويلة ، ولا يزال جزء من هذه المدينة يسمى بحي العرب (كانتون دي سراسينس) .

الفصل السابع والعشرون

عرب الأندلس

الامويون (تتمة)

٣٠٠ – ٣٦٦ هـ ؛ ٩١٢ – ٩٧٦ م

عبد الرحمن الثالث (الناصر) – الحكم الثاني (المستنصر)

ولاية عبد الرحمن الثالث – قمعه الثورات – حروبه مع قبائل النصارى في الشمال – معاقبتهم – تلقيبه بأمير المؤمنين – ثورة الجلالقة – ادخال الصقالبة في خدمة الدولة – موقعة الخندق – القبائل تطلب الصلح – توسيع الحدود الى ابرو – الحروب في افريقية – استئناف الحرب مع الجلالقة – طرد سانكو – سانكو يستنجد بعبد الرحمن – ليون وقشتالة ونافارا تخضع للخليفة – وفاة عبد الرحمن – اخلاقه – ولاية الحكم الثاني – حكمه – انتصاراته على الجلالقة والنافاريين – غزو افريقية – حب الحكم للعلم

عبد الرحمن الثالث ، الناصر لدين الله

عندما توفي عبدالله خلفه حفيده عبد الرحمن ، ولم يكن قد بلغ الثانية والعشرين من العمر عندما ولي الملك ، ولكن ولايته لقيت الترحيب من لدن أعمامه وأقاربه الذين كانوا يكبرونه في السن ، واتخذوه فألاً حسناً للمملكة ، وتوسموا فيـــه ، كما يقول المؤرخون ، امارات العظمة ، وقبلوه منقذاً لامبراطورية الأمويين التي كان الوهن قد تطرق الى دعائمها وأركانها .

ولقد صمم عبد الرحمن عـــلى أن يقلع عن سياسة جده التي اتسمت بالمسالمة والتردد ، واتبع ازاء الثائرين سياسة كانت جريئـة ومستقيمة في آن واحد . وقد اطرح عبـــد الرحمن كل سبيل وسط ، وأعلن الى جميع الثوار ، من عرب وبربر واسبان ، انه لم يكن يريد منهم الجزيـــة ، بل الاستيلاء على حصونهم ومدنهم ، ووعدهم بالعفو التام اذا خضعوا ، وإلا نالوا منـــه عقاباً يجعلهم عبرة لمن يعتبرون ، فأذعنت معظم المدن تلقائياً .

وفي سنة ٩١٣ م ظهر عبد الرحمن بنفسه بـين أفراد جيشه ، فأثار ظهور الأمير الشاب في صفوفهم ، ورغبته البيّنة في ان يشاطرهم أفراحهم واتراحهم ، وآلامهم ومشاقهم ، حماسة منقطعة النظير بينهم . وكان له تأثير كبير في معنوياتهم ، فلم تمض ثلاثة أشهر حتى أخضع ولاية البيرة وجيان ، واستولى على امنع القلاع والمعاقل ، وطهر المنطقة كلهـا من اللصوص والعصاة . وفي جبال سيارانفادا المنيعة الشامخة لم يكن انتصاره أقل شأناً من انتصاره في السهول ، واضطر زعماء العصاة الى الاستسلام ، أو الموت .

وقد جاء محمد بن ابراهيم بن حجاج ، الذي خلف أباه في ولايـة اشبيلية ، الى عبد الرحمن يعرض ولاءه وخدمته ، وبدأ أهالي اشبيلية في

بادىء الأمر يدافعون عن مدينتهم ، ولكنهم ما لبثوا ان فتحوا أبوابها بعد حصار قصير . ثم سار الأمير لمقاتلة الثوار في سيرانيا دي ريجيو (ويسميها العرب ريه) فأخضع زعماءهم واحداً إثر واحد ، وحتى المسيحيين الاسبانيين ، الذين كانوا أشد أعداء الملك ، شرعوا في القاء سلاحهم بعد ان تحققوا من كرمه وحزمه . ويضيف أحد المؤرخين المسيحيين هنا قوله : « لقد تصرفت الحكومة تصرفاً أبدت فيه أكبر قدر من العدل نحو النصارى الذين استسلموا »[١] .

وتوفي ابن حفصون في سنة ٩١٧ م ، ولكن الحرب في سيرانيا لم تضع أوزارها بوفاته ، إذ اضطر الملك طوال عشر سنوات الى الابقاء على جيش قوي في تلك السلسلة من الجبال . وفي سنة ٩٢٨ م تم الاستيلاء على بيشتر ، ودمرت القلاع الأخرى تدميراً تاماً ، وبذلك خضعت سيرانيا كلها بصورة نهائية ، واستسلم كذلك العصاة في الغرب .

وإذ لم يبق هناك ما يُخشى في الجنوب فقد سيّر الأمير جيوشه على الثائرين في الشمال والشرق ، فسقطت بطليوس بعد حصار دام أكثر من سنة . وكانت طليطلة قد ثارت مرة أخرى بتحريض من زعيم ليون المسيحي ، فأرسل الأمير الى هذه المدينة العنيدة الثائرة وفداً من العلماء يدعو أهلها الى الطاعة ، فرفضوا دعوته بإباء معتمدين على معونة الليونيين. وعندما رأى عبد الرحمن ان شيئاً لا يفيد مع أهل المدينة سوى القوة اتخذ على الفور اجراءات حازمة شديدة . وبعد حصار دام عامين استسلم أهل طليطلة دون قيد أو شرط ، وتم لعبد الرحمن آخر الأمر استئصال بذور الفتنة وسحق كل أثر للثورة ، وأصبح أمير البلاد كلها دون منازع.

ولكن عبد الرحمن ، بينما كان منهمكاً في اقرار السلام في ربوع مملكته ، لم يجد بداً من انتهاز الفرص لمقاتلة عدوين اثنين لم يكن هناك

---

١ ــ دوزي .

شك في مطامعها في الأندلس الجميلة : أولها القوميات أو القبائل المسيحية في الشمال ، وثانيها الفاطميون في افريقية .

وكانت قد انتشرت مجاعة هائلة في أواسط القرن الثامن في بلاد الأندلس دامت خمس سنوات كاملة ، وعلى أثرها هاجرَ إلى افريقية عدد كبير من العرب الذين استوطنوا شمال شبه الجزيرة بعد الغزو . وقد انتهز أهالي جليقية تلك الهجرة وثاروا على الأمير وفتكوا بعدد كبير ممن بقي حياً من العرب ، وانتخبوا الفونسو زعيماً أو ملكاً عليهم . وبعد بضع سنوات جلا البربر ، وكانوا أكثر سكان تلك الأصقاع ، عن عدد من المدن المهمة ، مثل استورقة وليون وسموره (زاموره) وشلمنقة واسقوبيه وميرانده ، غير أن الفونسو لم يوطد اقدامه في البلاد المهجورة ، بل اكتفى بالفتك بمن بقي فيها حياً من المسلمين القلائل ، ثم ارتد إلى جباله . وانتهز خلفاؤه فرصة الحروب الداخلية ، التي كانت تزعزع أركان الدولة العربية ، ليجعلوا من مدينة ليون عاصمة لهم ، وفي منتصف القرن التاسع ، عندما كانت الثورات مندلعة من كل جانب على الأمير ، دفعوا بحدودهم حتى نهر دورو وابتنوا أربع قلاعٍ قوية شرعوا يغيرون منها على الأراضي الاسلامية ويطاردون المسلمين العزّل بالنار والسيف . واذ كانوا من الهمجية والفقر بحيث لم يكونوا يستطيعون البيع أو الشراء إلا بالمقايضة ، فقد كانوا ينظرون إلى ثروة الأندلس بعين الطمع ، ويعتبرون المملكة المتفسخة فريسةً سهلةً سائغة . كانوا متعصبين قساة القلوب ، وكانوا كلما استولوا على مدينة أعملوا في رقاب أهلها السيف ، وفتكوا بالرجال والنساء والشيوخ والأطفال؛ أما التسامح الذي كان العرب يعاملون به المسيحيين فلم يكونوا يعرفون له معنى ، وعلى هذا يمكننا أن نتصور بسهولة مصير المسلمين فيما إذا قدر لمثل هؤلاء القوم أن ينجحوا في فتح بلادهم . كانوا يمقتون الحضارة العظيمة التي كانت تتطور يوماً بعد يوم عند العرب ، وهكذا لم تكن مهمة عبد الرحمن انقاذ مملكته

فحسب ، بل انقاذ حضارتها أيضاً ، وقــد فهم الأمير الشاب رسالته وانصرف بكليته إلى العمل بمثل العزم الذي حاول به اخضاع الثائرين من رعاياه .

ولم يكن في نية عبد الرحمن أن يقاتل برابرة الشمال، بل كان يفضل مسروراً لو أنه ظلّ في سلامٍ معهم ، غــير أنهم أجبروه على الحرب اجباراً ، ففي سنة ٩١٤م أغار الليونيون ، بقيادة زعيمهم أوردونو الثاني ، واجتاحوا مقاطعة ماردة ونهبوها وأعملوا فيها السيف والنار ، ثم استولوا على ألَيْنـا وذبحوا سكانهـا الذكور وسبوا نساءها وأطفالها ، ثم عادوا فعبروا نهر الدورو مثقلين بالغنائم والأسرى .

وكان عبد الرحمن منهمكاً في ذلك الوقت في محاربــة الفاطميين في افريقية ، ولذلك اكتفى بارسال حملة تأديبية بقيادة وزيره أحمد بن أبي عبيدة ، فأنزل أحمد بأعدائه عقاباً شديداً وهزمهم هزيمة منكرة ، ولكن المسلمين منوا بهزيمة شنعاء بالقرب من سانت استيفان،مما شجع اوردونو وحليفه سانكو (شانجه ملك نافارا) على اجتياح ضواحي ناجيرا وطليطلة. وعندئذ صمم عبد الرحمن على أن يلقن القبائــل المسيحية بأي ثمن درساً لا يمكن أن ينسوه بسرعة ، فأرسل في شهر تموز (يوليو) من سنة ٩١٨م جيشاً بقيادة حاجبه « بدر » فألفى الثوار معتصمين في جبالهم فهاجمهم وهزمهم .

وإذ اعتقد عبد الرحمن أن الليونيين لم يؤدبوا على نحوٍ كافٍ فقــد سار في حزيران (يونيو) من سنة ٩٢٠م على رأس جيشه فاستولى على اوردونو وأوسمه وسان استيفان وككونيا وعدة أماكن أخرى مهمة ، ثم ترك قوة صغيرة لمراقبة الليونيين وسار إلى نافارا ، فأنزل قائده محمد بن لوب هزيمة منكرة بسانكو ، زعيم نافارا . وإذ لم يستطـع سانكو أن يقاوم جيوش الأمير بمفرده ، فقد استنجد بأخيه زعيم الليونيين وتمركزت جيوشها الموحّدة في الجبال للفتك بجيش المسلمين عند مروره في مفاوز

البرنيه الضيقة . ولدى مرور هذا الجيش ألقوا عليه الحصباء والحجارة الضخمة ، فشعر الأمير بالخطر ، وما ان وصل رجاله الى مكان يدعى « جونكيرا » ، حيث يصبح الممر الضيق وادياً متسعاً ، حتّى أمرهم بالتوقف وضرب خيامهم فيه . ويقول دوزي : « وقد ارتكب المسيحيون خطأً فادحاً ، فبدلاً من أن يبقوا في الجبال ، هبطوا الى السهول وقبلوا مقاتلة المسلمين بجرأةٍ دفعوا ثمنها هزيمة منكرة ، وطاردهم المسلمون حتى اختفوا عن الأنظار في ظلام الليل ، ووقع كثيرٌ من زعمائهم في أيدي الظافرين ، وكان بينهم اسقفين مرتدين لباس الحرب .

وبعد هذا الانتصار الرائع اجتاز الأمير نافارا من أدناها إلى أقصاها دون أن يلقى من أهلها أية مقاومة ،وبعد ان دك معاقلهم ودمّر حصونهم عاد الى عاصمته في الرابع والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) .

وفي سنة ٩٢١ ثار اوردونو وسانكو مرة أخرى ، فقد انقضا فجأة على ناجيرا وفجويرا وفتكوا بالعائلات الاسلامية القاطنة هناك ، ومن بينها بعضٌ من أشهر أسر العرب . وحتّى لو أراد الملك أن يتجنب خوض الحرب وقتئذ فان الرأي العام كان من شأنه أن يضطره الى الانتقام ، ولكنه هو نفسه كان قد استبد به السخط والغضب على المذابح المتواصلة التي كانت القبائل الشمالية البربرية تقترفها في مملكته ، فلم ينتظر حلول الربيع بل نزل الى الميدان فوراً ودخل نافارا في العاشر من شهر تموز (يوليو) ، ولكن الرعب الذي أوحاه اسمه كان من الهول بحيث هجر اعداؤه معاقلهم لدى اقترابه . وقد حاول سانكو مقاومة الأمير مرات عديدة ، غير انه هزم فيها كلها ، ووصلت جيوش الأمير الى بمبلونه ، عاصمة سانكو ، دون مقاومة تذكر ، ودون أن تمنى بأية خسارة ، فأنزل بها الأمير عقابه ودمر القلعة والقصر وسائر الأبنية ، وبذلك تمّ اخضاع البشنكس فغدا عاجزاً بعض الوقت عن أن يلحق الأذى بالمسلمين. وبالقرب

من ليون نال الأمير نجاحاً مماثلاً ، وساعدته الحروب الأهلية التي نشبت في سنة ٩٢٥ م بين أبناء اوردونو في مهمته . فقد تركهم يصفّون خلافاتهم فيما بينهم وانصرف الى توطيد الأمن في ربوع بلاده .

اتخاذ لقب أمير المؤمنين

وكان الأمراء الأمويون في الأندلس حتى ذلك الحين قد اكتفوا بلقب الأمير أو السلطان ، وكانوا يرون أن لقبي الخليفة وأمير المؤمنين يجب أن يقتصرا على حامي الحرمين[1] . ولذلك امتنعوا عن اتخاذ هذين اللقبين ما دام العباسيون يملكون مكة والمدينة وتقرأ الخطبة فيها باسمهم .

وكانت الخلافة العباسية في هذه الفترة قد وصلت الى قمة انحلالها وضعفها ، فقد كان الخليفة الراضي أسيراً في قبضة بني بويه في قصره ، وكانت مكة والمدينة في قبضة المعز الفاطمي ، ولذلك كان من الطبيعي أن يرى أمير قرطبة ان الاحترام الذي كان أمويو الأندلس يبدونه نحو خلفاء بغداد لم يكن في محله ، وشعر بأن هناك ما يبرر اتخاذه لقب الخليفة وأمير المؤمنين ، فأجريت له البيعة في حفل حاشد تمثلت فيه جميع طبقات الأمة ولقب بالناصر لدين الله .

وكان رامير الثاني قد استولى في سنة ٩٣٣ على ولاية ليون بعد أن سمل عيني أخيه الفونسو الرابع وعدد من أقربائه . وكان رامير يحمل في قلبه كرهاً شديداً للمسلمين ، فما أن تولى السلطة حتى شرع بالاغارة على الأراضي الاسلامية .

فلم يكن من عبد الرحمن إلا أن زحف عليه في الحال وحاول استدراجه الى القتال ، غير ان رامير رأى من الحكمة البقاء وراء أسوار

---

١ ـ المسعودي .

أوسمه (وشمه) ، وعندئذ ترك الخليفة فصيلة هناك وتابــع زحفه نحو الشمال . وكان النافاريون قد وحدوا صفوفهم مع الجلالقة والليونيين ، وكان سانكو قد توفي ، وكانت نافارا الآن في قبضة ابنـه كارسيا ، تحت ولاية أمه تيودا التي كانت تكره العرب كرهاً لا يقل عن كره رامير نفسه . واكتسح الخليفة قلعة البه، ودمّر قلاع الجلالقة وأبراجهم، وكان رامير عاجزاً حتى عن الحيلولة دون تدمــير برغش التي كانت عاصمة ولاية « قشتالة » ، وفي تلك الأثناء كسب رجال القبائل المسيحية عوناً لا يقدر بشخص حاكم سرقوسة الثائر (محمد بن هشام) [1] ، الذي ثار على أميره لظلم تخيّله . وهكذا تألب الشمال بأسره على عبد الرحمن ، وعظم الخطر واشتدّ ، ولكن عبد الرحمن صمــد له بهمته المعهودة ، وحاصر سرقوسة حصاراً شديداً اضطر معه الثائر الى الاذعان فصفح عنه عبد الرحمن وأعاده إلى منصبه السابق ، غير أنه لم يعامل رجال القبائل باللين نفسه ، بل اكتسح بلاد البشنكس ، وفرض الجزيــة على القرى والمدن . وبعد أن منيت الملكة تيودا بالهزيمة تلو الهزيمة طلبت الصلــح واعترفت نهائياً بسلطان الخليفة على نافارا . أما رامير فقد غلب على أمره في عدة مواقع حتى عجز آخر الأمر عن مجابهة الخليفة في ميدان الوغى فتوارى وراء التلال . وفيما عدا ولاية ليون وجزء من كتالونيـا ، التي كانت تابعة لفرنسة ، أصبحت بلاد الأندلس بكليتها تحت أقـدام ملك قرطبة العظيم .

وبالنظر إلى ان عبد الرحمن كان يمقت الارستوقراطية العربية فقد أخذ يضع كثيراً من السلطـة في أيــدي الأجانب ، وكانوا في معظمهم من المماليك من مختلف الجنسيات ، كالألمان والفرنج والايطاليين والاسكندناويين والروسيين وغيرهم ، وكانوا يُجلبون من بلادهم الأصلية إلى الأندلس

---

١ ـ يسميه ابن خلدون هشام بينما يسميه دوزي هاشم .

بواسطة تجار البندقية وجنوا وبيزا ، ويباعون بيع الرقيق من عرب الأندلس. هؤلاء الأرقاء يعتنقون الاسلام ويتعلمون اللغة والثقافـة والآداب العربية بسهولة ، وكان العرب يعاملونهم في منازلهم معاملتهم لأفراد عائلاتهم ، وكثيراً ما كانوا يعهدون اليهم بالقيام بواجبات ومهام تتسم بطابع السرية .

وكان الخليفة الناصر يحيط نفسه بعدد كبير من هؤلاء الأغراب الذين أطلق عليهم اسم الصقالبة أو السلافيين ، كما انه عهـد اليهم بالمناصب العسكرية والمدنية الرفيعة ، وأرغم « أشراف العرب ورؤساء القبائل من ذوي النفوذ والعصبية على الخضوع لهؤلاء الصقالبة » ، مما زاد في سخط أشراف العرب .

وفي سنة ٩٣٩م انتضى الجلالقة وأهل البشنكس السلاح مـرة أخرى في وجه الخليفة ، مما استلزم ارسال حملة تأديبية جديدة عليهم . وفي هذه المرة ارتكب الخليفة خطأً فادحاً ، ذلك انه عهد بقيادة الجيش العليا الى قائد سلافي يدعى « نجدة » ، فثارت ثائرة الضباط العرب وأقسموا على أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة الفاصلة . وهنا تختلف الروايات في تعليل هزيمة المسلمين ، فيقول المسعودي والمقـري : « ان عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف عـلى زامورا (سمورة) عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالمـاء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة، ثم لحق المسلمين الاعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكرّ عليهم النصارى بشدة وحماسة ، وساد الاختلاف بين المسلمين ، فهزموا شر هزيمة (حتّى قدر بعض المؤرخين قتلاهم بخمسين ألفاً) » . ويقول كوندي : « ان العرب بالرغم من الصد الذي لاقوه عند الخندق ، وتراجـع بعض رفاقهم ، تابعوا هجومهم ، واخترقوا الخندق فوق جثث رفاقهم ، وانقضوا على النصارى الذين لم يستطيعوا احتمال الصدمة ، ففروا إلى داخل المدينـة

يطاردهم المسلمون ، وأصبح المكان كله مليئاً بالأشلاء ، ولم ينج من ذلك المصير المروّع سوى النساء والأطفال » . هذه المعركة التي جرت داخل أسوار زامورا تُعرف بموقعة الخندق ، وتختلف رواية دوزي عن هذه الموقعة ، وهو يستقيهـا من التواريخ الاسبانية المسيحية ، اختلافاً كلياً ، فهو يقول ان جيش المسلمين هوجم من جانب الأعداء بالقرب من قرية الخندق ، على مقربة من سلمنقة ، عندما انهزم العرب وانكشف جناحاهم ، فهجم الليونيون والنافاريون على قلب جيش الخليفة ، وقاتل الصقالبة بعزم واستبسال شديدين ، حتّى كادوا يفنون عن آخرهم .

ولكن الهزيمة التي مني بها الخليفة داخل اسوار زامورا لم تثبط من شجاعته أو همته ، بل انه جهز في الحال جيشاً آخر انتقم من الجلالقة والبشنكسيين شر انتقام . وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ٩٤٠م ألحق عامله على بطليوس براميز هزيمة منكرة ، وأعمل في بلاده السيف والنار . وقـد استمرت هذه الحملات بضع سنين حتّى انكسرت روح القبائل المعنوية تماماً ، وفي سنة ٩٥٥ م طلب اوردونو الثالث ، ابن راميز المتعصب وخليفته ، الصلح من الخليفة فعُقد معه بشروط مشرّفة للطرفين ، واعترف زعيم الجلالقة بموجبها بسلطان الخليفة وتعهد بالامتناع عن كل تآمر مع نصارى الأندلس أو أية دولة أجنبية ، وبأن يدمر في خـلال فترة معينة قلاعه الرئيسية على حدود البلاد الاسلامية ، وبألا يغزو اراضي المسلمين ، ووافق الخليفة من ناحيته على أن يحترم استقلال نافارا وليون وان يقنع منهما بالطاعة والجزية .

وبمقتضى هذه المعاهدة أعيدت الحدود الاسلامية الى ابرو وأصبحت منذ ذلك الحين تمتد من طرطوشة على البحر الأبيض المتوسط على طول ذلك النهر العظيم الى حصن افراغة ثم الى لريسـدة على ساحل المحيط الاطلنطيقي .

وبينما كان عبد الرحمن منهمكاً في حروبه ضد قبـائل الشمال اشترك أيضاً في القتال الدائر في المغرب الأقصى ، فلكي يصون بلاده من خطر الدعوة الفاطمية ، ولكي يحول دون امتداد سلطان المهدي في موريتانيا، شرع منذ سنة ٩١٧ م في مساعدة الامارات الصغيرة في افريقية الغربية . ولم يكن يشك في أن المهدي ، الذي كان قـد اتصل بالثائر عمر بن حفصون ، كانت له مطامع عدوانية في الأندلس ، فلكي يحبط هـذه المطامع حاول الخليفة الاستيلاء على افريقية الغربية فلاقى نجاحاً في بادىء الأمر ، غير انه ما ان اعتلى المعز العظيم العرش الفاطمي حتى أجلى عن افريقية جيوش الخليفة الأندلسي ، وكان في تلك الآونة منهمكاً في مقاتلة رجال القبائل النصرانية ، ولم يبق في يد الخليفـة الأندلسي سوى ميناء كيوتا ، مفتاح موريتانيا . وبعد عقد معاهدة الصلح مع اوردونو الثالث، شعر الخليفة الذي لا يعرف الكلل بأنه قادر على أن يوجه انتباهه الكامل نحو افريقية ، غير ان وفاة اوردونو اضطرته الى الاقلاع عن خطته لغزو البلاد الفاطمية ، فقد رفض سانكو ، الذي خلف اوردونو على امارة جليقية وليون ، أن يتقيد بالمعاهدة المعقودة مع أخيه ، مما أجبر الخليفة على استخدام الجيش الذي كان قد أعدّه لأفريقية ضد القبائل الثائرة ، وعهـد الى قائده الشجاع ، أحمد بن علاء ، حاكم طليطلة ، بقيادة الجيش ، وفي شهر تموز (يوليو) أحرز انتصاره الرائع على الجلالقة والليونيين .

ولم يمض وقت طويل حتى أقدم بعضٌ من رعية سانكو ، بمساعدة فرديناند ، ملك قشتالـة ، على طرده من مملكته ، فالتجأ الى جدته الملكة طوطة في بملونة ، بينما انتخب الليونيون ابن عمه اوردونو زعيماً أو ملكاً عليهم . واذ كانت الملكة طوطة نفسها غـير قادرة على أن تقدم أية مساعدة الى حفيدها ، فقد استنجدت بالخليفة ، وتوجهت هي وحفيدها إلى قرطبة حيث استقبلا استقبالاً رائعاً ، وأجابهما عبد الرحمن

إلى سؤالها وأرسل مع سانكو جيشاً إلى امارته ، وهناك هُزم المغتصب وهرب إلى الجبال ، ولم ينته شهر نيسان (ابريل) من سنة ٩٥٩م حتى كانت سلطة سانكو قد توطدت في امارته من جديد ، وأصبحت ليون وقشتالة وجليقية ونافارا تابعة لخليفة قرطبة .

وفاة عبد الرحمن الناصر (رمضان ٣٥٠ ه ١٦ تشرين الأول « اكتوبر » ٩٦١ م)

ولم يتمتع ذلك الخليفة العظيم بانتصاره ذاك الا عامين اثنين ، ذلك انه توفي في ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) من سنة ٩٦١م ، وكان في الثالثة والسبعين ، ودام حكمه نصف قرن تماماً .

كان عبد الرحمن الناصر ، دون ريب ، أعظم ملوك بني أمية في الأندلس. لقد وجد المملكة عندما اعتلى العرش في حالة من الاضطرابات، ممزقة بين عدد من الاقطاعيين المنتمين إلى أجناس مختلفة ، حتى غدت فريسة للفوضى والحروب الداخلية ، ومعرّضة لغارات متواصلة من قبائل الشمال المسيحية . ولكنه بالرغم من العقبات التي لا تحصى تمكن من انقاذ الأندلس وجعلها أعظم وأقوى من أي وقت مضى ، فساد النظام وانتشرت الرفاهية في جميع أرجاء الامبراطورية . وكانت منظمة الشرطة من الدقة بحيث كان باستطاعة الغريب أو التاجر ان يسافر في اكثر الطرق وعورة وأبعدها منالاً دون أيما خوف أو وجل ، كما أن رخص الأسعار وجودة الثياب التي كان يرتديها الفلاحون ، وانتشار ركوب الخيل حتى بين أفقر طبقات الشعب ، كانت براهين على رفاهية الشعب . وفضلاً عن ذلك فان الحقول الباسمة ، والجنائن الوارفة الظلال ، وكثرة الثمار ، كانت أدلة ساطعة على ما كانت الزراعة تلقاه من تشجيع وعناية من حكومته الساهرة . أما الانشاءات المائية الفخمة ، ونظام الري العلمي

الذي جلب الخصب لأكثر الأراضي قحلاً ، فقد أثارت اعجاب كل سائح غريب . ولكن الخليفة الناصر لم يعن بالزراعة وحدها ، بل شجع كذلك التجارة والصناعة والفنون والعلوم ، فكان في قرطبة والمرية واشبيلية وغيرها من المدن صناعات خاصة كثيرة أغنت السكان وزادت في ثروة بلاد الأندلس،وانمت تجارة البلاد إلى درجة ان الرسوم الجمركية وحدها كانت تشكل القسم الأهم من واردات الدولة التي بلغت في أيام الناصر أكثر من اثني عشر مليوناً من الدنانير . وكانت مصادر الناصر الحربية هائلة جداً،وقد ابتنى أسطولاً فخماً مكنه من أن ينافس الفاطميين على السيطرة على البحر الأبيض المتوسط ، وأسس جيشاً حسن التنظيم يقول فيه دوزي : « لعله كان أفضل جيش في العالم » ، ومكنه من السيطرة على نصارى الشمال . ولقد تقرب منه ملوك أوروبة العظام وخطبوا ودّه وسعوا إلى التحالف معه ، وأرسل اليه امبراطور القسطنطينية وملوك المانية وفرنسة وايطالية جميعهم السفراء والرسُل .

الحكَمُ الثاني ، المستنصر بالله

وقد خلف عبد الرحمن ابنه الحكم ، فلقب بالمستنصر بالله . وكان الحكم قد اشترك ، قبل وفاة والده ببضع سنين ، اشتراكاً فعلياً في ادارة الدولة ، وكانت قد بلغت شهرته بالعدل والحكمة البلدان القصية. وبدلاً من أن يعتبر زعيما ليون ونافارا موت الخليفة ، الذي كان قد أدى لهما مساعدات جمة ، خسارة لهما ، فقد رأيا فيه وسيلة للتملص من شروط المعاهدتين والتخلص من سيطرة العرب وسيادتهم .

وقد اعتقد سانكو وكارسيا أن الحكمَ الذي اشتهر بحبه للسلام والعلم، لن يُصر على تنفيذ شروط معاهدتيها ، وانه ، إذا نشبت بينهما وبينه الحرب ، لن يصيب فيها النجاح الذي أصابه والده ، فاصطنعا اتجاهاً

عدوانياً غادراً ، وتمهلا في هدم المعاقل الواقعة على الحدود ، متخذين لذلك كل ذريعة ووسيلة ، وفي الوقت نفسه استأنف فرديناند كوستاليس أمير قشتالة ، غزواته . ولكن الزعماء الناكرين الجميل سريعاً ما تجلت لهم شخصية الحاكم الجديد الحقيقية ، ذلك أن حملة قصيرة بينت لهم أن رجل العلم يمكن أن يكون جندياً أيضاً ، وان باستطاعته أن يضرب كما يستطيع أن يدرس ويبحث ، فقد قاد الحكمُ بنفسه الحملة الأولى على كونزاليس ، وأنزل به هزيمة منكرة اضطر على أثرها إلى الفرار عبر الحدود . ولدى عودته من حملته على أمير قشتالة زاره اوردونو الذي كان سانكو قد عزله بمساعدة الخليفة السابق ، فاستقبله المستنصر بحفاوة بالغة ، وعقد معه معاهدة تعهد فيها اوردونو بالعيش بسلام مع المسلمين ، وبأن يسلم ابنه كارسيا رهينة ، وبأن لا يتحالف أبداً مع كونزاليس الثائر . ثم وضع الخليفة تحت تصرفه جيشاً بقيادة القائد غالب ، وأمره بطرد سانكو من ليون وجليقية وتنصيب اوردونو في مكانه . ولما كان مركز سانكو متزعزعاً فقد خشي تلك الاستعدادات وأسرع بارسال وفد الى قرطبة يتألف من كبار الاكليروس والأشراف في امارته لطلب العفو من الخليفة ، على أن يشرع فوراً في تنفيذ شروط معاهدته . ولما مات اوردونو بعد ذلك ببضعة أشهر عاد سانكو الى التمرد ورفض صراحة التقيد بشروط المعاهدة ، معتمداً على مؤازرة الزعيم النافاري وأميري قشتالة وكتالونيا ، وهكذا اضطر الحكم الى اعلان الحرب على القبائل المسيحية ، فقاتل أولاً قشتالة ، واستولى عنوةً على سان اشتيبان ، وأجبر كونزاليس على طلب الصلح فأجابه الى طلبه ، ولكن كونزاليس لم يلبث ان خان العهد ، فبعث الحكم غالباً الى ليون ، فسار بجيشه عن طريق مدينة سالم حتى وصل الى مكان يدعى أستا في أراضي سانكو حيث التقته قوة كبيرة من الجلالقة فهزمها شر هزيمة واكتسح جليقية ، وبعد أن تحالف مع يحيى بن محمد حاكم سرقوسة ، غزا بلاد البشنكس الذي

كان زعيمها قد نقض هو أيضاً المعاهدة ، وهزم الزعيم النافاري واستولى على مدنه الرئيسية عنوة ، ويقول ابن خلدون ان « وقوع قلعة الحرّة في أيدي غالب في منطقة البشكنس كانت تعد من أخطر تلك الفتوحات» . وقد أعاد الحكم بنـــاء قلاعها وأقام الحاميات فيها وفي عدد غيرها من الأماكن في نافارا وجليقية وألبا وقشتالة . والخلاصة ان الحكم ، بالرغم من كرهه الحرب ومن اضطراره الى خوض غمارها بالرغم منه ، سريعاً ما أجبر أعداء مملكته على طلب الصلح، فقدم سانكو زعيم ليون خضوعه سنة ٩٦٦ م ، وحذا خذوه امراء كتالونيا وباربل ومونيرا الـذين منوا بهزائم مماثلة ، والتمسوا تجديد معاهدة الصلح ، متعهدين بهــدم جميع القلاع والأبراج القائمة بجوار الحدود الاسلامية ، والتي كان من عادتهم أن يغيروا منها ، وبالامتناع عن تقديم أية مساعدة لابناء دينهم في حروبهم مع المسلمين ، وبأن يحولوا أخيراً دون اتحاد القبائل والامم النصرانية على المسلمين . وقد أرسل كارسيا ، زعيم البشكنس ، الرسل تصحبهم هيئة من الامراء والأساقفــة لطلب الصلح ، فاستبقاهم الحكم ولم يسمح لهم بمقابلته إلا بعد أن هزم غالب النافاريين وانتصر عليهم انتصاراً تامـاً ، وعندئذ أجابهم الحكمُ الى طلبهم بالشروط ذاتها التي منحهـا للنافاريين . وفي الوقت نفسه تقريبـــاً ، وفدت أم أحد الامراء الأقوياء ، المسمى لذريق بن بلاكاش ، الذي تقع ولايته على حدود جليقية ، تطلب الصلح نيابة عن ابنها ، فاستقبلها الخليفة استقبالاً حافلاً ، وغمرهـا بالهدايا ، وأجابها الى طلبها ، وبوفاة أمير قشتالة الثائر في سنة ٩٧٠ م عاد الهدوء آخر الأمر الى تلك الولاية .

وبعد ذلك بعـــامين اثنين أرسل الحكم حملة عـلى موريتانيا (المغرب الأقصى والأوسط) لقطع دابر الغزو الفاطمي ، ويبدو أن قائده غالب قد نجح في اعادة السيادة الأموية على افريقية الغربية ، فقد نبذت قبائل زناتة ومغراوة ومكناسة طاعة الخليفة القاهري وشرعت في قراءة الخطبة

باسم الحكم من على المنابر ، وجاء كثير من الأمراء العلويين ،الذين كانوا قد سكنوا منذ مدة طويلة في فاس ، الى الأندلس حيث استقبلوا بلطف ورعاية . أما الأدارسة فقد نقلوا إلى منطقة الريف ، ومنها إلى قرطبة ، ولكن بعضاً منهم نُفي فيما بعد إلى الاسكندرية .

يقول ابن خلدون ان الحكم كان محباً للعلوم والفنون ، وكان يغدق جوده على رجال العلم ، وكان مغرماً باقتناء الكتب . وبالرغم من ان جميع أسلافه كانوا من هواة الثقافة ومولعين باغناء مكتباتهم بالكتب النادرة الثمينة ،فان أحداً منهم لم يُقبل على ذلك بهمة الحكم نفسها . فقد عهد الحكم إلى موظف خاص بادارة شؤون المكتبة الامبراطورية الّتي بلغ فهرسها وحده أربعة وأربعين مجلداً ، وحوّل الأندلس إلى سوق عظيمة كان النتاج الأدبي لكل بلد من البلدان يُجلب اليها فوراً،وأرسل الوفود إلى كل صقع من أصقاع العالم في طلب المؤلفات المهمة الثمينة وأنفق في شرائها أموالاً طائلة ، كما شجع نشر المؤلفات الأصلية وبذل كل مجهود في سبيل اقتناء النسخ الأولى،وقد أرسل اليه أبو الفرج الأصفهاني نسخة من كتابه العظيم (الأغاني) قبل أن يظهر في العراق،وتلقى من خليفة قرطبة العظيم مكافأة بلغت ألف دينار . وأفرد الحكم عدة غرف في قصره لأعمال النسخ والتجليد واستخدم لها أمهر رجال العصر . غير ان الحكم لم يكن مجرد هاوٍ لجمع الكتب فحسب ، بل كان عالماً مجداً مولعاً بالدرس ، ولم يكن يكتفي بقراءة الكتب في مكتبته ، بل كان يدون ملاحظاته الكثيرة في الهوامش عن الكتاب والمؤلف معاً ، وكان يشجع لعلماء والفلاسفة من أهل الأندلس والأجانب على حد سواء ، ويحمي « حتى الفلاسفة ، الذين أصبح باستطاعتهم الآن أن يتابعوا دراساتهم دون خوف من اضطهاد المتعصبين » ، وهكذا زهت في عهده كافة فروع العلم. وكانت المدارس الابتدائية التي أنشأها أسلافه عديدة حُبست عليها الأوقاف الغنية، « فكان كل فرد في الأندلس تقريباً يعرف القراءة

والكتابة ، بينما كان الجميع في أوروبة المسيحية ، وحتى رجال الطبقات العليا ، غارقين في الجهل المطبق ، باستثناء رجال الدين »[1] . وقد أسس الحكم في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، وحتى الكتب كانت تقدمها اليهم الدولة دون مقابل ، وكانت جامعة قرطبة من أشهر جامعات العالم ، وكانت تضاهي الأزهر في القاهرة والنظامية في بغداد .

وفاة الحكَم

وقد توفي هذا الخليفة الفاضل الطيب في الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، وأول تشرين الأول (اكتوبر) سنة ٩٧٦م ، وبوفاته انتهى مجد الأمويين وعظمتهم في اسبانية .

---

١ ــ دوزي .

الفصل الثامن والعشرون

العرب في اسبانية

الامويون (تتمة)

٣٦٦ – ٤٢٨ هـ ؛ ٩٧٦ – ١٠٣٧ م

هشام الثاني – المهدي – سليمان – عبد الرحمن الرابع – محمد الثاني – هشام الثالث

ولاية هشام الثاني – الحاجب المنصور – مؤامراته – استيلاؤه على جميع سلطات الدولة – انتصاراته على القبائل المسيحية – وفاته – خلافة ابنه المظفر – حكمه الموفق – وفاة المظفر – الحاجب عبد الرحمن – استيلاء المهدي على العرش – تنازل هشام الثاني – سليمان يفتك بالمهدي – ثورة قرطبة

تولية هشام الثاني ، المؤيّد لله

كان للحكم عندما توفي ولدٌ وحيد يدعى هشاماً ، ولم يكن قد بلغ

بعد الحادية عشرة من عمره . وكان الحكم قد حاول في ابان حياته بكل وسيلة ممكنة أن يضمن لابنه اعتلاء العرش بصورة آمنة ، وقبل وفاته ببضعة أشهر عقد مؤتمراً حضره أقطاب الدولة وأشرافها وحلفوا جميعاً يمين الطاعة لهشام ، ووقعوا على الوثيقة التي بموجبها أوصى الخليفة الشيخ بالخلافة الى ابنه المحبوب . وعندما حضرته الوفاة عهد بالعناية بولده إلى الحاجب المصحفي والى وزيره محمد بن أبي عامر ، كما رجا أن يستطيع ابنه أن يحكم الدولة بسلام ونجاح تحت وصاية أمه الملكة صبح — وكانت امرأة ذات همة عالية وحنكة كبرى — وبمساعـدة الحاجب والوزير ، خادمه المفضلين . وهكذا بويع هشام بالخلافة بمقتضى وصية أبيه ولقب بالمؤيد بالله . ولكن الخليفة الراحل أخطأ الظن باخلاص محمد بن أبي عامر ، ولم يقدّر طموحه ، ذلك ان الوزير لم يلبث ان عزل الحاجب المصحفي والأشراف الذين كانوا يعترضون على توليته ، وفتك بالكثيرين من كبار الولاة والأقطاب ، « ولما أفنى جميع من يصلح للرئاسة »[1] استولى على السلطة كلها وحجب الخليفة الفتى في قصره ، ولم يسمـح لموظفي الدولة بالاقتراب منه إلا في المناسبات أو الأعياد الرسميـة عندما كانوا يقدمون طاعتهم وينصرفون . وبعد أن استولى على الوزارة اتخذ لنفسه لقب « الحاجب المنصور » ؛ وبنى قصراً شامخاً لنفسه دعاه بالزاهرة ، « كما نقش اسمه على العملة ، وصدرت الأوامر والمراسيم بختمه ، وقرن اسمه باسم الخليفة في خطبة الجمعة » . وبعد ان تخلص من المنافسين وجه عنايته إلى الجيش فأعاد تنظيمه باقصاء العنصر العربي واحـلال أعداد كبيرة من البربر محلهم اذ كان يستطيع الاعتماد على ولائهم له . ويقول ابن خلدون : « ان المسلمين بقيادته غزوا اثنين وخمسين غزوة لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش » .

---

١ — ابن خلدون

وكان الجلالقة والبشكنس قد ثاروا بالمسلمين عندما توفي الحكم واستأنفوا غاراتهم عليهم ، فخاض المنصور – كما سنسميه منذ الآن – سلسلة من المعارك الرائعة ، وأخضع ليون ونافارا وجعلها ولايتين تابعتين له، وأقام الحاميات في عاصمتي تينك الامارتين . ثم سار بجيشه الى كتالونيا وخرّب برشلونة وطرد الامراء الفرنسيين ، وهكذا امتدت حدود الامبراطورية مرة أخرى الى ما وراء جبال البرنيه .

وفي موريتانيا أحرزت جيوش المنصور انتصارات مماثلة، وتمكن قواده من اخضاع جزء كبير من افريقية الغربية . وفي عام ٩٩١ م فكّر في جعل منصب الحاجب وراثياً في اسرته ، وليس ثمة شك في انه كاد يود ، لو استطاع ، ان يعزل ابن مولاه عن العرش وينادي بنفسه ملكاً حقيقياً على البلاد ، ولكنه كان يخشى الشعب الذي كان قد تشرّب فكرة الحرص على شرعية وراثة العرش . ولعل الاشراف كانوا يعتبرون تبديل الاسرة المالكة مفيداً لهم ، ولكن الشعب ، ومعظمه من أصل اسباني ، كان يرى عكس ذلك ، « اذ كان حب العائلة المالكة، شأن شعورهم الديني ، يؤلف جزءاً من كيانهم . ومع ان المنصور كان قد رفع البلاد الى مجدٍ ونشر فيها ازدهاراً لم تعهدهما من قبل ، فقد كانوا يكرهونه لأنه كان يعامل خليفتهم معاملة الاحداث » . واذ كان المنصور مدركاً لهذا الشعور ، ومؤملاً أن يتبدل مع الزمن ، فقد اكتفى بأن نادى بابنه عبد الملك خليفة له في الوزارة ، بأمرٍ اسميّ من الخليفة ، وفي سنة ٩٦٦ م اتخذ لقب « السيد » و « الملك الكريم » .

وفاة الحاجب المنصور (سنة ١٠٠٢ م)

وقد توفي هذا الرجلُ الجدير بالاعتبار في سنة ١٠٠٢ م ودفن في مدينة سالم . ولم يسبق لنصارى الشمال أن هابوا أحداً من حكام الأندلس مثلما هابوا الحاجب المنصور ، وقد جعلته حنكته العسكرية وقدرته المدهشة

على التنظيم معبود الجنـود ، فلم ينقطع قط عن محافظته على رفاهيتهم وحسن نظامهم . وعن طريق هذا الجيش الذي انشأه ودربه « أكسب اسبانية قوةً لم تعهدها من قبل ، حتى في أيام عبد الرحمن الثالث[1] » . ولكن هذا الصنيع لم يكن الوحيد الذي استحق عليه شكر الشعب ، فمع انه كان قد اضطر ، نظراً الى اعتبارات سياسية ، الى أن يظهر قسوته على أحرار المفكرين والفلاسفة، فانه لم يتردد قط في حمايتهم متى استطاع الى ذلك سبيلاً من دون أن يجرح شعور المتشرعين . ويقول رينـو : « ان اسبانية الاسلامية لم تعرف عهداً أكثر رخاءً وازدهاراً من عهده» . وكان المنصور محباً للعلم ويغدق كرمه العظيم عـلى العلماء . وبالرغم من أن الوسيلة التي استخدمها للتحقق بالسلطة لم تكن بالتأكيد مستحبة فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه مارسها بنبل وشهامة حالما حصل عليها . وكان المنصور كريمـاً عادلاً وافياً بوعوده ، وقد ذهب حبه للعدل مضرب الأمثال بالفعل .

الحاجب عبد الملك المظفر

وقد خلف المنصور في منصب الحجابة ابنُه عبدُ الملك الملقب بالمظفر، فحذا حذو أبيه في ادارة شؤون الدولة ، وأحرز عدة انتصارات عـلى القبائل المسيحية ، وفي ابان حكمه الناجح ازدادت البلاد رخاءً ورغداً، « وكانت أيامها أعياداً » ، كما يقول مؤرخ قديم .

ومع ذلك فلم يكن بنو عامر محبوبين ، ولو انهم قنعوا بالحكم باسم الخليفة اذن لاستطاعوا على الأرجح أن يحتفظوا بالوزارة مدةً من الزمن، ولكن طموحهم جاوز كل الحدود ، ذلك انهم لم يكونوا يهـدفون في الحق الى التمرس بالسلطة في ظل العرش وحسب ، بل كانوا يطمحون الى العرش نفسه . وهكذا اكتسبوا عداوة امراء البيت المالك وبني أمية

---
١ ــ دوزي .

جميعاً ، كما أقصوا الفقهاء وباعدوا بينهم وبين الشعب بالكلية .

وفي الوقت نفسه أدى التبدل الذي حدث في شبه الجزيرة منذ تولية الناصر الى تمهيد الطريق الى الثورة ، ذلك ان المجتمع العربي القديم ، « بفضائله وأخطائه » ، كان قد اختفى ، وتم الوصول الى توحيد الشعب ، الذي كان هدفَ الناصر والحاجب العظيم ، على حساب الارستوقراطية القديمة التي لحق بها الخراب والفقر فأخذت تختفي بسرعة وتلاشت بالتدريج من ذاكرة الناس تلك الأسماء التاريخية القديمة . ولكن الذي لا شك فيه أن كبار رجال البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين روابط الولاء قد صمدوا لتلك الهزة العنيفة وحافظوا على ثروتهم ونفوذهم، ولكن أعظم الرجال نفوذاً في هذه الحقبة انما كانوا القادة من البربر والصقالبة الذين أثروا في عهد الحاجب المنصور ، كما ان التطور المادي قد أبرز طبقة اجتماعية جديدة هي الطبقة المثرية الوسطى ، فبدأ التجار والصناعيون يلعبون دوراً مهماً في اقتصاديات البلاد . ولكن هذه الحقيقة نفسها ولّدت مصاعب جديدة ، ذلك أن ازدياد الثروة وظهور الطبقة الجديدة أدى إلى بداية الصراع بين الطبقات ، ويستطيع المرء أن يرى في مرآة تاريخ تلك الأيام جميع المتاعب التي تقلق رجل الدولة في أيامنا هذه ، من النفور المتبادل بين رجال الجيش والمدنيين ، وكراهية العمال لرجال الأعمال ، إلى الحسد الذي تكنه العامة لطبقات المجتمع العليا . وكانت الأمور في العاصمة بحيث أن أقل فتنة كانت كفيلة بأن تؤدي الى نزاع مخيف بين الأغنياء والفقراء « إذ كانت قرطبة وقتئذ عبارة عن مصنع هائل يزخر بألوف العمال المتهيئين عند أقل سانحة لأن يهبوا جميعاً لاعلان الثورة التي تجلب لهم الغنائم والكنوز ، غير ان الطبقات الغنية أدركت الخطر المحدق بها لو تمادت في بغض بني عامر »[1] .

---

١ ـ دوزي .

وفاة الحاجب المظفر (تشرين الأول « اكتوبر » ١٠٠٨م)

ولقد أدت وفاة المظفر في زهرة عمره إلى الكارثة التي كان يخشاها البعض ويتمناها البعض الآخر ، فقد سقط بنو عامر ، ولكنهم ، شأن شمشون ، قوّضوا معهم دعائم الامبراطورية كلها .

الحاجب عبد الرحمن سانكول

وخلفه أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول ، وكان مكروهاً من الشعب لفسقه وخلاعته ، ومع ذلك فقد كان يطمح إلى أن ينصب نفسه خليفةً على المسلمين ، فأكره هشام الثاني على أن يوليه العهد ، مما أثار أهالي قرطبة إلى أبعد حدود الاثارة،ولم يكد سانكول يغادر العاصمة على رأس حملة إلى الشمال حتى نشبت في قرطبة ثورة بقيادة أمير من أمراء بني أمية يدعى محمداً ، ونفذ الثوار إلى قصر بني عامر ونهبوه ثم أشعلوا فيه النيران . ووقّع هشام وثيقة تنازله عن الخلافة لمحمد ، فلقب بالمهدي .

وما إن ارتقى المهدي عرش الخلافة حتى عـزل سانكوْل ، وسرى الحماس من العاصمة إلى الولايات،فلم يمض وقت قصير حتى انضوى تحت علم المهدي جيش عظيم قوامه ، كما كان الحال في الثورة الفرنسية ، أفراد الطبقة الوسطى ، أو « رجال الشعب » ، والأطباء ، والجزارون والسروجية الخ .. وتخلى الناس عن سانكول فأُسر وقتل . ولكن الخليفة الجديد لم يحكم طويلاً ، ذلك انه سريعاً ما أثار سخط الأحزاب بسبب من سوء سلوكه ، فتخلى عنه البربر ورشحوا مكانه أميراً من بني أمية اسمه سليمان ، وأصبحت قرطبة الآن مسرحاً لاضطرابات مخيفة ارتكب

فيها الجانبان أروع ضروب العسف والفتك. ولما هُزم المهدي أخرج هشام الثاني وأعاده الى عرش الخلافة ، وعندئذ استنجد سليمان بنصارى قشتالة وليون ، بينما طلب المهدي مساعدة الكتالونيين . وهكذا في خلال بضعة أشهر من وفاة المظفر، كان المسلمون يستنجدون بالجلالقة والقبائل الأخرى بعد أن كانوا يملون ارادتهم عليهم ، ولم ينجدهم هؤلاء إلا لقاء اعادة جميع البلاد التي كان الناصر والحاجب الأكبر قد استوليا عليها عن طريق القوة . وهكذا أعاد المسلمون مثنى قلعة ومدينة الى المسيحيين ، وكانت قرطبة تقع حيناً في يد سليمان وحلفائه وحيناً آخر في يد المهدي واتباعه ، وكان كل من الفريقين يُعمل فيها الخراب ويعاملها معاملة المدن التي تؤخذ بالقوة والعنف، حتى دمرت الزهراء التي ابتناها عبد الرحمن تدميراً جزئياً ، وقتل المهدي آخر الأمر .

أما سليمان فقد قبض عندئذ على هشام الذي لم يكن له حول ولا طول ، ولم يعرف ما حلّ به على وجه التحقيق ، فهو إما أن يكون قد قُتِل أو مهدت له سبل الفرار الى مكة . غير أن سليمان الغاصب ، الذي اتخذ لنفسه لقب المعتصم بالله ، لم يتمتع طويلاً بثمرة انتصاره الذي أحرزه بطريقة ملتوية ، ذلك أن ثورة أخرى ما لبثت أن نشبت وأدت الى سقوطه فمقتله .

وعندئذ نصب أحد افراد الأسرة الادريسية نفسه على العرش، وعندما قُتِل بعد مدة وجيزة خلفه أخوه القاسم ، وكانت ادارته متسمة بطابع العدل والانصاف . غير ان البربر لم يلبثوا أن هجروه ، ونشب صراع بينه وبين أخيه أدى الى اقصائه عن قرطبة ، وعندئذ رفع القرطبيون عبد الرحمن ، أحد أفراد الاسرة الأموية ، الى سدّة الخلافة ، فلم يتربع عليها طويلاً ، وأعقبه أمويان آخران ، توليا الخلافة بالاسم ، وبهما ختمت الاسرة الاموية في الأندلس . وقد اذعنت قرطبة بعض الوقت

ليحيى بن علي بن حمود ، وعندما اغتيل في سنـــة ١٠٣٥ م انشأوا في مدينتهم جمهورية استمرت الى أن قضى عليهـــا ملك اشبيلية بعد ذلك بأربعين سنة .

الفصل التاسع والعشرون

العرب في اسبانية (تتمة)

٤٢٨ – ٨٧١هـ ؛ ١٠٣٧ – ١٤٦١م

ملوك الطوائف ـ انقساماتهم ـ اتساع سلطان النصارى تدريجيا ـ الملثمون او المرابطون ـ يوسف بن تاشفين ـ موقعة زلاقة ـ موت يوسف بن تاشفين ـ ولاية ابنه علي ـ وفاته ـ سقوط دولة المرابطين ـ الموحدون ـ عبد المؤمن ـ ابو يعقوب يوسف ـ أبو يوسف يعقوب (المنصور) ـ موقعة الارك ـ وفاة يعقوب ـ تولية محمد الناصر ـ موقعة العقاب ـ انهيار دولة الموحدين ـ ظهور بني الاحمر ـ مملكة غرناطة ٠

أعطت الاضطرابات السياسية في القاهرة حكام المقاطعات وأمراءها فرصة اعلان استقلالهم ، فاستولى بنو حمود ، الذين انتحلوا لأنفسهم لقب أمير المؤمنين ، على ملقا والجزيرة الخضراء والمناطق المجاورة لها ، واستمروا في حكم هذه البلاد الى ان اغتصبها منهم ملك غرناطة سنة

١٠٥٧م ثم سقطت غرناطة في يدي زعيم البربر « الزاوي » وظلت تحت حكم أسرته حتى سنة ١٠٩٠ م . أما اشبيلية والمناطق الغربية فقد استولى عليها بنو عباد . وكان مؤسس هذه الأسرة قاضي قضاة اشبيلية أبو القاسم محمد الملقب بابن عباد ، وآخرها المعتمد الذي أقصاه يوسف بن تاشفين الى افريقية . وأما طليطلة فكانت في أيدي بني ذنون الذين اشتهروا بالبذخ والتبذير ، وكان آخرهم القادر الذي سلّم المدينة الى الفونسو السادس سنة ١٠٨٥م .

وحكم بنو هود ، المتحدرون من أحد قواد عبد الرحمن الثالث ، سرقسطة حتى عام ١١١٨م عندما استولى عليها المسيحيون في عهد رامير. أما بطليوس وبلنسية ومرسية والمرية فكان يحكمها أيضاً أمراء مستقلون ، وكانت دانية وجزائر البحر الأبيض المتوسط في يد مجاهد بن عبد الله العامري[١] ، الملقب بأبي الجيوش ، « وكان جندياً ممتازاً وبحاراً خبيراً ، وكان يملك أسطولاً عظيماً دائم الاستعداد استخدمه في غزو سواحل فرنسة وايطالية ، ولم تتجرأ سفينة مسيحية طيلة حياته على مخر عباب بحر الشام »[٢] . هؤلاء الملوك الصغار كانوا يُسمون « ملوك الطوائف » ، وكانوا كلهم من محبي العلوم والفنون ومشجعيها ، والحق ان كلاً منهم كان يحاول أن يبزّ الآخر في تشجيع الآداب ، وكان الكثيرون منهم أدباء وشعراء ممتازين ، ويقول أحد مؤرخي العرب صادقاً : « بعد أن اقتسم هؤلاء الملوك الصغار ملك بني أمية لم تخسر قضية العلم والأدب وانما كسبت الشيء الكثير نتيجة لهذا الاقتسام » .

ولو ان هؤلاء الملوك اتحدوا فيما بينهم أو نظروا الى مصلحتهم المشتركة اذن لاستطاعوا أن يصمدوا بعزم وثبات لغارات الاسبان المسيحيين التي ازدادت عنفاً في هذا الوقت بطبيعة الحال . غير ان تحاسدهم واختلافاتهم

١ ــ مولى الحاجب المنصور .
٢ ــ البحر الابيض المتوسط .

مهدت الطريق لفنائهم . وقد ذهب بعضهم إلى درجة انهم اتحدوا مع المسيحيين ضد منافسيهم المسلمين .

وفي سنة ١٠٥٥م انقض فرديناند الأول ، ملك قشتالة وليون ، على المسلمين المتنازعين بجميع قواته وأقصاهم عن أماكن مهمة كثيرة ، وقد أنقذ المعتضد ، ملك اشبيلية ، نفسه بالموافقة على دفع الجزية إلى ملك ليون ، وتوفي سنة ١٠٦٩م تاركاً المملكة لابنه المعتمد .

وفي سنة ١٠٧٥م استولى المعتمد على قرطبة ولم يلبث بعد ذلك بفترة وجيزة أن أخضع بلاد طليطلة كلها ، وكانت تمتد من وادي الحجارة إلى وادي آنة . ولما توفي فرديناند الأول في سنة ١٠٦٥ م ارتقى عرش قشتالة ابنه الفونسو السادس ، وكان رجلاً طموحاً غير هياب فأقصى اخوته عن مملكته وأعلن نفسه الحاكم الأعلى لليون وقشتالة وجليقية ونافارا واتخذ لنفسه لقب الامبراطور. وإذ لم يقنع بالجزية التي كان مواليه العرب يدفعونها اليه فقد عزم على إخضاع شبه الجزيرة كله لسلطانه وسيطرته ، وكان يملك جيشاً عظيماً مؤلفاً من محاربين مجربين جاء بهم من جميع أنحاء أوروبة ، ولذلك لم يلبث أن أعلن استعداده لمنازلة أعدائه «بشياطين السماء وجنها وملائكتها » . وفي سنة ١٠٨٥م سلم اليه القادر ، آخر ملوك ذي النون ، مدينة طليطلة المهمة ، وعندئذ بلغت كبرياؤه مبلغاً لا حد له ، ورأت غرناطة وبطليوس واشبيلية وسائر المدن القليلة التي كانت ما تزال في قبضة المسلمين المصير الذي ينتظرها ، وأخذت تتلفت إلى جميع الجهات مستنجدة على هذا الخطر الداهم ، ولكن المنازعات والخلافات الداخلية جعلت من كل اتحاد ضد العدو المشترك أمراً مستحيلاً ، ولذلك حولت هذه المدن أنظارها إلى الخارج .

ظهور دولة الملثمين

وفيما كانت الامبراطورية الاسلامية في اسبانيـة تهوي ظهرت دولة

جديدة في افريقية الغربية . كان برابرة الصحراء ، الملقبون بالملثمين[1] ، قد اعتنقوا الاسلام حديثاً ، وقد حرضهم زعماؤهم الدينيون ، الملقبون بالمرابطين ، على الجهاد في سبيل الله ، فقاموا بفتوح واسعة ، حتى أصبحت دولتهم في العصر الذي نتحدث عنه تمتد من سنغامبيا إلى الجزائر ، وسمي ملوكهم بالمرابطين أو الملثمين .

وكان حاكمهم يوسف بن تاشفين المشهور ، الذي كان خليفة بغداد قد أنعم عليه بلقب « أمير المسلمين » ، واليه وجه ملوك الأندلس أنظارهم واستنجدوا به فلبى طلبهم وعبر البحر إلى اسبانية في شهر تشرين الأول (اكتوبر) من سنة ١٠٨٦م . ولما وصل إلى مكان بالقرب من اشبيلية التحقت به قوات المعتمد وسائر الأمراء الأندلسيين الآخرين وزحف الجيش الموحّد على بطليوس ، فالتقاهم ألفونسو بجيشه في موضع يدعى الزلاقة على بعد نحو من أربعة فراسخ من جنوب بطليوس . وكان جيش العرب مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل ، بينما كان جيش الفونسو مؤلفاً من أكثر من ستين ألفاً . وفي يوم الجمعة ، ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٠٨٦م نشبت بين الفريقين معركة هائلة دارت فيها الدائرة على جيش الفونسو الذي هرب، كما يقول ابن الأثير ، من ساحة القتال في ثلاثمئة فارس ، بينما قتل سائر الجنود جميعاً في ميدان المعركة.

وقد شلّت موقعة الزلاقة مملكة ليون المسيحية فجنحت إلى السلم بعض الوقت ، ولم يمكث يوسف بن تاشفين في هذه المناسبة وقتاً طويلاً في اسبانية ، بل قفل راجعاً إلى افريقية . وعندما عاد في السنة التالية إلى الأندلس طرد ملوكها وضمها إلى مملكة المرابطين، وبذلك غدت اندلوسيا كلها ، حتى حدود نهر تاجة ، في قبضة سلطان امبراطور المغرب .

---

١ ـ لقبوا بالملثمين لان رجالهم كانوا يتلثمون دائما وقاية لوجوههم من رمال الصحراء المحرقة .

وفي أيام ملوك المرابطين أخذ الفقهاء الذين أبدوا نشاطاً عظيماً في حمل المرابطين على الجهاد يتمتعون بنفوذ عظيم جداً .

وفاة يوسف بن تاشفين

ولقد كان المسيحيون في ذعر دائم وهلع مقيم طيلة حياة يوسف بن تاشفين . وعندما توفي هذا في شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ ، وأيلول (سبتمبر) سنة ١١٠٦ م ، خلفه ابنه علي الملقب بأبي الحسن ، وكان، كما يصفه ابن خلكان ، أميراً قوياً ، ورعاً ، عادلاً ، وانسانياً . ولقد حذا حذو أبيه ، ولو أنه ، كما يقول أحد المؤرخين : « لم يستطع مجاراته في أمور كثيرة » ، ومع ذلك فقد هزم القبائل المسيحية مرات عديدة واستولى منهم على تلافيرا ومدريد ووادي الحجارة وكثير من القلاع والمدن الأخرى، بينما استعاد قائده « سير بن أبي بكر » شنترين وبطليوس والبرتغال ولشبونة . ولكن المسلمين فقدوا ، مقابل هذه الانتصارات ، سرقسطة وقلعة أيوب وبعض المواقع المهمة الأخرى فيما وراء نهر تاجه، تلك المدن التي استولت عليها جيوش المسيحيين المؤلفة من الاراغونيين والكتالونيين والفرنج مما وراء جبال البرنيه . وفيما كان المرابطون منهمكين على هذا النحو في الأندلس ، تطورت الأمور في افريقية تطوراً كان له أخطر النتائج على دولتهم .

الموحدون (١١٢٠ م)

ففي سنة ٥١٤ هـ ، ظهر بين البربر القاطنين سلسلة الجبال التي تشطر موريتانيا رجل يدعى محمد الملقب بابن تومرت من أهالي السوس في افريقية الغربية . كان محمد ينتسب إلى أسرة عربية ، ولكنه كان ينتسب بالتبني إلى احدى قبائل البربر ، وكان قد رحل في شبابه الى الشرق فدرس الفلسفة والشرع على عدة علماء منهم الغزالي وأبي بكر الطرطوشي وغيرهما.

ولدى عودته الى بلده اشمأزت نفسه من التـدهور الأخلاقي المتفشي في جميع طبقات المجتمع ، وسخط على اغراق العامة في تقديس الأضرحة، فشرع يعظ أهل جبال الأطلس المتوحشين ويحاول اصلاح حالهم . وأعلن انه هو المهدي المنتظر ، فالتف من حوله أتباع كثيرون وانتخب ابن تومرت نائباً له شاباً يدعى « عبـد المؤمن » ، وكان ابن أحد التجار الأغنياء ، وسمى أتباعه وتلاميذه بالموحدين .

وقد أخذت شوكة هؤلاء الموحدين تقوى شيئاً فشيئاً ، ولم ينقض وقت طويل حتى أنشأوا مملكة واسعة كانت في معظمها على حساب امبراطورية المرابطين . ولم يستطع الموحدون التغلب على المرابطين طيلة حياة علي بن تاشفين ، ولكنه لما مات في سنة ١١٤٣م وخلفه ابنـه تاشفين لم يستطع صدهم ففتكوا به في سنة ١١٤٥ م وانتقلت امبراطورية المغرب الى قبضة عبد المؤمن[١] .

وكان الصراع بين المرابطين والموحدين فرصة ذهبية انتهزها مسيحيو اسبانية فانقضوا على الأراضي الاسلامية في اسبانية ونكلوا بأهلها المسلمين شر تنكيل ، وأعمل الفونسو السابع ، الذي اتخذ لنفسه لقب الامبراطور كما فعل أبوه الفونسو السادس، النار والسيف في قرطبة واشبيلية وكرمونة ونهب وأحرق مدينة شريش . وتوغّل حتى وصل إلى وادي الآش . وبعد خمس سنوات سلط معول التخريب على مناطق جيّان وباجـه وأيده واندوجار الحصبة ، وعندئذ استنجد مسلمو الأندلس ثانية باخوانهم عبر المضائق . فأرسل عبد المؤمن في سنة ٥٤١ هـ جيشاً وأسطولاً لمساعدتهم[٢] فهزم قواده المسيحيين وأخضعوا الحكام المرابطين الذين كانوا قد استقلوا بالسلطة في ولايات متعددة . وكادوا أن يخضعوا لسلطانهم بلاد الأندلس كلها . وبعـد أربع سنوات قسم عبد المؤمن امبراطوريته الواسعة الى

---

١ ــ توفي محمد بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ٠

٢ ــ ابن الاثير ٠

امارات وعين أولاده حكاماً عليها[1] . وفي سنة ٥٥٤ هـ استولى على المهدية من الفرنج واتخذ لقب أمير المؤمنين ، وباستيلائه على هذه المدينة المهمة أصبح سيد افريقية الشمالية المطلق ، من صحارى برقة الى المحيط الأطلسي غرباً .

وفاة عبد المؤمن (١١٦٣ م)

وفي عام ١١٦٣ م توفي عبد المؤمن بعد حكم ناجح دام أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً وكان أبيض البشرة أزرق العينين ، حكيماً، شجاعاً، نشيطاً ومحباً للعلماء ، وازدهرت في عهده العلوم والفنون في جميع أرجاء امبراطوريته، وبخاصة في اسبانية ، وأسس في مراكش عدداً من الكليات والمدارس .

ولدى وفاته وُلي العرش ابنه محمد ، ولكن رجال الدولة وأعيانها لم يلبثوا أن عزلوه لعجزه وكسله ، وبايعوا أخاه أبا يعقوب يوسف ، وكان أميراً شهماً كريماً فاستبشر الناس بولايته خيراً ورجوا أن ينالوا على يديه الرغد والسعادة . ولقد جاء يوسف إلى اسبانية مرات عديدة وأعاد احتلال مدن كثيرة من بينها ترّاكونة وشنترين .

وتوفي يوسف في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (تموز « يوليو » سنة ١١٨٤ م) فخلفه ابنه المشهور يعقوب الذي بلغت دولة الموحدين في أيامه ذروة مجدها . ويوصف يعقوب بأنه كان ملكاً حكيماً مثقفاً ، وقد خاض مع الفونسو التاسع ملك قشتالة حرباً انتصر فيها وأدت إلى عقد هدنة بينهما لمدة خمس سنوات ، ولم تكد هذه المدة تنقضي حتى غزا الجيش القشتالي — الذي تضخم بانضواء اعداد كبيرة من المتطوعين مما وراء البرنيه — بلاد الأندلس « فخربوا ونهبوا وذبحوا كل من اعترض سبيلهم وارتكبوا أفظع أعمال السفك والتقتيل » .

---

[1] — كان ابو محمد عبد الله ، الذي خلفه ، متوليا على بجاية وملحقاتها ، وابو الحسن علي على فاس ، وابو سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء .

فلما علم يعقوب بذلك عبّر البحر من افريقيـة ، وجمع الفرنج من ناحيتهم جيشاً عظيماً « من أقصى أنحاء العالم المسيحي » وانقضوا به على ملك الموحدين في موضع يعرف بالأرك بجوار بطليوس ، ولكن يعقوب أنزل بهم هزيمة منكرة ، ويقال انهم خسروا في تلك الموقعة ١٤٦ ألف رجل ، بالاضافة إلى ٤٠ ألف أسير . وفرت فلول الجيش المسيحي الى كالاترافا واعتصموا بهـا ، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن اكتسحوها ، فهرب الفونسو إلى طليطلة حيث حشد جيشاً لجباً آخر لمقاومة ملك الموحدين، غير انه مني مرة ثانية بهزيمة منكرة وخسائر فادحة ، واستولى المسلمون ثانيـة على كالاترافا ووادي الحجارة ومدريد وسلمنقة ومدن وحصون أخرى في اسبانية والبرتغال كانت قد سقطت في يدي الفونسو من قبل .

وفي سنة ١١٩٦ م حاصر يعقوب مدينة طليطلة حصاراً شديداً حتى « خرجت أم الفونسو ، تصحبها زوجاته وبناته ، وتوسلت الى يعقوب والدموع في عينيها ان يبقي على المدينة ، فأثر توسلهـا في نفسه ، ولم يجبها الى طلبها فحسب ، بل اذن لهـا ولمن معها بالانصراف بعد ان أغدق عليهن الحلى والهدايا النفيسة الأخرى » .

وبعد ان أنقذ مدريد التي كان يحاصرها أهل اراغونة ، الذين ولوا فراراً لدى اقترابه منهم ، عاد إلى اشبيلية فأقام فيها سنة يبحث شروط الصلح مع سفراء الأمراء المسيحيين « الذين وفـدوا لطلب الصلح ، فأجابهم الى طلبهم »[1] . وكذلك قـام ببعض الاصلاحات في حكومـة الأندلس .

وفي أواخر عام ١١٩٧ عاد يعقوب إلى افريقية وبقي فيهـا إلى أن وافاه أجله في سنة ١١٩٩ م . وقد كان يعقوب معاصراً لصلاح الدين الذي أرسل اليه سفيره ابن أخي الأمير أسامة يطلب فيـه النجدة على

---

١ ـ ابن خلدون .

الصليبيين . وكان يعقوب يشجع الآداب والعلوم بسخاء كبير ، وفيه يقول أحد المؤرخين القدامى : « انه كان يحمي رجال العلم لأنه كان هو نفسه رجل علم ، ويحترم الدين والعادات لأنه كان هو نفسه فاضلاً متديناً » . وكان جيشه حسن التنظيم ، وحكمه حازماً وعادلاً . وقد أسس المستشفيات والملاجىء في كل مدينة من مملكته لمعالجة المرضى والعناية بهم ، ونبغ في عهده الطبيبان المشهوران ابن زهر وابن باجة ، والفيلسوف العالم « ابن رشد » الذي كان متولياً منصب القضاء في قرطبة. وكان يعقوب ، كالرشيد والمأمون وملوك الأمويين في الأندلس ، يعنى أعظم العناية بالري وتوفير أسباب الراحة والأمن للتجار والمسافرين ، وتجميل مدن امبراطوريته بالأبنية الرائعة ، وهو الذي ابتنى المرصد الشهير في اشبيلية بعد موقعة الأرك ، ويعرف الآن باسم « جيرالدة » .

ولما توفي يعقوب المنصور خلفه ابنه محمد فلُقب بعبد الرحمن الناصر لدين الله ، وكان يختلف عن أبيه اختلافاً كبيراً خُلقاً ومقدرة ، ذلك انه كان محباً للهو خالياً من كل حنكة ومقدرة ، ولذلك كان السبب الرئيسي في خراب امبراطورية الموحدين وبالتالي في ضياع قضية المسلمين في اسبانية .

كانت وفاة يعقوب المنصور ايذاناً للمسيحيين باستئناف هجماتهم على الأندلس ، فقد غمر الفونسو التاسع ، ملك قشتالة (ابن اذفونش) البلاد الواقعة حول اشبيلية وقرطبة بجنوده ، وأعمل فيها الحديد والنار حتى غدت يباباً . ولكي ينتقم الناصر للتنكيل الذي حل برعاياه فقد عبر بجيش لجب من سبتة ،وبعد وصوله إلى اشبيلية بوقت قصير اعدم يوسف ابن قادس ، حاكم قلعة الرياح ، عقاباً له على تسليمه اياها إلى الفونسو، ولكن اعدام هذا الحاكم ، الذي كان مسلمو الأندلس يكنون له الاحترام العظيم ، لم يُثر بينهم موجة من السخط والاستياء فحسب ، بل أدى إلى اختلال صفوفهم في ساحة القتال ، وكانت أنباء استعدادات الناص

قد أثارت هياج الشعوب المسيحية .

وقد هرعت إلى اسبانية جموع المغامرين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الصليبيين ، بعد أن طردتهم جيوش صلاح الدين المظفرة ، فأعلن انوسنت الثالث حرباً صليبية على المسلمين في الأندلس ، وذهب رودركيو ، أسقف طليطلة ، إلى روما يلتمس معونة البابا ، داعياً في كل مكان الى خوض حرب مقدسة ضد المسلمين ، فلم يلبث ملوك قشتالة واراغون والبرتغال وليون ونافارا ان هبوا ، والتحقت بهم جموع الصليبيين من فرنسة وايطاليا والمانية ، وزحفوا على الموحدين ، والتقى الجيشان في موقع يسمى العقاب ، ويدعوه الاسبانيون « لانافاس دي طولوسو » . وفي أوائل المعركة انهزم الأندلسيون أو استسلموا إلى العدو ، في حين حارب الأفارقة بشجاعة وبطولة ، ولكن العدو كسحهم وأفناهم عن آخرهم ، ولم يترك الناصر ميدان المعركة الا بعد إلحاح شديد ، ومن اشبيلية ذهب إلى مراكش حيث توفي ، كما يقال ، من الحزن والعار ، في سنة ٦١١هـ (١٢١٤م) .

يوسف ، المستنصر بالله

وخلف الناصرَ على عرش خلافة الموحدين ابنه يوسف الذي لُقب بالمستنصر بالله ، وكان في السادسة عشرة من عمره ، فكان من الطبيعي أن تقع جميع السلطات في أيدي « شيوخ الموحدين » . وتوفي يوسف في سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣م) ، فولي العرشَ سيد أبو محمد عبد الواحد ، وفي عهده أصبح الأمراء والولاة الموحدون في اسبانية مستقلين فعلاً . وعندما اغتيل عبد الواحد في السنة التالية انتخب الموحدون خليفة عليهم أحد أبناء المنصور ، محمد ، ولقبوه بالعادل . وفي سنة ١٢٢٧م نشبت ثورة على العادل وقُتل على أيدي الثائرين ، وعندئذ نادى أخوه ادريس ، حاكم اشبيلية ، بنفسه خليفة ، واتخذ لقب المأمون ، غير أن مرسية ،

والجزء الأكبر من الأندلس الشرقية ، افلتت من سلطانه بقيادة ابن هود . وفي سنة ١٢٢٨ م سار المأمون إلى افريقية مع عدد من المساعدين المسيحيين الذين زوده بهم ملك قشتالة ، وكان ذهابه ايذاناً بنشوب ثورة في اشبيلية أدت الى خلع نير الموحدين والاعتراف بسلطة ابن هود الذي أصبح الآن سيد القسم الأعظم من بلاد الأندلس . وقد فتك الثوار بالموحدين ونفوهم من البلاد ، ولكن ابن هود لم يكن العربي الاسباني الوحيد الذي توصل الى السلطة على انقاض امبراطورية الموحدين ، ذلك أن الزيان (أبا جميل) اعتلى عرش بلنسية ، في حين أن محمداً بن يوسف المعروف بابن الأحمر ، استولى على مدينة ارغونة وقلاعها وثبت اقدامه فيها ؛ ومن بين الطامحين الى العروش لم يتحقق أحد بمثل هذا النجاح الذي تحقق به ابن الأحمر ، ذلك انه أنشأ مملكة كانت طيلة السنوات المئتين والخمسين التالية مركزاً لحضارة العرب العظيمة . ويصف ابن خلدون ، الذي كان يقيم في غرناطة في بلاط أحد خلفاء ابن الأحمر ، سرعة ظهور هذا المغامر العظيم ، فيقول ان أسلافه كانوا يعيشون منذ زمن طويل في اسبانية باسم بني نصر ، وانهم في زمن الخلفاء الأمويين تقلدوا مناصب خطيرة في الجيش ، وكان محمد ، المعروف بالشيخ ، رأس اسرة بني نصر في هذه الحقبة . وكان بفضل أخلاقه وشخصيته وقدرته يتمتع بنفوذ عظيم بين بني قومه « وعندما شرعت سلطة الموحدين بالانهيار ، وضعفت شوكتهم ، وأخذ الأمراء يسلمون قلاعهم الى العدو ، اتخذ ابن الأحمر لنفسه لقب السلطان » . ويضيف ابن خلدون الى ذلك قوله : « وأصبحت بلاد الاندلس كلها الآن فريسة للفتن الداخلية والحروب الأهلية » ، ولم يتأخر أهل قشتالة عن انتهاز فرصة الانقسامات بين زعماء المسلمين ، فأخذوا يحرضون أحدهم على الآخر ، ثم قضوا على كل واحد بدوره . وكان ابن الأحمر في مطلع حكمه قد عقد معاهدة تحالف مع ملك قشتالة بغية الحصول على مساعدته ضد ابن هود، وسلّم

هذا الأخير بدوره الى المسيحيين ثلاثين قلعةً ليضمن مساعدتهم على ابن الأحمر ، وهكذا استمر النزاع على ذلك النحو ، وفي سنة ١٢٣٦ م استولى القشتاليون على قرطبة ، ووقعت بلنسية في قبضتهم بعد ذلك بعامين اثنين . وفي سنة ١٢٣٩ م استولوا على عسيرة ، وعلى مرسية في سنة ١٢٤٦ م ، وأخيراً أقصوا الزيان الى تونس ، وسقطت اشبيلية في أيديهم سنة ١٢٤٨ م بعد حصار شديد دام خمسة عشر شهراً .

وفيما كان القشتاليون يقضون على منافسي ابن الأحمر استولى هذا على جريش وجيان وغرناطة ومالقة والمرية ، واستطاع بفضل لباقته وحسن تدبيره وحنكته العظيمة أن يوطد دعائم سلطته في هذه المملكة الصغيرة التي استطاعت أن تصمد طيلة القرنين التاليين لقوات اسبانية المسيحية ، والبرتغال التي كانت تتلقى من آن الى آخر النجدات الصليبية مما وراء البرنيه ، ولكن هذا النزاع كان منذ بدايته غير متكافىء ، ولم يكن انهيار مملكة ابن الأحمر سوى مسألة موكولة للزمن ، ومع ذلك فقد صمد بنو الأحمر في صراعهم على نحو بطولي حتى النهاية .

ابن الأحمر يلقب نفسه بالغالب بالله

بعد ان استولى ابن الأحمر على غرناطة جعلها قاعدة حكمه ولقب نفسه بالغالب بالله ، ثم بنى فيها القلعة المشهورة المسماة بقصر الحمراء ، والتي قام خلفاؤه من بعده بتوسيعها وتجميلها الى حد أكبر .

وكان حجر الزاوية في سياسة ابن الأحمر أن يبقى على صلة ودية وثيقة بملوك بني مرين في موريتانيا ، ولهذا السبب كانت اسماؤهم تقرن باسمه في خطبة الجمعة في جميع انحاء مملكته . وفي سنة ٦٦٠ ﻫ (١٢٦١)م نشبت حرب بينه وبين حليفه السابق ملك قشتالة المسيحي الذي غزا مملكة غرناطة ، فهزمه ابن الأحمر وردّه عن بلاده .

وتوفي ابن الأحمر في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (٢٤ أيلول «سبتمبر » ١٢٧٢م) فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد، وكان فقيهاً وعالماً محباً للعلم والعلماء . وقد غزا ملكُ قشتالة مملكة غرناطة ثانية في سنة ١٢٧٤م بقيادة قائد يسميه العرب « دون نونو »، غير أن محمداً استطاع ، بمعونة ملك مرين، أن ينزل به هزيمة منكرة في ساحة المعركة التي قتل فيها قائد الجيش القشتالي نفسه . وبعد احدى عشرة سنة نشبت حرب جديدة بين القشتاليين والعرب دامت حتى نهاية القرن وكان الظفر فيها لمحمد ، ولكنه لم يلبث أن توفي في شهر شعبان سنة ٧٠١هـ (نيسان « أبريل » ١٣٠٢م) بعد حكم زاهر دام أكثر من ثلاثين سنة ، فخلفه ابنه ولقب بالاسم نفسه ، فاتسم حكمه بالعدل والمقدرة ودام حتى سنة ١٣٠٧ عندما أدت به إلى التنازل ثورة قام بها أخوه ناصر الـذي كان ملكاً سيء الطالع ، ذلك انه ما ان اعتلى العرش حتى انقض عليه ملكا قشتالة واراغون فلم يستطع إلا شراءهما بالموافقة على دفع الجزية السنوية . وفي عام ١٣١٤م أجبر على التخلي عن العرش لاسماعيل ، أحد أحفـاد اسماعيل أخي ابن الأحمـر ، مؤسس تلك الأسرة ، وفي سنـــة ١٣١٦م استولى القشتاليون منه على عدد من المدن ، ولو انه استطاع بعد ثلاث سنوات أن ينزل بهم هزيمة خالدة في الفيرا . وفي سنة ١٣١٩ م أرسل ملك قشتالة جيشاً عظيماً بقيادة ابنـه بادرو « بذرو » لاخضاع غرناطة نهائياً، وكان يصحب الحملة خمسة وعشرون أميراً من بينهم أمير انكليزي انضم إلى قوات القشتاليين على رأس فرقة من الجنود الانكليز ، وبنتيجة المعركة سقط جميع الأمراء صرعى، ومن ضمنهم « بذرو » قائد الحملة.

اغتيال اسماعيل (٢٧ رجب ٧٢٥هـ ، ١٨ تموز «يوليو» ١٣٢٥م)

وعندما اغتيل اسماعيل في سنة ١٣٢٥م اعتلى العرش ابنه أبو عبد الله

محمد ، فأظهر عزماً وحزماً،وفي سنة ١٣٣٣م استخلص جبل طارق من أيدي المسيحيين الذين كانوا قد استولوا عليه . وبينما كان السلطان محمد عائداً من تفتيش أحد الحصون هجمت عليه جماعة من السفاكين كانوا مختبئين خلف إحدى الصخور وفتكوا به،فخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف، وكان من أكثر ملوك بني ناصر استنارة وعلماً . وقد ازدهرت المملكة في عهده المتسامح العادل ، ونَعِم الشعب بالسعادة والرفاهية،كما كان ، شأن أسلافه ، محباً للعلم مكرماً للأدباء ، غير ان حكمه ، لسوء طالع مسلمي اسبانية ، لم يدم طويلاً ، ذلك انه في سنة ١٣٣٤ م هجم عليه رجلٌ معتوه وطعنه بخنجره بينما كان يؤدي فريضة الصلاة في مسجد قصره ، فخلفه ابنه محمد الملقب بالغني بالله ، وكان كأبيه رجلاً مثقفاً محباً للعلماء مشجعاً للآداب . وكان وزيره ابن الخطيب المشهور الملقب بلسان الدين ، والذي دوّن تاريخ أسرة بني ناصر[1] . وقد اضطر الغني بالله ذات مرة إلى مغادرة العاصمة مؤقتاً ، وعندئذ اغتصب الملك منه أخوه اسماعيل ، فسار الغني إلى افريقية وأقام في مدينة فاس .

ولم يبق اسماعيل في الحكم طويلاً ، ذلك انه قتل في ابان ثورة قام بها أبو سعيد الملقب أيضاً بأبي عبدالله محمد . وبعد سنتين أجبر أبو سعيد على الالتجاء إلى ملك قشتالة ، فاغتاله هذا طمعاً في ثروته ، وعندئذ عاد الغني بالله إلى غرناطة فاستقبله شعبها المتقلّب بهتافات الفرح والحبور، فقضى بقية حكمه دونما قلاقل أو اضطرابات ، وبفضل السلم الذي ساد بينه وبين القشتاليين بمهارته ولباقته تمكنت المملكة من أن تسير قدماً في معارج الثروة والازدهار ، وانتعشت الفنون والصناعة في غرناطة،وجلب التجار اليها جميع كنوز المشرق والشرق الأقصى ،وأخصبت الأرض بفضل مشاريع الري الجديدة العديدة .

---

١ ـ اسم مؤلفه « تاريخ الدولة الناصرية » ، وكان لسان الدين معاصرا وصديقا لابن خلدون .

وقد توفي الغني بالله في سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) فحزن الناس كلهم عليه ، وخلفه ابنه أبو عبد الله يوسف الذي لم يوفق في حكمه ، وان كان ميالاً الى أن يقتفي آثار والده في الاحتفاظ بعلاقات ودية مع القشتاليين . ولكن الرأي العام ، كما حدث كثيراً في العصور الحديثة ، اضطره الى الاشتباك في حرب لم يدم نجاحها ، ذلك أن اندفاع أهل غرناطة ما لبث ان خمد ، وتمكن يوسف من ان يعقد معاهدة صلح مع الملك الشاب هنري الثالث بشروط ملائمة .

وكان يوسف الثاني قد أوصى قبل وفاته بالملك لابنه الأكبر المسمى هو أيضاً بيوسف ، والمشهور بالمقدرة والفضيلة ، ولكن الابن الأصغر ، واسمه محمود ، استولى لدى وفاة أبيه سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) على الملك وحبس أخاه في قلعة سالوبرينا .

وفي سنة ١٤٠٥ م غزا حرس الحدود القشتاليـة أراضي غرناطة ، ولكن يوسف ، بدلاً من أن يطلب ترضية من ملكهم ،أخذ على عاتقه أن يؤدبهم بنفسه ، وكانت الخسائر في الحرب التي تلت متساوية تقريباً . وعندما توفي محمد السادس في سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) أخرج سيدي يوسف من سجنه ونودي به ملكاً على البلاد ، وكان أول ما قام به أن مدّد عقد الهدنة بينه وبين القشتاليين . وبعد عامين اثنين نشبت الحرب من جديد بين الفريقين ، ولكنها لم تكن حرباً حاسمة ، وأعقبتها هدنة انتهت بعقد صلح دامت طيلة حياة يوسف . وكان على عرش قشتالة في هذه الفترة الطفل ابن هنري الثالث ، تحت وصاية أمه التي كانت تقدّر الملك العربي وتحترمه إلى أبعد الحدود ، فكانت العلاقات بين الطرفين ودية للغاية ، كما كانا في كل سنة يتبادلان الهدايا الثمينة ، ويتراسلان بالكتب المليئة بالعواطف الحارة ؛ وفي عهده ساد الأمن وزاد الرخاء ، ونعمت البلاد بنعمة السلام الذي لم تعرفه من زمن طويل .

وفاة يوسف الثالث (٨٢٧ هـ ، ١٤٢٣ م)

توفي هذا الملك الطيب بعد حكم دام خمس عشرة سنة ، فحزن عليه الشعب بأسره حزناً عميقاً ، وبموته انتهت أيام غرناطة السعيدة . وقد خلفه ابنه محمد الملقب بالأيسر ، وكان متعجرفاً ، حاد الطباع . ولذلك فانه سريعاً ما جلب عليه كره أهل غرناطة جميعاً وأبطل الأعياد العامة والبرجاس الذي كان عزيزاً جداً على أهل غرناطة ، وأحدث عدة أنظمة أخرى لا تتفق وطبيعة الشعب المحب للمرح . ولذلك ثار عليه الناس فجأة وطردوه من العاصمة ، ثم استُدعي اليها ثانية فطُرد من جديد ، واستولى على العرش أحد الاشراف ، واسمه يوسف ، أحد أفراد الأسرة الحاكمة ، وذلك بمساعدة جون الثاني ، ملك قشتالة . غير أن يوسف هذا لم يلبث أن توفي بعد بضعة أشهر ، فاسترد محمد السابع ملكه من جديد . وفي سنة ١٤٣٣ م غزا القشتاليون غرناطة ، ومع انهم منوا بهزيمة منكرة عند أسوار ارشيدونة ، فانهم خربوا جزءاً كبيراً من منطقة وادي الآش وسهول غرناطة . وفي سنة ١٤٤٤ م عُزل محمدٌ نهائياً على يدي ابن أخيه ابن الأحنف ، الملقب أيضاً بمحمد ، فاكتسب قلوب الناس بكرمه واعترفوا به ملكاً عليهم .

إلا أن عدداً كبيراً من الأمراء قصدوا إلى قشتالة وبايعوا سعداً الملقب بابن اسماعيل[1] ، ابن عم الأحنف ، الذي كان قد التجأ الى جون الثاني ، فعاد ابن اسماعيل على رأس جيش كبير من القشتاليين ، وبصحبته الأمراء الساخطون ، وغزا غرناطة ، ودامت الحرب الأهلية بين المسلمين خمس سنوات بكاملها . وقد هُزم ابن الأحنف في نهاية الأمر سنة ١٤٥٤م ، ونادى ابن اسماعيل بنفسه ملكاً ، وتربع على عرش بني الأحمر . وكان أول عمل قام به أن أرسل الرسل والهدايا إلى هنري الرابع ، ملك

---

١ ـ حفيد السلطان يوسف الثاني من ابنه الامير علي.

قشتالة ، لتجديد معاهدة الصلح ، ولكن ملك قشتالة رفض طلبه وغزا غرناطة ، واشتبك معه في حرب دامت عدة سنين . ولقد لقي المسلمون على أيدي الاسبان المسيحيين جميع ضروب التنكيل ، ذلك انهم أحرقوا منازلهم ، وخربوا حقولهم ومزارعهم ، وقوضوا قصورهم الجميلة ، وجداول الري بصورة يستحيل معها اصلاحها . في ذلك النزاع كان كل شيء في صالح المسيحيين ، وحتى انتصارات المسلمين لم تجدهم فتيلاً ، ذلك أن المدن والقرى القشتالية الآهلة بالسكان كانت نائية جداً، وكانت مملكة غرناطة الآن محصورة بين البحر وجبال الفيرا وسلسلة جبال البشرات. وهكذا استولى جيش قشتالة على أرشيدونه وجبل طارق ، فقضت هذه الكوارث على عزيمة ابن اسماعيل ، ورأى انه لو طالت تلك الحرب اذن لدمرت المملكة إلى الأبد ، ولذلك أقدم على كل تضحية في سبيل عقد الصلح ، فاعترف بسلطان هنري الرابع ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف قطعة ذهبية ، وأبرمت هذه المعاهدة في مقابلة شخصية تمت بين الملكين على مقربة من غرناطة ، ودام ذلك الصلح حتى وفاة ابن اسماعيل في سنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م) .

الفصل الثلاثون

العرب في الاندلس (تتمة)

٨٧١ - ١٠١٦هـ ؛ ١٤٦٦ - ١٦١٠م

الكفاح الاخير - حصار غرناطة - تسليم غرناطة - خيانة فرديناند وازابلة - اضطهاد مسلمي اسبانية - طردهم نهائيا - ضياع اسبانية

تولية أبي الحسن عليّ

توفي ابن اسماعيل فخلفه ابنه الأكبر علي ، الملقب بأبي الحسن ، وكان شجاعاً ، شهماً ، موهوباً . ولو انه وجد شعباً متحداً يؤازره اذن لاستطاع على الأرجح أن يستعيد مجد أسلافه ، وأن يحافظ على سلامة مملكته،ولكن ذلك كان مستحيلاً من الوجهة العملية بالنظر إلى انقسامات الشعب على نفسه . ومما زاد في سرعة خراب الدولة تهوره وثورة ابنه. وفي سنة ١٤٦٩م أدى زواج فرديناند وإزابلة إلى توحيد قوات قشتالة

وأراغون وليون تحت راية واحدة . ولما كان كل من فرديناند وازابلة شديد التعصب،ويعتبر أن من واجبه الديني حرق المراطقة الكفار وسفك دمائهم ، وعازماً عزماً وطيداً على القضاء على البقية الباقية من معالم المدنية في اسبانية ، فقد انتظرا بفارغ الصبر انتهاء مدة الهدنة التي كانت قد عقدت بينهما وبين أبي الحسن بناء على طلبها ونتيجة للاضطرابات الداخلية في بلديهما . غير أن رفض ملك غرناطة ذلك الرفض الأبي أن يدفع الجزية التي كان أبوه قد وافق على دفعها أثار فيهما الغضب والحقد وأوجد الفرصة التي طالما تمنيا انتهازها . وما كادت الهدنة تنقضي حتى دفعه تهوره إلى أن يبدأ الحرب بالهجوم على مدينة الزهراء والاستيلاء عليها في يوم عاصف ممطر ، وبذلك أطلق عليه وعلى مملكتـه ذلك التعصب وتلك الوحشية التي لم يمسك بها حتى ذلك الحين إلا الاضطرابات الداخلية في شمالي اسبانية . ولقد رأى المفكرون العرب في تهور الملك نذيراً بخراب بلادهم ، وعبّر أحد الفقهاء في قاعة استقبال الملك عما يجيش في الصدور بقوله : « ان قصور الزهراء سوف تنهار على رؤوس المسلمين ، وان ايام دولة المسلمين في اسبانية أصبحت معدودة ! » ولما رأى القشتاليون صعوبة الاستيلاء على الزهراء التي كان أبو الحسن قد حصنها وأقام فيها حاميات قوية ، قاموا بدورهم بهجوم ليلي مفاجىء على مدينة (الحما) المحصنة التي كانت تقع عند سفح الجبل على بعد خمسة عشر فرسخاً من العاصمة ، والتي كانت لذلك تحمي المدخل إلى أراضي غرناطة . وبالرغم من الدفاع البطولي الذي أبدته حامية المدينة فقد استولى القشتاليون عليها وأعملوا السيف دونما رحمة أو شفقة حتى في رقاب النساء والأطفال الذين اعتصموا بالمسجد الجامع . وهكذا سقطت (الحما) التي كانت في يوم مضى مدينة مزدهرة ، وأصبحت بين عشية وضحاها مقـبرة واسعة ، واتضح بسقوطها مصير غرناطة ، وارتفع النواح والعويل من المسلمين على مصير سكانها وحاميتها ، ولعنوا الجنون الذي أدى إلى تلك الكارثة .

وقد قام أبو الحسن بمحاولتين لاستعادة المدينة ، فأخفقت الأولى ، وكاد يتحقق بالظفر في الثانية عندما وردت أنباء ثورة في العاصمة بقيادة ابنه أبو عبدالله محمد ، فتوقف الجيش عن مواصلة القتال ، وظهرت مساوىء تعدد الزوجات في تلك الأزمة الخطيرة وأثره في مصائر المسلمين الاسبان ، فقد كان لأبي الحسن زوجتان ، احداهما ابنة عمه واسمها عائشة ، والأخرى اسبانية (مسيحية) نبيلة المحتد ، واسمها ايزابيل ، ويسميها العرب بالزهراء ، وكان أبو الحسن يميل اليها وإلى أولادها ، فحسدتها عائشة على نفوذها ، وحرّضت ابنها أبا عبدالله على الثورة على أبيه ، ورشت قسماً من الحامية والشعب ، فنادوا بابنها الشاب ملكاً عليهم . وأسرع أبو الحسن في العودة إلى غرناطة التي تحولت إلى ميدان للقتال بين الفريقين ، ثم عقدت هدنة بين الأب وابنه مكّنت الملك الشيخ من انقاذ لوجا أو لوشا التي كان يحاصرها القشتاليون ، ومن الاستيلاء على كانيت . غير أن هذه الانتصارات لم تجده نفعاً ، ذلك انه علم أن ابنه الثائر قد نجح في الاستيلاء على قلعة الحمراء ، ونادى بنفسه ملكاً على غرناطة بأسرها ، وعندئذ ارتد أبو الحسن إلى مالقة التي كان أخوه أبو عبدالله محمد الملقب بالزغال حاكماً عليها ، ولم يبق تحت سلطانه سوى مدينتي وادي آش والبستة .

وإذ كان فرديناند وايزابلة يتحرقان إلى الثأر للهزيمة التي أصابت جيوشهما عند مدينة لاكسا ، فقد سيّرا قوة كبيرة على ولاية مالقة فانتصرت انتصاراً عظيماً في بادىء الأمر « إذا استطعنا أن نسمي انتصاراً حرق المزارع وقطع أشجار الزيتون والكروم ، وتخريب القرى المزدهرة وسلب المواشي ، والفتك بالناس العزّل من السلاح[1] » .

وبينما كان القشتاليون منهمكين على هذا النحو بسرور وانشراح هاجمهم

---

١ ـ كونـدي .

الزغال وقائده رضوان في الجبال الشرقية فأعملا في رقابهم السيف وأنزلا بهم خسارة كبيرة في الأرواح . ولم تكن قضية العرب في الأندلس قد بلغت مبلغ اليأس التام ، ولكن حادثاً جديداً دبره الخائن أبو عبدالله غيّر مجرى الحوادث بالكلية ،وذلك أن أبا عبدالله السيء الحظ أراد أن يجاري انتصارات عمه الزغال الذي أصبح اسمه على كل شفة ولسان في غرناطة ، فهاجم مدينة لوسينا القشتالية فهزم هزيمة منكرة ووقع أسيراً في قبضة أعدائه . وفي تلك الأثناء تنازل أبو الحسن عن العرش للزغال الشجاع وانسحب مع عائلته ومتاعه إلى مدينة اللورة ، ومنها إلى المونيكار حيث توفي سريعاً بعد وصوله اليها .

وقد اعتبر فرديناند وازابلة أسرَ أبي عبدالله معونة أسدتها العناية الإلهية لقضيتهما ،إذ رأيا فيه أصلح أداة لبث بذور الشقاق والخلاف في غرناطة ، ولتقسيم قواها العسكرية ، ولتدمير المملكة المنكودة الطالع آخر الأمر . وإذ كان أبو عبدالله ضعيفاً متقلباً صغير النفس فقد غدا كالخاتم في اصبع فرديناند الذكي والقوي الشخصية ؛ وتمكن الملكان من اقناعه بأن يصبح خادمهما الأمين . « وحالما شعرا بأنهما قد استوليا بالكلية على صنيعتهما » أعاداه إلى غرناطة مجهزاً بالرجال والأموال والعتاد ، فتمكن أبو عبدالله ، بمساعدة القشتاليين وعدد من أهل غرناطة الذين كانت عائشة قد رشتهم ، من الاستيلاء على ضاحية البزين ،وهكذا وقعت غرناطة مرة أخرى فريسة للحروب الداخلية المدمرة . واقترح الزغال على أبي عبدالله أن يحكما البلاد معاً ، وان يشتركا في مقاومة العدو المشترك ،ولكن الفتى الضعيف رفض كل اقتراح . وانتهز القشتاليون فرصة هذا النـــزاع المميت بين الزغال وأبي عبدالله فاستولوا تباعاً على اللورة وقصر بونيله ورنده وبعض المدن المهمة الأخرى ، وسقطت لاكسا ، التي عجزوا عن اخضاعهـــا مـــراراً عديدة من قبل ، في أيديهم سنة ١٤٨٦ م ، وبعد سنة واحدة استولوا على مالقة . ولقد حاول الزغال مرة واحدة انقاذ هذه المدينة ،

ولكن أبا عبدالله منعه من ذلك ، وذهبت به الخسة إلى درجة انه أرسل يهنىء فرديناند على فتح هذه المدينة الاسلامية .

وبالرغم من أن هذه المدن قد استسلمت بشرط تأمين سكانها على أرواحهم،فان فرديناند لم يتردد حالما استولى عليها في أن يحنث بوعده ، فأمر بادخال جميع سكانها في ربقة العبودية أو بنفيهم من منازلهم وبلادهم . ولم يبق في يد الزغال سوى بايزه والميره وفيره وخوسكار وبضعة أماكن أخرى ، وتحالف فرديناند سراً مع أبي عبدالله على أن يعطيه جميع البلاد التي يستولي عليها من الزغال ، ووفى الخائن المسكين وفاءً كاملاً بهذا الوعد خشية أن يطرده الزغال، الذي سبق له أن قهر فرديناند في عدة مواقع ، من غرناطة إذا لم يساعد ملك قشتالة. وهكذا تمكن فرديناند من أن ينقض بجميع قواته على بايزه،فيئس الزغال واستنجد بملوك المسلمين في افريقية الذين كانوا وقتئذ منهمكين في القتال بعضهم مع بعض فلم ينجدوه . ومع ذلك فقد دافع المسلمون دفاع الأبطال ، واستطاع الزغال أن ينجح مرات عديدة في صد القشتاليين عن أسوار عاصمته ، ولكن خطط فرديناند العسكرية الماهرة أدت بالمدينة إلى المجاعة فاضطرت إلى التسليم . وما ان دخل القشتاليون المدينة حتى نقضوا ، كعادتهم ، الشروط التي اتفقوا عليها مع أهلها ، فطردوهم بقسوة من منازلهم ، واستولى الملك والملكة الصالحان على أموالهم وأمتعتهم واستطاعا، بالرشوة ، أن يقنعا حكام قلاع البشرات ومدنها بالتسليم ، حتى اضطر الزغال ، الذي ناضل حتى ذلك الحين ببطولة رائعة من أجل حرية شعبه ، إلى تقديم خضوعه لفرديناند وازابلة ، فاقطعاه منطقة اندراكس، ولقباه بالسلطان،ولكنهما لم يسمحا له بالتمتع طويلاً في منطقته الصغيرة ، بل نفياه بعد سنة واحدة إلى افريقية .

ولم يبق الآن في أيدي المسلمين غير غرناطة وملحقاتها المباشرة . أما أبو عبدالله ، الذي اعتبر سقوط الزغال فرجاً له ، فانه ما لبث أن أدرك نوايا أصدقائه المسيحيين نحوه ، ذلك انه ما ان تخلص فرديناند من الزغال حتى طلب الى عبدالله تسليم غرناطة ، فلما رفض اتخذ فرديناند رفضه ذريعة وحجة ، فأعمل الحديد والنار في منطقة غرناطة الخصبة ، وارتد إلى قرطبة بعد أن خرّب منطقة فيغا وحوّلها الى أرض بلقع .

وأصبحت الحرب الآن حرب حياة أو موت ، إذ كان يتوقف عليها مصير المسلمين ،فعزموا بقيادة موسى بن أبي الغزان ، وكان من أشهر فرسانهم على القتال بعد أن شددت كلماته حتى من عزيمة أبي عبدالله نفسه ، وصمموا على نقل الحرب إلى أراضي العدو ، فنجحوا فعلاً في الاستيلاء على بعض مراكزه الأمامية . غير انه ما ان عاد الربيع حتى دخل فرديناند سهول غرناطة مرة أخرى بجيش قوامه أربعون ألف راجل وعشرة آلاف خيال ،واستأنف أعمال الفتك والتخريب ، فأتلف المحاصيل الزراعية وأشجار الفاكهة ، وأحرق المنازل ، وذبح السكان العزّل ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل الحضارة في اسبانية ، فاعتصم أهل فيغا بالعاصمة . « لقد سبق لهم أن صمدوا للعدو طيلة عشر سنوات وناضلوه عن كل شبر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه باستبسال كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . أما الآن فلم يبق لهم شيء سوى العاصمة ، فحبسوا أنفسهم داخل أسوارها في يأس تام » . وقاوم المسلمون عدوهم فترة من الزمن بقوة وشجاعة ، ولم تكن المواصلات بين العاصمة والبشرات قد قُطعت بعد ، فكانت المؤن ترد دون انقطاع للمحصورين من منطقة سيرانيفادة ، بينما كان موسى يخرج بنفسه كل يوم تقريباً على الأعداء بحملات قوية كان الفرسان المسلمون يقتلون فيها مناوئيهم ويقضون على أحسن فرسانهم ، مما حمل فرديناند على أن يشدد الحصار على العاصمة

ويمنع عن أهلها المؤن بغية تجويعهم حتى يستسلموا اليه ، فقام المسلمون بمحاولة يائسة لخرق الحصار ولكنهم فشلوا بالنظر إلى ان حامية المدينة كان قد انهكها الضعف والجوع ، وعندئذ صمم المحاصَرون على التسليم ، إذ كانت المجاعة قد فعلت فيهم ما لم تستطعه القوة وحدها ، فأرسلوا الى معسكر قشتالة وفداً لوضع شروط التسليم ، وبعد مؤتمر طويل توصل الفريقان إلى الاتفاق على الشروط التالية : إذا لم ترد للمسلمين نجدة من البر أو البحر خلال شهرين سلموا مدينة غرناطة للمسيحيين ، وعندئذ يكون على السلطان والقواد والوزراء والشيوخ أن يقسموا يمين الطاعة لملوك قشتالة ؛ ويُمنح أبو عبدالله بعض الأملاك في البكراس ؛ ويؤمن ملك قشتالة المسلمين ، كبارهم وصغارهم ، على أرواحهم وأملاكهم وأسلحتهم وخيولهم دون قيد أو شرط ؛ ويسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية ، ويصون جوامعهم ومؤسساتهم الدينية ؛ ولا يمنع المؤذنين من الأذان للصلاة ، ويسمح لهم بالاحتفاظ بعاداتهم ولغتهم وزيهم وبأن يفصل في خلافاتهم قضاة من بني قومهم ، وفي معاملاتهم مع المسيحيين محكمة مختلطة من المسيحيين والمسلمين ، ولا يفرض عليهم ضريبة تفوق ما كانوا يؤدونه لملوكهم ، ولا يسمح لمسيحي بالدخول الى منزل مسلم عنوة أو يهينه إطلاقاً ، ويطلق سراح جميع الأسرى المسلمين ، ويسمح لكل من يرغب في العبور الى افريقية من المسلمين ضمن مدة معينة ان يفعل ذلك في سفن قشتالة دون استيفاء اجور تفوق اجور السفر العادية ، ولا يمنع بعد انقضاء المدة المعينة أي مسلم من السفر إلا بعد أن يدفع ، علاوة على اجرة السفر ، عُشر أمواله التي يمكنه حملها معه ، ولا يضطهد أو يعاقب مسلماً بجريمة غيره ؛ ولا يجبر أي مسيحي اعتنق الاسلام على الارتداد إلى دينه القديم ، ويمنح أي مسلم يرغب في اعتناق الدين المسيحي بضعة أيام للتفكير في الخطوة التي سيقدم عليها ليناقشه من ثم قاضي مسلم بحضور حاكم مسيحي ، حتى إذا أصرّ على موقفه سُمح له

باعتناق المسيحية ، ويحرم على الجنود المسيحيين اساءة معاملة المسلمين أو نقلهم من منازلهم دون ارادتهم ؛ ويؤمن المسلم الذي يرغب في السفر أو الاقامة بين المسيحيين على سلامته وأمواله ؛ ولا يجبر المسلمون على حمل علامات فارقة كالتي كان يحملها اليهود .

ولم يعترض على التسليم غير موسى ، وحذر قومه من الوثوق بوعود القشتاليين الكاذبة ، وتوسل اليهم أن يهبوا دفعة واحدة لفك الحصار عن مدينتهم ، ومما قاله لهم : « ان الموت أعذب من الذل والأسار ، وان من المحال أن يفي القشتاليون بوعودهم لأنهم متهيئون للبطش بالمسلمين» . ثم قال : « ان الموت في ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من اهانة وتحقير واذلال ونهب وتدنيس للجوامع وانتهاك لشرف النساء » . وختم كلامه بقوله : « سيكون مصيرنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم أن يستأصلوا شأفتنا » . ولما رأى موسى أن كلماته لم تؤثر في مستمعيه ألقى نظرة احتقار على بني قومه الذين تجمعوا في المجلس وامتطى صهوة جواده وخرج من باب المدينة . « ويقال انه بينما كان في طريقه التقى جماعة من فرسان المسيحيين فقبل تحديهم وفتك بالكثيرين منهم قبل أن يسقط من على صهوة جواده ، ومع ذلك فقد رفض الرأفة التي عرضوها عليه واستمر يقاتل بعناد وهو جاث على ركبتيه حتى خارت قواه ، ثم بذل جهداً أخيراً وألقى نفسه في النهر فغرق في أعماقه » .

وكان المسلمون قد أوفدوا الرسل يتوسلون النجدة من سلطاني مصر والروم ، ولكن المهلة انقضت دون أن تلوح في الأفق أية علامة من علامات الخلاص ، وهكذا ، في الثالث من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٩٢ م ، استولى القشتاليون على غرناطة . وفي الواقع « كانت ساعة شؤم تلك التي حل فيها الصليب محل الهلال على أبراج غرناطة» ،

ذلك انه بافتتاح تلك المدينة على يدي الاسبان المسيحيين قُضي إلى الأبد على الحياة العقلية والنشاط الصناعي في شبه الجزيرة .

وسار أبو عبدالله مع أسرته إلى البكراس حيث كان ينوي الإقامة ، ولما وصل إلى جبال بادول ألقى نظرة أخيرة على غرناطة وبكى، فقالت له أمه التي كانت المحرض له على ما فعل : «أجل، ابكِ كالنساء مُلكاً مضاعاً ، لم تحافظ عليه مثل الرجال » . وعاش أبو عبدالله مــدة قصيرة في « اندارة » ، ولكن فرديناند كان يعتبر وجوده في اسبانية خطراً عــلى سيادة قشتالة ، فنفاه إلى افريقية ، وعندئذ قصد أبو عبدالله إلى فاس حيث أقام حتى توفي في سنة ٩٣٠هـ (١٥٣٨م) .

لم يكن في نية فرديناند الصالح ولا ازابلة الورعة التقيد بشروط التسليم التي عقداها مع المسلمين الذين تذكروا سريعاً تحذير بطلهم الضائع عندما رأوا ما حل باليهود. كان اليهود قد ازدهرت أحوالهم في ظل الحكم الاسلامي المتسامح فهاجت ثرواتهم أطماع الملكين القشتاليين. وفي سنة ١٤٩٢ م أصدر فرديناند ، الذي كان يخفي دائماً سياسة الخديعة والغدر تحت رداء الدين والتقوى ، ويغدق الوعود من حيث ينوي الاخلال بها ، مرسوماً يقضي عليهم اما بالتخلي عن دينهم أو مغادرة البلاد ، ثم شرع في اضطهادهم وتعذيبهم وحرقهم ، أو نفيهم . وفي الوقت نفسه أخــذ في الاخلال بالشروط التي كان قد عقدها مع المسلمين، فلقوا على يديه الذل والأذى، وحظر عليهم اتباع قوانينهم الشرعية وتأدية شرائعهم الدينيــة ، وأكره الكثيرين منهم على التنصر . وهكذا أحدث غدر القشتاليين استياءً عظيماً بين الأهالي المسلمين . وامتشق أهل البزين السلاح ، فلم يؤد ذلك إلا إلى الامعان في إساءة معاملة المسلمين . وفي سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) تعرض المسلمون لاضطهاد عام ، إذ خيروا بين التنصر والاعدام، فخضع البعض، ولكن الكثرة تمسكت بدينها والتجأت إلى جبال الألب ، فهاجمهم

أعداؤهم فيها ، ولم يكتف القشتاليون بذبح الرجال ، بل نسفوا مسجداً كان النساء والأطفال قد اعتصموا فيه . وبالرغم من هذه المصائب والويلات التي حلت بالمسلمين فقد دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وفي سنة ١٥٠١م أحرزوا انتصاراً على أعدائهم في جبل بلنسية ، مما فتح لمن بقوا منهم أحياء باباً للخروج مع عائلاتهم إلى مراكش وتركية ومصر، غير أن صاحبي الجلالة المسيحيين صادرا أمتعتهم وأموالهم ، وأكرها الكثيرين الذين بقوا منهم على اعتناق النصرانية بقوة السيف .

ومع أن هؤلاء اكرهوا على اعتناق الدين المسيحي فانهم ظلوا في صميم قلوبهم وقرارة نفوسهم مسلمين ، إذ كانوا يؤدون صلواتهم سراً في مواقيتها [١] . « وكانوا يُعنون بازالة الماء المقدس عن أجسام أولادهم حالما يختفون عن أنظار الكاهن، ويعودون إلى منازلهم بعد مراسيم الزواج الكنسية ليعقدوا زواجهم حسب الشريعة الاسلامية . ولو انه كانت هناك حكومة حكيمة شريفة احترمت الوعود التي أعطيت عند استسلام غرناطة إذن لوفرت على نفسها خطر هذا السخط الخفي ، ولكن حكام اسبانية لم يكونوا حكماء ولا شرفاء في معاملتهم الموريسكيين ، بل اشتطوا في قسوتهم وخطلهم على مر الزمن »[٢] . وكان هؤلاء « المسيحيون بالاسم » تحت رقابة شديدة ، وكانت أقل امارة من امارات الارتداد تعرض صاحبها لعقاب ديوان التحقيق ، وهكذا أشعلت نيران محارق غرناطة وقرطبة واشبيلية لتلتهم يوماً بعد يوم أعداداً من الرجال والنساء والأطفال . وقد لجأت الحكومة إلى كل وسيلة في مكنتها لكي تحول دون ثورة المسلمين عليها ، فأصدرت قانوناً يحرم اقتناء أية أداة حادة، حتى أصغر

---

١ ــ المقري .
٢ ــ لاين ــ بول .

سكين ، وهكذا قدّر على أولئك المتحدرين المنكودي الحظ من العنصر الذي افتتح اسبانية أن يتحملوا بصبر صنوف التعذيب التي سُلطت عليهم.

وفي سنة ١٥٦٨ م بلغت حالتهم مبلغاً لا يطاق ، ذلك أن المسيحيين لم يكتفوا بتجريد ضحاياهم من أملاكهم وأموالهم وامتيازاتهم، ومعاملتهم معاملة الأرقاء في الأرض التي كانوا فيما مضى حكاماً لها ، « بل سعوا إلى استئصال شأفتهم – والقضاء على كل أثر وذكر لماضيهم المجيد » .

وفي تلك الأثناء كان فيليب الثاني المتهوس المجنون متربعـاً على عرش اسبانية ، فحصل منه أسقف غرناطة ، وكان يجاريه تعصباً وبربرية ، على مرسوم يقضي على العرب بالتخلي عن لغتهم ، وعاداتهم ، وتقاليدهم في يوم واحد . « لقد أُمر « الكفرة » باطراح ملابسهم ، وارتـداء قبعات المسيحيين وأرديتهم ، وبالاقلاع عن الاستحـمام والاقتداء بقذارة حكامهم ، وبالتخلي عن لغتهم ، وعاداتهم ، واحتفالاتهم ، وحتى عن أسمائهم ، وبالتخاطب بالاسبانية ، وبالتصرف على الطريقة الاسبانيـة وبالتسمي بالأسماء الاسبانية » . وعندئذ دفعهم اليأس إلى الثورة ، ولكنه كان كفاحاً لا أمل فيه ، وبعد ثلاث سنوات من القتال المتواصل تمكن دون جوان النمساوي من سحق ثورتهم ، وأمعن فيهـم ذبحاً وقتـلاً وتخريبـاً ، فكان الرجال والنساء والأطفـال يذبحون على مرأى منه ، واستحالت قرى البكراس ووديانه إلى مقابر بشرية واسعة، وحتى اولئك المساكين الذين التجأوا إلى الكهوف لم ينجوا من الهلاك إذ اشعلت النار على أبوابها فقتل من بداخلها خنقاً بالدخان . ومع ذلك فان عدداً كبيراً من الموريسكيين ، كما كانوا يسمون العرب المتنصرين ، بقي في بلنسية ومرسية .

وفي سنة ١٦١٠ م أتم فيليب الثالث العمل الذي كان أبوه قد شرع فيه ، فنفى قسراً أكثر من نصف مليون من اولئك البائسين العزّل إلى افريقيـة وألقاهم على شواطئها دون مؤونة او مال . امـا اولئك الذين

كانوا يعيشون في الداخل ، والذين يقال ان عددهم بلغ ما لا يقل عن مئتي ألف ، فقد طردوا دونما رحمة أو شفقة عبر الحدود إلى فرنسة حيث اضطر من بقي منهم حياً بعد مظالم الاسبان ومشاقّ الارتحال إلى الابحار إلى الأقطار الاسلامية . وقد بلغ عدد الذين طردوا من اسبانية منذ سقوط غرناطة حتى عهد الملك فيليب الثالث ثلاثة ملايين نسمة !

وهكذا اختفى من أرض الأندلس شعب شجاع مستنير استطاع بجده وجهوده أن يعيد الحياة إلى شبه الجزيرة الذي ظل ميتاً أجرد في أيام القوط ؛ شعب استطاع أن يحوّل الأندلس إلى جنة وارفة الظلال، وحمل مشعل العلم والمعرفة وسط ممالك تتخبط في دياجير الظلام والجهل؛ شعب نشر الثقافة وبثّ الحضارة ووضع اسس الفروسية — شعب خلق في الواقع ، أوروبة الحديثة . ولكن ما هو الشيء الذي جنته اسبانية من طرد العرب ؟ ان الأندلس الجميلة ، التي ظلت قروناً عديدة موطناً للثقافة والعلم والفنون ، تقهقرت ثانيةً الى حالة من العقم وأصبحت مرادفاً للقفر العقلي والأخلاقي . « ان وحشية أبدية » كما يقول كوندي — وكان هو نفسه اسبانياً — « تكتنف البلاد التي أنارها (العرب) وأخصبوها بوجودهم . ان طبيعتها لم تتغير ، فهي باسمةٌ شأنها دائماً . ولكن الناس هم الذين تغيروا وتبدل دينهم ، وما تزال بعض آثار العرب الشامخة تعلو على الخراب الذي يعم تلك البلاد المقفرة ، إلا أنه، من وسط هذه الآثار، من هذه الخرائب الباردة ، تنبعث صيحة الحق: المجد والعظمة للعرب المنهزمين ، والانحلال والبؤس للاسبان الظافرين».

الفصل الحادي والثلاثون

نظرة عامة

مملكة غرناطة ـ مدينة غرناطة ـ الحمراء ـ الجامع العارف ـ الفنون والعلوم في غرناطة ـ الملابس ـ نظرة عامة على اسبانية تحت حكم العرب ـ الحكومة ـ الادارة ـ الحالة الاقتصادية ـ المصنوعات ـ الزراعة ـ الفنون الجميلة ـ العلم ـ مركز النساء ـ الاديبات والمثقفات ـ الملاهي ·

مملكة غرناطة

كانت مملكة غرناطة تتألف من أجزاء اسبانية الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة ، ولم تتعد مساحتها ، في أوج ازدهارها ، سبعين فرسخاً طولاً من الشرق الى الغرب ، وعشرين فرسخاً عرضاً من الشمال إلى الجنوب . في داخل هذه الرقعة الضيقة كانت غرناطة تضم جميع المصادر الطبيعية التي تحتاج اليها كل امبراطورية عظيمة ، وكانت تتخلل وديانها العريضة جبال غنية بالثروة المعدنية ، وكان سكانها يزودون الدولة بالفلاحين والجنود . وكانت الجداول الغزيرة من المياه

تغذي مراعيها ومروجها ، والموانىء الفسيحة تزين سواحلها ، وكان فيها ثلاثون مدينة ، وثمانون قصبة محصّنة ، وعدة آلاف من القرى المسوّرة . وكان سهل (غوطة) غرناطة ، الذي يسمى الآن « الفيغا دي غرانادا » ، المسرح الذي جرت فيه المعركة الفاصلة ، ومساحته ثلاثون فرسخاً ، وكان يخترقه نهرا « شينيل »[1] و « الدورو »[2] ، وثلاثة أنهر أخرى تنبع من جبال شولير بجوار (سيرانيفادة) المجاورة ، ويزدان بالأحراج والحدائق والكروم والقصور والمنازل والفيلات ، فكان منظر السهل من أجمل المناظر وأروعها . وقد خصّ العرب سهل غرناطة هذا بجهودهم واستنفدوا فيه جميع قدرتهم الزراعية ، ووزعوا مياه نهري شينيل والدورو على عدد لا يحصى من القنوات ، وتمكنوا بمهارتهم من الحصول على مواسم متتابعة من الفاكهة والغلال طوال أيام السنة ، ونجحوا نجاحاً باهراً في زراعة نباتات أكثر المناطق اختلافاً من حيث المناخ ، وكانوا يصدرون كميات كبيرة من الحرير والكتان من المرية ومالقة إلى المدن الايطالية التي أخذت تنتعش منذ ذلك الحين . وكانت مصنوعات غرناطة عديدة ومختلفة ، وكانت كل مدينة مشتهرة بصناعة خاصة بها . وكانت ثغور « مملكة بني الأحمر » تزخر بالسفن الأوروبية والمشرقية والأفريقية ، وأصبحت عاصمتها « مدينة جميع الأمم » ، وعُرف أهالي غرناطة بالأمانة والاستقامة وصدق المعاملة ، وكان الناس يثقون بكلمتهم أكثر من ثقتهم بالصكوك التي كان يوقعها الاسبانيون المسيحيون . وعلاوة على المنسوجات والمعادن الثمينة كان أهالي غرناطة يصدرون كميات كبيرة من المواد الأولية ، وبخاصة القنب والحرير ، وكانت فلورنسا تستورد أكبر كمية من حاجتها من الحرير من ثغري المرية ومالقة .

---

١ ــ ويسمى ايضا شنجيل .

٢ ــ وهو نهر الحدارة الذي كتب عنه ابن الخطيب ، ويسميه الرومان نهر صالون .

وكانت مدينة غرناطة كالبرج الشامخ وسط الغوطة ، وكان قسم منها يقع ، شأنه اليوم ، في الفيغـا ، والقسم الآخر عند سفح التلال التي شيدت عليها ضواحٍ ريفية مرتفعة وزاخرة بالسكان . وكان نهر الدورو يسيل عبر المدينة ، وبعد أن يزود منازلها وأسواقها وطواحينها وحماماتها بكفايتها من المياه ، يعود فينساب في سهلها ويعطيه الحياة والخصب .

وفي زمن بني ناصر كان يحيط بغرناطة سور متين له اثنا عشر باباً ويعلوه ألف وثلاثون برجاً ، وكانت القلعة (القصبة) في الوسط . وكان لكل بيت في المدينة حديقتــه الخاصة المغروسة بأشجار الليمون والبرتقال والطرنج والآس واللوز والخمائل ذات الشذى العطر ، كما كان فيه مورده الخاص من المياه الجارية . وكان في كل شارع من شوارع المدينة عدد كبير من نوافير المياه ، كما كانت البيوت في غـاية الأناقة وبلغ عدد سكان مدينة غرناطة في منتصف القرن الخامس عشر أربعمئة ألف نسمة .

وعلى قمة إحدى التلال المقابلة لغرناطة بنى ابن الأحمر قلعة المدينة أو المدينة الحمراء التي كانت تستوعب أربعين ألف رجل .

ان من المستحيل علينا أن نوفي في هذا المجال الضيق حق هذا العمل، الذي سُمي بعمل الجن ، من الوصف . فالأبراج والقـلاع والقصور ، بفنها المعماري الدقيق ، وأروقتها وأعمدتهـا الجميلة ، وقببها وسقوفها بأصباغها اللماعة التي لم تفقد شيئاً من رونقها الأصلي حتى اليوم، وقاعاتها الفسيحة المشيدة بحيث تسمح بدخول شذا الجنائن المحيطة بها ، ونوافيرها التي كان لأصحابها سيطرة كاملة عليهـا فترتفع مياهها أو تنخفض ، وتظهر وتختفي ، كما يشاؤون ، والأبنيـة المنقوشة بالأصباغ والمزدانة بالفسيفساء الدقيقة الصنع والمنارة بظلال مختلفة ، منها الذهبي والقرمزي

والأزرق والارجواني، وبهو السباع بأعمدته الجميلة المئة والثمانية والعشرين ، وأرصفته البيضاء والزرقاء ، وتناسق ألوانها القرمزية واللازوردية والذهبية، وتماثيل السباع التي يجري الماء من أفواهها ، والبركة المرمرية ، وايوان الموسيقى الفخم حيث كان رجال البلاط يجلسون ويستمعون إلى الأنغام الموسيقية تنساب من المنصات العالية ، وسراي الحريم الفخمة ، كل هذا يحتاج إلى قلم بارع يوفيه حقه من الوصف .

الجامع العارف

ومقابل الحمراء ، جانب جبل شديد الانحدار ، بني القصر الملكي المشهور « الجامع العارف » وكان ، كقصر الحمراء، يقع ضمن أسوار . وقد وصفه أحد الكتّاب البارعين فقال : « انه هو أيضاً تحفة جميلة تزخر بالبرك والأحراج والأزهار ، وان لم يبق إلا القليل من أدواحه الباسقة كشجر السرو والآس . وكان في البساتين شرفات تهبط درجات وتتخللها مجار من المياه تنبع من قمم الجبال ثم تؤلف شلالات عديدة تختفي بين الأشجار والشجيرات المزهرة .

العلوم والفنون

وكان ملوك غرناطة يتنافسون وخلفاء قرطبة في رعايتهم للعلوم والفنون وتشييد المباني العامة . وفي ظل حكمهم المتسامح المستنير أصبحت غرناطة موطن الكثيرين من العلماء والأدباء والشعراء الأفذاذ والجنود والأبطال .

الأدبيات والمثقفات

ولم تكن فتيات غرناطة أقل شهرة في الأدب من فتيانها ، وكان منهن زينب وحمدة وحفصة والقلاية ومارية اللاتي أكسبن مسقط رأسهن شهرة خالدة لا تمّحي على الدهر . ولم يرعَ ملوك غرناطة ويشجعوا الأدب

وحده، بل ازدهرت في عهدهم علوم التاريخ والجغرافية والفلسفة والفلك والعلوم الطبيعية والطب والموسيقى .

وكانت ادارة كل جامعة توكل إلى رئيس ينتخب من أشهر رجال العلم والأدب،وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كان هذا المنصب السامي في جامعة غرناطة موكلاً إلى سراج الدين أبي جعفر الحكمي ، ولم تكن تراعى في اسناد هذا المنصب أية اعتبارات دينية ، إذ كثيراً ما أسند إلى علماء من اليهود أو المسيحيين .

وقد جرت العادة في الجامعات العربية الاسبانية اقامة احتفالات تذكارية سنوية واجتماعات دورية يدعى اليها الجمهور ويلقي فيها أبرز الشخصيات الجامعية القصائد والخطب .

لباس الرأس للرجال

كانت العمامة قد اطرحت من لباس الجنود منذ زمن طويل ، وفي بلنسية ، ومرسية ، والولايات الشرقية بوجه عام ، اطرحها حتى القضاة والفقهاء ، واستبدلوا بها القبعات . ويقول كاتب معاصر ان علاّمة شهيراً قد دخل ذات يوم حاسر الرأس على سلطان مرسية ، وان ابن هود وابن الأحمر لم يرتديا العمامة اطلاقاً .

أما في المناطق الغربية ، كقرطبة واشبيلية ، فكان الفقهاء والقضاة عامةً يلبسون العمائم ، ولكنها كانت أصغر حجماً بكثير من الزي الذي كان شائعاً في آسية ، ويقول لنا التاريخ ان مسلمي اسبانية كانوا يدهشون أيما دهش لدى رؤيتهم عمامة ضخمة على رأس أحد اخوانهم المشرقيين . وكان الملوك والأمراء وأفراد الطبقة الارستوقراطية والجنود وقسم كبير من السكان يتزيون بزي جيرانهم الفرنج،ويلبسون لباسهم «وكان سلاحهم كسلاحهم،وكذلك أقبيتهم وأعلامهم وسروجهم ومحاربتهم بالتروس والرماح الطويلة للطعن، كما كانوا يلبسون فوق الدروع سترة قرمزية مزركشة» .

ويقال عن المسلمين الاسبان انهم كانوا أشد خلق الله اعتناءً بنظافتهم ونظافة ملابسهم وداخل بيوتهم « والواقع انهم ذهبوا في نظافتهم إلى درجة انه لم يكن غريباً أن ينفق رجل من أدنى الطبقات آخر درهم في جيبه لابتياع قطعة من الصابون بدلاً من ابتياع قوت يومه ، وان يبقى دونما طعام،مفضلاً ذلك على ظهوره في الأماكن العامة في ثياب وسخة».

مراجعة عامة

تحدثنا فيما تقدم عن غرناطة وقرطبة ، فيجدر بنا أن نلقي الآن نظرة عامة على نظام الادارة وطريقة الحكم عند عرب الأندلس ، وعلى حالة البلاد الاقتصادية والثقافية في ظل حكمهم .

الحكومة

بينما كان السلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، كان الوزراء يتولون الادارة الفعلية ، كما كان الحال في الشرق ، وكان على رأس كل وزارة وزير خاص . والذي يبدو انه كانت هناك وزارات رئيسية أربع : المالية ، والخارجية ، وادارة القضاء والنظر في حوائج المتظلمين ، وادارة الجيش ودفع مرتبات الجند . وكان لقب الوزير يمنح أيضاً لمستشاري السلطان ، إلا انه للتمييز بين الوزراء الذين كانوا يديرون شؤون الدولة والوزراء من أعضاء مجلس الخليفة كان الوزير من الفئة الأولى يسمى بالوزير ذي الوزارتين ، وكان رئيس الوزراء، المعروف في آسية بالوزير الأكبر ، يسمى بالحاجب ، وكان على اتصال مباشر بالسلطان ، يتلقى منه الأوامر الملكية . وكان الوزراء يجلسون جميعاً في ايوان واحد ، ولكن كرسي رئيس الوزراء كان أعلى من كراسي سائر الوزراء ،

وكان للمستشارين الخاصين حق الجلوس مع الخليفة في ايوان الخلافة كالوزراء سواء بسواء .

أمناء سر الدولة

وكان هناك عددٌ من أمناء سر الدولة ، أو كتّاب الدولة ، وكان أعلاهم منصباً رئيس ديوان كتابة الرسائل، ومن بينهم أيضاً كاتب الزمام الذي كانت تعهد اليه العناية بالذمين . أما الإشراف على الحسابات العامة فكان في عهدة « صاحب الأشغال » الـذي كان منصبه يعادل منصب وزير المال في عصرنا هذا ، ذلك ان دائرته كانت تتلقى الواردات ، وتفرض الضرائب ، وتصرف النفقات ، وكان صاحب هذه الوظيفة في مملكة غرناطة يسمى « الوكيل » . ولما لم يكن هناك أمين سر دولة في غرناطة ، فقد كان مجلس الرسائل في عهدة الوزير ، وكان السلطان نفسه يختم الرسائل والمراسيم . وفي عهد بني الأحمر وبني مرين الأفارقة أصبح « صاحب الأشغال » مجرد جابٍ للواردات .

القضاة

وكان منصب « القاضي » في اسبانية على جانب عظيم من الأهمية والجلال ، وكثيراً ما كان قاضي القضاة يسمى بقاضي الجماعة .

الشرطة

وكان رئيس الشرطة يسمى ، كما كان يسمى في الشرق ، بصاحب الشرطة ، وكانت له في أيام خلفاء قرطبة سلطات واسعة ، ولكنه أصبح في عهود السلالات المتأخرة مجرد « مفوض للشرطة » . وكان حاكم المدينة يسمى « صاحب المدينة » وأحياناً « صاحب الليل » ، وكان

خاضعاً لرقابة القاضي واشرافه . أما « المحتسب » فكان يمارس وظيفته كما في مدن آسية وافريقية ، فكان يتثبت من صحة المكاييل والأوزان التي يستعملها التجار ، ويفتش الأسواق ، ويمنع الاخلال بالأمن، ويعاقب على الغش . وكان حراس الليل يسمون « الدرّابين » أو « البوابين » ، وكانت مهمتهم اقفال أبواب المدينة الداخلية بعد صلاة العشاء ، وكانوا مسلحين دائماً ، ويحملون المصابيح وتصحبهم كلاب الحراسة الضخمة .

وفي العصور الأولى كان القائد البحري يدعى « أمير الماء » . وقد حرّف الفرنج هذا اللقب فقالوا : « الميرانت » ، ثم أخذها عنهم العرب فقالوا : « الميلانـــد » . وفي عهد عبد الرحمن الناصر وخلفائه اطلق على صاحب هذا المنصب السامي لقب « قائد الاسطول » . وكان الامويون والموحدون يملكون اسطولاً أبقوه في حالة من الفعالية العظيمة، وكانت قواتهم البحرية تبز قوات الأمم المسيحية البحرية مجتمعة . وكما يقول ابن خلدون فان فقدان هذه السيطرة هو الذي ساعد كثيراً على اضمحلال سلطان المسلمين .

الزراعة

لم يتمتع بلدٌ في العالم بدرجة من الازدهار الزراعي أرفع من الازدهار الذي تمتعت به اسبانية في عهد العرب ، ذلك أنهم رفعوا الزراعة وجعلوها علماً من العلوم قائماً بذاته ، واستطاعوا بمهارتهم ومعرفتهم العظيمة أن ينموا مصادر البلاد ويطوروها بطريقة مدهشة . واذ كانوا ملمين الماماً دقيقاً بملاءمة مختلف أنواع التربة لمختلف أنواع النباتات ، وباستعمال مختلف أنواع الأسمدة لأنواع معينة من الأشجار والنباتات ، فقد تمكنوا من تحويل أكثر الأراضي قحلاً إلى جنات وارفة الظلال . والاسبانيون مدينون للعرب بادخال زراعة الأرز وقصب السكر والقطن والزعفران والسبانخ وتلك المجموعة التي لا تحصى من أشجار الفاكهة التي اشتهر

بها شبه الجزيرة اليوم ، وأخذتها عنه أقطار أوروبية مختلفة .

كان كل نوع من التربة يخصص لزراعة النباتات والأشجار التي تلائمه أكثر ما يكون ، فقد ترك العرب في ولاية بلنسية غياضاً واسعة من شجر النخيل ، وزرعوا الأرز بكميات كبيرة في البوفيرا ، وأشجار الزيتون في أراضي اشبيلية والقسم الأعظم من بلاد الأندلس ، وأنشأوا في كافة البلاد المجاري والترع لاخصاب التربة .

كذلك صنع العرب الحديد والفولاذ بكميات كبيرة ، وكان فولاذهم ممتازاً إلى درجة أن سيوف غرناطة كانت تُفضل على جميع سيوف اسبانية الأخرى . وأدخل العرب إلى الأندلس صناعة الحرير والقطن ، وكانوا يصنعون أيضاً الملابس الصوفية الفائقة الجودة ، وبرعوا بوجه خاص في الصباغة . والمزهريات التي ما تزال محفوظة في قصر الحمراء ، والبلاط الزاهي الذي يشكل زينة خاصة لذلك القصر المنيف ، تدل على مدى تقدمهم في صناعة الخزف . أما صادراتهم فكانت الذهب والفضة والنحاس والحرير الخام والمصنوع ودودة القز والزئبق وحديد الزهر والحديد المصبوب والزيتون والمصنوعات الصوفية والعنبر وصمغ العنبر وحجر المغنطيس والاثمد والطلق والبلور والزيت والسكر والكبريت والزعفران والزنجبيل والمر وغير ذلك من الأدوية المختلفة الأخرى .

واشتهروا بوجه خاص بدباغة الجلود والصباغة ، وتزيين الجلود بالنقوش البارزة ، هذه الصناعة التي قُضي عليها تماماً منذ خروج العرب ، ونقلت إلى فاس ، ثم إلى انكلترة حيث أطلق عليها اسم الموروكو . كذلك أدخل العرب إلى اسبانية صناعة البارود والسكر والورق .

الفنون الجميلة

ولم يهمل العرب في اسبانية الفنون الجميلة ، بل تفوقوا على جيرانهم

المسيحيين في صناعة النحت والرسم الزيتي . ونحن نعلم أن قصور الخلفاء في قرطبة ، وبخاصة قصر الزهراء ، مزينة بالتماثيل والرسوم الزيتية الجميلة التي ما تزال باقية حتى الآن في قصر الحمراء ، والتي تشهد على تطور هذين الفنين في غرناطة . ولم تخل أية مدينة من المدن ، مهما كانت صغيرة ، من الكليات والمدارس ، بينما كان لكل مدينة رئيسية جامعتها الخاصة ، وكانت جامعات اشبيلية ومالقة وسرقسطة ولشبونة وجيان وسلمنقة وغيرها تحتل أرفع مكانة في جميع أنحاء العالم .

ومن بين العديد من المؤرخين الذين جادت بهم اسبانية الاسلامية المؤرخون المشهورون : ابن حيان ، وابن العيار ، وأبو عبدالله البكري ، وابن البشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى) ، وابن السعيد (أبو الحسن علي) والاشقندي (أبو الوليد اسماعيل من أهل اشقوندة) وابن الخطيب (لسان الدين) .

ولقد ذكرت فيما تقدم أسماء بعض أديبات غرناطة ، ويجدر بنا هنا أن نسمي الشاعرات والأديبات اللواتي تألق نجمهن قبل ذلك في قرطبة وغيرها ، وهن حسانة التميمية ابنة أبي الحسن الشاعر ، وأم العلا ، اللتان تألق نجمها في القرن السادس للهجرة ، وامة العزيز ، من سلالة الرسول ، ولذلك لقبت بالشريفة ، والغسانية ، من أهالي باجينة التي اشتهرت في القرن الخامس .

وكانت العاروزية ، التي عاشت في بلنسية ، قد اشتهرت في البلاغة والنحو ، وتوفيت في دينية سنة ٤٥٠هـ . أما حفصة الراقونية ، « التي اشتهرت بجمالها ومواهبها ونبل محتدها وواسع ثروتها » فقد تألق نجمها في أيام الموحدين ، بينما كانت حفصة ، ابنة حمدون ، ومن أهالي وادي الحجارة ، من أشهر الشاعرات والأديبات في القرن الرابع للهجرة .

وبالاضافة إلى هؤلاء كان هناك زينب المرابية ، من أهالي وادي الآش ، التي عاشت في زمن الحاجب المظفر ، ومريم بنت أبي يعقوب

الأنصاري من اشبيلية ، وكانت أديبة شاعرة فاضلة اجتمع حولها كثيرات من طالبات العلم ، وتوفيت في أواخر القرن الرابع للهجرة ، وأسماء العامرية من اشبيلية أيضاً ، وأم الهنا بنت القاضي أبي محمد عبد الحق ابن عطية الفقيهة المشهورة ، وبهجة القرطبية التي كانت صديقة لولادة بنت المستكفي المشهورة بجمالها وقصائدها .

هذا الوصف الذي قدمناه لاسبانية لا يكون كاملاً إلا إذا أسمينا مشاهير الأطباء والفلاسفة الذين ألقوا مثل هذا النور الساطع على مسقط رأسهم ، وهم :

أبو بكر محمد بن يحي الملقب بابن الصائغ المعروف بابن باجة ، من أهالي سرقوسة ، واشتهر في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك ، وكان فوق ذلك يتقن الموسيقى أعظم الاتقان ، وتوفي في فاس سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) .

وابن طفيل (أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل) وكان من أشهر فلاسفة العرب في اسبانية . ولد في وادي الآش ونبغ في الطب والرياضيات والفلسفة والشعر ، وكان أبو يعقوب يوسف ، ثاني ملوك دولة الموحدين ، يقدره أعظم التقدير . وتوفي ابن طفيل في مراكش سنة ٥٨١هـ (١١٨٥م) واشترك يعقوب المنصور ، ابن يوسف وخليفته ، في تشييع جنازته شخصياً . ولعل كتاب ابن طفيل « حي بن يقظان » من أوائل الكتب في الدين الطبيعي .

وابن زهر ، وكان من أهالي اشبيلية ومن عائلة موهوبة كان جميع أفرادها علماء أو أطباء أو وزراء . « وقد توصل الكثيرون منهم إلى أرفع المناصب في الدولة ، وكانوا يتمتعون بنفوذ عظيم وسلطة واسعة » . وكان ابن زهر كبير أطباء أبي يوسف يعقوب المنصور ، وتوفي سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) .

وابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد) ، ولد سنة ٥٢٠هـ

(١١٢٦ م) ، وشغل جـــده وأبوه منصب قاضي قضاة الأندلس في عهد المرابطين ، وكان صديقاً لأبـي مروان، ابن زهر،وابن طفيل الذي قدّمه لأبـي يعقوب يوسف . وفي سنة ١١٠٩ م عين ابن رشد قاضياً لاشبيلية ، وفي سنة ١١٨٢ م قاضياً لقرطبة ، وتوفي في التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (كانون الأول « ديسمبر » سنة ١١٩٨ م) .

الفصل الثاني والثلاثون

العرب في افريقية
١٦٩ – ٥٦٧ هـ ؛ ٧٨٥ – ١١٧١ م

الادارسة – الاغالبة – غزو صقلية – احتلالهما – سقوط دولة الاغالبة – الفاطميون – احتلال مصر – تاسيس القاهرة – فتح الشام والحجاز واليمن – تدهور الدولة الفاطمية – انقراضها – القاهرة – محفل الاسماعيلية الاكبر .

كانت الممتلكات الافريقيــة ، حتى عهـد المهدي ، ثالث الخلفاء العباسيين ، تعترف كلهــا بسلطان العباسيين . وفي عهد الهادي ، فرّ ادريس[1] ، أحد أحفاد الحسن الأول ، إلى موريتانيا ، وهناك ، بمساعدة قبائل البربر ، التي رضيت به رئيساً وإمامــاً لها ، أسس مملكة قوية ازدهرت فترة طويلة في افريقية الشماليــة . وابتنى ادريس مدينة فاس وجعلها عاصمــة مملكته وأصبحت في ظل ادارته المتفتحة مركزاً شهيراً

١ – ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب .

للعلم والثقافة . ويقال ان ادريس قد توفي مسموماً على يد رسول أوفده العباسيون، فخلفه على العرش ابنه الطفل ادريس تحت وصاية أمه والوزير غالب . وقد أثبت ادريس الثاني انه محاربٌ بطل ، وقام بعدة فتوحات في الجنوب ، ويقول ابن خلدون : « أن الدعوة العباسية كانت قد امتدت في ذلك الحين في المغرب (موريتانيا) من سوس إلى شلف » . ولما توفي سنة ٢١٣ هـ (٨٢٥ م) خلفه ابنه محمدٌ على كرسي الخلافة ، والذي يبدو أن سياسته القائمة على اسناد مناصب الولاة إلى عدد من أفراد أسرته قد نجحت نجاحاً عظيماً ، ذلك أن جميع إخوته الذين عينهم ولاة قد ظلوا — باستثناء واحد منهم — مخلصين له حتى النهاية .

ولما توفي محمد في سنة ٢٢١ هـ (٨٣٣ م) خلفه ابنه علي، وكان عندئذ في التاسعة من عمره ، فبايعه الجميع مخلصين وأدار رجال أبيه الامناء شؤون الدولة بنجاح باهر حمل أحد المؤرخين على القول « ان في عهده حسنت أحوال الرعية » وقد توفي علي وهو في الثانية والعشرين من عمره دون أن يعقب ولداً ، فبويع بالخلافة أخوه يحيى بن محمد ، وكان ذلك في سنة ٢٣٤ هـ (٨٥٦ م) . وفي أثناء حكمه الطويل وسّع سلطانه في جميع الجهات وازدادت البلاد ثروة ورغداً ، كما وسّع مدينة فاس وجملها فتدفق عليها الناس من كل حدب وصوب .

وفي سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) توفي يحيى فخلفه ابنه المسمى بهذا الاسم أيضاً ، وأدى اضطهاده وظلمه إلى نشوب ثورة انتهت بطرده من المملكة ففر إلى اسبانية حيث وافته منيته .

ولما عُزل يحيى الثاني نادى ابن عمه ، علي بن عمر ، بنفسه سيداً على العاصمة ، غير أن فاس لم تدم في قبضته طويلاً ، إذ أجبرته ثورة قام بها الخوارج على الالتجاء إلى الأندلس ، وعندئذ بايع أهل فاس يحيى ، حفيد ادريس الثاني ، بالإمامة والخلافة ، وكان عالماً فقيهاً

ملماً بالحديث فنجح بعض الوقت في إخضاع جميع أجزاء الدولة الادريسية القديمة لسلطانه ، غير أن عهـــده انتهى فجأة في سنة ٣٠٩ ﻫ عندما طرده من مملكتـــه حاكم مكناسة الفاطمي ، فاعتزل الحياة العامة وعاش في المهدية حتى وافاه أجله في سنة ٣٣١ ﻫ ، وبسقوطه انقرضت الخلافة الادريسية .

وقد استقل عندئذ مختلف الامراء بالولايات البعيدة واتخذوا لأنفسهم القاباً ملكية ، وفي سنة ٣١٩ ﻫ أرسل عبد الرحمن الثالث (الناصر) حملة على افريقية وضُم قسمٌ كبير من موريتانيا ونُفي كثير من الأمراء الأدارسة إلى قرطبة ، وهكذا سقطت مراكش الغربية في أيدي الخلفاء الأندلسيين ، بينما اعترف قسمها الشرقي بسلطان الفاطميين .

الأغالبة

ذكرنا سابقاً كيف أنّ افريقية أصبحت في سنة ١٨٤ﻫ ولايـة تتمتع بالحكم الذاتي .

وكان أول أمراء هذه الاسرة « ابراهيم بن الأغلب » الذي اشتهر بقدرته الادارية وهمتـــه وقوة شخصيته . وقد أسس ابراهيم في جوار القيروان مدينة جديدة أسماها « العباسية » وجعلها قاعدة حكومته، وامتد حكمـــه الى أكثر من اثنتي عشرة سنة ، ولمـــا توفي في سنة ١٩٦ ﻫ (٨١٢ م) خلفه ابنه عبدالله ، فخلا عهده من الاضطرابات والفوضى ، ونعمت الأمارة بالأمن والسلام التامين ، وعاش سكانها في رخاء وسعة. ولما توفي في السادس من ذي الحجة سنة ٢٠١ ﻫ (٨١٧ م) خلفه أخوه « زيادة الله » وكان أميراً على جانب عظيم من المقـــدرة والطموح ، ومشجعاً كبيراً للفنون والعلوم ، غير أنه كان حادّ الطباع مهملاً لأمور الرعية مما أدى إلى نشوب فتنـــة كبيرة ضده ، وبعد قتال عظيم هُزم الثائرون وعاد الأمن إلى نصابه ثانية في سنة ٢٠٨ أو ٢٠٩ﻫ .

الاستيلاء على صقلية

كان العرب قد احتلوا منذ زمن طويل القسم الجنوبي من صقلية ، ولم يبدأ إخضاع الجزيرة بصورة نظامية تامة إلا في عهد « زيادة الله » الأغلبي . ففي سنة ٢١٢هـ أرسل إلى صقلية جيشاً كبيراً بقيادة أسد بن الفرات ، قاضي القيروان . وقد اختلفت الروايات الاسلامية والمسيحية في السبب الرئيسي لهذا الغزو ، ففي الرواية النصرانية ان شاباً بيزنطياً يدعى يوفيلاوس غرّر باحدى الراهبات فأخرجها من الدير فحكم عليه الامبراطور بقطع لسانه فالتجأ إلى المسلمين في افريقية وحملهم على ارسال الحملة التي جعلت صقلية كلها في النهاية تحت سلطان العرب . أما المؤرخون العرب فلا يأتون على ذكر الراهبة اطلاقاً . ويقول ابن الأثير : « ان سبب ارسال الجيش هو ان ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريكاً اسمه قسطنطين عام ٢١١هـ ، فلما وصل اليها عيّن رومياً اسمه فيمي قائداً على الأسطول . وقد كان حازماً وشجاعاً فغزا افريقية وأعمل فيها يد النهب والتخريب ؛ ولكن ملك الروم لم يلبث أن كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي وتعذيبه ، فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامعه شق عصا الطاعة ، وفي الحال سار اليه قسطنطين واقتتل الفريقان حتى حلت الهزيمة بقسطنطين الذي لم يلبث أن فرّ إلى مدينة قطانية ، وعندئذ زحف عليه فيمي بجيش كبير طفق يقاتله حتى قبض عليه وفتك به ، ثم نادى بنفسه ملكاً على تلك الجزيرة ، كما استعمل على أحد أقسامها رجلاً اسمه بلاطة لم يلبث هو الآخر أن شق عصا الطاعة مع ابن عم له اسمه ميخائيل حاكم مدينة بلرم ، فجمع الاثنان جيشاً لجباً وقاتلا فيمي وألحقا به هزيمة منكرة ، واستولى بلاطة على مدينة سرقوسة . ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى أرسل فيمي إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية ، فسيّر معه جيشاً في

ربيع الأول عام ٢١٢هـ فوصلا إلى مدينة « مازر » حيث تقابلا مع جيش حاشد من الروم ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الروم واستيلاء المسلمين على أموالهم ودوابهم » . وعندئذ هرب بلاطة إلى قلورية حيث توفي بعد قليل . وقد تمكن المسلمون من أن يخضعوا سريعاً لسلطانهم عدداً كبيراً من قلاع الجزيرة ، وحاصروا سرقوسة ، غير أن وباءً انتشر في معسكر المسلمين فهلك به « أسد بن الفرات » وعدد كبير من جنوده ، فاضطر خليفته ، محمد بن أبي الجواري إلى رفع الحصار عن سرقوسة بعد وصول النجدات البيزنطية . غير أن المسلمين نجحوا في الاستيلاء على ميناو وجرجنت وأقاموا فيهما حاميات قوية ، ولكنهم خسروا حليفهم فيمي الذي مات مسموماً . وقد توفي محمد بن أبي الجواري بعد قليل ، فتولى مكانه زهير بن غوث ، وبذل الروم الذين كانت قد وصلتهم في ابان ذلك نجدات كبيرة من القسطنطينية قصارى جهدهم لطرد الغزاة من الجزيرة ، فحاصروهم في ميناو ، ولكن الامدادات لم تلبث أن وصلت اليهم لحسن الحظ من الأندلس وافريقية ، فانسحب الروم إلى سرقوسة ، وعاد المسلمون إلى الزحف مرة ثانية ، وفي سنة ٢١٦هـ أعلنت العاصمة بلرم خضوعها واستسلمت بشروط ملائمة . ويعتبر احتلال مدينة بلرم في الواقع بدء احتلال الجزيرة،ومع أن جزءاً كبيراً منها كان قد خضع للحكم العربي فان الادارة النظامية لم تستحدث فيها إلا بعد أن وصل اليها « أبو الأغلب ابراهيم بن عبدالله » من أسرة زيادة الله،بوصفه حاكماً مدنياً وعسكرياً لجزيرة صقلية ، وفي عهده تم الاستيلاء على المناطق المجاورة لجبل أتنة (جبل النار) .

وفي سنة ٢٢٣هـ توفي زيادة الله فخلفه أخوه أبو عقال الأغلب ، وكان عهده عهد رخاء ورفاهية ، وسيّر الامدادات إلى صقلية واستولى على عدة معاقل على ساحل كلابريا في جنوبي ايطالية .

وفي سنة ٢٢٦ ﻫ توفي الأغلب بعد حكم قصير دام عامين وسبعة أشهر، وخلفه ابنه أبو العباس محمد ، وكان مولعاً بالعمارة واداريا حكيماً .

وفي سنة ٢٢٨ ﻫ نزل الفضل بن جعفر الحمداني ، قائد حاكم صقلية، في مكان بالقرب من مسيني ، فقاومت هذه المدينة الهجوم الاسلامي طيلة سنتين معتمدة على المساعدات التي كانت تردها من نابولي ، ولكنهـا استسلمت أخيراً وفازت بشروط سخية . وفي سنة ٢٣٢ ﻫ استولى الفضل على مدينــة لنتيني ، وتوغل بجيشه المظفر في الأرض الكبرى مكتسحاً كلابريا وكامبانيا ، وبلغ عدد المدن التي استولى عليها أو فرض عليها الجزية أكثر من مئة وخمسين مدينة . وأبحر أسطول العرب في نهر التيبر فخرّب فاندي وضواحي روما وحاصر غيطة ، ولكن انقسامات العرب الداخلية أنقذت العاصمة من الوقوع في أيديهم . وفي سنـة ٢٣٣ ﻫ نزل العرب في مدينة « تارنتو »،وأخضعوا في سنة ٢٣٤ ﻫ مدينة «راغوس». وفي سنة ٢٣٥ ﻫ جددوا هجومهم على روما ، فهبت عاصفة هائلة مفاجئة تغلبت على مهارة البحارة الأبطال وشجاعتهم وأنقذت مدينــة البابا من أيدي العرب الذين تحطم أسطولهم على صخور الشاطىء وجزره . وفي رجب سنة ٢٦٦ ﻫ توفي أمير صقلية ابن عبدالله في بلرم،فولى المستوطنون العرب عليهم العباس بن الفضل وثبته أمير افريقية. وواصل العباس أعمال الفتح في صقلية وتمكن في سنتي ٢٣٩ و ٢٤٩ ﻫ من إخضاع « قطانية» و « قلعة أبي ثور » وعدة مدن أخرى .

وتوفي العباس حاكم صقلية في سنة ٢٤٧ ﻫ فولى الناس مكانه ابنـه عبـــدالله وكتبوا بذلك إلى أبي ابراهيم أمير افريقية الأغلبي فأقره على الولاية،ولكن لم يلبث أن حل محله خفاجة بن سفيان . وفي سنة ٢٥٠ ﻫ

استولى المسلمون على مدينة نوطس القديمة المهمة ، وتمكنوا في خلال السنوات القليلة التالية من إخضاع سرقوسة التي كانت قد قاومتهم حتى ذلك الحين ، و « أبا » و « ساتاس » و « قصر الجديد » . وفي سنة ٢٥٤ هـ حاصر محمد بن خفاجة مدينة غيطة ثانية وأخضع ضواحي مدينة روما . وتوفي ابن خفاجة في سنة ٢٥٥ هـ فخلفه ابنه محمد وسيّر ابان حكمه اسطولاً بقيادة أحمد بن عمر فاستولى على مالطة ، ولم يلبث أن قُتل في قصره في الثالث من شهر رجب من عام ٢٥٧ هـ .

كان عليّ ، للمحافظة على تسلسل الوقائع ، أن استبق تاريخ الولاية الافريقية : ذلك ان أبا العباس توفي سنة ٢٤٢ هـ ، فخلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد ، فاستتب الأمن والسلام في عهده في ربوع الامارة كلها ، وعامل الناس معاملة مرضية فكانوا سعداء وعاشوا في ظله في رغد وبحبوحة ، وبنى عشرة آلاف حصن بالحجارة والآجر وقاية للبلاد من هجمات العدو . وتوفي أبو ابراهيم أحمد في سنة ٢٤٩ هـ فاعتلى أخوه أبو محمد زيادة الله عرش الامارة فجرى على سنن أجداده ، غير أنه توفي ولم يكن قد قضى في الحكم ثمانية عشر شهراً ، وعندئذ وُلي أخوه أبو عبد الله محمد وفيه يقول ابن الأثير : « انه كان أديباً عاقلاً حسن السيرة » ، وفي عهده استعاد الروم بعض ما كانوا قد فقدوه في صقلية ، وعندئذ بنى محمد عدداً من الحصون والمراكز الأمامية لصدهم ، ويقال انه استولى أيضاً على بعض الأراضي في الداخل ، وتوفي أبو عبد الله محمد في سنة ٢٦١هـ فخلفه أخوه ابراهيم .

وقد اشتهر ابراهيم في أول عهده بالعدل والاحسان لرعيته ، ولكنه أصيب في أواخر حكمه بمرض سفك الدماء الذي أدى به حتى إلى ذبح أولاده . وقد أثارت أخبار فظائعه غضب الخليفة المعتضد فأرسل في سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م) أمراً يقضي بعزله على الفور ، وعيّن مكانه ابنه أبا العباس عبد الله ، وكان وقتئذ في صقلية ، فارتدى ابراهيم على

اثر عزله ثيــاب النسّاك وأطلق سراح الجموع التي كان قد زجها في غيابات السجون وعبر البحر إلى صقليــة حيث اشترك في محاربة الروم وتوفي بعد ذلك بأمد قصير .

ولقد كان أبو العباس عبدالله حاكماً طيب القلب عــادلاً بارعاً في الحرب وادارة شؤون الدولة على حد سواء ، ولكنه اغتيل وهــو نائم على أيدي بعض عبيده بتحريض من ابنه أبـي مضر زيادة الله ، وكان قاتل والده هذا آخر من حكم افريقية من الاغالبة . فبعد أن فتك أبو مضر بالعبيد الذين استخدمهم لاغتيال أبيه انهمك في ضروب اللهـو والملذات فحل الخراب بالأمارة ، وفي الوقت نفسه نشبت ثورة في افريقية الشمالية غيرت مجرى الحوادث كلها .

قيام الدولة الفاطمية

وصفنا فيما سبق ، الانشقاق الذي حدث بين الشيعة عند وفاة الإمام جعفر ، وقلنا ان الأغلبية ارتضت إمامة موسى الكاظم الذي كان الإمام الراحل قد أوصى له بالامامة بعد وفاة ابنه ابراهيم،وان الآخرين تمسكوا بإمامة اسماعيل بن محمد الملقب بالمكتوم . ولقـد أدخل الاسماعيليون، كما أصبحوا يسمون منذ ذلك الحين ، على مر الزمن في مبادئهم كثيراً من الآراء السرية التي أخذوها عن الفلسفة المانية ، « وكانوا يرون أن لكل ظاهر باطنــاً ولكل تنزيل تأويلاً ، وكانوا يختلفون عن المسلمين في اعتقاداتهم اذ يعتبرون العبرة بالإيمان وليس بالأعمال » فسميت هذه الفئة المتطرفة من الاسماعيلية بالباطنية [1] ، وأثارت تعاليمهم ومعتقداتهم السرية شكوك العباسيين بطبيعة الحال فبثوا حولهم العيون والارصاد وأساءوا أحياناً معاملتهم .

---

١ ـ تفرع منها فرعان : القرامطة والحشاشون ، ويسمى الفرع الثاني في التواريـخ العربية « الباطنية » .

وعندما توفي محمد المكتوم خلفه في إمامة الاسماعيليين ابنه جعفر الصادق الذي خلفه عند وفاته ابنه محمد الملقب بالحبيب ، وكان رجلاً على جانب عظيم من المقدرة والطموح،وذا شخصية تشبه كثيراً محمداً الآخر، أبا السفاح والمنصور . وكان « الحبيب » يقيم في بلدة « السلمية » بجوار حمص ، ومنها كان يرسل دعاته إلى كافة الأقطار لاكتساب الأتباع ونشر الآراء الاسماعيلية . وهكذا انتشرت مبادىء طائفته سريعاً في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وافريقية الشمالية، وكان من أنشط دعاته وأشدهم نشاطاً أبو عبدالله الحسين الذي كان قبلاً محتسب البصرة وأصبح يعرف فيما بعد بالشيعي .

وفي سنة ٢٨٨ ﻫ سار أبو عبدالله إلى افريقية، وبفضل قدرته العجيبة على التبشير وقوة شخصيته ، مقرونتين إلى تقواه وتقشفه ، تمكن من أن يتمتع بنفوذ عظيم بين البربر ، وسريعاً ما انحازت اليه قبيلة كتامة الشديدة المراس وأعلنت ولاءها لامامة أهل البيت . وفي هذه الأثناء كان ابراهيم بن محمد حاكمَ افريقية ، فحاول أن يقمع الحركة الاسماعيلية ، ولكن أبا عبدالله تغلّب على جميع المصاعب ، كما أن تولي « زيادة الله » الضعيف مهّد السبيل لنشر الدعوة . فبينما كان الأغلبي « غارقاً في الملذات واللهو ، كان سلطان أبي عبدالله ينتشر في البلاد، وكان دعاته يبشرون بقرب ظهور المهدي » . وقد أرسل زيادة الله جيشين لسحق الشيعي ، ولكنهما مُنيا بهزيمتين منكرتين ، وعندئذ فرّ زيادة الله الى طرابلس ومنها الى آسية [١] .

ودخل أبو عبدالله بجيشه المظفر إلى عاصمة الأغالبة يوم السبت ، الأول من شهر رجب سنة ٢٩٦ ﻫ (٢٦ آذار « مارس » ٩٠٩ م) ،

---

١ ـ يقول ابن عساكر انه توفي في الرقة سنة ٢٩٦ ﻫ (٩٠٨ ـ ٩٠٩ م) .

وأرسل على الفور الحكام إلى مختلف أرجاء الولاية لتولي زمام الأمور في المدن وحفظ الأمن،وكان للسياسة الحكيمة الرحيمة التي دشنها أبو عبدالله تأثيرها في استمالة الرأي العام وإعداد الناس للترحيب بصاحب الدعوة ترحيباً حاراً مخلصاً .

وتوفي محمد الحبيب في أواخر القرن الثالث للهجرة ، تاركاً الإمامة لابنه عبيد الله،وقد خاطبه وهو على فراش الموت بقوله : « أنت المهدي المنتظر ، وستهاجر بعدي هجرة بعيــدة وتلقى محناً شديدة » . ولكن عبيد الله ظل يعيش عيشة هادئة في السلمية ، إلى أن تمكن الشيعي من اكتساب قبيلة كتامة وأصبحت تحت نفوذه تمامــاً ، وعندئذ أرسل إلى المهدي يتوسل اليه أن يحضر إلى افريقية ويتولى رئاسة الحركة ، فخرج عبيد الله فوراً مع ابنه أبي القاسم ، وأبي العباس (أخي الشيعي) ، وبعض أتباعه المخلصين ، وكلهم متنكرون بثياب التجار . وبالرغم من السرية التامة التي حافظ عليها أبو عبدالله في مراسلاته مع المهدي فقد تسرّب نبأ خروج عبيد الله من السلميـة إلى العباسيين ، وكتب الخليفـة المكتفي إلى مختلف ولايات الامبراطورية بأوصافه وأمر الولاة بأن يلقوا القبض على كل من يشتبهون بأمرهم ويزجوهم في السجون . وفي طرابلس ترك أبو العباس جماعــة المهدي وسار إلى القيروان حيث اكتشف أمره وزُج به في السجن ، بينما تمكن عبيد الله وابنــه من الفرار ووصلا في سنة ٢٩٦ هـ إلى « سجلماسة » ، وهي مدينة جميلة على السفح الجنوبي من جبل الأطلس ، وكانت يومئذ عاصمة بني مدرار ، وفي هذه المدينة خانهما الحظ ، إذ كان يحكمها أمير من البربر يدعى اليسع بن مدرار، وبعد أن أحسن اليسع استقبالهما وأكرمهما تلقى كتاباً من زيادة الله فقبض عليهما وألقى بهما في السجن .

ولكن الشيعي جهز على الفور جيشاً عظيماً ، وبعد أن أنقــذ أخاه أبا العباس من سجن زيادة الله في القيروان زحف على اليسع فهزمه وفتك

به ، وعندئـذ أسرع أبو عبدالله إلى السجن حيث كان المهدي وابنــه فأركبهما ومشى أمامهما على قدميه مع رؤساء قبيلة كتامة إلى المعسكر «وهو يبكي من شدة الفرح ويقول للناس : هذا مولاكم » .

وبعد أن مكثوا أربعين يوماً في « سجلماسة » ساروا إلى « رقادة » حيث بايع أهل القيروان المهدي بالخلافة . عندئذ توطد سلطانه في جميع أرجاء افريقية ، واعترف بخلافته الناس جميعاً، باستثناء نفر قليل منهم ، فعيّن الولاة على مختلف الولايات ومنها صقلية ، وبذل جهوداً عظيمة لاصلاح ما خرّبته الحروب . ولقد أثارت الهمة التي انصرف بها عبدالله لادارة شؤون الحكم حسد أبي العبــاس الذي منّى نفسه بأن يكون هو لآمر الناهي وان لا يكون المهدي سوى صورة وأداة طيعة في يده، ولذا فقد تآمر مع بعض رؤساء قبيلة كتامة على خلع الخليفة الفاطمي ، بل انه أغرى أبا عبدالله ، الذي كان حتى ذلك الحين أميناً مخلصاً ، ولم يألُ المهدي جهداً ولم يدخر وسعاً لمصالحة الاخوين ولكنهما رفضا التفاهم معه بعناد واصرار . وعندما اكتشف المهدي مؤامرة لاغتياله صمم على الفتك بهما . وهكذا قُتلا وهما في قصرهما ، ولكن قتلهما لم يمنعه من مواصلة أعمال الغزو والفتح ، فقد نجح في إخضاع القسم الأكبر من الأراضي التي امتدت من الصحراء الليبية إلى موريتانيا الغربية ، وبالرغم من جميع الجهود التي بذلها لفرض النظام وكبح جماح البربر الذين كانوا يؤلفون أكثرية الجيش ، فقد ارتكب في أثناء حروبه شناعات كثيرة أدت إلى نشوب ثورة عنيفة في عهد خلفه . وقد رأى المهدي أن يكون له عاصمة محصّنة تحصيناً قوياً بحيث تستطيع الصمود إذا ما نشبت ثورة مفاجئة على أسرته ، ولذلك خرج من تونس وراح يتفحص الساحل كله لاختيــار موقع منيع ، حتى اهتدى أخيراً إلى قطعة من الأرض داخلة في البحر ، وشرع في عام ٣٠٣هـ (٩١٦م) في بناء مدينته المهدية وأكملها في مدة خمس سنوات . وقد شيّد المهــدي حول مدينته سوراً قوياً له أبواب

حديدية، وبنى بداخلها قصوراً فخمة من المرمر، وجعل تحتها مستودعات كبيرة ملأها بالمؤن . وعندما رأى المهدي مدينته وقد تم بناؤها قال : « الآن اطمأننت على مصير الفواطم (الفاطميين) » . وكان حكم المهدي حازماً قوياً ، وحتى السيوطي يعترف « بأن عبدالله نشر العدل في الناس فمالوا اليه » . وفي سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢ م) أخضع الأدارسة لسلطانه ، ولكنه فشل في فتح مصر ، ولما لم يكتف بامتلاك موريتانيا تطلّع بشوق إلى اسبانية ، غير أن الموت لم يمهله حتى تتحقق أحلامه.

بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة توفي عبيد الله المهدي في الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ (آذار ٩٣٤ م) ، فخلفه ابنه « أبو القاسم محمد نذار » ولقب بالقائم بأمر الله ، وكان جندياً باسلاً تولى معظم معاركه الحربية بنفسه ، وكان أول خليفة فاطمي وجه عناية إلى تشييد اسطول قوي بغية السيطرة على البحر الأبيض المتوسط . وبعد أن وطد سلطانه من جديد على موريتانيا – باستثناء منطقة فاس – التي كان الأدارسة قد استولوا عليها، وجّه اهتمامه وأنظاره إلى القارة الأوروبية. كان القراصنة الايطاليون يغيرون على ثغور مملكته من « ليفورنو » و « بيزا » وبعض الموانيء الأخرى . ولذلك ثأر القائم لهذه الغارات واحتل ايطالية الجنوبية حتى مدينة « جائيتا » ، واستولت سفنه الحربية على جنوه التي ظلت في قبضة العرب ردحاً طويلاً من الزمن ، كما تم له إخضاع قسم لا يستهان به من لومباردي (الأنكابوردة) ، ولولا نشوب تلك الثورة الداخلية التي استنفدت جميع موارده ومهارته الحربية اذن لما كان هناك ريب في أن القائم كان باستطاعته إخضاع ايطالية بأسرها لسلطانه ، . فلسوء الحظ اشتد سخط الناس على شناعات البربر الوحشية فانفجر غضبهم وقاموا بثورتهم الهائلة في اللحظة التي كانت فيها الأمور مؤاتية أكثر ما يكون . وكان على رأس تلك الثورة خارجي اسمه « أبو يزيد مخلد بن كيراد » وكان مدرّساً استطاع بخطبه أن

بجمع من حوله عدداً كبيراً من الأتباع من جبال أوراس ، ودعا الخليفة الأندلسي الناصر إلى سحق الدعيّ الفاطميّ والاستيلاء على مملكته . وفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٢ — ٣ م) زحف أبو يزيد ، الـذي لقبه أتباعه بشيخ المسلمين ، من الجبال على رأس قوة كبيرة من القبائل المتوحشة ، واستطاع أن يوقع بالجيوش الفاطمية الهزيمـة تلو الهزيمة ، وان يستولي على المدن واحدة بعد أخرى ، مرتكباً في ابان ذلك أروع ضروب الفتك والسلب ، ولم يمض وقت طويل حتّى وقع ما كان المهدي قد توقعه ، فقد سقط القسم الأعظم من البلاد في قبضة المدرّس الخـارجي ، بينما اقتصر حكم القائم على المهدية وقليل من المدن المحصّنة عـلى الساحل . وقد حاول أبو يزيد الاستيلاء عنوة على العاصمة ، فهاجمها أربع مرات ، ولكنه كان يبوء كل مرة بالفشل الذريع ويصاب بخسائر فادحة ، وعندئذ شدد أبو يزيد الحصار عـلى المدينة وزحف على « سوس » وحاول أن يستولي عليها بالقوة .

وفيما كان أبو يزيد يشدد الحصار على « سوس » توفي القـائم بأمر الله ، وكانت وفاته في الثالث عشر من شهر شوال سنة ٣٣٥ هـ (١٨ أيار « مايو » سنـة ٩٤٦ م) فخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور بأمر الله ، وكان شاباً ذا طاقـة وعزم نادرين ، فاستطاع أن يصد تلك القبائل المتعصبة خطوة خطوة . ولمـا كان هؤلاء لم يظهروا أية امارة من امارات الرأفة في ابان انتصاراتهم ، فـان المنصور قابلهم بالمثل ابان اندحـارهم ، ولم يعفُ إلا عمن أعلن منهم الخضوع والاستسلام . أما أبو يزيد فقد فرّ إلى جبل سالات ، وهو جبل منيع قائم في الصحراء يستغرق اختراقه أحد عشر يوماً ، فتعقبه المنصور وحاصره مع أتباعه في قلعة جبال كتامة . وكان الصراع حول هذا المكان طويلاً ورهيباً ، وحـاول أبو يزيد أن يشق طريقه عـبر المحاصِرين ولكنهم تمكنوا منه وفتكوا به . ومع أن ابن أبي يزيد وبعضاً من أتباعه ظلوا

يثيرون المتاعب والفتن حيناً من الزمن ، فان افريقية بأسرها تقريباً عادت إلى الخضوع للحكم الفاطمي ، كما اعترفت به صقلية وقلورية التي كان سكانها العرب يعترفون بالسلطة الفاطمية حتى ذلك الحين اعترافاً جزئياً .

وفي سنة ٣٣٩ هـ عين المنصور أبا القاسم الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي والياً على صقلية وملحقاتها ، وظل هذا المنصب وراثياً في أسرة الحسن مدة طويلة من الزمن . وقد سير الحسن سفنه الحربية على الفرنج الذين كانوا قد أغاروا على قلورية ، فأنزل بهم هزيمة منكرة على شواطىء ايطالية ، ولكن موريتانيا ضاعت من يد المنصور ، ذلك أن ثورة أبي يزيد كانت قد مكنت الناصر ، الخليفة الأموي في الأندلس ، من الاستيلاء على جميع الممتلكات الادريسية .

وتوفي المنصور في شهر رمضان من سنة ٣٤١ هـ (آذار « مارس » سنة ٩٤٣م) ، فخلفه ابنه « أبو تميم معد » الملقب بالمعز لدين الله ، ويصفه المؤرخون ، حتى أعداء أسرته منهم ، بأنه كان حاكماً عاقلاً ، نشيطاً شهماً ، وعالماً ملماً بالعلوم والفلسفة ، ومشجعاً عظيماً للفنون والعلوم . كان دون ريب « مأمون المغرب » ، وفي عهده بلغت افريقية الشمالية ذروة الحضارة والازدهار ، فقد أسعد الرعية ورد المظالم وقمع الفتن بقوة وحزم ، وأقام الادارة على أساس منظم ، وسن القوانين للاتجار ، وقسم الامارات إلى مناطق وعهد بادارتها إلى رجال أكفاء ووضع تحت إمرتهم الشرطة والجنود لاقرار الأمن وحفظ النظام . كذلك أعاد المعز لدين الله تنظيم الجيش والأسطول ، وشجع التجارة والصناعة. وإذ كان المعز شهماً حباه الله بقدر كبير من اللباقة والمقدرة فقد استطاع أن يكتسب صداقة الزعماء — ان لم نقل حبهم — الذين كانوا ألد أعداء أبيه وجده ، فكان يستقبلهم بحفاوة ولطف كبيرين ، وبذلك حولهم من أعداء إلى أعوان مخلصين . وقد استرد قائده جوهر موريتانيا من الناصر الذي كان وقتئذ منهمكاً في مقاتلة الثوار المسيحيين في شمال

اسبانية ، بينما سحق « زيري بن مناد » ، رئيس صنهاجة ، الثائرين في منطقتي اوران وبوغيا ، « وهكذا توطدت سلطة المعز في افريقية والمغرب ، واتسعت رقعة دولته » . وفي سنة ٣٤٤ هـ استولت السفن الأندلسية على سفينة للمعز كانت تنقل شحنات إلى المغرب ، فغضب الخليفة الفاطمي للاهانة وأمر والي صقلية ، الحسن بن علي ، بالزحف على جوار سوسة ومرسية وتخريبها ، ومنذ ذلك الحين أصبح ذالك الملكان المسلمان عدوين يبددان قواتهما في قتال أحدهما الآخر بدلاً من أن يوحدا صفوفهما وقواتهما لغزو أوروبة . وكانت كريت قد وقعت في أيام المأمون في أيدي العرب الذين أخرجوا من قرطبة وبقيت في أيديهم منذ ذلك الحين فنشروا فيها المدنية والفنون والصناعة فأثرت وازدهرت . وفي سنة ٣٥٠هـ بذل البيزنطيون جهداً عظيماً لاستردادها فأنزل أسطولٌ مؤلف من سبعمئة سفينة حربية جيشاً هائلاً تغلب على العرب ومزق شملهم ، وارتكب الجنود البيزنطيون حينئذ من ضروب الفتك والسفك ما يفوق الوصف ، فكانوا يلقون السائل القطراني على الرجال ويحرقونهم وهم أحياء ، ولم يرحموا حتى الأطفال الرضّع والنساء الضعيفات .

غير ان العرب استعاضوا إلى درجة ما عن ضياع كريت بالقضاء على سلطان الروم في جزيرة صقلية ، إذ كان الروم ما يزالون يسيطرون في الجزيرة على بعض المدن التي كانوا يشنون غاراتهم على المسلمين منها ، ولذلك زحف أحمد بن الحسن ، حاكم الجزيرة ، على هذه المدن بقوة وشدة ، وأوقع بالجيش الذي أرسل من بيزنطة لانقاذ الروم خسائر فادحة في البر وأكره الجنود على الفرار إلى سفنهم ، وما كادوا يرفعون المراسي محاولين النجاة بأنفسهم حتى تعقبهم العرب ومزقوا شملهم وأغرقوهم ،

وفي نهاية ٣٥١ ﻫ خضعت الجزيرة بأكملها لسلطان العرب ، وتمتعت في عهد الامراء الكلبيين بالازدهار والغنى إلى درجة لم تعرفها قط في أيام غيرهم ، فقد شيدوا المساجد والكليات والمدارس في كل ناحية منها ، وشجعوا العلوم والفنون ، وشرعت جامعة الطب في بلرم تنافس أخواتها في بغداد وقرطبة .

مصر

وفي سنة ٣٥٦ ﻫ (٩٦٨ م) نشبت فتن خطيرة في مصر (عند وفاة كافور الاخشيدي) ، فدعا وجهاءُ البلاد الخليفة المعزّ إلى الاستيلاء على مصر وتوطيد الأمن والسلام في ربوعها فاستجاب المعز لطلبهم وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة جوهر ، ودخل القائد الفاطمي العاصمة (الفسطاط) دون مقاومة ، وفي ١٥ شعبان سنة ٣٥٨ ﻫ قرأ الخطبة في المسجد الجامع باسم المعزّ . وفي سنة ٣٥٩ ﻫ أمر جوهر باضافة « حي على خير العمل » إلى الأذان .

ولقد دشّن جوهر العهد الفاطمي في مصر بتشييد مدينة القاهرة الّتي أصبحت من بعد عاصمة المعزّ وخلفائه ، كما أخضع الحجاز والشام وقرأ الخطبة باسم المعزّ في الحرمين الشريفين ، وسحق القرامطة ، الذين كانوا ما يزالون يفرضون الاتاوات على الامراء المسلمين ، في معركة واحدة بالقرب من الفسطاط .

وكان المعزّ حتّى ذلك الحين قد بقي في افريقية ، ولكنه صمم على السير الى مصر بناءً على دعوات جوهر الملحة ، غير أنه قبل أن يقدم على مغادرة افريقية تفقّد بعناية مملكة آبائه ، وعيّن «بلوكين بن زيرا» والياً على افريقية ولقبه بسيف الدولة ، وأقر أحمد على ولاية صقلية ، واتخذ ترتيبات أخرى لضمان سلامة افريقية الشمالية وحسن ادارتها ، ثم

توجه إلى الشرق في شهر صفر من سنة ٣٦٢ ﻫ (تشرين الثاني «نوفمبر» ٩٧٢ م)،ودخل القاهرة في شهر رمضان ، وفي الخامس عشر منه تربع على عرش من ذهب وتقبل البيعة من مندوبي مصر والشام والحجاز .

وبالرغم من أن القرامطة كانوا قد منوا بالهزيمة على يد جوهر فانهم ظلوا يتمادون في جرأتهم ووقاحتهم الى أبعد الحدود ، وكانوا ما يزالون يتقاضون الاتاوات من دمشق . وقد أدى بهم رفض الحاكم الفاطمي الاستمرار في الدفع إلى الثورة عليه فهزموه وقتلوه واستولوا على مدينته، ثم ساروا لغزو مصر ولكن جيش المعز التقاهم في عين شمس (هليوبوليس) فأوقع بهم وهزمهم هزيمة مروعة ، وبذلك قضى عليهم نهائياً . وفيما كان الفاطميون منهمكين على هذا النحو في القضاء على القرامطة نادى أحد مماليك معز الدولة البويهي ، ويدعى « افتكين » بنفسه سيداً على دمشق وجوارها .

وفي يوم الجمعة ، الخامس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٥ ﻫ (٢٠ كانون الأول « ديسمبر » سنة ٩٧٥ م) توفي المعزّ فخلفه ابنه أبو المنصور نزار الملقب بالعزيز بالله ، ويصفه المؤرخون بأنه كان كريماً شجاعاً حكيماً شهماً « يميل إلى العفو حتى عند المقدرة » وقد أقرّ العزيز « بلوكين بن زيرا » وسائر الحكام الذين كان أبوه قد عينهم في مناصبهم ، وهزم افتكين الذي حاول نشر سلطانه في فلسطين وسواحل فينيقية وأخذه أسيراً ، ولكنه استقبله وأحسن معاملته فأخلص له حتى وافاه أجله .

وفي عهد العزيز نجح الفاطميون في غزو الشام كلها وجزء من الجزيرة ، ولم تكن الخطبة تقرأ باسمه في الحجاز واليمن وحدهما ، بل في الموصل وحلب وحماه وبعض المدن الأخرى أيضاً ، وامتدت حدود الامبراطورية الفاطمية من الفرات إلى الأطلسي ، وكانت تشتمل على القسم الأعظم من جزيرة العرب . وكان الجيش الفاطمي حتى ذلك الحين

يتألف من المغاربة الذين كانوا يمدونه بأخلص جنوده ، ولذلك كانوا يتمتعون بنفوذ عظيم ، فأنشأ العزيز فرقة من الأتراك والديلم كانت غايتها الظاهرية الوقوف في وجه البربر .

وفاة العزيز

وفي الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ (١٤ تشرين الأول « اكتوبر » سنة ٩٩٦ م) توفي العزيز في مدينة بلبيس في طريقه إلى الشام ، وبوفاته انطفأ مجد الدولة الفاطمية . وكان العزيز وهو على فراش الموت قد عهد بتربية ابنه ووريثه منصور إلى قاضي القضاة « محمد بن النعمان » و « أبي محمد حسن بن عمّار » الملقب بأمين الدولة ، رجاء أن يتمكن ولده تحت اشرافهما وبارشادهما من أن يتولى الحكم بنجاح وحكمة . وبويع المنصور بالخلافة ولقب بالحاكم بأمر الله ، غير أنه ما لبث أن وقع تحت تأثير شخص طموح متآمر يدعى «برجوان» ، وكان عدواً لابن عمار ، فأدت خصوماتهما ومنافساتهما إلى إحداث اضطرابات خطيرة في الشام ومصر معاً ، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت على « الحاكم » نفسه امارات الجنون ، فكثيراً ما كان يصدر أوامر غريبة متناقضة ، وكان أقل إهمال يعرض صاحبه لعقوبة الموت ، وتطور هذا الشذوذ العقلي مع الزمن إلى حب لسفك الدماء، فأعدم دونما سبب عدداً من الرجال البارزين ، ومع ذلك فقد كان في ساعات صفائه سخياً سمحاً في تشجيع العلوم ومحبة العلماء،وبنى كثيراً من المساجد والكليات والمراصد في الشام ومصر .

وظل الحاكم متربعاً على عرش آبائه على هذا النحو طيلة خمس وعشرين سنة ، ولكن القدر أدركه في النهايـة . كان مولعاً بالعزلة معتاداً على الطواف في الليل ، وكان يقصد غالباً إلى بيت متوحد على جبل المقطم

اما لبرصد النجوم كما يقول ابن خلدون ، أو للوحدة والتنسك .

وفي ليلة السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ شباط « فبراير » ١٠٢١م) ، قصد إلى الجبل كعادته مع خادمين له،ولكنه أذن لهما بالانصراف عند سفح الجبل وسار حتى توغل في شعب المقطم ولم يعد من تلك الزيارة الأخيرة أبداً . وقد أحدث غيابه الطويل قلقاً وهلعاً ، وارسلت فرقة استطلاعية للبحث عنه فلم يجدوه بل وجدوا حماره معرقباً في أعلى الجبل وعلى مقربة منه ثيابه وفيها آثار طعن الخناجر وكانت ما تزال مزرّرة ، ولكن جثته اختفت ولم يُعثر لها على أثر قط، ومهما يكن من أمر فالذي لا شك فيه أنه قتل غيلة .

ولقد كان الحاكم فعلاً المؤسس لمذهب جديد كان هو محوره ، فكان الناس من أتباعه يعتقدون بانبعاث الألوهية في شخصه ؛ وقد اعتقد أتباعه وتلاميذه بأنه اختفى مؤقتاً من الأرض ليظهر ثانية متى انتهى الزمن أو، كما قالوا : « متى أراد » . ولا يزال هـذا المذهب مذهبَ دروز لبنان .

وبعد وفاة الحاكم وُلي ابنه أبو هاشم عليّ ولُقب بالظاهر لاعزاز دين الله ، فظل تحت وصاية عمته « ست الملك » طيلة السنوات الأربع الأولى من ولايته ، وبعد وفاتها انتقلت شؤون الدولة إلى « ميزاد » و « نافر » ، وفي أيامها فقدت الدولة الفاطمية القسم الأعظم من بلاد الشام ، وأعلن أحد أمراء العرب ، واسمه « صالح بن مرداس » ، نفسه حاكماً على حلب والمناطق المجاورة لها .

وتوفي الظاهر في الخامس عشر من شعبان سنة ٤٢٧هـ حزيران «يونيو» ١٠٣٦م)،وكان عمره إحدى وثلاثين سنة ، وخلافته ست عشرة سنة، فخلفه ابنه « أبو تميم معد » ولقب بالمستنصر بالله،وكان عمره سبع سنين ،. ولذلك استولى على مقاليد الأمور عددٌ من المتآمرين أدى سوء ادارتهم بالدولة إلى الانحلال والخراب السريعين ، ففي سنة ١٠٤٧م خرجت

مكة والمدينة عن طاعة الخلفاء الفاطميين ، وبعد خمس سنوات خلع « المعز بن بادس » ، صاحب افريقية الملقب بشرف الدولة ، نير الفاطميين وأوقف قراءة الخطبة باسم المستنصر ، واعترف بخلافة «القائم» العباسي ، ولكن ثورة « البساسيري » وفرار القائم من بغداد أديا إلى تحوّل لصالح المستنصر فقرئت الخطبة طيلة سنة كاملة باسمه في العراق وملحقاته ، ولكن طغرل سريعاً ما أعاد سلطة الخليفة العباسي الروحي في آسية الغربية ، وفي عهد الب ارسلان،خليفة طغرل ، طرد السلاجقة الفاطميين إلى ما وراء العريش ، ومما زاد في الطين بلة ان قحطاً شديداً اجتاح مصر واستمر سبع سنين ، فانشلت الاداة الحكومية تماماً ، وهجر الناس الأرض فتحولت إلى خراب .

وفي قمة هذه المصائب استدعى المستنصر لنجدته « بدر الجمالي » ، حاكم عكا ، ومنحه السلطة الكاملة لادارة شؤون البلاد ، فأثبت بدر جدارته وحنكته ، وأعاد الأمن إلى نصابه في المملكة ، وأنقذ الناس ، وأعاد سلطان الخليفة في مصر كلها ، ومع أنه اخفق في محاولاته لاسترداد دمشق ، فقد نجح في الاستيلاء ثانية على مدن الساحل الفينيقي . وتوفي بدر الجمالي في سنة ١٠٩٤ م ، وتبعه بعد شهر واحد سيده المستنصر ، الذي لقي في حياته من المحن والشدائد « بحيث لم يبق لديه ذات يوم إلا سجادة الصلاة التي كان يجلس عليها » وكانت وفاته في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من سنة ٤٨٧ هـ (٦ كانون الثاني « يناير » سنة ١٠٩٥ م) .

وكان المستنصر قد أوصى بولاية العهد لابنه الأكبر نزار[١] ، ولكن « الأفضل بن بدر الجمالي » الذي كان قد خلف أباه في منصبه ، ولّى

---

١ ـ يقول ابن الاثير : « ان الحسن بن الصباح ، رئيس الطائفة الاسماعيلية ، قصد المستنصر في زي تاجر وخاطبه في اقامة الدعوة له ببلاد العجم ، وقال للمستنصر : من إمامي بعدك ؟ فقال ابني نزار ، وهو اكبر اولاده ، والاسماعيلية الى يومنا هذا يقولون امته » .

على العرش أخا نزار الأصغر ، واسمه « أبو القاسم أحمد» ،ولقبه بالمستعلي بالله ، وعندئذ فرّ نزار إلى حاكم الاسكندرية فبايعه هذا بالخلافة .

غير أن الأفضل سار اليهما وهزمهما وأخذهما أسيرين ، ثم أعدم حاكم المدينة على مرأى من الناس ، ولم يعرف أحدٌ مصير نزار[1] . وفي سنة ١٠٩٦ استولى الأفضل ثانية على القدس التي كانت في أيدي « بني ارتق » في أيام ملك دمشق السلجوقي ، ولكنه لم يحتفظ بها طويلاً ، ذلك أن الريح الصليبية لم تلبث أن عصفت بالشام وفلسطين واكتسحت السلاجقة والفاطميين معاً .

وتوفي المستعلي في ١٦ صفر سنة ٤٩٥ هـ (كانون الأول «ديسمبر» ١١٠١ م) ، وعندئذ ولّى الأفضل ، حاكم المملكة الفاطمية الفعلي ، على العرش ابن الخليفة المتوفى أبا علي المنصور ولقبه بـ « الآمر بأحكام الله » وكان الآمر ما يزال طفلاً فحكم الأفضل الامبراطورية حكماً مطلقاً حتى بلغ الآمر بأحكام الله سن الرشد،ويبدو ان عهد الأفضل كان عهد رخاء وازدهار . وبالرغم من بعض الانتصارات التي أحرزها المصريون على يدي ابن الأفضل الملقب بشرف المعالي ، على الصليبيين، فقد سقطت المدن الواقعة على الشاطىء الفينيقي ، والتي كان بدر الجمالي قد استولى عليها من جديد قبل ذلك بفترة قصيرة ، في أيدي الصليبيين واحدة بعد أخرى .

وعندما بلغ الآمر بأحكام الله سن الرشد سلك سلوكاً فاضحاً وأثبت انه كان شاباً منهمكاً في اللهو والملذات الدنيئة ؛ مستبداً مستعلياً طائشاً. ولما كان خاضعاً لسلطان وزيره الذي كان يجمع في شخصه السلطة كلها فقد حاول التخلص منه فأمر بقتله ، ولكنه لقي المصير ذاته بعد تسع

---

١ ـ يقول البعض انه اغتيل سرا ، بينما يعتقد الاسماعيليون الشرقيون انه فر الى اسية وأصبح الجد الاصلي لائمة الاسماعيلية في الموت .

سنوات ، وكان ذلك على أيدي عدد من الفدائيين[1] (الحشاشين) الذين تآمروا على اغتياله .

وإذ كانت زوج الآمر على وشك الوضع فقد أخذ ابن عمه أبي الميمون عبد المجيد على عاتقه الوصاية ولقب بالحافظ لدين الله ، وكان ذلك بصورة مؤقتة إلى أن يولد وريث للعرش . وقد حدث ان زوجة الآمر وضعت طفلة ، ولذلك أعلن الحافظ نفسه خليفة وإماماً للفاطميين . وبعد أن بايعه الناس بالخلافة بوقت قصير خلعه الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل وحجر عليه ، وكان ابن الأفضل رجلاً محنكاً عالي الهمة كثير المطامح ، وكان من شيعة الأئمة الاثني عشرية . فلأجل تحقيق خططه الرامية إلى ان يصبح سيد مصر المطلق من جهة ،ومتأثراً بأغراضه الطائفية من جهة أخرى ، استبدل باسم الخليفة الفاطمي اسم الإمام الأخير ، ذلك الطفل السيء الطالع الذي اختفى في أحد سراديب سامراء ، على السكة وفي الخطبة ، واستمر ذلك فترة من الزمن ، ولكن الحافظ دبّر وهو في سجنه اغتيال الوزير ،وفي الخامس عشر من شهر محرم ٥٢٦ ﻫ (كانون الأول « ديسمبر » ١١٣١م) هوجم الوزير وقتل في « البستان الكبير » خارج العاصمة .

وبعد مقتل أبي علي أحمد عاد الحافظ إلى العرش ، ولكن عودته لم تكن ذات فائدة للدولة ، ذلك انه كان لا يملك أيما قدر من قوة الشخصية ، ولذلك أضحى أداة طيعة في يد وزيره أمير الجيوش « يانس الحفيظي » ، وكان « رجلاً مخيفاً كثير الشر » ، ولو انه بعيد النظر . ويقال ان يانس قد اغتيل بتحريض من الحافظ في شهر ذي الحجة من سنة ٥٢٦ﻫ فعيّن الحافظ عندئذ رجلاً أرمنياً يدعى « بهرام » وزيراً له . وقد أدى التنافس بين « بهرام » هذا وبين « رضوان » ، أحد كبار أمناء سر

---

١ ـ يسميهم ابن الاثير بالباطنيين .

الدولة ، إلى اغراق البلاد في الفتن والاضطرابات، فأمر الحافظ بالقبض على بهرام وزج به في السجن واستوزر رضوان ، ولم يلبث هذا ان ثار على مليكه ولكنه لقي حتفه في معركة دارت بينه وبين جنوده . وبسبب من سلوك هذين الرجلين صمم الحافظ على الابقاء على جميع السلطات في يديه هو شخصياً دون أن يستوزر أحداً في المستقبل ، واستمر على تلك الحال حتى وفاته في الخامس من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ﻫ (١٠ تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١١٤٩م) .

وفي أواخر عهد الحافظ حفلت عاصمته بالاضطرابات والفتن ، ويقول ابن الأثير ان الحافظ كان طيلة حكمه واقعاً تحت نفوذ بطانته،ووزرائه بصورة خاصة .

وقد خلف الحافظ ابنه أبو منصور اسماعيل فلُقب بالظافر بأمر الله، وكان مستسلماً لجميع ضروب اللهو والملذات يقضي أوقاته مع الندماء والخلان ، ولذلك لم يكن له أيما شأن في الدولة ، وكانت مقاليد الأمور كلها في يد وزيره أبي الحسن علي الملقب بالملك العادل الذي اغتاله ربيبه (ابن زوجه) عباس سنة ١١٥٣ وتولى الوزارة من بعده . ويصف ابن الأثير الخلفاء المصريين في ذلك الوقت بقوله : « كانت الوزارة لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين ، وقلّ ان وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » . ولم تكن سلطة الخليفة لتمتد خارج حدود قصره ، وتنبأت الثورات والمنافسات والمؤامرات والفوضى التي حوّلت القاهرة إلى ميدان للتناحر بين مختلف الشيع بقرب انحلال الخلافة،وكان المصريون حتى ذلك الحين قد تمكنوا من الاحتفاظ بعسقلان ، ولكن الخلافات والفتن التي نشبت في مصر عند مقتل الملك العادل مكّنت الصليبيين من إخضاع تلك المدينة المهمة واحتلالها .

وفي شهر محرم من سنة ٥٤٩ﻫ (نيسان « ابريل » سنة ١١٥٤م)

اغتال نصر بن عباس الخليفة الظافر، ولكي يبعد الشك عن نفسه والشبهة عن ابنه أقدم الوزير الخائن على الفتك بأخوي الظافر ، جبريل ويوسف، متهماً اياهما ظلماً وكذباً باغتيال الخليفة ، ثم ولى على العرش القاسم بن عيسى ، ولدَ الظافر الطفل ، ولقبه بالفائز بنصر الله ، وحاول ان يحكم المملكة بوصفه سيّدها المطلق، ولكنه لم يلبث ان لقي جزاءه على جريمته، ذلك أن اخوات الظافر سرعان ما اكتشفن الحقيقة ، فقطعن شعورهن وأرسلنها في كتاب الى « طلائع بن رزيك » ، حاكم مصر العليا ، طالبات مساعدته على الانتقام لمقتل الحافظ ، فزحف طلائع على القاهرة بجيش لجب من الجنود والعرب الرحل بأعلام وثياب سوداء حداداً على الظافر ، وعندئذ هجر الجيش العباس وابنه نصراً ففرا بثروتهما الى الشام وصحبهما الأمير اسامة وأتباع كثيرون . وكانت أخوات الظافر ، في تلك الأثناء ، قد كتبن إلى الصليبيين في عسقلان وعرضن عليهم أموالاً كثيرة إذا هم قبضوا على العباس وابنه ، فاغترّ الفرنج بالمكافأة الموعودة وخرجوا من القلعة لملاقاة الفارين ، ودارت بين الفريقين معركة أسفرت عن مقتل العباس وعدد من أتباعه وعن أسر نصر . ثم وضع الفرنج نصراً في قفص حديدي وأرسلوه إلى القاهرة حيث عُذب عذاباً شديداً ثم صُلب . وعندئذ تولى طلائع الوزارة ولُقب بالملك الصالح وتولى أمر الخليفة الطفل .

وتوفي الفائز في السابع عشر من شهر رجب سنة ٥٥٥ هـ (تموز « يوليو » سنة ١١٦٠ م) ، قبل أن يبلغ سن الرشد ، إلا أن الوزير الملك الصالح ، بدلاً من أن يولي الخلافة أياً من أفراد الاسرة المالكة الراشدين ، وكانوا كثيري العدد قادرين على تولي أمورها ، اختار الطفل ابن يوسف ، أخا الظافر ، وبايعه بالخلافة . وكان الطفل يدعى أبا محمد عبدالله علي ، ولقبه الوزير بالعاضد لدين الله ، واستمر الملك الصالح في ممارسة السلطة المطلقة وكان سلوكه يزداد عنفاً مع الزمن حتى بلغ

ذروته ، ولم يلبث أن اغتيل نتيجة لمؤامرة دبرت في القصر كما يروي ابن خلدون ، أو على يد أحد الباطنية كما يقول المقريزي، سنة ١١٦١م ، فخلفه ابنه «رزيك» ولقب بالملك العادل ، ولكنه سرعان ما حل محله شاور السعدي الذي خُلع على يدي ضرغام من مناذرة الحيرة القديمة وصاحب الباب ، وكان منصباً شبيهاً بمنصب الحاجب في البلاط العباسي . وفرّ شاور الى نور الدين محمود في دمشق ثم عاد على رأس جيش أوفده ابن زنكي فقتل ضرغام في معركة دارت بين جنوده وبين جنود الشام وعاد شاور مرة أخرى الى منصب الوزارة ، أما بقية قصة الفاطميين فقد أتينا على ذكرها فيما سبق .

وتوفي العاضد في الثاني عشر من شهر محرم سنة ٥٦٧هـ (أيلول «سبتمبر» سنة ١١٧١م)، وبوفاته انتهت الدولة التي أسسها عبيدالله المهدي.

وضع جوهر أساس القاهرة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٣٥٩ هـ (١٤ أيار « مايو » سنة ٩٦٩ م) وانجز بناء أسوارها قبل وصول الخليفة المعز ، وسريعاً ما ارتفعت الأبنية الضخمة في كل ناحية ، خالعة على « المدينة القاهرة » منظراً رائعاً يخلب الألباب ، وانشئت فيها الطرق والشوارع العديدة ، فأما الطرق ، وكانت تؤدي الى الضواحي ، فكانت تدعى الحارات ، وأما الشوارع فكانت تنتهي على ما يظهر عند الأسوار وتدعى الأخطاط . أما قصر الخليفة الرئيسي ، فكان يتألف من اثني عشر بهواً ، وكان يقع في الجزء الشرقي من القاهرة ، كما كان يسمى بالقصر الكبير الشرقي أو القصر المعزّي . وكان لهذا القصر عشرة أبواب ، ويقوم على حراسته فرقة مختارة من الحرس تتألف من ألف وخمسمئة جندي وعدد مماثل من الفرسان ، كما كان اثنا عشر ألفاً من الخدم يقومون بخدمة أهل القصر . وكان هناك نفق تحت الأرض يُوصل إلى قصر عظيم آخر على الضفة الأخرى من النهر يدعى القصر الغربي أو قصر البحر ، كما كان للخليفة قصور ودور أخرى في الضواحي والمدينة نفسها قام بزخرفتها أمهر فناني ذلك العصر .

أما قصور الأمراء فكانت تضارع قصور الخلفاء في أبهتها وروعتها ، ولو أنها كانت تقل عنها حجماً واتساعاً . وكانت الحدائق الجميلة تحيط بمنازل الأغنياء والوجهاء ، والذي يبدو أن كثرة الحدائق وضخامة المنازل وفخامتها قد أدهشت السياح الذين كانوا يقدمون من أورُوبة لزيارة مصر حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، ذلك أن المساجد والكليات والمستشفيات والخانات الضخمة كانت تزين المدينة ، كما كانت المساجد الجامعة الكبرى الأربعة فخمة وجميلة بنوع خاص . وكان من أهم ما تميزت به القاهرة في عهد الفاطميين « الحسينية » ، وهو بناءٌ كان الفاطميون يقيمون فيه كل عام ذكرى مقتل الشهيد الحسين في موقعة كربلاء . وكان في المدينة أعداد كبيرة من الحمامات العامة الجميلة المنتشرة في كل جزء منها ، بعضها للرجال وبعضها للنساء ، وكان من السهل تمييز حمامات النساء من حمامات الرجال من طريق زخرفة البناء . أما الأسواق التي كانت تضم عشرين ألف حانوت فكانت في غاية الروعة مكدّسة بمختلف البضائع من أنحاء العالم ، وكان يحيط بالمدينة سورٌ متين له أبواب عدة .

وكانت الادارة تسير على النحو العباسي ، ولو أن بعض المناصب كانت تسمى بأسماء مختلفة . وكان أهم فرق بين نظامي الحكم ذلك النفوذ الطاغي الذي كان يملكه في مصر قائد الجيش الذي كان يجمع في شخصه منصب الوزارة الى جانب قيادة الجيوش العامة ، والذي كان يطغى على شخصية الخليفة في عهود الخلفاء الضعاف . ولكن قواد الجيوش كانوا في عهود الخلفاء العشرة الأولين يمارسون مهام منصبهم العادية ، إلى أن بدأ اضمحلال الدولة الفاطمية في عهد المستنصر ، اذ حلت المؤامرات محل سياسة الدولة ، وأصبحت الأخلاق غير ذات اعتبار ، وأضحت « الخدمات السياسية » هي التي تفتح أمام المرء أبواب الترقي الى المناصب العليا ، واستبدل المخبرون والجواسيس برجال العلم وطلابه ، والمتملقون

والطفيليون بالمستقيمين والأحرار والمخلصين ، ومنذ ذلك الحين حاول الحكام أن يتمسكوا بكراسي الحكم من طريق تفريق الشعب وبذر بذور الشقاق بين صفوفه وتقسيمه الى شيع وأحزاب ، ولكن محاولاتهم لم تعد عليهم إلا بأوخم العواقب .

دار الحكمة

كان الفاطميون الأولون ، شأن أوائل البطالسة القدماء ، من كبار مشجعي العلم والعلماء ، فقد أسسوا الكليات والمكتبات العامة والمؤسسات العلمية (دار الحكمة) ، وزودوها بسخاء بالكتب والأدوات الرياضية وعينوا لها عدداً عظيماً من الأساتذة . وكان الوصول الى هذه الكنوز الأدبية والعلمية واستعمالها مباحاً للجميع ، كما كانت الدولة تقدم أدوات الكتابة مجاناً ، وكثيراً ما كان الخلفاء يعقدون المناظرات العلمية التي كان يشترك فيها الأساتذة في مختلف الفروع العلمية كالمنطق والرياضيات والفقه والطب مرتدين الخلعة أو اللباس الجامعي[1] . وقد خصص للكليات مئتان وخمسة وسبعون دوكاً كانت تُجمع من ضرائب فرضت بعناية كلية وتستخدم في دفع مرتبات الأساتذة والموظفين وتوفير وسائل التعليم وغير ذلك من أغراض التعليم العلمي العام . في هذه المعاهد كانوا يعلمون كل فرع من فروع المعرفة الانسانية ، وشيدت المراصد في أماكن مختلفة لدراسة علم الفلك ، ودُعي رجال الأدب والعلم من آسية واسبانية كيما يخلعوا الرونق والبهاء على عهود هؤلاء الفراعنة المسلمين .

والحق اننا لا نستطيع ان نوفي تاريخ الفاطميين حقه إلا إذا تحدثنا قليلاً عن الدعاية غير العادية التي وضعوا أسسها ، ذلك انهم مع رغبتهم في نشر المعرفة بين رعاياهم لم ينسوا الفوائد السياسية التي تنجم عن الحصول على الاتباع لمذهبهم ، فألحقوا بدار الحكمة « المحفل الأكبر »

١ ـ ما تزال البسة الجامعات الانكليزية تحتفظ بالشكل الاصلي للخلعة العربية .

حيث كان المرشحون للدخول في المذهب الاسماعيلي يتلقون سره . وكان المحفل يعقد اجتماعاته مرتين في الاسبوع ، يومي الاثنين والاربعاء ، برئاسة (داعي الدعاة) ويحضرها الرجال والنساء مرتديات الملابس البيضاء وجالسات عـلى مقاعد مستقلة . وكانت هذه الاجتماعات تسمى مجالس الحكمة ، « وكان داعي الدعاة يلقي الدروس الخاصة على الراغبين بعد مراجعة الخليفة وموافقته ، فاذا ما انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي فيمسح رؤوسهم بعلامة الخليفة » . والواقع ان محفل القاهرة هذا قد أصبح النموذج الذي انشئت على نمطه المحافل في العـالم المسيحي فيما بعد .

ولقد انتهت دار الحكمة كأداة سياسية بانتهاء الدولة الفاطميـة التي كانت سبب وجودها ، غير أن حبها العلم والتعلم قد ظل يسطع في المدن المصرية الى ان انطفأ في غمار الفوضى التي عرفتها البلاد في عهد المماليك، بينما دامت روحها السرية عبر العصور ، وما زالت تجد تعبيرها في بلدان وطوائف يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في الفطرة والعبقرية .

انتهى

فهرست

صفحة

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

١ — ١٠هـ ، ٦٢٢ — ٦٣٢م

الفصل الرابع

الجمهورية

١١ — ٢٣هـ ، ٦٣٢ — ٦٤٤م

الفصل الخامس

الجمهورية (تتمة)

٢٤ — ٤٠هـ ، ٦٤٤ — ٦٦١م

الفصل السادس

الفصل السابع

الأمويون

٤٠ — ٦٤هـ ، ٦٦١ — ٦٨٣م

الفصل الثامن

بنو أمية (الفرع الحكمي)

٦٤ — ٨٦هـ ، ٦٨٣ — ٧٠٥م

الفصل التاسع

بنو أمية (الفرع الحكمي) (تتمة)

٨٦ — ٩٦هـ ، ٧٠٥ — ٧١٥م

الفصل العاشر

بنو أمية (الفرع الحكمي) (تتمة)

٩٦ — ١٠٥هـ ، ٧١٥ — ٧٢٤م

الفصل الخامس عشر

العباسيون

١٣٢ – ١٥٨ هـ ، ٧٤٩ – ٧٥٧ م

السفاح والمنصور

الفصل السادس عشر

العباسيون (تتمة)

١٥٨ – ١٧٠ هـ ، ٧٧٥ – ٧٨٦ م

الفصل السابع عشر

العباسيون (تتمة)

١٧٠ – ١٩٨ هـ ، ٧٨٦ – ٨١٤ م

الرشيد والمأمون

الفصل الثامن عشر

العباسيون (تتمة)

١٩٨ — ٢٣٢هـ ، ٨١٣ — ٨٤٧م

المأمون العظيم — المعتصم — الواثق

الفصل التاسع عشر

العباسيون (تابع)

٢٣٢ — ٤٥٤هـ ، ٨٤٧ — ١٦٠٣م

من المتوكل الى القائم